ميخائيل جورباتشوف

البيريسترويكا



تفكير جديد لبلادنا والعالم

دار الشروق

البيريسترويكا

الطبعة الأولى

يونيو ١٩٨٨

الطبعة الثانية

يوليو ١٩٨٨

الطبعة الثالثة

يناير ١٩٨٩

الطبعة الرابعة

يناير ١٩٩٠

القاهرة . ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق ـ تلكس . 93091 SHROK UN
بيروت • ص ب . ٨٠٦٤ ـ هاتف . ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
برقيا • داشروق ـ تلكس SHOROK 20175 LE

ميخائيل جورباتشوف

البيريسترويكا

تفكير جديد لبلادنا والعالم

ترجمة

حمدى عبد الجوّاد

مراجعة

محمّد المعلّم

دار الشروق

إلى القـــارئ

عند كتابة هذا الكتاب كانت تحدونى الرغبة فى أن أوجه كلامى مباشرة إلى شعوب الاتحاد السوفيتى ، والولايات المتحدة ، بل وكل البلدان فى الحقيقة .

لقد التقيت بقادة حكومات وغيرهم من قادة دول عديدة وبممثلى شعوبهم ، ولكن غرضى من هذا الكتاب هو التحدث دون وسطاء إلى مواطنى العالم بأسره عن أشياء تهمنا جميعا دون استثناء .

ولقد كتبت هذا الكتاب لأنى أومن بسلامة حسهم . وأنا على قناعة بأنهم ، مثلى ، قلقون على مستقبل كوكبنا . وهذا هو الأمر الأهم .

وعلينا أن نلتقى ونتناقش . علينا أن نحل المشاكل بروح التعاون بدلا من العداوة . وأنا أدرك جيدا أنه لن يتفق معى كل الناس . وكحقيقة فإنى لن أتفق مع مايقوله الآخرون حول مختلف المسائل . وهذا مايجعل الحوار هاما بدرجة أكبر . إن هذا الكتاب هو إسهامى فى الحوار .

وكتاب البيريسترويكا ليس بحثا علميا أو كتيب دعاية ، رغم أن الآراء والاستنتاجات والمواقف التحليلية التى سيجدها القارئ فيه ترتكز بالطبع على قيم محددة ومقدمات نظرية . إنه بالأحرى مجموعة من الأفكار والتأملات حول البيريسترويكا ، والمشاكل التى تواجهها ، ونطاق التغيرات التى تتضمنها ، وتعقد ، ومسئولية ، وتفرد عصرنا . قد تجنبت بالفعل حشو الكتاب بالحقائق ، والأرقام ، والتفاصيل . إنه كتاب عن خططنا وعن الطرق التى سننفذها بها ، وأكرر ، إنه دعوة إلى الحوار وقد كرست قسما كبيرا منه للتفكير السياسى الجديد ، لفلسفة سياستنا الخارجية . وإذا ما ساعد هذا الكتاب على تعزيز الثقة الدولية ، فسأعتبر أنه قد قام بدوره .

ما هى البيريسترويكا ، أو إعادة البناء ؟ ولماذا نحن فى حاجة إليها ؟ وماهو جوهرها وأهدافها ؟ وما الذى ترفضه وما الذى تخلقه ؟ وكيف تتقدم ؟ وماذا يمكن أن تكون نتائجها بالنسبة للاتحاد السوفيتى والمجتمع العالمى ؟

كل هذه أسئلة مشروعة يبحث الكثيرون عن أجوبة لها : السياسيون ، ورجال الأعمال ، الباحثون والصحفيون ، المدرسون ، والأطباء ، ورجال الدين ، والكتاب والطلبة ، والعمال والفلاحون . ويريد الكثيرون أن يفهموا مايحدث بالفعل فى الاتحاد السوفيتى ، وبخاصة وأن الصحافة والتليفزيون فى الغرب تجتاحها موجات من سوء النية تجاه بلادى .

وتشكل البيريسترويكا محور الحياة الفكرية لمجتمعنا الآن . وهذا أمر طبيعى ، لأنها تخص مستقبل هذا البلد . وتؤثر التغييرات التى تحدثها على الشعب السوفيتى ، وتتناول أكثر المسائل حيوية . وكل امرئ شغوف بأن يعرف نوع المجتمع الذى سنعيش فيه نحن ، وسيعيش فيه أطفالنا وأحفادنا .

وتبدى البلدان الاشتراكية الأخرى اهتماما حيا وطبيعيا بإعادة البناء السوفيتى . فهم كذلك يعيشون فترة صعبة وهامة للغاية من البحث فى تطورهم . ويستحدثون ويجربون طرق تشريع للنمو الاقتصادى والاجتماعى . ويرتبط النجاح فى ذلك بدرجة كبيرة بتفاعلنا ، وبمهامنا ومشاغلنا المشتركة .

وهكذا فإن الاهتمام الحالى ببلادنا أمر مفهوم ، وبخاصة إذا ماوضعنا فى الاعتبار مالها من تأثير فى شئون العالم .

وعندما وضعت كل ذلك فى الاعتبار ، وافقت على طلب الناشرين الأمريكيين بأن أكتب هذا الكتاب . فنحن نريد أن يفهمنا الناس . والاتحاد السوفيتى يعيش حقا فى فترة مفعمة بالحركة . ولقد قدم الحزب الشيوعى تحليلا انتقاديا للوضع الذى تطور بحلول منتصف الثمانينيات ، وصاغ سياسة البيريسترويكا هذه ، أو إعادة البناء ، سياسة تشريع تقدم البلاد الاجتماعى والاقتصادى وتجديد كل مناحى

الحياة . وتفهم الشعب السوفيتى هذه السياسة كما تقبلها . لقد بعثت البيريسترويكا الحيوية فى المجتمع بأسره . حقا ، إن بلادنا ضخمة . وقد تراكم العديد من المشاكل ، ولن يكون من السهل حلها . بيد أن التغيير قد بدأ ولا يمكن للمجتمع الآن أن يتراجع إلى الخلف .

وهناك تفسيرات مختلفة للبيريسترويكا فى الغرب ، بما فى ذلك فى الولايات المتحدة . هناك رأى يقول بأنها قد فرضتها الحالة المتدهورة للاقتصاد السوفيتى ، وأنها تعنى التحرر من الوهم بالنسبة للاشتراكية ، وأن ثمة أزمة بالنسبة لمثلها وأهدافها النهائية . ولا شىء يمكن أن يكون أبعد عن الحقيقة قدر هذه التفسيرات ، مهما كانت الدوافع التى خلفها .

لقد كان الدافع إلى البيريسترويكا بدرجة كبيرة بالطبع هو عدم رضانا عن الطريقة التى كانت تسير بها الأمور فى بلادنا فى السنوات الأخيرة . ولكن دفع إليها لدرجة كبيرة ، الوعى بأن طاقة الاشتراكية الكامنة لم يستفد منها كما يجب . ونحن ندرك ذلك بوضوح خاص الآن فى أيام الذكرى السبعين لثورتنا . إن لدينا أساسا ماديا سليما ، وثروة من الخبرات ، ونظرة عالمية عريضة نستطيع أن نحسن بها مجتمعنا بشكل هادف ومستمر . ساعين إلى كسب عائدات متزايدة دوما ــ من حيث الكم والكيف ــ من كل أوجه نشاطنا .

ويمكننى أن أقول من البداية إن البيريسترويكا قد برهنت على أنها أصعب مما تصورناها فى البداية . وكان علينا أن نعيد تقييم أشياء عديدة . ومع ذلك ، فمع كل خطوة إلى الأمام نزداد اقتناعا بأننا اخترنا الطريق الصحيح ونتصرف بشكل سليم .

ويقول بعض الناس : إن الأهداف الطموحة التى طرحتها سياسة البيريسترويكا فى بلادنا كانت وراء المقترحات السلمية التى تقدمنا بها أخيرا فى المجال الدولى . وهذه مبالغة فى تبسيط الأمور . فمن المعروف جيدا أن الاتحاد السوفيتى يعمل منذ فترة طويلة من أجل السلام والتعاون ، وقد تقدم بعديد من المقترحات ، التى لو

قبلت لأدت إلى تطبيع الوضع الدولى .

حقا ، إننا نحتاج إلى ظروف دولية طبيعية من أجل تقدمنا الداخلى . ولكننا نريد عالما متحررا من الحرب ، وبدون سباق تسلح ، وأسلحة نووية وعنف ، ليس فقط لأن هذا وضع أفضل لتطورنا الداخلى . إنه احتياج عالمى موضوعى ينشأ من وقائع أيامنا الحاضرة .

بيد أن تفكيرنا الجديد يسير إلى مدى أبعد . فالعالم لا يعيش فحسب فى جو التهديد النووى ، وإنما فى جو مشاكل اجتماعية هامة لم تحل ، وضغوط خلفها التقدم العلمى والتكنولوجى وتفاقم المشاكل العالمية . وتواجه البشرية اليوم مشاكل لم يسبق لها مثيل . وسيبقى المستقبل محفوفا بالخطر ما لم نجد حلولا مشتركة . وتعتمد كافة البلدان الآن على بعضها البعض أكثر من أى وقت مضى . كما أن تكديس الأسلحة ـ لاسيما الصواريخ النووية ـ يجعل من اندلاع حرب عالمية ، حتى وإن يكن دون قرار من أعلى أو بطريقة عفوية ، احتمالا يتزايد باستمرار ، ويمكن أن يحدث نتيجة خلل تكنيكى أو لقابلية الإنسان للخطأ . ومع ذلك فسوف تحل الكارثة بكل ماهو حى على ظهر الأرض .

ويبدو أن كل امرئ يوافق على أنه لن يكون هناك منتصر أو خاسر فى مثل هذه الحرب . ولن يكون هناك من يبقى حيا . إنه خطر مدمر بالنسبة للجميع .

ورغم أن أفق الموت فى حرب نووية هو بدون شك السيناريو الممكن والأكثر رعبا ، فإن المسألة أكثر من ذلك . إن سباق التسلح المتصاعد ، الذى تضاعفه الحقائق العسكرية والسياسية للعالم ، والرؤية التقليدية للتفكير السياسى السابق على العصر النووى ، يعوق التعاون بين البلدان والشعوب ، والذى لاغنى عنه ـ كما يرى الشرق والغرب ـ إذا ما أرادت بلدان العالم أن تحافظ على الطبيعة دون أذى ، وأن تضمن الاستخدام الرشيد لمواردها ، وإعادة إنتاجها ، وبالتالى أن تبقى بشكل يناسب البشر.

حقا ، إن العالم لم يعد على نفس الحالة التى كان عليها ، ولا يمكن حل مشاكله الجديدة على أساس التفكير الذى وصل إلينا من قرون سابقة . فهل بإمكاننا أن نتمسك بالرأى القائل بأن الحرب هى استمرار للسياسة بوسائل أخرى ؟ .

وباختصار ، فقد توصلنا فى القيادة السوفيتية إلى الاستنتاج القائل ـ ونحن نردده ـ بأن هناك حاجة إلى تفكير سياسى جديد . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن القادة السوفيت يسعون بقوة إلى ترجمة هذا التفكير الجديد إلى عمل ، وأساسا فى ميدان نزع السلاح . وهذا هو الدافع وراء مبادرات السياسة الخارجية التى قدمناها بأمانة إلى العالم .

وفيما يتعلق بنطاق التفكير التاريخى الجديد ، فإنه يشمل حقا كافة القضايا الأساسية لعصرنا .

ورغم كافة متناقضات عالم اليوم ، ورغم كل تنوع الأنظمة الاجتماعية والسياسية به ، ورغم كافة الخيارات المختلفة التى قامت بها البلدان فى مختلف الأزمنة ، فإن هذا العالم يعتبر مع ذلك كلا واحدا . ونحن جميعا ركاب على ظهر سفينة واحدة ، هى الأرض ، وعلينا ألا نسمح بأن تغرق . فلن تكون هناك سفينة نوح ثانية .

ينبغى للسياسة أن تستند إلى الحقائق . والحقيقة الأكثر هولا فى عالم اليوم هى الترسانات العسكرية الضخمة ، من كل من الأسلحة التقليدية والنووية للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وهذا مايلقى على بلدينا مسئولية خاصة حيال العالم بأسره . ووعيًا منا بهذه الحقيقة ، فإننا نسعى بحق إلى تحسين العلاقات السوفيتية الأمريكية ، ونحتفظ على الأقل بهذا الحد الأدنى من التفاهم المتبادل اللازم لحل المسألة الحاسمة لمستقبل العالم .

ونحن نقول صراحة : إننا نرفض المطامع الساعية إلى الهيمنة ، والادعاءات العالمية للولايات المتحدة . ونحن لا تروق لنا جوانب معينة فى السياسة وطريقة الحياة الأمريكية . ولكننا نحترم حق شعب الولايات المتحدة ، وكذلك حق أى شعب

آخر ، فى الحياة وفقا لقواعده وقوانينه ، وعاداته وأذواقه . ونحن نعرف ونأخذ فى الاعتبار الدور الكبير الذى تلعبه الولايات المتحدة فى العالم الحديث ، ونقدر إسهام الأمريكيين فى الحضارة العالمية ، ونحسب حسابا للمصالح المشروعة للولايات المتحدة ، وندرك أنه بدون هذا البلد يستحيل إزالة خطر الكارثة النووية ، وضمان سلم وطيد . وليست لدينا أية نوايا سيئة تجاه الشعب الأمريكى . ونحن راغبون ومستعدون للتعاون فى كافة المجالات .

ولكننا نريد أن نتعاون على أساس المساواة ، والتفاهم المتبادل والمعاملة بالمثل . فأحيانا لا يخيب أملنا فحسب ، بل تساورنا شكوك خطيرة عندما تعامل الولايات المتحدة بلدنا كمعتد ، «كإمبراطورية للشر» . وتروج كافة أشكال القصص المختلقة والمزيفة حولنا ، ويبدو العداء وعدم الثقة حيال شعبنا ، وتفرض كافة أنواع القيود بل المواقف غير المتحضرة حيالنا . وهذا قصر نظر لايمكن أن نسمح به .

إن الوقت ينقضى ولا يجب أن نضيعه . وعلينا أن نعمل . إذ لا يسمح لنا الوضع بأن ننتظر اللحظة الأفضل : إننا اليوم بحاجة إلى الحوار الواسع والبناء . وهذا هو مانقصده عندما ننظم صلات تليفزيونية بين المدن السوفيتية والأمريكية ، وبين السياسيين والشخصيات العامة السوفيتية والأمريكية ، وبين الأمريكيين العاديين والمواطنين السوفيت . وتعرض وسائل الإعلام لدينا كل منظور المواقف الغربية ، بما فى ذلك أكثرها محافظة . ونحن نشجع الصلات مع المدافعين عن النظرات والمعتقدات السياسية المختلفة . وبهذه الطريقة نعبر عن إدراكنا بأن هذا الأسلوب يساعدنا على التحرك نحو عالم مقبول للطرفين .

ونحن بعيدون عن أن نعتبر نظرتنا هى النظرة الوحيدة الصحيحة . وليست لدينا حلول شاملة ، ولكننا على استعداد للتعاون بإخلاص وأمانة مع الولايات المتحدة والبلدان الأخرى فى البحث عن أجوبة لكافة المشاكل حتى أكثرها صعوبة .

الباب الأول
البيريسترويكا

الفصل الأول

البيريسترويكا

أصولها، وجوهرها، وطابعها الثورى

ماهى البيريسترويكا ؟ وما الذى دعا إلى فكرة إعادة البناء ؟ وما الذى تعنيه فى تاريخ الاشتراكية ؟ وما الذى تبشر به شعوب الاتحاد السوفيتى ؟ وكيف يمكنها التأثير على العالم الخارجى ؟ كل هذه الأسئلة تشغل عامة الناس فى العالم وتجرى مناقشتها بالفعل ، ولنبدأ بالسؤال الأول

البيريسترويكا ـ ضرورة ملحة

عند دراسة أصول البيريسترويكا وجوهرها فى الاتحاد السوفيتى أعتقد أن شيئا واحدا يجب أن يؤخذ فى الاعتبار . فالبيريسترويكا ليست نزوة لدى بعض الأفراد الطموحين أو مجموعة من الزعماء . ولو كانت كذلك ، لما كان بمقدور النصائح ، أو الاجتماعات الكاملة ، أو مؤتمر الحزب أن يحشد الشعب فى العمل الذى يؤديه ويشارك فيه أبناء الشعب السوفيتى بشكل متزايد كل يوم .

إن البيريسترويكا ضرورة ملحة نشأت من عمليات التطور العميقة فى مجتمعنا الاشتراكى . فهذا المجتمع ناضج للتغيير ، ويتوق إليه منذ أمد طويل . وأى تأخير فى بدء البيريسترويكا كان بالإمكان أن يؤدى إلى تفاقم الوضع الداخلى فى المستقبل القريب . وهذا ماكان سيحمل فى طياته ، إذا ماتحدثنا بصراحة ، أزمات اجتماعية واقتصادية وسياسية خطيرة .

لقد خلصنا إلى هذه الاستنتاجات من تحليل عام وصريح للوضع الذى تطور إليه مجتمعنا بحلول منتصف الثمانينيات . وهذا الوضع وما نجم عنه من مشاكل ، يواجه حاليا قيادة البلاد التى ظهرت فيها بالتدريج عناصر جديدة فى السنوات القليلة الماضية . وأود أن أناقش هنا النتائج الأساسية لهذا التحليل ، الذى كان

علينا خلاله أن نعيد تُقييم أشياء عديدة ، ونعيد النظر فى تاريخنا القريب والبعيد نسبيا على السواء .

إن روسيا التى حدثت بها ثورة عظيمة[1] منذ سبعين عاما مضت ، بلد قديم ذو تاريخ فريد حافل بالابتكارات والإنجازات والأحداث الفاجعة . وقد قدمت للعالم كثيرا من الاكتشافات والشخصيات البارزة .

ومع ذلك ، فالاتحاد السوفيتى دولة فتية لامثيل لها فى التاريخ أو فى العالم الحديث . فخلال العقود السبعة الماضية ـ وهى فترة قصيرة فى تاريخ الحضارة البشريةُ اجتازت بلادنا تاريخا يعادل قرونا . وقامت واحدة من أقوى الدول فى العالم لتحل محل الامبراطورية الروسية المتخلفة ، شبه الإقطاعية وشبه المستعمرة . إن لدينا قوى إنتاج ضخمة، وقدرة فكرية جبارة ، وثقافة رفيعة ، ومجتمعا فريدا يضم مايزيد على مائة أمة وقومية ، ورعاية اجتماعية راسخة لـ ٢٨٠ مليونا من البشر فوق منطقة تشكل سدس الكرة الأرضية ـ وهذه هى منجزاتنا التى لاتمارى والتى يفخر بها الشعب السوفيتى عن حق .

وأنا لا أقول هذا كى تبدو بلادى أفضل مما كانت عليه أو مما هى عليه . ولا أريد أن أبدو كالمدافع الذى ينظر إلى « ما يخصه » على أنه الأفضل والأرقى دون شك . إن ماسبق أن قلته هو الواقع الفعلى ، والحقيقة الأكيدة ، والنتاج الواضح لعمل أجيال عديدة من شعبنا . ومن الواضح بالمثل أن تقدم بلادنا غدا ممكنا فقط ، بفضل الثورة ، وهو نتاج للثورة . إنه ثمرة الاشتراكية ، باعتبارها النظام الاجتماعى الجديد ، ونتيجة الخيار التاريخى لشعبنا . إنه يستند إلى مآثر آبائنا وأجدادنا وملايين الشعب العامل ـ من العمال والفلاحين والمثقفين ـ الذين أخذوا

---

(١) بدأت الثورة فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٧ وفقا للتقويم اليوليوسى الذى استخدم فى روسيا حتى فبراير ١٩١٨ . وكان متأخرا ثلاثة عشر يوما عن التقويم الجريجورى المعمول به بشكل عام . ولهذا السبب فإننا نحتفل بذكرى الثورة يوم ٧ نوفمبر.

على عاتقهم منذ سبعين عاما مضت المسئولية المباشرة عن مستقبل بلادهم .

وبودى أن يتدبر القارئ كل هذا : وإلا فسيكون من الصعب عليه أن يرى ما حدث وما يحدث فى مجتمعنا . وسوف أعود إلى الجوانب التاريخية لتطورنا فيما بعد . ولكن لنوضح أولا الوضع المعقد ـ لحد ما ـ الذى تطور فى البلاد بحلول الثمانينيات والذى جعل البيريسترويكا مسألة ضرورية حتمية .

فى مرحلة معينة ـ وهو ما أصبح واضحا على وجه الخصوص فى النصف الأخير من السبعينيات ـ حدث شيء ما لاتفسير له لأول وهلة . لقد بدأت البلاد تفقد قوة اندفاعها . وتكرر الاخفاق الاقتصادى بدرجة أكبر . وبدأت الصعوبات تتراكم وتتدهور ، والمشاكل التى لاتجد حلا تتضاعف . وبدأت تظهر فى حياة مجتمعنا عناصر ما نسميه بالركود وظواهر أخرى غريبة على الاشتراكية . وتشكل نوع من «الدولاب الكابح» الذى يؤثر على تنميتنا الاجتماعية والاقتصادية . وحدث كل هذا فى وقت أتاحت فيه الثورة العلمية والتكنولوجية آفاقا جديدة للتقدم الاقتصادى والاجتماعى .

كان هناك شيء غريب يحدث : فالحدافة الضخمة لآلة قوية كانت تدور ، إما فى الوقت الذى كان فيه نقل الحركة منها إلى أماكن العمل يتبدد أو فى الوقت الذى كانت فيه سيور الحركة مرتخية للغاية .

وعند تحليل الوضع ، اكتشفنا فى البداية تباطؤا فى النمو الاقتصادى . ففى الخمسة عشر عاما الأخيرة تدهورت معدلات نمو الدخل القومى لأكثر من النصف وبحلول بداية الثمانينيات انخفضت إلى مستوى قريب من الركود الاقتصادى . لقد بدأ البلد ، الذى كان يوما ما يلحق بسرعة ببلدان العالم المتقدمة ، يفقد موقعا بعد آخر . وبالإضافة إلى ذلك ، بدأت تتسع ، وفى غير صالحنا ، الفجوة فى كفاءة الإنتاج ، وجودة المنتجات ، والتطور العلمى والتكنولوجى ، وإنتاج التكنولوجيا المتقدمة واستخدام التقنيات المتقدمة .

وأصبحت حركة اندفاع الناتج الإجمالى ، وبخاصة فى الصناعات الثقيلة ، ذات أولوية قصوى ، ومجرد غاية فى ذاتها . وحدث نفس الشىء فى البناء الأساسى ، حيث أصبح قسم له وزنه من الثروة القومية رأسمالا عاطلا . وكانت هناك مشاريع مكلفة لم تبلغ أبدا أعلى المستويات العلمية والتكنولوجية . واعتبر العامل أو المؤسسة التى أنفقت أكبر قدر من العمل والمواد والأموال ، أفضلها جميعا . ومن طبيعة الأمور أن يحاول المنتج « إرضاء » المستهلك ، إذا ماسمح لى بأن أضع الأمر بهذه الصورة . غير أن المستهلك وجد نفسه ، فى حالتنا ، تحت رحمة المنتج تماما ، وكان عليه أن يرضى بما اختار الأخير أن يقدمه له . وكان ذلك مرة أخرى نتيجة لحركة اندفاع الناتج الإجمالى .

وأصبح شيئا مميزا للعديد من مديرينا الاقتصاديين ، أن يفكروا لا فى كيفية زيادة الأصول القومية ، وإنما فى كيفية وضع مزيد من المواد ، والعمل ، ووقت العمل فى سلعة ما كى يبيعوها بسعر أعلى . وبالتالى فقد كان هناك نقص فى السلع بالنسبة لكل « الناتج الإجمالى » لقد أنفقنا وما نزال ننفق فى الحقيقة ، مواد خام وطاقة وموارد أخرى بالنسبة للوحدة من الناتج أكثر بكثير مما تنفقه البلدان المتطورة الأخرى . إن ثروة بلادنا بمفهوم الموارد الطبيعية وقوة العمل قد أفسدتنا . ويمكن حتى القول بأنها قد أصابتنا بالعفن . وهذا ، فى الحقيقة ، السبب الرئيسى فى أنه كان بإمكان بلادنا أن تتطور على نطاق واسع لعقود .

وحيث أننا تعودنا إعطاء الأولوية للنمو الكمى فى الإنتاج ، فقد حاولنا أن نوقف هبوط معدلات النمو ، ولكننا فعلنا ذلك أساسا عن طريق مواصلة زيادة النفقات : فقمنا بتعزيز صناعتى الوقود والطاقة وزدنا من استخدام الموارد الطبيعية فى الإنتاج .

ومع مرور الوقت ، أصبح من الصعوبة بمكان الحصول على الموارد الطبيعية وغدت أكثر تكلفة . ومن ناحية أخرى ، نتج عن الأساليب المحسنة للتوسع فى

الأصول الثابتة نقص مصطنع فى القوى العاملة . وفى محاولة لإصلاح الوضع بشكل ما ، بدأ دفع مكافآت كبيرة ، لا مبرر لها ، أى ، غير مكتسبة فى الحقيقة ، وأدخلت كافة أنواع الحوافز غير المستحقة تحت ضغط هذا النقص ، مما أدى فى مرحلة لاحقة ، إلى أسلوب التقارير المنمقة لمجرد الكسب . وزادت المواقف الطفيلية ، وبدأت مكانة العمل الواعى العالى النوعية تتراجع ، وغدت عقلية « المساواة فى الأجور » منتشرة . ولم يؤد انعدام التوازن بين حجم العمل وحجم الاستهلاك ، الذى أصبح كمسمار عجلة الدولاب الكابح ، إلى إعاقة نمو انتاجية العمل فحسب ، بل أدى أيضا إلى تشويه مبدأ العدالة الاجتماعية .

وهكذا كان القصور الذاتى للتنمية الاقتصادية الأفقية يقودنا إلى إخفاق وركود اقتصادى .

وكان الاقتصاد يواجه إرهاقا ماليا متزايدا . ولم يساعد بيع كميات كبيرة من النفط وغيره من موارد الوقود والطاقة والمواد الخام فى السوق العالمية إلى التحسن ، بل أدى إلى تفاقم الوضع فقط . واستخدمت الدخول النقدية التى تم الحصول عليها بهذه الطريقة لحل مشاكل الساعة أساسا بدلا من أن تستخدم للتحديث الاقتصادى كى نلحق بغيرنا تكنولوجيًّا .

وكان لابد لمعدلات النمو الهابطة والركود الاقتصادى من أن يؤثرا على جوانب حياة المجتمع السوفيتى الأخرى . وأثرت الاتجاهات السلبية بشكل خطير على المجال الاجتماعى وأدى إلى ظهور مايسمى « بمبدأ المتبقى » ، والذى تلقت على أساسه البرامج الاجتماعية والثقافية ما يتبقى فى الميزانية بعد مايخصص للإنتاج . وبدا فى بعض الاحيان أن « أذنا صماء » تعطى للمشاكل الاجتماعية . وبدأ المجال الاجتماعى يتخلف عن المجالات الأخرى من حيث التطور التكنولوجي ، والعاملين والخبرة ، ومن حيث ماهو أكثر أهمية وهو نوعية العمل .

ونحن نواجه هنا تناقضات أكبر ، لقد ضمن مجتمعنا عمالة كاملة ووفر ضمانات

اجتماعية أساسية ، ولكننا عجزنا فى نفس الوقت عن أن نستخدم على الوجه الأكمل قدرة الاشتراكية على تلبية الاحتياجات المتنامية فى الإسكان ، وفى نوعية وأحيانا كمية المواد الغذائية ، وفى التنظيم المناسب للعمل فى النقل ، وفى الخدمات الصحية ، وفى التعليم وفى حل المشاكل الأخرى ، التى نشأت بالطبع فى مجرى تطور المجتمع .

وكان هناك وضع سخيف يتطور ، فالاتحاد السوفيتى وهو أكبر منتج فى العالم للصلب ، والمواد الخام ، والوقود والطاقة ، يواجه نقصا فيها بسبب الاستخدام التبديدى أو غير الكفء . ورغم أنه من أكبر منتجى الحبوب للغذاء ، كان عليه أن يشترى ملايين أطنان الحبوب فى العام للعلف . ومع أن لدينا أكبر عدد من الأطباء ، ومن أسرة المستشفيات بالنسبة لكل ألف من السكان ، نجد نقصا صارخا فى خدماتنا الطبية . ويمكن لصواريخنا أن تصل إلى مذنب هالى وتطير إلى الزهرة بدقة مذهلة ، ولكن إلى جانب هذه الانتصارات العلمية والتكنولوجية نجد نقصا واضحا فى الكفاءة فى استخدام المنجزات العلمية للحاجات الاقتصادية ، كما أن كثيرا من الأجهزة المنزلية السوفيتية من نوع ردىء .

ولسوء الحظ ، فليس هذا كل مافى الأمر . فقد بدأ تدهور تدريجى فى القيم الأيديولوجية والمعنوية لشعبنا .

كان واضحا لكل امرئ أن معدلات النمو تنخفض بسرعة وأن كل دولاب مراقبة الجودة لايعمل بكيفية سليمة . وكان هناك تناقص فى الاستعداد لتلقى أحدث منجزات العلوم والتكنولوجيا ، وتباطؤ فى التحسن فى مستويات المعيشة ، وكانت هناك صعوبات فى توفير المواد الغذائية ، والإسكان ، والسلع الاستهلاكية والخدمات .

وعلى الصعيد الأيديولوجى كذلك ، أدى الدولاب الكابح إلى مقاومة متزايدة لمحاولات تفحص المشاكل الناشئة والأفكار الجديدة بشكل دقيق وبناء .

وكانت دعاية النجاح ـ الحقيق أو المدعى ـ تحظى باليد العليا . وجرى تشجيع المديح والخنوع ، وتجاهل احتياجات وآراء الناس العاديين ، والرأى العام فى مجموعة ، وشُجِّع التنظير المدرسى فى العلوم الاجتماعية وطُوِّر ، بينما استبعد التفكير الخلاق من العلوم الاجتماعية ، وأعلنت أحكام وتقييمات عفوية وسطحية على أنها حقائق لاتقبل الجدل . وأضعفت المناقشات العلمية والنظرية ، والتى لاغنى عنها لتطور الفكر والعمل الخلاق . وكذلك أثرت اتجاهات سلبية مماثلة على الثقافة ، والفنون والصحافة ، وأيضا على عملية التعليم والطب حيث ساد المستوى دون المتوسط ، والشكلية والمديح الصاخب أيضا .

وكان لتقديم الواقع « الخالى من المشاكل » آثاره العكسية : فقد حدث انفصال بين القول والعمل ، مما حفّز على السلبية العامة وعلى عدم تصديق الشعارات التى تعلن وكان من الطبيعى تماما أن يؤدى هذا الوضع إلى فجوة فى المصداقية ، وأصبح كل مايعلن من فوق المنابر ويطبع فى الصحف والكتب الدراسية مثار شك وتساؤل . وبدأ الفساد يسرى فى الأخلاقيات العامة ، والضعف يعرف طريقه إلى الشعور العظيم بالتضامن بين المواطنين والذى تشكل خلال أوقات الثورة البطولية ، والخطط الخمسية الأولى ، والحرب الوطنية العظمى ، وإعادة التعمير فيما بعد الحرب . وزاد إدمان الخمور والمخدرات والجرائم ، وتغلغلت القوالب الجامدة للثقافة الجماهيرية الغريبة علينا ، مما أدى إلى السوقية والأذواق الهابطة وزاد من الجدب الأيديولوجى .

وضعف توجيه الحزب ، وانعدمت المبادرة فى بعض العمليات الاجتماعية الحيوية . وأخذ كل فرد يلاحظ الركود بين القيادة وانتهاك العملية الطبيعية للتغيير فيها . وفى مرحلة معينة أدى ذلك إلى إضعاف أداء المكتب السياسى [٢]

(٢) المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى هو هيئة القيادة الجماعية للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى . ويجرى انتخابه فى اجتماع كامل للجنة المركزية لتوجيه عمل الحزب فيما بين الاجتماعات الكاملة للجنة المركزية .

وسكرتارية[٣] اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، والأداء الحكومى وكذلك الحال بالنسبة لكل من اللجنة المركزية وجهاز الحزب .

وغالبا ماحل العبث السياسى والتوزيع الواسع النطاق للجوائز ، والألقاب ، والمكافآت محل الاهتمام الحقيقى بالشعب ، وبظروفه المعيشية وظروف عمله ، وبخلق مناخ اجتماعى موات . ونشأ مناخ بأن «كل شىء على مايرام» . وفترت المطالبة بالانضباط والشعور بالمسئولية يوما بعد يوم وبذلت المحاولات لتغطية كل ذلك بحملات صاخبة ومشروعات طنانة واحتفالات بذكرى مناسبات عديدة على المستوى المركزى والمحلى . وكان عالم الواقع اليومى وعالم الرخاء الزائف يتباعدان أكثر فأكثر .

وعجز العديد من تنظيمات الحزب فى المناطق عن الدفاع عن المبادئ ، أو فى الهجوم بحزم على الاتجاهات الخاطئة ، وأسلوب تغطية البعض على البعض والتسيب فى الانضباط . وغالبا ماانتهكت مبادئ المساواة بين أعضاء الحزب وأصبح العديد من أعضاء الحزب فى المواقع القيادية فوق الرقابة والنقد ، مما أدى إلى الفشل فى العمل ، وإلى ممارسات خاطئة وخطيرة .

وظهر فى بعض المستويات الإدارية عدم احترام للقانون ، وتشجيع للكلام المضلل والرشوة ، والخنوع والتمجيد . وكانت الجماهير العاملة ساخطة بحق على سلوك الأشخاص الذين يحظون بالثقة والمسئولية ، ومع ذلك يسيئون استخدام السلطة ، ويقمعون النقد ، ويجمعون الثروات ، والذين تحولوا حتى إلى شركاء فى أعمال إجرامية ، إن لم يكونوا منظمين لها .

وإنصافا للحق ، ينبغى أن نقول إنه خلال تلك السنوات حلت كذلك

---

(٣) سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى هى جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى التى ينتخبها الاجتماع الكامل للجنة المركزية للإشراف على العمل اليومى للحزب ، وأساسا انتقاء الكوادر وتنظيم التحقق من انجاز القرارات المتخذة .

مسائل كثيرة ذات أهمية حيوية ، بطريقة أو بأخرى . ولكن ، كانت هذه المسائل أولا مجرد بضع مشاكل شدت الاهتمام منذ وقت طويل ، وثانيا ، حتى حيث اتخذت القرارات فقد نفذت جزئيا فقط ، أو لم تنفذ على الإطلاق . والأمر الأكثر دلالة أن أياً من هذه التدابير لم يكن شاملا ، ولم يتجاوز تأثيره بعض جوانب حياة المجتمع ، وترك الدولاب الكابح القائم دون مساس .

وبطبيعة الحال ، كانت تنظيمات الحزب تعمل ، وأدى غالبية الشيوعيين واجبهم نحو الشعب بإخلاص وتفان . ولكن ينبغى أن نعترف بأنه لم يكن هناك جهد فعال لسد الطريق أمام غير الأمناء ، والمحابين الذين يسعون وراء مصالحهم الخاصة . وبشكل عام ، فقد تخلفت الخطوات العملية التى اتخذتها هيئات الحزب والدولة عن متطلبات العصر وعن الحياة نفسها . وتراكمت المشاكل بسرعة أكثر مما كانت تحل . وبشكل عام ، فقد أصبح المجتمع بصورة متزايدة صعب القياد . واعتقدنا فقط أننا نمسك بزمام الأمور ، بينما كان الوضع الناشئ بالفعل شبيها بما حذرنا منه لينين : فلم تكن السيارة تتجه إلى حيث يعتقد من يجلس على عجلة القيادة .

ولاينبغى أن نطلى هذه الفترة بألوان داكنة فقط . فقد عملت الغالبية الساحقة من الشعب السوفيتى بأمانة . وواصل العلم والاقتصاد والثقافة التطور. ومع ذلك ، فقد كانت الظواهر السلبية مؤلمة ولايمكن السماح بها .

أعتقد أننى قلت مافيه الكفاية لتدركوا كم كان الوضع خطيرا وكم كان التغيير الشامل ملحا .

وقد وجد الحزب القوة والشجاعة لكى يقيم الوضع بدقة ويعترف بضرورة إجراء تغييرات وتحويلات أساسية .

وقادنا الموقف الأمين وغير المتحيز إلى الاستنتاج المنطقى الوحيد بأن البلاد على شفا أزمة. وقد أعلن هذا الاستنتاج فى اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل للجنة

المركزية ، الذى دشن استراتيجية البيريسترويكا الجديدة وصاغ مبادئها الأساسية .

وأود أن أؤكد هنا أن هذا التحليل بدأ منذ وقت طويل قبل اجتماع أبريل الكامل . وعلى ذلك فقد درست استنتاجاته بعناية . إنه لم يكن شيئا غير متوقع وإنما هو رأى متوازن . وسيكون من الخطأ الاعتقاد بأنه بعد شهر من الاجتماع الكامل للجنة المركزية فى مارس ١٩٨٥ ، والذى انتخبنى سكرتيرا عاما ، ظهرت فجأة مجموعة من الناس تفهم كل شىء وتعرف كل شىء ، وإن هؤلاء الناس قدموا إجابات حاسمة لكل المسائل . إن مثل هذه المعجزات ليس لها وجود .

كانت الحاجة إلى التغيير تختمر ليس فقط فى مجال الحياة المادى وإنما فى الوعى الشعبى كذلك . وانتقد الناس الذين يمتلكون خبرة عملية وإحساسا بالعدالة والتزاما بمثل البلشفية الأسلوب القائم للعمل ، وأشاروا بقلق إلى أعراض التدهور والضعف المعنوى للمثل الثورية والقيم الاشتراكية .

وبدأ العمال والفلاحون والمثقفون ، والمسئولون فى الحزب على المستوى المركزى والمحلى ، يفكرون فى أوضاع البلاد . وكان هناك إدراك متزايد بأن الأمور لا يمكن أن تسير على ماهى عليه لوقت أطول . وتفجرت الحيرة والسخط لأن القيم العظيمة التى ولدتها ثورة أكتوبر والنضال البطولى من أجل الاشتراكية قد وطئتها الأقدام .

ورأى كل الشرفاء بمرارة أن الناس يفقدون اهتمامهم بالشئون الاجتماعية ، وأن العمل لم تعد له مكانته المحترمة ، وأن الناس ، وبخاصة الشباب ، يجرون وراء الكسب بأى ثمن . لقد كان لدى شعبنا على الدوام قدرة حقيقية على تبين الفجوة بين الأقوال والأفعال . ولا غرابة فى أن الحكايات الشعبية الروسية مليئة بالسخرية من الناس الذين يحبون التباهى والمظاهر ، كما أن الأدب الذى لعب على الدوام دورا عظيما فى حياة بلادنا الروحية لايعرف رحمة إزاء كل مظاهر الظلم وسوء استخدام السلطة . وقد حاول الكتاب ، ومنتجو الأفلام ، ومخرجو المسرح

والممثلون، فى أفضل أعمالهم ، أن يدعموا إيمان الشعب بالمنجزات الأيديولوجية للاشتراكية ، ويأملوا فى انبعاث روحى للمجتمع ، وأعدوا الشعب معنويا للبيريسترويكا ، رغم القيود البيروقراطية بل والاضطهاد .

وعندما أقول كل ذلك فإنما أريد أجعل القارئ يدرك أن طاقة التغيير الثورى تتجمع بين شعبنا وفى الحزب منذ بعض الوقت . وأن أفكار البيريسترويكا لاتدفع إليها مجرد المصالح والاعتبارات البرجماتية ، وإنما يدفع إليها كذلك ضميرنا المعذب ، والتزامنا العنيد بالمثل التى ورثناها عن الثورة ، وكنتيجة للبحث النظرى الذى أعطانا معرفة أفضل بالمجتمع وعزز تصميمنا على السير إلى الأمام .

التوجه إلى لينين ، مصدر أيديولوجى للبيريسترويكا

إن الدافع الذى منح الحياة لثورتنا العظيمة كان قويا لدرجة لاتسمح لحزبنا وشعبنا بأن يقبلا الظواهر التى تهدد بتبديد مكاسبها . وبقيت أعمال لينين ومثله عن الاشتراكية ، بقيت بالنسبة لنا معينا لاينضب للفكر الإبداعى الجدلى ، والإثراء النظرى والحصانة السياسية . وكانت صورته نفسها مثالا لايخبو للقوة المعنوية النبيلة ، وللثقافة الروحية الشاملة ، وتكريس الذات لقضية الشعب وللاشتراكية . إن لينين يعيش فى عقول ملايين الناس وأفئدتها . وينمو الاهتمام بتراث لينين والتعطش إلى معرفته على نطاق أوسع فى كتاباته الأصلية مع تراكم الظواهر السلبية فى المجتمع .

والتوجه إلى لينين ، حفز الحزب والمجتمع إليه بدرجة كبيرة سعيهما للعثور على تفسيرات وإجابات عن الأسئلة التى طرحت . وجذبت مؤلفات لينين فى السنوات الأخيرة من حياته الاهتمام بشكل خاص . وسوف أسوق خبرتى الخاصة لإثبات ذلك ففى تقريرى بتاريخ ٢٢ أبريل ١٩٨٣ فى الاجتماع الجماهيرى المكرس للذكرى ١١٣ لميلاد لينين أشرت إلى معتقدات لينين حول الحاجة لأن نضع فى الاعتبار متطلبات

القوانين الاقتصادية ، حول التخطيط والحساب الاقتصادى[٤] ، والاستخدام الماهر للعلاقات السلعية ـ النقدية والحوافز المادية والمعنوية . وأيد المستمعون بحماس هذه الإشارة إلى أفكار لينين . وأحسست مرة أخرى ، أن أفكارى تتفق مع مشاعر زملائى أعضاء الحزب وكثير من الناس الذين تشغلهم مشاكلنا بشكل جاد ، والذين يريدون بإخلاص أن يصححوا الأوضاع . وفى الحقيقة ، فقد شعر الكثيرون من زملائى أعضاء الحزب بالحاجة الملحة إلى تجديد المجتمع ، إلى التغيير . ومع ذلك ينبغى أن أقول إننى شعرت كذلك بأن التقرير لم يرق للجميع ، وأنه لم يكن متفائلا بالقدر الذى تطلبه الوقت عند ذاك .

واليوم يوجد لدينا فهم أفضل لمؤلفات لينين الأخيرة ، التى كانت فى جوهرها وصيته السياسية ، وندرك بشكل أكثر وضوحا سبب ظهور هذه المؤلفات . فعندما اشتدت وطأة المرض على لينين كان شديد القلق على مستقبل الاشتراكية . وأدرك الأخطار التى تترصد النظام الجديد . وعلينا أيضا أن ندرك هذا القلق . لقد رأى أن الاشتراكية تواجه مشاكل هائلة ، وأن عليها أن تكافح بقدر كبير من أجل ماعجزت الثورة البرجوازية عن تحقيقه . ومن ثم استخدام أساليب لم تكن تبدو جوهرية بالنسبة للاشتراكية نفسها ، أو على الأقل ، اختلفت فى بعض الوجوه عن بعض الأفكار الكلاسيكية المقبولة بشكل عام للتطور الاشتراكى .

والفترة اللينينية على جانب كبير من الأهمية فى الحقيقة . وهى تعلمنا لأنها برهنت على قوة الجدل الماركسى اللينينى ، الذى تستند استنتاجاته على تحليل الوضع

---

(٤) الحساب الاقتصادى هو أسلوب لعمل أى مؤسسة فى إطار الخطة الاقتصادية القومية . إنه يستهدف مؤسسة تستخدم وسائل الإنتاج المملوكة ملكية عامة وتسدد كافة النفقات والمدفوعات لميزانية الدولة من الأرباح التى تحققها من بيع المنتجات . والأفكار العلمية والتكنولوجية ، والخدمات وما إلى ذلك ، ومع ذلك ، تمول الدولة برامج توسع وتحدث المؤسسات . ومن طريق الحساب الاقتصادى الكامل ـ الذى طبق عام ١٩٨٧ تمول المؤسسة كل نفقاتها بنفسها . وبذلك تخفض مدفوعاتها إلى ميزانية الدولة .

التاريخي الفعلي . لقد أدرك الكثيرون منا حتى قبل اجتماع أبريل الكامل بوقت طويل أنه يجب إعادة تقييم كل ما يتعلق بالاقتصاد ، والثقافة ، والديموقراطية والسياسة الخارجية وكافة المجالات . والشيء المهم أن نترجم ذلك إلى لغة الحياة اليومية العملية .

برنامج أعد بعناية ، وليس إعلانا طنانا

إن مفهوم إعادة البناء بكل مايتضمنه من مشاكل قد نشأ بالتدريج . وقبل اجتماع أبريل الكامل بدأت مجموعة من قادة الحزب والدولة تحليلا شاملا لحالة الاقتصاد . وأصبح تحليلهم بعد ذلك ، أساسا لوثائق البيريسترويكا . لقد صغنا الأفكار الأساسية ورسمنا سياسة بدأنا تنفيذها فيما بعد ، مستخدمين توصيات العلماء والخبراء ، وكل إمكانياتنا وأفضل ما أبدعه الفكر الاشتراكى .

وهكذا تراكمت ترسانة من الأفكار البناءة . وعلى ذلك ففى اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل توصلنا إلى اقتراح برنامج منسق ومدروس بعناية لابأس بها ، وإلى وضع استراتيجية محددة لمواصلة تطور البلاد وخطة للعمل . وكان من الواضح أن الترميم والترقيع التجميلي ليسا بكافيين ، وأن هناك حاجة إلى فحص دقيق شامل . كما لم يكن بالإمكان الانتظار ، فقد أضعنا كثيرا من الوقت كما حدث .

وكانت أول مسألة طرحت تتعلق بتحسين الوضع الاقتصادى ، ووقف الاتجاهات غير المواتية فى هذا المجال ومحاولة عكسها .

وكانت الأولوية العاجلة للغاية التى تطلعنا إليها بالطبع فى البداية ، أن نعيد تنسيق الاقتصاد بشكل ما ، وأن نشدد الانضباط ، وأن نرفع مستوى التنظيم والمسئولية ، وأن نلحق بغيرنا فى المجالات التى تخلفنا عنهم فيها . وتم القيام من أجل ذلك بعمل شاق ، ولايزال متواصلا ، وقد أعطى نتائجه الأولى كما كان متوقعا . وتوقفت معدلات النمو الاقتصادى عن التدهور ، بل إنها تبدى بعض أمارات التحسن .

وللتأكيد ، رأينا أن هذه الوسائل وحدها لن تضفى دينامية كبيرة على الاقتصاد ، وكان معروفا لنا أن الأولويات الرئيسية تكمن فى مكان آخر ـ فى إعادة متعمقة لتنظيم هيكلة الاقتصاد ، وفى إعادة بناء قاعدته المادية ، وفى تكنولوجيات جديدة ، وفى تغييرات فى سياسة الاستثمار ، وفى مستويات عالية من الإدارة. وكل هذا يعنى شيئا واحدا ـ تسريع التقدم العلمى والتكنولوجى .

وبالتأكيد لم يكن من قبيل الصدفة أن كان أول تحرك قامت به القيادة الجديدة للاتحاد السوفيتى بعد اجتماع أبريل الكامل هو مناقشة هذه الأمور فى اجتماع موسع (كونفرنس) هام للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى يونيو ١٩٨٥ . ولم تكن هذه المناقشة من النوع الذى اعتدناه لسنوات طويلة. فقد وجه فيها الكثير من الانتقادات ـ المريرة والمتحمسة . بيد أن الشىء الرئيسى الذى جرت مناقشته يتعلق بالطرق والوسائل الفعالة للانتقال إلى اقتصاديات مكثفة ، إلى نوعية جديدة من النمو الاقتصادى .

وخلال ذلك العام ، وضعت برامج شاملة هامة فى المجالات الجوهرية للعلم والتكنولوجيا . وهى ترمى إلى التوصل إلى تقدم هام والوصول إلى المستوى العالمى بحلول نهاية القرن .

وفى الواقع ، فإن لدينا الآن استثمارا وسياسة هيكلية جديدة . لقد تحول التركيز من البناء الجديد إلى إعادة التجهيز التكتيكى للمؤسسات ، وإلى توفير الموارد ، ورفع جودة المنتج بشكل جاد . وسنواصل إيلاء اهتمام كبير لتطوير صناعات التعدين . وفى مجال تزويد الاقتصاد بالمواد الأولية والوقود والطاقة الكهربائية ، سيكون التركيز على تطبيق تكنولوجيات موفرة لهذه الموارد وعلى ترشيد استخدامها .

وقد طورنا برنامجا خاصا لتحديث الصناعة الهندسية ، التى تعرضت للإهمال . ويهدف البرنامج إلى التجديد الكامل للمنتجات الهندسية والتوصل إلى المستوى

العالمى مع بداية التسعينيات . ويشمل البرنامج ، بالتأكيد ، تحويلا جذريا للدولاب الاقتصادى ، الحيوى كما نعرف جيدا ، لاندفاع التقدم التكنولوجى وزيادة الكفاءة الاقتصادية .

وتمثل هذه المسألة أهمية خاصة ، مما يوجب على أن أعود إليها أكثر من مرة ، فى العديد من صفحات هذا الكتاب .

لقد كان الاقتصاد ، وسوف يظل بالطبع ، شاغلنا الرئيسى . ولكننا فى نفس الوقت بدأنا فى تغيير الوضع المعنوى والنفسى فى المجتمع . وإذا ما عدنا إلى السبعينيات لوجدنا كثيرا من الناس يدركون أنه لاغنى لنا عن تغييرات هامة فى التفكير والتكوين النفسى ، وفى تنظيم شكل وأساليب العمل فى كل مكان ـ فى الحزب ، وفى جهاز الدولة ، وفى المراتب العليا وقد حدث ذلك فى اللجنة المركزية للحزب ، وفى الحكومة ، وفى أماكن أخرى كذلك . وكانت هناك حاجة إلى تغييرات معينة فى العاملين . وشغل أشخاص جدد مواقع قيادية ، أشخاص فهموا الوضع جيدا ، ولديهم أفكار عما يجب عمله وكيفية ذلك .

وبدأ صراع لا هوادة فيه ضد انتهاكات مبادئ العدالة الاشتراكية دونما اعتبار لمن ارتكب هذه الانتهاكات . وأعلنت سياسة تقوم على المصارحة . وأعطيت الفرصة لمن يتحدثون لصالح الحزب والحكومة والهيئات الاقتصادية والمنظمات العامة ويباشرون نشاطهم علانية بأن يدلوا بآرائهم بصراحة ، وأزيلت كافة القيود وصور الحظر التى لا مبرر لها .

لقد توصلنا إلى استنتاج أنه بدون تنشيط العامل البشرى ، أى بدون أن نأخذ فى الاعتبار المصالح المختلفة للناس ، وأسر العمل ، والهيئات العامة ، والمجموعات الاجتماعية المختلفة ، وبدون أن نعتمد عليهم ، ونجذبهم إلى المشاركة فى المساعى البناءة النشطة ، فسيكون من المستحيل علينا أن نحقق أيًا من المهام المرسومة ، أو نغير الوضع فى البلاد .

لقد أعجبت منذ فترة طويلة بعبارة جديرة بالملاحظة قدمها لينين : إن الاشتراكية هى الإبداع الحى للجماهير. والاشتراكية ليست خطة نظرية مسبقة تتطابق مع أى مجتمع ينقسم إلى مجموعتين : الذين يعطون الأوامر والذين يتبعونهم . وأنا ضد مثل هذا الفهم الميكانيكى المبسط للاشتراكية .

إن الناس ، بكل تنوعهم الإبداعى هم صناع التاريخ . وهكذا فإن المهمة الأولية لإعادة البناء ـ التى تعتبر شرطا ضروريا لا غنى عنه إذا ما أريد لها النجاح ـ تتمثل فى « إيقاظ » هؤلاء الناس الذين « استسلموا للنوم » واستثارة فعاليتهم ليكونوا نشطين ومهتمين حقا ، وفى كفالة شعور كل امرئ كما لو أنه سيد البلاد ، وسيد مؤسسته ، أو مكتبه ، أو معهده . وهذا هو الشىء الرئيسى .

ويعتبر دفع الفرد إلى المشاركة فى كافة العمليات الجانب الأهم فيما نقوم به . وعلى البيريسترويكا أن تقدم « بوتقة » للمجتمع ، وفى المحل الأول للفرد نفسه . وسيكون مجتمع تم تجديده . وهذا مايكشف عن مدى جدية المهمة التى بدأنا فى حلها ، وهى مهمة فى غاية الصعوبة . ولكن الهدف جدير بالجهد .

إن كل مانقوم به يمكن تفسيره وتقييمه بشكل مختلف . وإليكم قصة قديمة : فقد اقترب مسافر من بعض الناس الذين يقيمون بناء وسألهم واحدا واحدا : « ما الذى تفعله ؟ » وأجاب أحدهم مستفزا : « انظر ، إننا من الصباح حتى الليل نحمل هذه الأحجار اللعينة .. » ونهض آخر من على ركبتيه وشد كتفيه وقال بفخار : « إننا نبنى معبدا ، كما ترى ! » .

وهكذا فإذا كان أمامك هذا الهدف النبيل ـ معبد مضىء فوق ربوة خضراء ـ فستكون أثقل الأحجار خفيفة ، وأشق الأعمال ممتعة .

ولكى تصنع شيئا بشكل أفضل ، سيكون عليك أن تعمل بجد أكبر. إننى أحب هذه العبارة : العمل بجد أكبر. وهى بالنسبة لى ليست مجرد شعار ، وإنما

طريقة معتادة للتفكير ، واقتناع . وأية مهمة يقوم بها المرء يجب أن يفهمها ويحسها بروحه وعقله وقلبه وعند ذلك فقط سيعمل المرء بجد أكبر .

والشخص ذو المعنويات الضعيفة لن يعمل بجد أكبر . وعلى العكس ، فإنه يستسلم أمام الصعوبات ، إذ أنها تقهره . ولكن إذا ما كان الشخص قوى المعتقدات والمعرفة ، مرتفع المعنويات ، فلا يمكن قهره ، وبإمكانه أن يقاوم أى عواصف . ونحن نعرف ذلك من تاريخنا .

ومهمتنا الرئيسية اليوم هى أن نرفع من روح الفرد ، ونحترم عالمه الداخلى ، ونعطيه قوة معنوية . ونحن نسعى لأن نجعل كل قدرات المجتمع الفكرية ، وكل إمكانياته الثقافية تعمل من أجل تشكيل شخص نشط اجتماعيا ، وغنى روحيا ، ومستقيم وحى الضمير . وينبغى أن يعرف كل فرد ويشعر أن هناك حاجة إلى إسهامه ، وأن كرامته لا تخدش ، وأنه يعامل بثقة واحترام . وعندما يرى الفرد كل ذلك ، فإن فى مقدوره أن يحقق الكثير .

والبيريسترويكا بالطبع تؤثر بشكل ما على كل فرد ، فهى تنزع الكثيرين من حالة الهدوء المعتادة ، والرضى عن طريقة الحياة القائمة . وأعتقد أن من المناسب هنا أن ألفت انتباهكم إلى أحد السمات الخاصة بالاشتراكية . وتحضرنى الدرجة العالية من الحماية الاجتماعية فى مجتمعنا . إنها من ناحية ، ودون شك ميزة وإنجاز هام لنا . ومن ناحية أخرى ، تجعل من بعض الناس عالة على غيرهم .

ولا توجد لدينا بالفعل أى بطالة . فقد أخذت الدولة على عاتقها الاهتمام بضمان العمالة . وحتى الشخص الذى يفصل لكسله أو لخرقه انضباط العمل يجب أن تقدم له وظيفة أخرى . وقد أصبحت مساواة الأجور كذلك سمة دائمة لحياتنا اليومية : وحتى إذا كان الشخص عاملا رديئا ، فإنه يحصل على مايكفيه لحياة معقولة ومريحة . وأطفال أى طفيلى غير متحفظ لن يتركوا تحت رحمة القدر . ولدينا مبالغ هائلة من الأموال مكثفة فى الصناديق الاجتماعية يتلقى منها الشعب

مساعدة مالية . وتقدم نفس الصناديق إعانات لرعاية دور الحضانة والملاجئ ودور الطلائع [٥] وغيرها من المؤسسات التى ترتبط بإبداع الأطفال وبالرياضة . والرعاية الصحية مجانية ، وكذلك التعليم . ويجد الناس الحماية ضد تقلبات الحياة ، ونحن نفخر بذلك .

ولكننا نجد فى نفس الوقت أن الناس غير المخلصين يحاولون استغلال ميزات الاشتراكية هذه ، وهم يعرفون حقوقهم فحسب ، ولكنهم لايريدون أن يعرفوا واجباتهم : إنهم يعملون بتكاسل ، ويتهربون ، ويتعاطون المسكرات بكثرة . وهناك قلة من الناس بالفعل كيفوا القوانين والسياسات القائمة مع مصالحهم الخاصة الأنانية . وهم لايعطون المجتمع سوى القليل ، ولكنهم مع ذلك يعملون على أن يحصلوا منه على كل مايمكن ، بل وحتى على مايبدو مستحيلا ، وهم يعيشون على دخول لم يتكسبوها .

إن سياسة إعادة البناء تضع كل شىء فى مكانه . ونحن نحيي تماما مبدأ الاشتراكية : « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب عمله » ، ونسعى إلى تأكيد العدالة الاجتماعية للجميع ، والحقوق المتساوية للجميع ، وقانون واحد للجميع ، ونوع واحد للانضباط للجميع ، وشعور عال بالمسئولية لكل فرد . والبيريسترويكا ترفع من مستوى التوقع والمسئولية الاجتماعية . والوحيدون من بين الناس الذين يمتعضون من التغيرات هم من يعتقدون أن لديهم بالفعل مايحتاجون إليه ، فما الداعى إذا لأن يتكيفوا من جديد ؟ ولكن إذا ماكان شخص ما حى الضمير ، ولم ينس مايتعلق بخير شعبه ، فإنه لا يستطيع ـ ولا يجب عليه ـ أن يفكر بمثل هذه الطريقة . ثم تكشف الجلاسنوست ، أو العلانية ، أن شخصا ما يحظى بامتيازات غير مشروعة ، ونحن لم يعد بإمكاننا أن نتسامح حيال الركود أكثر من ذلك .

---

(٥) دور وتصور الطلائع ـ مؤسسات بجانب المدرسة تغرس فى التلاميذ حب العمل والمعرفة والاهتمام بها ، وتطور القدرات الاجتماعية والتوجهات المهنية للجيل الشاب .

إننا نطرح المسألة بالطريقة التالية : إن كل شخص ، عاملا كان أم مديرا . مشغل آلات زراعية أم مدير ناد ، صحفيا أم سياسيا ، لديه مايعيد النظر فيه : فى أسلوبه وطرقه فى العمل ، ويحتاج إلى أن يقيم بشكل نقدى وضعه الخاص . ولقد طرحنا مهمة التغلب على القصور الذاتى والنزعة المحافظة بشكل جاد ـ كى نستثير كبرياء كل فرد ، غرور كل فرد . ووجد هذا صدى لدى كثير من الناس ـ وهم الغالبية ، رغم أن استجابة البعض كانت سلبية ، وبخاصة هؤلاء الذين مازالوا على تشبثهم بالقديم ، وينبغى أن ننظر إلى أنفسنا كذلك من زاوية ما إذا كنا نعيش ونعمل وفقا لما يمليه علينا ضميرنا . وربما نكون فى بعض الأمور قد انحرفنا عن الصواب ، وتبنينا معايير غريبة علينا ، وعلى سبيل المثال ، فقد بدأت تنتقل إلينا عدوى عقلية شيوعية سوقية . وإذا ماتعلمنا أن نعمل بشكل أفضل ، وأن نكون أكثر أمانة ، وأكثر جدارة بالاحترام ، فسوف نقيم عندئذ طريقة حياة اشتراكية حقا .

ومن الحيوى أن نتطلع إلى الأمام . ويجب أن نتزود من الخبرة السياسية والفهم النظرى والشجاعة المدنية بما يكفى لتحقيق النجاح ، وضمان أن البيريسترويكا سوف تلبى المعايير الأخلاقية الرفيعة للاشتراكية .

ونحن نريد عملا متحمسا ومأمونا من جانب كل المنظمات العامة ، وكل فرق الإنتاج والاتحادات الإبداعية ، وأشكالا جديدة من النشاط من جانب المواطنين وإحياء ما تم نسيانه منها . وباختصار ، فإننا فى حاجة إلى إشاعة الديموقراطية الواسعة فى كل جوانب المجتمع . وتعتبر إشاعة الديموقراطية كذلك الضمان الأساسى لأن تكون العمليات الحالية لا رجعة فيها .

ونحن نعرف الآن أنه كان بمقدورنا أن نتجنب كثيرا من هذه المصاعب لو تطورت العملية الديموقراطية بشكل عادى فى بلادنا .

وقد تعلمنا هذا الدرس من تاريخنا جيدا ولن ننساه أبدا . وسوف نتمسك

الآن بحزم بالخط القائل : بأنه من خلال التطوير الثابت للأشكال الديموقراطية الكامنة فى الاشتراكية فحسب أو من خلال توسيع الحكم الذاتى يمكننا أن نحقق تقدما فى الإنتاج والعلم ، والتكنولوجيا ، والثقافة ، والفن ، وفى كافة المجالات الاجتماعية . وهذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكننا بها ضمان الانضباط الواعى . والبيريسترويكا نفسها يمكنها أن تتحقق فقط من خلال الديموقراطية . وحيث أننا نرى أن مهمتنا تتمثل فى الكشف عن إمكانيات الاشتراكية والاستفادة منها عن طريق تكثيف العامل البشرى ، فليس أمامنا من طريق آخر سوى إشاعة الديموقراطية ، بما فى ذلك إصلاح الدولاب الاقتصادى والإدارة ، إصلاحا يكون عنصره الرئيسى هو تطوير أسر العمل .

ولأننا نؤكد ، على وجه الدقة ، على تطوير الديموقراطية الاشتراكية ، فإننا نولى اهتماما كبيرا للمجال الفكرى ، والوعى الشعبى وللسياسة الاجتماعية النشطة . وبذلك نريد أن ننشط العامل البشرى .

غالبا مايصوَّر لينين فى الغرب على أنه مدافع عن أساليب الإدارة المتسلطة . وهذه علامة على الجهل التام بأفكار لينين ، وعلى تشويهها المتعمد فى كثير من الأحيان . وفى الحقيقة ، فإن الاشتراكية والديموقراطية لاتنفصلان ، ووفقا لما يقول لينين . وتصل الجماهير العاملة إلى السلطة عن طريق كسب الحريات الديموقراطية . كما أن بإمكانهم ، فى ظروف توسيع الديموقراطية فقط ، أن يعززوا ويحققوا هذه السلطة . وهناك فكرة أخرى صحيحة تماما للينين تقول : بأنه كلما اتسع نطاق العمل وازداد عمق الإصلاح ، كلما كانت هناك حاجة أكبر إلى زيادة الاهتمام به ، وإلى إقناع ملايين وملايين الناس بضرورته . وهذا يعنى أننا إذا كنا قد بدأنا إعادة بناء شاملة وجذرية ، فيجب أن نكشف كذلك عن كل إمكانيات الديموقراطية .

ومن الضرورى أن نتعلم كذلك كيف نعدل السياسة بما يتمشى وطريقة تقبل

الجماهير لها ، وأن نضمن التغذية الخلفية ، وأن نتشرب الأفكار والآراء والنصائح الواردة من الشعب . وتقترح الجماهير كثيرا من الأشياء المفيدة والهامة التي لاتجد إدراكا لها اليوم « من أعلى » . ولهذا السبب فعلينا أن نمنع ، مهما كلفنا الأمر ، الموقف المتعجرف إزاء ما يقوله الناس . وفي الاعتبار النهائي ، فإن أهم شيء لنجاح البيريسترويكا هو موقف الشعب منها .

وهكذا ، لم تدفعنا النظرية فحسب ، وإنما دفعنا واقع العمليات التي تجرى إلى البدء في البرنامج الخاص بالتغييرات الديموقراطية الشاملة في الحياة العامة ، والذي قدم إلى اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي .

وشجع الاجتماع الكامل الجهود الواسعة لتقوية الأساس الديموقراطي للمجتمع السوفيتي ، ولتطوير شبكة الحكم الذاتي . ونحن نرى الآن كم كان هذا الدافع حافزا للشعب . فالتغييرات الديموقراطية تجرى في كل أسرة عمل ، وفي كل منظمة حكومية وعامة ، وفي داخل الحزب . إن مزيدا من الجلاسنوست والرقابة الحقيقية من « أسفل » ومزيدا من المبادرة والجرأة في العمل قد أصبح الآن جزءا لا يتجزأ من حياتنا .

لقد طورت العملية الديموقراطية البيريسترويكا بكاملها ، ورفعت مستوى أهدافها ، وجعلت مجتمعنا يفهم مشاكله بطريقة أفضل . وسمحت هذه العملية لنا بأن ننظر إلى المسائل الاقتصادية برؤية أوسع ، وأن نتقدم ببرنامج للاصلاحات الاقتصادية الجذرية . إن الدولاب الاقتصادي يتمشى الآن بشكل جيد مع النظام الشامل للإدارة الاجتماعية الذي يرتكز على مبادئ ديموقراطية متجددة .

وقمنا بهذا العمل في اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ، الذي تبنى « أسس إعادة البناء الجذري للإدارة الاقتصادية » . وربما كان ذلك أهم برامج الإصلاح الاقتصادي ، وأكثرها

جذرية منذ طبق لينين سياسته الاقتصادية الجديدة عام ١٩٢١ . ويستهدف الإصلاح الاقتصادى الحالى تحويل التركيز من أساليب الإدارة فى الأساس إلى أساليب التدبير الاقتصادى فى الأساس وفى كل مستوى ، ويدعو إلى إشاعة ديموقراطية الإدارة على نطاق واسع ، وإلى التنشيط الشامل للعامل البشرى .

ويرتكز الإصلاح على زيادة استقلال المؤسسات والاتحادات بدرجة كبيرة ، ونقلها إلى الحساب الاقتصادى الكامل والتمويل الذاتى ، ومنح كافة الحقوق المناسبة لأسر العمل . وستكون الآن مسئولة بشكل كامل عن الإدارة ذات الكفاءة والنتائج النهائية . وسوف تتناسب أرباح أسرة العمل تناسبا طرديا مع كفاءتها .

وفى هذا الخصوص ، فإننا نستهدف إعادة تنظيم جذرية للإدارة الاقتصادية المركزة لصالح المؤسسات . وسوف نحرر الإدارة المركزية من مهام التدخل فى إدارة المؤسسات مما يمكنها من التركيز على العمليات الرئيسية التى تحدد استراتيجية النمو الاقتصادى . ولكى نجعل من ذلك حقيقة بدأنا إصلاحا جذريا جادا فى التخطيط ، وفى تشكيل الأسعار ، وفى الدولاب المالى والائتمانى ، وفى شبكة الإمدادات المادية والتكنولوجية للإنتاج ، وإدارة التقدم العلمى والتكنولوجى ، والعمل والمجال الاجتماعى . ويهدف هذا الإصلاح ـ خلال العامين أو الأعوام الثلاثة التالية ـ إلى الانتقال من نظام الإدارة المغالى فى مركزيته والذى يعتمد على الأوامر ، إلى نظام ديموقراطى ، يرتكز على ربط المركزية الديموقراطية بالإدارة الذاتية .

ويعتبر تبنى المبادئ الأساسية لتغيير جوهرى فى الإدارة الاقتصادية خطوة كبيرة إلى الأمام فى برنامج البيريسترويكا . والآن تتعلق البيريسترويكا بالفعل بكل الجوانب الرئيسية فى الحياة العامة . ولسوف تتطور ، بالطبع ، أفكارنا عن محتويات وأساليب وأشكال البيريسترويكا ، وتزداد وضوحا وتصحح فيما بعد .

وهذا أمر طبيعي ومحتوم . إنها عملية حية . وسوف تطرح التغييرات ، بلاشك ، مشاكل هامة جديدة تحتاج إلى حلول غير تقليدية . بيد أن مفهوم البيريسترويكا العام ، وخطتها العامة ، واضحان لنا ، ليس فقط من حيث الجوهر ، وإنما كذلك من حيث المكونات .

وتعنى البيريسترويكا التغلب على عملية الركود ، وتحطيم الدولاب الكابح ، وخلق دولاب فعال يعول عليه لتسريع التقدم الاجتماعى والاقتصادى وإعطائه دينامية أكبر .

وتعنى البيريسترويكا مبادرة الجماهير. إنها التطوير الشامل للديموقراطية ، والحكم الذاتى الاشتراكى ، وتشجيع المبادرة والمسعى الخلاق ، وتحسين النظام والانضباط ، ومزيدا من الجلاسنوست ، والنقد والنقد الذاتى فى كافة مجالات مجتمعنا . إنها أقصى احترام للفرد ومراعاة للكرامة الشخصية .

والبيريسترويكا هى التكثيف الشامل للاقتصاد السوفيتى ، وإحياء وتطوير مبادئ المركزية الديموقراطية فى إدارة الاقتصاد الوطنى ، والتطبيق الشامل للأساليب الاقتصادية ، والتخلى عن الإدارة بالأوامر والأساليب الإدارية ، والتشجيع الشامل للتجديد والإقدام الاشتراكى .

وتعنى البيريسترويكا تحولا حازما إلى الأساليب العلمية ، وقدرة على توفير أساس علمى صلب لكل مبادرة جديدة . وهى تعنى ربط منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية بالاقتصاد المخطط .

وتعنى البيريسترويكا إيلاء الأولوية لتطوير المجال الاجتماعى بهدف التلبية الأفضل دوما لاحتياجات الشعب السوفيتى لمعيشة وظروف عمل طيبة ، ولراحة واستجمام وتعليم ورعاية صحية طيبة . وهى تعنى اهتماما دائبا بالثروة الثقافية والروحية ، وبثقافة كل فرد وثقافة المجتمع ككل .

وتعنى البيريسترويكا أن نزيل من المجتمع التشويهات للأخلاق الاشتراكية ،

والتنفيذ الثابت لمبادئ العدالة الاشتراكية . كما تعنى وحدة الأقوال والأفعال ، والحقوق والواجبات . إنها ترفع مستوى العمل الأمين العالى التأهيل ، والتغلب على اتجاهات مساواة الأجور والنزعة الاستهلاكية .

وهذه هى الصورة التى نرى بها البيريسترويكا اليوم . هذه هى الصورة التى نرى بها مهامنا ، وجوهر ومحتوى عملنا للفترة القادمة . وإنه لمن الصعب الآن أن نقول كم من الزمن سوف تستغرق هذه الفترة . وستكون بالطبع أطول كثيرا من عامين أو ثلاثة أعوام . ونحن مستعدون للعمل الجاد ، والشاق والمضنى لكى نضمن أن تصل بلادنا إلى آفاق جديدة بحلول نهاية القرن العشرين .

وغالبا ما يسألوننا عما نريد من البيريسترويكا . وماهى أهدافنا النهائية ؟ ومن الصعوبة بمكان أن نقدم إجابة تفصيلية ودقيقة . ونحن لا نحب أن نشغل أنفسنا بالتنبؤ ومحاولة تقدير كافة العناصر المعمارية للمبنى العام الذى نشيده فى عملية البيريسترويكا .

ولكن بإمكانى أن أقول من حيث المبدأ : إن النتيجة النهائية للبيريسترويكا واضحة لنا . إنها تجديد دقيق لكافة جوانب الحياة السوفيتية ، يتمثل فى إعطاء الاشتراكية أكثر الأشكال تقدمية فى التنظيم الاجتماعى ، والعرض الأكمل للطبيعة الإنسانية لنظامنا الاجتماعى فى جوانبه الحاسمة ـ الاقتصادية ، والاجتماعية والسياسية ، والمعنوية .

وأؤكد مرة أخرى أن البيريسترويكا ليست نوعا من التنوير أو الإلهام . إن إعادة بناء حياتنا يعنى فهم الضرورة الموضوعية للتجديد والتسريع . وقد نشأت هذه الضرورة فى قلب مجتمعنا . ويكمن جوهر البيريسترويكا فى حقيقة أنها توحد الاشتراكية مع الديموقراطية ، وتبعث إلى الحياة بالمفهوم اللينينى للبناء الاشتراكى من الناحية النظرية والتطبيقية على السواء . وهذا هو جوهر البيريسترويكا الذى يفسر روحها الثورية الحقة ونطاقها الشامل .

إن الهدف جدير بالجهد . ونحن على يقين من أن جهدنا سيكون إسهاما هاما فى التقدم الاجتماعى للبشرية .

مزيد من الاشتراكية ومزيد من الديموقراطية

ترتبط البيريسترويكا ارتباطا وثيقا بالاشتراكية كنظام . وتجرى مناقشة هذا الجانب من الموضوع على نطاق واسع ، وبخاصة فى الخارج ، ولن يكون حديثنا عن البيريسترويكا واضحا تماما إذا لم نتناول هذا الجانب .

هل تعنى البيريسترويكا أننا نتخلى عن الاشتراكية أو على الأقل عن بعض جوانبها ؟ البعض يوجه هذا السؤال وهو يراوده الأمل . بينما آخرون يراودهم الشك .

وهناك أناس فى الغرب يودون أن يقولوا لنا : إن الاشتراكية تعانى من أزمة حادة ، وقد وصلت بمجتمعنا إلى طريق مسدود . وهم بذلك يفسرون تحليلنا الانتقادى للوضع فى نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات . وهم يقولون : بأن أمامنا مخرجا واحدا : أن نتبنى أساليب رأسمالية للإدارة الاقتصادية والنماذج الاجتماعية ، وأن ننجرف ناحية الرأسمالية .

وهم يقولون لنا : إن البيريسترويكا لن تؤدى إلى نتيجة داخل إطار نظامنا . ويقولون : إن علينا أن نغير هذا النظام ، وأن نستعير من خبرة نظام اجتماعى سياسى آخر . وهم يضيفون إلى ذلك أنه إذا ما سار الاتحاد السوفيتى فى هذا الطريق ، وتخلى عن خياره الاشتراكى . فمن المفروض أن تصبح الصلات الوثيقة مع الغرب ممكنة . وهم يذهبون بعيدا ويدعون بأن ثورة أكتوبر ١٩١٧ كانت خطأ عزل بلادنا تماما تقريبا عن التقدم الاجتماعى العالمى .

ولكى أضع حدا لكافة الشائعات والتخمينات التى تكثر فى الغرب عن ذلك ، أود أن أوضح مرة أخرى أننا نقوم بكل إصلاحاتنا وفقا للخيار

الاشتراكى . ونحن نبحث داخل الاشتراكية وليس خارجها عن إجابات لكافة الأسئلة المطروحة . ونحن نُقيِّم نجاحاتنا وأخطاءنا على السواء بمعايير اشتراكية . والذين يأملون بأننا سنبتعد عن الطريق الاشتراكى سيصابون بخيبة أمل كبيرة . ولهذا السبب فإن كل قسم من برنامج البيريسترويكا ـ والبرنامج ككل ـ يرتكز بكامله على مبدأ مزيد من الاشتراكية ، ومزيد من الديموقراطية .

إن مزيدا من الاشتراكية تعنى مسعى ديناميا وجهدا إبداعيا ، ومزيدا من التنظيم ، والقانون والنظام ، ومزيدا من الأساليب العلمية والمبادرة فى الإدارة الاقتصادية ، والكفاءة فى الإدارة ، وحياة أغنى ماديا وأفضل للشعب .

ومزيد من الاشتراكية تعنى مزيدا من الديموقراطية ، والعلانية والجماعية فى الحياة اليومية ، ومزيدا من الثقافة والإنسانية فى الإنتاج ، والعلاقات الاجتماعية والشخصية بين الناس ، ومزيدا من الكرامة واحترام الذات بالنسبة للفرد .

ومزيد من الاشتراكية تعنى مزيدا من الوطنية والطموح لمثل نبيلة . ومزيدا من الاهتمام المدنى بشئون البلاد الداخلية ، وبتأثيرها الإيجابى على الشئون الدولية .

وفى كلمات أخرى ، مزيد من كل هذه الأشياء الكامنة فى الاشتراكية وفى المبادئ النظرية التى تميزها كتشكيل اجتماعى ـ اقتصادى متميز .

ولسوف ننطلق نحو اشتراكية أفضل بدلا من أن نبتعد عنها . ونحن نقول ذلك بأمانة ، دون أن نحاول خداع شعبنا أو العالم . وأية آمال بأننا سنبدأ بناء مجتمع آخر غير اشتراكى وننتقل إلى المعسكر الآخر آمال غير واقعية وخاطئة . والذين يتوقعون منا فى الغرب أن نتخلى عن الاشتراكية سيصابون بخيبة أمل . لقد آن الأوان لكى يدركوا هذا ، بل ماهو أكثر أهمية ، أن ينطلقوا من مفهومنا فى علاقاتهم العملية مع الاتحاد السوفيتى .

وبعد هذا الكلام ، أود أن يكون واضحا تماما ، أننا نحن الشعب السوفيتى ، رغم أننا مع الاشتراكية (وقد شرحت سابقا السبب فى ذلك) ، فإننا لانفرض

آراءنا على أى فرد . وليقرر كل امرئ خياره ، فسوف يضع التاريخ كل شىء فى مكانه . واليوم كما قلت لمجموعة من الشخصيات العامة الأمريكية (سايروس فانس ، هنرى كيسنجر وآخرين) فإننا نشعر بوضوح كما لم يحدث من قبل بأنه بفضل النظام الاشتراكى والاقتصاد المخطط ، تجرى التغيرات فى سياستنا الهيكلية بسهولة أكبر بالنسبة لنا عنها فى ظروف المؤسسة الخاصة ، رغم الصعوبات الخاصة التى نواجهها ، كذلك .

إننا نريد مزيدا من الاشتراكية ، وبالتالى مزيدا من الديموقراطية .

وكما نفهم الأمر ، فإن صعوبات ومشاكل السبعينيات والثمانينيات لا تعنى نوعا ما من الأزمة بالنسبة للاشتراكية كنظام اجتماعى وسياسى ، ولكنها بالأحرى نتيجة لعدم الثبات بما فيه الكفاية فى تطبيق مبادئ الاشتراكية ، وللانحرافات عنها وحتى تشويهها ، وللتمسك المتواصل بأساليب وأشكال الإدارة الاجتماعية التى نشأت فى ظروف تاريخية معينة فى المراحل الأولى للتطور الاشتراكى .

وعلى العكس ، فالاشتراكية كنظام اجتماعى فنى ، وكطريقة للحياة ، تملك إمكانيات ضخمة للتطور الذاتى والإتقان الذاتى ، وعلينا أن نكشف عنها . وتملك إمكانيات ضخمة كذلك لحل المشاكل الرئيسية للتقدم العلمى والتكنولوجى ، والاقتصادى ، والثقافى ، والفكرى للمجتمع المعاصر ، ولتطوير الإنسان الفرد . وهذا مايشير إليه الطريق الذى اختارته بلادنا منذ أكتوبر ١٩١٧ ، الطريق الذى كان مليئا بصعوبات عديدة ، وأحداث فاجعة ، وعمل مجهد ، كما كان مليئا فى نفس الوقت بانتصارات وإنجازات عظيمة .

دروس التـاريخ

يصح القول بأن تطور مابعد الثورة مر بمراحل صعبة ، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى التدخل الفظ للقوى الإمبريالية فى شئوننا الداخلية ، كما حدثت أخطاء فى

السياسة وفى التقديرات والحسابات . ورغم ذلك تقدم الاتحاد السوفيتى ، وقام مجتمع تتوفر فيه لدى الناس الثقة بمستقبلهم . وإذا كانت الحقيقة رائدنا ، فإن أى مراقب موضوعى عليه أن يعترف بأن التاريخ السوفيتى هو بشكل عام تاريخ تقدم لاشك فيه ، رغم كل الخسائر والانتكاسات والنقائص : لقد تقدمنا فى ظل انعدام وجود طرق بالمعنى الحرفى والمجازي : لقد حدنا عن الطريق أحيانا وارتكبنا أخطاء ، وأريقت دماء وبذل عرق أكثر مما يجب على هذا الطريق . ولكننا واصلنا السير بعناد ولم نفكر أبدا فى التراجع والتخلى عن الأرض التى كسبناها أو فى وضع اختيارنا الاشتراكى محل تساؤل .

ومن الصعب أن نتصور أنه كان بإمكاننا ، ونحن نسير نحو مستقبل غير معروف ، أن نتجنب الانتكاسات ، وأن نجد كل مانريده ممهدا كرصيف شارع نفسكى بروسبكت[٦] . ولنأخذ التصنيع ، على سبيل المثال . فى أية ظروف حققناه ؟ إن الحرب الأهلية وتدخل ١٤ دولة أجنبية[٧] تركا البلاد مخربة تماما . كما كان هناك حصار اقتصادى و « عزل صحى » . ولم يكن هناك تراكم ولامستعمرات ، وإنما على العكس ، كان من الضرورى استخدام الأموال المتوفرة لتحسين مناطق الأطراف القومية التى عانت من الاضطهاد فى ظل العنصرية . ولكى ننقذ مكتسباتنا الاشتراكية ، كان علينا أن نبنى ــ وبسرعة ــ قاعدة صناعية وطنية بمواردنا الداخلية ، بالحد من الاستهلاك وتقليصه إلى الحد الأدنى . ووقع العبء المادى لهذا البناء الجديد على الشعب ، الذى شكل الفلاحون غالبيته .

---

(٦) يعتبر شارع نفسكى بروسبكت فى لينينجراد الشارع الرئيسى فى المدينة . وهو يسير فى خط مستقيم تماما . ويستخدم فى اللغة الروسية كاستعارة لوصف من يعتقدون بأن التطور الاجتماعى يمكن أن يسير فى طريق مستقيم مماثل .

(٧) الحرب الأهلية والتدخل الأجنبى (١٩١٨ ــ ١٩٢٢) ــ نضال الجمهورية السوفيتية ضد الثورة المضادة وغزو القوات البريطانية ، والفرنسية ، والأمريكية ، والألمانية ، واليابانية والبولندية وغيرها لأجزاء من أراضيه (شارك فى الغزو ١٤ دولة) .

وكان علينا ، فى الواقع ، أن نبنى الصناعة ، وبخاصة الصناعة الثقيلة وصناعات القوى وبناء الآلات ، من لاشىء . وبدأنا بجرأة نحقق هذه المهمة . إن حيوية خطط الحزب ، التى فهمتها الجماهير وتقبلتها ، وحيوية الشعارات والمشروعات المشربة بالطاقة الأيديولوجية لثورتنا ، قد أفصحت عن نفسها فى الحماس الذى انضم به ملايين الناس السوفيت إلى الجهود المبذولة من أجل بناء الصناعة الوطنية . وقد أذهل هذا الحماس العالم . فى ظل ظروف حرجة للغاية ، وبعيدا عن منازلهم فى الغالب ، وبدون أية آلات عادة ، وفى ظروف عدم توفر الغذاء ، صنعوا المعجزات من لاشىء . واستمدوا الإلهام من أن قضيتهم قضية عظيمة وتاريخية . ورغم أنهم لم يكونوا على معرفة جيدة ، فقد أدركوا المهمة العظيمة والفريدة التى يؤدونها . وكان هذا حقا مأثرة عظيمة باسم مستقبل وطنهم وإظهارا لإخلاص الشعب للاختيار الحر الذى قرره فى عام ١٩١٧ .

لقد تغلب آباؤنا وأجدادنا على كل ما واجههم وقدموا إسهاما حاسما لتطوير وتعزيز مجتمعنا فى وقت كان لابد فيه من تقرير مستقبله كله .

كان التصنيع فى العشرينيات والثلاثينيات حقا اختبارا قاسيا للغاية . ولنحاول الآن بإدراك متأخر ، أن نجيب على السؤال : هل كان التصنيع ضروريا ؟ هل كان بإمكان بلد واسع مثل بلادنا أن يعيش فى القرن العشرين دون أن يكون دولة متطورة صناعيا ؟ ثم لقد كان هناك سبب آخر أوضح لنا على الفور كذلك أنه لم يكن أمامنا من خيار سوى الإسراع فى التصنيع . فمنذ ١٩٣٣ بدأت الفاشية تنمو بسرعة . فأين كان يمكن أن يكون العالم الآن إذا لم يكن الاتحاد السوفيتى قد سد الطريق أمام آلة الحرب الهتلرية ؟ لقد سحق شعبنا الفاشية بقوته الجبارة التى بناها فى العشرينيات والثلاثينيات . فإذا لم يكن قد حدث تصنيع ، لكننا قد أصبحنا فى مواجهة الفاشية بدون سلاح .

إننا لم نجد أنفسنا تحت جرارات الفاشية . لقد عجزت كل أوربا عن وقف

هتلر ، ولكننا سحقناه . وهزمنا الفاشية ليس فقط بفضل بطولة جنودنا وتضحياتهم ، وإنما بفضل صلبنا الأفضل ، ودباباتنا وطائراتنا الأفضل . وكل هذا صنعته فترتنا السوفيتية .

أو لنأخذ « الجماعية » . وأنا أعرف كم من الخيال والتأمل والنقد الخبيث لنا يتعلق بهذا المصطلح ، ناهيك عن العملية نفسها . بيد أن العديد من الدارسين الموضوعيين لهذه الفترة من تاريخنا لايبدو أنهم قادرون على فهم أهمية وضرورة الحاجة إلى الأخذ بالجماعية فى بلادنا .

وإذا ما ألقينا نظرة علمية وصادقة حقا على ظروف ذلك الوقت ، وعلى السمات الخاصة لتطور مجتمعنا ، المجتمع السوفيتى ، وإذا لم نغمض أعيننا عن التخلف البالغ للإنتاج الزراعى ، الذى لم يكن بإمكانه أن يتغلب على هذا التخلف إذا مابقى إنتاجا صغيرا ومجزءا ، وإذا ما حاولنا أخيرا ، أن نقيّم بشكل سليم النتائج الفعلية لتطبيق الجماعية ، فلابد من التوصل إلى استنتاج بسيط واحد : لقد كانت الجماعية عملا تاريخيا عظيما ، وأهم تغيير اجتماعى منذ ١٩١٧ . نعم لقد تقدمت بصعوبة شديدة ، وليس بدون تجاوزات وأخطاء فاضحة فى الأساليب ومعدل التقدم . بين أن مواصلة التقدم بالنسبة لبلادنا كانت ستبدو شبه مستحيلة بدونها . لقد وفرت الجماعية أساسا اجتماعيا لتحديث القطاع الزراعى من الاقتصاد ، وجعلت بالإمكان إدخال أحدث الأساليب الزراعية . وضمنت نمو الانتاجية وأقصى زيادة فى الناتج . وهو ما كان يستحيل الحصول عليه لو ترك الريف فى حالته السابقة ، حالة العصور الوسطى بالفعل ، دون مساس . وبالإضافة إلى ذلك ، حررت إدخال الجماعية موارد هامة ، ووفرت عمالا كثيرين كانت ثمة حاجة إليهم فى مجالات التنمية الأخرى فى مجتمعنا ، وفى المقام الأول فى الصناعة .

لقد غيّر تطبيق الجماعية ، ولكن ليس بسهولة وعلى الفور ، غيّر كل طريقة حياة الفلاحين ، وجعل بإمكانهم أن يصبحوا طبقة متمدينة حديثة من المجتمع . ولولا

تطبيق الجماعية . ماكان بإمكاننا حتى أن نفكر اليوم فى إنتاج الحبوب بكمية تبلغ ٢٠٠ مليون طن ، ناهيك عن ٢٥٠ مليون طن ، كما تقضى خطتنا للمستقبل القريب . ومع ذلك ، فقد تخطينا بالفعل إجمالى إنتاج الحبوب فى بلدان السوق المشتركة معا ، رغم حقيقة أن عدد سكاننا أقل .

ومع ذلك ، فمن الصحيح أننا سنواجه نقصا فى العديد من المواد الغذائية ، وبخاصة فى منتجات الماشية . ولكن بدون تطبيق الجماعية ماكنا ننتج الآن بالنسبة للفرد الواحد مانتنتجه بالفعل . وهو مايسد معظم احتياجاتنا الحيوية . ومما له أهمية خاصة ، أن إمكانية المجاعة ونقص التغذية قد أزيلت إلى الأبد من بلادنا . وكانت تلك هى محنة روسيا لقرون عديدة . ومن حيث الغذاء الغنى بالسعرات ، يحتل الاتحاد السوفيتى مكانه على وجه التحديد بين البلدان المتطورة . والمسألة الرئيسية هى أنه بفضل تطبيق الجماعية وتاريخها الذى يزيد على خمسين عاما ، اكتسبنا القدرة على أن نرفع – فى مجرى إعادة البناء – كل القطاع الزراعى إلى مستوى نوعى جديد .

نعم لقد كان التصنيع وتطبيق الجماعية فى الزراعة أمرين لاغنى عنهما . وإلا ماكان بالإمكان إعادة تعمير البلاد . بيد أن أساليب وأشكال تحقيق هذه الاصلاحات لم تكن تتفق على الدوام مع المبادئ الاشتراكية ، ومع الأيديولوجية والفلسفة الاشتراكية . ولعبت الظروف الخارجية دورا أساسيا – فقد كانت البلاد تحس بخطر عسكرى مستمر عليها – ولكن إلى جانب ذلك كانت هناك تجاوزات ، وسطوة الضغط الإدارى ، ومعاناة الناس هكذا كانت الأمور فى الحقيقة . وكان هذا قدر بلادنا ، بكل تناقضاتها ، بما فى ذلك الإنجازات العظيمة ، والأخطاء الفاجعة ، والأحداث المأساوية .

نعم ، لقد كانت لدينا كذلك أوقات صعبة ، أوقات صعبة للغاية من حين لآخر ، بعد الانتصار فى الحرب . وأتذكر رحلاتى بالقطار من جنوب روسيا إلى موسكو للدراسة فى أواخر الأربعينيات . لقد رأيت بأم عينى ستالينجراد ،

وروستوف ، وخاركوف ، وأوريل ، وكورسك ، وفورونيز المخربة . وكان هناك الكثير من أمثال هذه المدن المخربة : لينينجراد ، كييف ، مينسك ، أوديسا ، سيفاستوبول ، سمولنسك ، بريانسك ، نوبجورود ..... كل شيء كان خرابا : مئات وآلاف المدن ، والبلدان والقرى ، والمصانع ، والمعامل . ونهبت أقيم آثارنا الثقافية أو دمرت ـ متاحف وقصور الفن ، والمكتبات والكنائس .

وقالوا فى الغرب فى ذلك الوقت إن روسيا لن تستطيع أن تنهض حتى فى مائة عام ، وأنها ستبقى خارج السياسة الدولية لوقت طويل قادم لأنها ستركز على تضميد جراحها بشكل ما . واليوم يقولون ـ بعضهم بإعجاب وآخرون بعداء صريح ـ إننا دولة عظمى ! لقد بعثنا بلادنا ورفعناها بجهودنا الخاصة ، مستفيدين من الإمكانيات الهائلة للنظام الاشتراكى .

ولا يمكننا إلا أن نذكر جانبا آخر من الموضوع غالبا مايجرى تجاهله أو السكوت عليه فى الغرب . ولكن بدونه يستحيل ببساطة فهمنا ، نحن الشعب السوفيتى . فإلى جانب المنجزات الاقتصادية والاجتماعية ، كانت هناك أيضا حياة جديدة ، كان هناك حماس بناة عالم جديد ، وإلهام الأشياء الجديدة والمدهشة ، وشعور حاد بالفخار بأننا وحدنا ، وبدون مساعدة وليس لأول مرة ، نرفع بلادنا على أكتافنا ، كان الناس يتعطشون إلى المعرفة والثقافة ويستوعبونها . كانوا مبتهجين بالحياة ، يربون أطفالهم ، ويؤدون أعمالهم اليومية . وقد قمنا بكل هذا فى جو جديد تماما يختلف لحد كبير عما كان قائما قبل الثورة ، فى جو من الطمأنينة والمساواة ، والفرص الهائلة أمام الجماهير العاملة . ونحن نعرف جيدا ماقدمته لنا الاشتراكية . وباختصار ، فقد عاش الناس وعملوا بشكل خلاق فى كل مراحل التطور السلمى لبلادنا . والرسائل التى أتلقاها من مواطنىّ تقول باعتزاز : لقد كنا أفقر من الآخرين ، ولكن حياتنا كانت حية وشيقة بدرجة أكبر .

إن أربعة عشر من بين كل خمسة عشر مواطنا ممن يعيشون فى الاتحاد السوفيتى

اليوم ولدوا بعد الثورة . ومازال هناك من يحثنا على أن نتخلى عن الاشتراكية . فما الذى يدفع الشعب السوفيتى ، الذى نما وازداد قوة فى ظل الاشتراكية ، إلى التخلى عن هذا النظام؟ إننا لن نألوا جهدا لتطوير ودعم الاشتراكية. وأعتقد أن الحد الأدنى من إمكانيات النظام الجديد هو ما أمكن الاستفادة منه حتى الآن .

ولهذا السبب نجد اقتراحات غريبة ـ بعضها حتى مخلص ـ بأن نغير نظامنا الاجتماعى ونتجه إلى الأساليب والأشكال المميزة لتشكيل اجتماعى مختلف . والذين يتقدمون بمثل هذه المقترحات لايدركون أن ذلك مستحيل حتى ولو كان هناك من يرغب فى تحويل الاتحاد السوفيتى إلى الرأسمالية . ولنفكر : كيف يمكن أن نوافق على أن ١٩١٧ كان خطأ ، وأن كل السنوات السبعين من حياتنا ، وعملنا ، وجهدنا ، ومعاركنا كانت كذلك خطأ تاما ، وأننا كنا نسير فى « الاتجاه الخاطئ » ؟ كلا ، فإن نظرة دقيقة وغير متميزة لحقائق التاريخ تنتهى فقط إلى استنتاج واحد : إن الخيار الاشتراكى هو الذى نقل روسيا المتخلفة سابقا إلى « المكان الصحيح » ـ المكان الذى يشغله الاتحاد السوفيتى الآن فى تقدم البشرية .

وليس ثمة مايحملنا على أن نتحدث عن ثورة أكتوبر الاشتراكية بصوت خفيض، كما لو كنا خجلين منها . إن نجاحاتنا هائلة ولا مراء فيها . ولكننا نرى الماضى فى مجموعه وبتعقيداته : ولا تحول أضخم إنجازاتنا بيننا وبين أن نرى التناقضات فى تطور مجتمعنا ، وأخطاءنا وإهمالنا لواجباتنا . إن أيديولوجيتنا نفسها حاسمة وثورية بطبيعتها .

وعندما نبحث عن جذور مشاكل اليوم وصعوباتها فإننا نفعل ذلك لكى نفهم منشأها ونستخلص دروس حياتنا الحالية من أحداث تعود إلى الثلاثينيات .

والشىء الأهم بالنسبة لنا الآن فى التاريخ السابق : هو أننا من خلال فهمه نصل إلى إدراك أصول البيريسترويكا . لقد تشكل تاريخنا تحت تأثير قوى لعوامل مصاحبة بيد أنه تاريخنا ، وتكمن فيه مصادر البيريسترويكا .

ولكن لماذا حدث كل ماجعل البيريسترويكا ضرورية ؟ ولماذا تأخرت ؟ ولماذا استمرت أساليب العمل القديمة فترة طويلة ؟ وكيف حدث التزمت العقائدى فى وعينا الاجتماعى وفى النظرية ؟.

كل هذا يحتاج إلى تفسير. نحن نجد فى تحليلنا وشرحنا كثيرا من البراهين على أن الحزب والمجتمع قد أدركا أن العمليات السلبية تنمو. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الوعى بالحاجة إلى التغيير قد أفصح عن نفسه بشكل حاد أكثر من مرة. ولكن التغييرات لم تتواصل واتسمت بعدم الثبات تحت ثقل تراث الماضى بكل خصائصه السائدة .

وكان المؤتمر العشرون[٨] للحزب الشيوعى السوفيتى معلما هاما فى تاريخنا . فلقد قدم إسهاما كبيرا لنظرية وممارسة البناء الاشتراكى . وخلال المؤتمر وبعده ، بذلت محاولة هامة لتحويل دفة تقدم البلاد ، ولإعطاء دفعة للتحرر من الجوانب السلبية للحياة الاجتماعية ـ السياسية التى ولدتها عبادة شخص ستالين .

وساعدت قرارات المؤتمر على مباشرة تدابير سياسية واقتصادية واجتماعية وأيديولوجية هامة . بيد أن الإمكانيات التى ظهرت لم تستغل بشكل كامل . ويجد ذلك تفسيره فى الأساليب الذاتية التى أقرتها القيادة فى عهد خروتشوف . وساد الارتجال الإدارة الاقتصادية . وجعلت أفكار وأعمال القيادة العنيدة والمتغيرة ، المجتمع والحزب فى حالة محمومة . وأدت الوعود والتوقعات الطموحة والتى لاتستند إلى أساس ، أدت من جديد إلى انفصال الأقوال عن الأفعال .

ولهذا السبب ، ففى المرحلة التالية ، التى كان معلمها الرئيسى اجتماع أكتوبر

(٨) عقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى من ١٤ ـ ٢٥ فبراير ١٩٥٦ ، ووافق المؤتمر على توجيهات الخطة الخمسية السادسة للتنمية الاقتصادية للبلاد للفترة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٠ ، واكتشف مبدأ التعايش السلمى بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة كما ينطبق على الفترة الحالية ، وأدان عبادة شخصية ستالين وآثارها .

١٩٦٤ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى[٩] ، كانت الخطوة الأولى تتمثل فى التغلب على هذه التدابير المتطرفة ومقاومتها . واتخذت سياسة ترمى إلى الاستقرار . وكانت سياسة لها مايبررها تماما . ولقيت مساندة الحزب والشعب . وظهرت بعض النتائج الإيجابية . وكانت القرارات التى صيغت وأقرت مدروسة ومعللة بصورة أفضل . وكانت بداية الإصلاح الاقتصادى عام ١٩٥٦[١٠] واجتماع مارس ١٩٦٥ الكامل للجنة المركزية المكرس للزراعة مبادرتين هامتين تهدفان إلى تغييرات إيجابية فى الاقتصاد . بيد أنهما وهنتا بعد أن أعطتا تأثيرا هاما وإن كان مؤقتا .

وأدى جو الرضا عن الذات والعملية الطبيعية لتغيير القيادة إلى الركود ، وإلى إعاقة تقدم البلاد . وقد سبق لى أن وصفت ذلك . وفى نفس الوقت تطلب الوضع بدرجة أكبر قرارات هامة ودؤوبة لتحسين دولاب الإدارة الاقتصادية والاجتماعية .

فما هى الاستنتاجات التى استخلصناها من دروس التاريخ ؟.

أولا : لقد أثبتت الاشتراكية كنظام اجتماعى أنها تملك إمكانيات هائلة لحل أعقد مشاكل التقدم الاجتماعى . ونحن على قناعة بقدرتها على تخليص نفسها من المآخذ ، وعلى مواصلة المزيد من الكشف عن إمكانياتها ، وعلى معالجة المشاكل الهامة الحالية للتقدم الاجتماعى التى تنشأ مع اقترابنا من القرن الحادى والعشرين .

وفى نفس الوقت ، فنحن ندرك أن تحسين الاشتراكية ليس عملية تلقائية ، ولكنه مهمة تحتاج إلى اهتمام كبير ، وتحليل صادق وغير متحيز للمشاكل ، ورفض

---

(٩) أعنى الاجتماع الكامل الذى عقد فى ١٤ أكتوبر ١٩٦٤ نيكيتا خروتشوف من واجباته كسكرتير أول للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، وانتخب ليونيد بريجنيف لهذا المنصب .

(١٠) كان الإصلاح الاقتصادى لعام ١٩٥٦ يهدف إلى تحسين دولاب النشاط الاقتصادى فى الصناعة والبناء ، مع التأكيد على الربح .

حازم لكل ما أصبح باليا . وقد أصبحنا نرى أن التدابير المترددة لن تفيد فى هذا الخصوص . وعلينا أن نعمل على جبهة عريضة ، بثبات ونشاط ، ودون أن نعجز عن اتخاذ أجرأ الخطوات .

وهناك استنتاج آخر ـ يعتبر فى رأيى أهم استنتاج ـ يتمثل فى أننا يجب أن نعتمد على مبادرة الجماهير وإبداعيتها ، وعلى المشاركة النشطة لأوسع أقسام السكان فى تنفيذ الاصلاحات المرسومة ، وعلى إشاعة الديموقراطية مرة أخرى .

ما الذى ألهمنا أن نبدأ البيريسترويكا

إنه لمن الخطأ بل والضار أن ننظر إلى المجتمع الاشتراكى باعتباره شيئا جامدا لايتغير ، وأن نرى فى تحسينه جهدا لتكييف الواقع المعقد مع المفهومات والصيغ المقررة مرة وإلى الأبد . إن مفهومات الاشتراكية تواصل تطورها ، ويجرى إثراؤها على الدوام مع وضع الخبرة التاريخية والظروف الموضوعية فى الاعتبار .

لقد تعلمنا على الدوام ، ومانزال نتعلم من موقف لينين الخلاق من نظرية وممارسة البناء الاشتراكى . ونحن نستخدم مناهجه العلمية ونستوعب منه فى تحليل الأوضاع الملموسة .

ومع استمرار البيريسترويكا ، فإننا ندرس مؤلفات لينين المرة بعد الأخرى ، وبخاصة مؤلفاته الأخيرة .

لقد قدمت لنا كلاسيكيات الماركسية اللينينية تعريفا للخصائص الجوهرية للاشتراكية . ولكنها لم تقدم لنا صورة مفصلة للاشتراكية . وتحدثت عن مراحلها التى يمكن التنبؤ بها نظريا . ومهمتنا أن نتبين مايجب أن تكون عليه المرحلة الحالية . وسيكون علينا أن نمر بالفعل بهذه المرحلة ، لأن الكلاسيكيات تعلمنا المدخل وليس التكنيك .

وتواجهنا هذه المرحلة الجديدة بالحاجة إلى إعادة النظر فى كثير من المسائل

النظرية والأفكار القائمة عن الاشتراكية ، معتمدين على تراث لينين ومناهجه . ومثل هذه المراجعة هامة للغاية حيث أنه لم يجر التمسك على الدوام بأفكار لينين فى السنوات التى أعقبت وفاته .

ودفعنا الوضع الخاص فى البلاد إلى قبول أشكال وأساليب للبناء الاشتراكى تتفق مع الظروف التاريخية . وقد جرى تمجيد هذه الأشكال وتقديسها وتحولت إلى عقيدة جامدة . ومن ثم كانت هذه الصورة العقيمة للاشتراكية ، والمركزية المبالغ فيها فى الإدارة ، وإهمال التنوع الفنى للمصالح البشرية ، والتهوين من الدور النشط الذى يلعبه الناس فى الحياة العامة واتجاهات المساواة الصريحة .

ولنأخذ نموذج الإدارة الاقتصادية . فالوضع التاريخى الخاص الذى تطور فيه الاتحاد السوفيتى ، وظروفنا الصعبة ، لايمكن إلا وأن تؤثر على هذا النموذج . إن التهديد بالحرب ، ثم وقوع أكثر الحروب دموية ودمارا فى التاريخ كان من الممكن أن يكون صعبا حتى بدونها ، ومحاولة إعادة التعمير فيما بعد الحرب ، كل ذلك أدى إلى نشأة المركزية الصارمة فى الإدارة . ونتيجة لذلك تقلصت الأسس الديموقراطية لنظام الإدارة لدينا .

ولنعد الآن إلى كيف تطور هذا التناقض . عندما بدأت روسيا السوفيتية الفنية بناء مجتمع جديد ، كانت تقف وحدها ضد العالم الرأسمالى ، وتواجه الحاجة إلى التغلب السريع على التخلف الاقتصادى والتكنولوجى ، وتقيم صناعة حديثة عمليا من لاشىء . وقامت كذلك بنشاط لم يسبق له مثيل .

وكان علينا ، لكى نقوم بذلك ، أن نزيد بشكل حاد من نسبة المدخرات فى دخلنا القومى وخصص الجزء الأكبر من الأموال لتطوير الصناعة الثقيلة ، بما فى ذلك صناعة الدفاع . ولم نطرح على الإطلاق السؤال ، كم كلفتنا هذه الأولوية ، أو ظل فى أفضل الأحوال فى الخلفية . ولم تضن الدولة بأية نفقات ، وكان الشعب راغبا فى تقديم التضحيات من أجل تقدم بلاده السريع ، ومن أجل قدراتها

الدفاعية ، واستقلالها وخيارها الاشتراكي .

وكان الغرض من نظام الإدارة الذى وضع ، هو أن يلبى هذه الأهداف . وكان ممركزا بشكل قاس . وخطط التكليفات حتى آخر التفاصيل . وحدد المهام بحزم ورصد أحوال الميزانية . وأنجز رسالته .

ومع ذلك ، فلا يمكننا أن نعزو مثل هذه الإدارة كلية إلى الظروف الموضوعية . فقد كانت هناك مقدمات خاطئة وقرارات ذاتية . وعلينا أن نضعها فى أذهاننا كذلك ونحن نقيّم مشاكلنا اليوم . ومهما كان الأمر ، فقد بدأ نظام الإدارة الذى تشكل فى الثلاثينيات والاربعينيات يتناقض تدريجيا مع مطالب وظروف التقدم الاقتصادى . واستنفدت إمكانياته الإيجابية . وأصبح يشكل عقبة أكثر فأكثر ، وأدى إلى نشأة الدولاب الكابح الذى أنزل بنا كثيرا من الأضرار فيما بعد. وكانت الأساليب التى تطلبتها الأوضاع الصعبة ماتزال تستخدم .

وهنا دفعت النزعة العقائدية إلى تطور اقتصاد « منهك »[(١١)] ، اكتسب قوة دفع كبيرة واستمر فى الوجود حتى منتصف الثمانينيات . وفى ذلك تكمن جذور « نظرة إجمالى الناتج »[(١٢)] التى سادت اقتصادنا حتى وقت قريب .

وفى هذه الظروف ظهر اتجاه متحيز لصالح دور العلاقات السلعية ـ النقدية وقانون القيمة فى ظل الاشتراكية . وغالبا ماقيل إنهما يتعارضان مع الاشتراكية وغريبان عليها . وارتبط كل هذا بالتقليل من شأن حساب الربح والخسارة ، وأدى إلى الفوضى فى تحديد الأسعار ، وإلى تجاهل دورة النقود .

وفى الظروف الجديدة بدأ الأساس الديموقراطى الضيق القائم للإدارة يفرز أثرا

---

(١١) الاقتصاد « المنهك » ـ أمر مظاهر الإدارة الشاملة للاقتصاد حيث يتحقق النمو غالبا من خلال بناء مصانع ووحدات انتاجية جديدة وتوظيف عمال أكثر ، مما يؤدى إلى زيادة تكاليف الإنتاج ، دون أى زيادة فى الإنتاجية .

(١٢) « نظرة إجمالى الربح » ـ التخطيط والإنتاج غير المتوازن الذى يؤكد على « وزن » و « كمية » المنتجات بدلا من تحسين جودتها وتعديل العرض وفق الطلب الحقيقى .

سلبيا شديدا . ولم يترك سوى مكانا محدودا لفكرة لينين فى الحكم الذاتى للجماهير العاملة . وعزلت الملكية العامة بالتدريج عن ملاكها الحقيقيين ـ العمال ـ وكثيرا ما عانت هذه الملكية من النزعة الديوانية والمحلية ، وغدت أرضا بلا صاحب ، تفتقر إلى مالك حقيقى وظهرت أمارات متزايدة لاغتراب الإنسان عن ملكية كل الشعب ، والافتقار إلى التنسيق بين المصلحة العامة والمصالح الخاصة للشعب العامل . وكان هذا هو السبب الهام لما حدث فى المرحلة الجديدة حيث بدأ نظام الإدارة الاقتصادية الجديد يتحول من عامل تطوير إلى آلية كابحة عرقلت تقدم الاشتراكية .

وعندما يتحدث المرء عن الجانب السياسى للدولاب الكابح ، لايمكنه أن يعجز عن رؤية تطور وضع مناقض : إذ لم يستطع الناس المتعلمون الموهوبون الملتزمون بالاشتراكية الاستفادة الكاملة من الإمكانيات الكامنة فى الاشتراكية ، ومن حقهم فى المشاركة الحقيقية فى إدارة شئون الدولة . لقد كان العمال والفلاحون والمثقفون يمثلون ، بالطبع ، على الدوام فى كافة هيئات السلطة والإدارة ، ولكنهم لم يجذبوا على الدوام إلى صنع واتخاذ القرارات بالدرجة اللازمة للتطور السليم للمجتمع الاشتراكى . وكانت الجماهير مستعدة لبذل جهد سياسى أكثر نشاطا ، ولكن لم يكن ذلك متاحا ، رغم أن الاشتراكية تزداد قوة على وجه التحديد كلما أشركت أعدادا متزايدة دوما من الناس فى النشاط السياسى .

وأدى الدولاب الكابح فى الاقتصاد ، بكل آثاره الاجتماعية والايديولوجية إلى بنى عامة تكبلها البيروقراطية ، وإلى اتساع البيروقراطية على كافة المستويات . واكتسبت هذه البيروقراطية نفوذا كبيرا للغاية فى كل شئون الدولة والشئون الإدارية وحتى الشئون العامة .

وغنى عن القول أن إفكار لينين القيمة عن الإدارة والحكم الذاتى ، وحساب الربح والخسارة وربط المصالح العامة بالمصالح الخاصة عجزت فى هذه الظروف عن

أن تطبق وتطور بشكل سليم . وهذا ليس سوى مثال واحد للفكر الاجتماعى المتحجر المنفصل عن الواقع .

وضعت البيريسترويكا مهاما جديدة لسياستنا وفكرنا الاجتماعى . وتضمنت وضع حد لتحجر الفكر الاجتماعى من أجل إعطائه آفاقا أعرض ، والتغلب بشكل كامل على آثار هذا الاحتكار للنظرية ، والذى تميزت به فترة عبادة الشخصية . ففى هذه الفترة تحولت أشكال تطور المجتمع الاشتراكى التى ظهرت فى ظروف صعبة إلى شىء مطلق بفعل سطوة ستالين واعتبرت أنها الأشكال الممكنة الوحيدة بالنسبة للاشتراكية .

ينبغى إجراء تغيير حاد فى الفكر السياسى والاجتماعى . وفى ذلك يجب أن نتعلم من لينين . لقد كانت لديه قدرة نادرة على أن يحس فى الوقت المناسب بالحاجة إلى تغييرات جذرية ، وإلى إعادة تقييم القيم ، وإلى مراجعة التوجيهات النظرية والشعارات السياسية .

وإليكم مثالا صارخا للغاية ، فى أبريل ١٩١٧ ، عندما عاد لينين إلى روسيا ، لم يضع وقتا طويلا فى تقييم الوضع واتجاهات التطور وإمكانياته بدقة فى البلاد بعد ثورة فبراير(١٣) . ولم يحدد فقط بشكل سليم تكتيكات الحزب والسوفيتات الممكنة والوحيدة ، بل رسم أيضا مهمة استراتيجية جديدة ، مهمة إعداد الحزب والجماهير لثورة اشتراكية . وإلا لكانت المكتسبات التى تحققت بالإطاحة بالحكم المطلق قد تعرضت للضياع . ولم يكن مثل هذا التغير فى التكتيكات متوقعا حتى بالنسبة للكثير من البلاشقة المتمرسين . وهذا هو نوع الجدل فى التفكير السياسى الذى نتعلمه ونحن ننفذ البيريسترويكا .

وفى ذلك الوقت وفيما بعد على السواء ، غالبا ماحدث أن كان الحزب بطيئا

---

(١٣) أطاحت ثورة فبراير ١٩١٧ الديموقراطية البرجوازية بالعنصرية . وأقيمت حكومة مؤقتة ، كان عليها أن تشارك السلطة مع سوفيتات نواب العمال والفلاحين والجنود .

للغاية فى فهم الأفكار الجديدة وكان من الصعب فى بعض الأحيان ، حتى لدى بعض الأشخاص الملتزمين بقضية الثورة أن يكشفوا عن سوء فهم لديهم . بيد أن لينين وزملاءه كانت لديهم القدرة على إقناع الناس ، وعلى شرح الأمور ، وعلى العودة المرة بعد المرة إلى نفس المسألة ، ليبعثوا الطاقة فى الآخرين ، وليكسبوا من خامرهم التردد أو الشك . ووجد لينين نفسه أن المسألة صعبة فى بعض الأحيان . وقد كتب فى إحدى رسائله بمرارة ذات مرة ، مشيرا إلى هؤلاء الذين عجزوا عن مواجهة المصاعب ، وكانوا يبحثون عن حياة مريحة فى الثورة : هناك أوقات قاسية ، وقاسية للغاية فى بعض الأحيان ، ولكننى لن أقبل لأى سبب كان مبادلة أصغر جزء من هذه الفترة مقابل الحياة بكاملها فى صحبة أشخاص سطحيين وسوقيين .

وقد ذكرت مرات عديدة ، بالرجوع إلى لينين ، أنك إذا ما عالجت مسائل معينة دون أن ترى المنظور العام ، فسوف تستمر تتخبط فى هذا المنظور العام طول الوقت . ومنذ أن اتخذنا من هذا خطا مرشدا لنا ، منذ البداية الأولى للبيريسترويكا ، وبخاصة فى اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، أولينا أهمية رئيسية للنظرة التصورية وقد سعينا بالطبع لأن نقلل من فوضى الأساليب . فلكى تحقق مكسبا هاما ، ليس من الضرورى على الإطلاق أن تبدأ بقلب الأمور ثم تبدأ بتصحيح كافة الأخطاء .

وثمة مهام جديدة ينبغى التصدى لها دون أن تكون لدينا إجابات جاهزة . كما لا توجد مثل هذه الإجابات اليوم . ولم يقدم لنا علماء الاجتماع بعد أى شىء متماسك . والاقتصاد السياسى للاشتراكية تعلق به مفهومات بالية ولم يعد يتمشى مع جدليات الحياة . وتتخلف الفلسفة وعلم الاجتماع كذلك عن متطلبات الممارسة . كما يجب أن يخضع علم التاريخ لمراجعة هامة .

لقد أتاح المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتى والاجتماعات

الكاملة للجنة المركزية فرصا جديدة للفكر الخلاق ، وأعطت دفعة قوية لتطوره . لايمكن أن تكون هناك حركة ثورية بدون نظرية ثورية ـ إن هذا المبدأ الماركسى ملائم اليوم أكثر من أى وقت مضى .

البيريسترويكا ثورة

البيريسترويكا كلمة لها معان عديدة . ولكن إذا ماكان لنا أن نختار بين مترادفاتها العديدة واحدا يعبر عن جوهرها بدقة أكبر ، أمكننا أن نقول مايلى : إن البيريسترويكا ثورة . إن التسريع الحاسم للتنمية الاجتماعية ـ الاقتصادية والثقافية للمجتمع السوفيتى ، والذى يشمل تغييرات جذرية على الطريق نحو دولة جديدة نوعيا ، هو بدون شك مهمة ثورية .

وأعتقد أنه كان لدينا كل الحق فى أن نعلن فى اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل : أن النهج الحالى ، فى جوهره ، وفى جرأته البلشفية . وفى اندفاعه الاجتماعى الإنسانى ، هو تكملة مباشرة للإنجازات العظيمة التى بدأها الحزب اللينينى فى أيام أكتوبر ١٩١٧ . إنه ليس تكملة فحسب ، بل هو امتداد وتطوير للأفكار الأساسية للثورة . ويجب أن نضفى دينامية جديدة على اندفاع ثورة أكتوبر التاريخى ونواصل كل ما بدأته فى مجتمعنا .

ونحن لانساوى البيريسترويكا ، بالطبع ، بثورة أكتوبر التى تعتبر نقطة انعطاف فى تاريخ دولتنا الذى يبلغ ألف عام ، والتى لايضاهيها شىء فى قوة تأثيرها على تطور البشرية . ومع ذلك ، فلماذا نتحدث فى العام السبعين لثورة أكتوبر عن ثورة جديدة ؟ .

وقد يساعد القياس التاريخى فى الإجابة على هذا السؤال . فقد أشار لينين ذات مرة إلى أنه فى فرنسا ، بلد الثورة البرجوازية الكلاسيكية ، تطلب الأمر ثلاث ثورات أخرى (١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ، ١٨٧١) بعد ثورتها العظيمة ١٧٨٩ ـ

١٧٩٣ ، لتحقيق أهدافها . وينطبق نفس الشيء على بريطانيا ، حيث تلت ثورة كروموبل عام ١٦٤٩ ، ثورة ١٦٨٨ ـ ١٦٨٩ المجيدة . ثم كان إصلاح ١٨٣٢ ضروريا لكى تستقر الطبقة الجديدة بشكل نهائى فى السلطة ـ البرجوازية . وفى ألمانيا كانت هناك ثورتان برجوازيتان ديموقراطيتان (١٨٤٨ و ١٩١٨) وفيما بينهما الإصلاح الكبير لستينيات القرن التاسع عشر الذى نفذه بسمارك «بالحديد والدم» .

« ولم يحدث فى التاريخ إطلاقا «كما كتب لينين» ، أن كانت هناك ثورة من الممكن أن يلقى المرء فيها سلاحه ويستريح على إكليل الغار بعد النصر» . فلماذا إذن ينبغى على الاشتراكية المدعوة إلى تنفيذ تغييرات اجتماعية ـ سياسية وثقافية أكثر عمقا فى تطور المجتمع من الرأسمالية ألا تمر بمراحل ثورية عديدة لكى تكشف عن قدرتها الكاملة وتتبلور فى النهاية كتشكيل جديد جذريا ؟ لقد كرر لينين الفكرة التالية أكثر من مرة : إن الاشتراكية قد تتضمن محاولات جديدة . ومن الممكن أن تكون كل محاولة أحادية الجانب من زاوية معينة ، ومن الممكن أن يكون لكل منها خصائصها الخاصة ، وينطبق ذلك على كافة البلدان .

وقد أوضحت الخبرة التاريخية أن المجتمع الاشتراكى ليس مؤمّنا ضد ظهور وتراكم اتجاهات الركود ، ولا حتى ضد الأزمات الاجتماعية ـ الاقتصادية الكبرى . وهناك حاجة على وجه التحديد إلى تدابير ذات طابع ثورى للتغلب على الأزمة ، أو على وضع ماقبل الأزمة . والشيء الأهم هنا هو أن الاشتراكية قادرة على التغييرات الثورية ، لأنها دينامية بطبيعتها .

وفى ربيع ١٩٨٥ وضع الحزب هذه المهمة فى جدول الأعمال . وتطلبت خطورة المشاكل المتراكمة والناشئة ، والتأخير فى فهمها وحلها ، التصرف بطريقة ثورية وإعلان فحص ثورى للمجتمع .

والبيريسترويكا عملية ثورية لأنها قفزة إلى الأمام فى تطور الاشتراكية ، وفى تحقيق خصائصها الجوهرية . ولقد أدركنا منذ البداية أنه ليس لدينا وقت نضيعه .

ومن المهم للغاية ألا نبقى طويلا جدا عند خط البداية، وأن نتغلب على التلكؤ، وأن نخرج من مستنقع النزعة المحافظة ، وأن نحطم القصور الذاتى للركود . وذلك لايمكن أن يتم بطريقة تطورية ، عن طريق إصلاحات متسللة تعوزها الشجاعة. وأقولها ببساطة : إنه ليس لدينا وقت للاسترخاء ، ولا ليوم واحد . وعلى العكس ، فعلينا يوما بعد يوم أن نضاعف جهدنا ، وأن نعزز وتيرته وكثافته . وعلينا أن نقاوم الضغوط ، أو مايسميه رواد الفضاء ، بالأحمال الزائدة الكبيرة ، فى المرحلة الأولى من إعادة البناء .

إن الثورة ينبغى تطويرها على الدوام . ولايجب أن يكون هناك وقت للانتظار ويكشف ماضينا عن ذلك . ومازلنا نشعر بآثار التباطؤ . ولذلك فنحن نحتاج الآن إلى شجاعة وجرأة مضاعفة ، وإذا ما توقفنا ثانية ، فسوف تزيد المشاكل ، وعلى ذلك ـ فإلى الأمام فقط !

إن التصرف بطريقة ثورية لايتضمن بالطبع اندفاعا متهورا . وهجمات الفرسان بعيدة عن أن تكون مناسبة على الدوام . فالثورة تحكمها قوانين السياسة ، ومن الممكن . وينبغى تجنب تخطى مراحلها وتخطى أنفسنا . وتتمثل المهمة الآن فى خلق أساس للتقدم نحو حدود نوعية جديدة . وإلا فقد يتحول كل الأمر إلى فوضى وتشوه سمعة القضية العظيمة .

ووفقا لنظريتنا فإن الثورة تعنى البناء ، ولكنها تتضمن كذلك التدمير على الدوام . والثورة تحتاج إلى تدمير كل ماهو عتيق ، وراكد ، وكل مايعوق التقدم السريع . وبدون تدمير ، لايمكنك أن تنظف الموقع لبناء جديد . وتعنى البيريسترويكا كذلك إزالة جذرية وحازمة للعقبات التى تعرقل التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، ولأساليب إدارة الاقتصاد التى انقضى زمانها ولعقلية القوالب العقائدية . وتؤثر البيريسترويكا على مصالح كثير من الناس ، على مصالح المجتمع بأسره . ويثير التدمير ، بالطبع ، النزاعات ، وأحيانا الصدمات الضارية بين القديم

والجديد . وليس هناك قنابل تنفجر ، أو رصاصا تتطاير ، بالطبع ، ولكن الذين يعترضون الطريق يقاومون . وكذلك فإن عدم التصرف ، واللامبالاة ، والكسل ، وعدم الشعور بالمسئولية . وسوء الإدارة ، كلها تشكل مقاومة أيضا .

وهذا شيء مفهوم . لقد ازداد جو مجتمعنا توترا مع تزايد جهد البيريسترويكا عمقا . وسمعنا بعض الناس يقولون : هل كان هناك مايدعو إلى بدء كل ذلك على الإطلاق ؟.

ولايقبل حتى بعض الناس كلمة «ثورة» عندما تعنى هذا الجهد . والبعض يرتعدون حتى للفظ «الإصلاح» . بيد أن لينين لم يكن يخشى استخدام هذه الكلمة ، بل علّم البلاشفة أنفسهم أن يسعوا إلى «الإصلاح» حيثما احتاج الأمر إلى ذلك ، لمواصلة قضية الثورة فى الظروف الجديدة . ونحن اليوم نحتاج إلى إصلاحات جذرية للتغيير الثورى .

وتتمثل إحدى علامات أى فترة ثورية فى تعارض واضح بدرجة أو أخرى بين المصالح الحيوية للمجتمع الذى تستعد طلائعه لتغييرات حيوية ، وبين المصالح العاجلة اليومية للناس . والبيريسترويكا تضرب بشدة هؤلاء الذين اعتادوا العمل بالطريقة القديمة . ولاتوجد لدينا أى معارضة سياسية ، ولكن هذا لايعنى أنه لاتوجد مواجهة مع الذين لا يقبلون البيريسترويكا ، لأسباب مختلفة . وربما كان على كل امرئ أن يقدم تضحيات فى المرحلة الأولى من البيريسترويكا ، ولكن سيكون على البعض أن يتخلوا طواعية عن الامتيازات التى لايستحقونها والتى اكتسبوها بشكل غير مشروع ، وعن الحقوق التى عرقلت تقدمنا .

لقد كانت مسألة المصالح على الدوام مسألة رئيسية بالنسبة للحزب فى اللحظات الحرجة . وسيكون من المناسب أن نتذكر كيف كافح لينين من أجل معاهدة صلح برست[١٤] فى عام ١٩١٨ المضطرب . كانت الحرب الأهلية تستعر . وفى هذه

---

(١٤) معاهدة صلح برست ـ معاهدة صلح بين روسيا السوفيتية وبلدان الاتفاق الرباعى (ألمانيا ، والنمسا =

اللحظة أتى تهديد خطير من ألمانيا . ولهذا اقترح لينين توقيع معاهدة صلح معها .

وكانت شروط السلام التى وضعتها ألمانيا لنا بشكل متعجرف « مهينة وقذرة » كما وصفها لينين ، وكانت تعنى ضم بقعة واسعة من الأرض بسكانها الذين يبلغون ستة وخمسين مليونا . وبدا من المستحيل قبولها . ومع ذلك أصر لينين على معاهدة الصلح . وعارض حتى بعض أعضاء اللجنة المركزية ، وقالوا إن العمال كذلك يطالبون بردع الغزاة الألمان . ومع ذلك استمر لينين يدعو للسلام لأنه كان يسترشد بالمصالح الحيوية ، لا العاجلة ، مصالح الطبقة العاملة فى مجموعها ، والثورة ومستقبل الاشتراكية . ولحماية هذه المصالح ، احتاجت البلاد إلى التقاط الأنفاس قبل أن تتقدم إلى الأمام ، وأدرك قليلون ذلك فى هذا الوقت . وكان من السهل فيما بعد وفقط أن نقول بثقة وبوضوح إن لينين كان على صواب . وكان على صواب بالفعل ، لأنه كان يتطلع بعيدا ، ولم يضع ماهو مؤقت فوق ماهو جوهرى . وهكذا أنقذت الثورة .

ونفس الشىء مع البيريسترويكا . فهى تلبى المصالح الحيوية للشعب السوفيتى وتهدف إلى نقل المجتمع إلى حدود جديدة ورفعه إلى مستوى نوعى جديد . وسيكون علينا أن نقدم تضحيات ، لن تكون سهلة . إن العادات والأفكار القائمة تتحلل أمام أعيننا . واختفاء الأشياء المألوفة يثير الاحتجاج . ولاتريد النزعة المحافظة أن تستسلم ، بيد أن كل هذا يمكن بل ويجب التغلب عليه إذا ما أردنا أن نلبى المصالح الطويلة الأمد للمجتمع ولكل فرد .

لقد واجهنا بالفعل مسألة العلاقة بين المصالح العاجلة والطويلة الأمد عندما بدأنا نطبق تفتيش الجودة الحكومى [١٥] . فلتحسين جودة المنتجات أنشأنا جهازا

= ـ المجر ، وتركيا ، وبلغاريا) وقعت فى ٨ مارس ١٩١٨ فى برست ليتوفسك . وقد ألغتها الحكومة السوفيتية فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨

(١٥) تفتيش الجودة الحكومى ـ نظام للرقابة على جودة المنتجات ، مستقل عن إدارة المؤسسة ، وخاضع للجنة التوحيد القياسى الحكومية للاتحاد السوفيتى . وقد أدخل هذا النظام فى أول يناير ١٩٨٧ ، فى ١٥٠٠ مؤسسة صناعية . وجرى التخطيط لمواصلة توسيعه .

مستقلا لضمان أن تلبى المنتجات المعايير القائمة . وفى البداية انخفضت دخول كثير من العمال ، ولكن المجتمع كان فى حاجة إلى تحسين الجودة ، ونظر العمال إلى الإجراء الجديد بتفهم . ولم تكن هناك احتجاجات منهم . وعلى العكس يقول العمال الآن : « إنه لشىء مشين أن تحصل على مالم تتكسبه » . وفى نفس الوقت ، فإنهم يريدون من المديرين ، والمهندسين ، والعاملين التكنيكيين أن يتخذوا نفس الموقف . وهكذا أصبح تفتيش الجودة الحكومى أرض اختبار للبيريسترويكا . لقد كشف عن مواقف الناس من العمل والاحتياطيات البشرية التى يمكن الاستفادة منها للبيريسترويكا . لقد أصبح تفتيش الجودة الحكومى ورقة اختبار تؤكد مرة أخرى أن الطبقة العاملة السوفيتية فى مجموعها تؤيد تماما إعادة البناء ، وأنها على استعداد لتطويرها ، ولأن تنجز فى الممارسة دورها كطبقة طليعية للمجتمع الاشتراكى .

إن البيريسترويكا ، كالثورة ، ليست شيئا يمكن أن تلهو به . وعليك أن تواصل العمل حتى النهاية ، وتحقق تقدما كل يوم حتى تشعر الجماهير بنتائجه ، وحتى يمكن للعملية أن تزداد قوة ماديا وروحيا على السواء .

وعندما نطلق على تدابيرنا أنها ثورية ، فإنما نعنى أنها بعيدة المدى ، وجذرية ، ولا تقبل مساومة ، وتؤثر على كل المجتمع من القمة حتى القاعدة . إنها تؤثر على كل مناحى الحياة وذلك بطريقة شاملة . ولا يعنى هذا تجميل مجتمعنا ، أو تضميد جروحه ، ولكن يتضمن شفاءه وتجديده تماما .

تعتبر السياسة دون شك أهم شىء فى أى عملية ثورية . ويصح ذلك بالطبع على البيريسترويكا . ولذلك فنحن نولى أولوية للتدابير السياسية ، والإشاعة الديموقراطية الحقيقية والواسعة ، وللنضال الحازم ضد الروتين وانتهاك القانون ، ولمشاركة الجماهير النشطة فى إدارة شئون البلاد . وكل ذلك يرتبط مباشرة بالمسألة الأساسية فى أى ثورة ، وهى مسألة السلطة .

ولن نغير السلطة السوفيتية ، بالطبع ، أو نتخلى عن مبادئها الرئيسية ، ولكننا

نعترف بالحاجة إلى تغييرات تدعم الاشتراكية وتجعلها أكثر دينامية ، وذات مغزى من الناحية السياسية . ولهذا السبب فلنا كل الحق فى أن نصف خططنا من أجل إشاعة الديموقراطية الواسعة النطاق فى المجتمع السوفيتى بأنها برنامج للتغييرات فى نظامنا السياسى .

ومن ثم فعلينا ـ إذا ما أردنا للبيريسترويكا النجاح ـ أن نوجه كل عملنا إلى مهام وأساليب القيادة السياسية . وأهم عنصر فى نشاط منظمات الحزب والعاملين فيه هو العمل السياسى بين الجماهير ، والتربية السياسية لجماهير العاملين ، ورفع مستوى نشاط الشعب السياسى . لقد برز إلى المقدمة من جديد المعنى الأصلى لمفهوم «الاشتراكية» باعتبارها ، فى المقام الأول ، حركة سياسية وأيديولوجية للجماهير ، حركة قاعدية تكمن قوتها أساسا فى وعى ونشاط الإنسان .

إن الثورة ظاهرة لايضارعها شىء . ونشاطنا اليومى ينبغى ألا يضارعه شىء ، كالثورة ، وينبغى أن يكون ثوريا . والبيريسترويكا تتطلب زعماء حزبيين قريبين للغاية من مثل لينين كبلشفى ثورى . إن تحكّم الموظفين ، والروتين ، والاستعلاء ، والوصولية لاتتفق مع هذه المثل . ومن ناحية أخرى ، تبجل لدرجة كبيرة الشجاعة والمبادرة ، والمستويات الأيديولوجية العالية ، والنقاء المعنوى ، والاندفاع الدائم لمناقشة الأمور مع الناس ، والقدرة على الدفاع بحزم عن القيم الإنسانية للاشتراكية . إن الوضع الثورى يتطلب الحماس ، والإخلاص والتفانى . وهذا ماينطبق بشكل خاص على القادة . ومايزال أمامنا طريق طويل للتوصل إلى هذه المثل ، إن كثيرا من الناس مايزالون «فى حالة تطور» ، أو بوضوح ، يتبنون موقف الترقب .

« ثورة من أعلى »
الحزب والبيريسترويكا

هناك مصطلح فى العلوم التاريخية وكذلك فى المفردات السياسية : « ثورة من أعلى » . وقد كان هناك عدد محدود من أمثال هذه الثورات فى التاريخ . ولكن يجب عدم الخلط بينها وبين « الانقلابات » وثورات القصور . إن مانعنيه هو التغييرات العميقة والثورية حقا التى يجرى تنفيذها بمبادرة من السلطات نفسها ، والتى تطلبتها التغييرات الموضوعية فى الوضع وفى المزاج الاجتماعى .

وقد يبدو أن البيريسترويكا الحالية لايمكن أن يطلق عليها « ثورة من أعلى » حقا ، لقد بدأت حركة البيريسترويكا بمبادرة من الحزب الشيوعى ، والحزب يقودها . ولدى الحزب من القوة والجرأة مايكفى لوضع سياسة جديدة . كما برهن على أنه قادر على قيادة وخوض عملية تجديد المجتمع ، وقد بدأ الحزب المحاولة بتقويم نفسه . وتحدثت عن ذلك بصراحة فى اجتماعى مع نشطاء الحزب فى خاباروفسك ، فى صيف ١٩٨٦ . وقلت ، يجب أن نبدأ بأنفسنا ، وعلى كل فرد أن يتحمل المسئولية : فى المكتب السياسى ، وفى الهيئات المحلية ، وفى منظمات الحزب القاعدية . ينبغى أن نكون أفضل مما نحن عليه . وسوف نساعد من لايستطيعون تقويم أنفسهم . والشىء الرئيسى أن يكون ضميرنا حيا . لقد اعتدنا على كثير من الممارسات عندما لم تكن هناك صراحة . وينطبق ذلك على العناصر العادية وعلى كبار المسئولين على السواء .

ولا أعنى بذلك أننا يجب أن نتملق الناس ، كما يفعل المرشحون فى بعض البلاد خلال الحملات الانتخابية . فشعبنا لايحب ذلك . ويجب أن يعرف الحقيقة ، ولا ينبغى على المرء أن يخشى من شعبه . والصراحة خاصية للاشتراكية . ولكن مايزال هناك بعض الناس ، فى المراتب العليا ، يتحدثون إلى الجميع عن الأخلاق

الاشتراكية ، ويتحدثون بشكل آخر مع أنفسهم ، أى ، بما يناسب أغراضهم الأنانية ، وهذا لايصلح .

وباختصار ، لقد بدأت محاولة إعادة البناء بالحزب وقيادته . وبدأنا من قمة الهرم واتجهنا إلى قاعدته. وعلى ذلك فإن مفهوم « الثورة من أعلى » لاينطبق تماما على البيريسترويكا . إنه يحتاج على الأقل إلى بعض التحفظات . نعم إن قيادة الحزب قد بدأتها . وصاغت أعلى هيئات الحزب والدولة البرنامج وأقرته . حقا إن البيريسترويكا ليست عملية تلقائية ولكنها عملية موجهة . وهذا ليس سوى جانب واحد من المسألة .

وماكان للبيريسترويكا أن تكون مهمة ثورية حقا ، وماكان لها أن تكتسب نطاقها الحالى أو ماكان لها أن تتاح لها فرصة جادة فى النجاح ، إذا لم تكن قد وحّدت بين المبادرة من « أعلى » وبين حركة القاعدة ، وإذا لم تكن قد عبرت عن المصالح الرئيسية طويلة المدى لكافة جماهير الشعب ، وإذا لم تكن الجماهير قد اعتبرتها برنامجا لها ، واستجابة لأفكارها واعترافا بمطالبها ، وإذا لم يكن الشعب قد أيدها بحماس وبشكل فعال .

إن طبيعة إعادة البناء نفسها تتضمن أن تمضى فى كل مكان عمل ، وفى كل أسرة عمل ، وفى نظام الإدارة بكامله ، وفى هيئات الحزب والدولة ، بما فى ذلك المكتب السياسى والحكومة . إن إعادة البناء تهم الجميع ، من الشيوعى العادى إلى سكرتير اللجنة المركزية ، ومن العامل فى الورشة حتى الوزير ، ومن المهندس حتى الأكاديمى . ومن الممكن أن نصل إلى نهاية ناجحة فقط إذا ماغدت جهدا على نطاق البلاد حقا . ولكن على أية حال ، ينبغى على كل امرئ أن يعمل بأمانة وبضمير حى ، وألا يضن بجهوده وقدراته . وسوف يشارك فى مثل هذه الحركة مزيد ومزيد من الناس .

وعندما يقترح موقف جاد ومدروس ، فسيلقى على الدوام مساندة الجماهير العاملة

وفهمها . وهذا بالضبط ماحاولنا التعرف على منواله طوال العامين والنصف عام الماضيين ، وربما لم نعبّر بعد عن أنفسنا بشكل كامل ، أو نوضح للشعب كل تعقيدات الوضع الذى وجدت البلاد نفسها فيه ، وما الذى يجب عمله . ولكننا قلنا أهم شىء ولقينا المساندة والترحيب استجابة لذلك .

وتبرز عناصر الضعف وعدم الثبات فى كافة ماعرفنا من « الثورات من أعلى » فى افتقاد مثل هذه المساندة من أسفل ، وإلى انعدام التفاهم والعمل الدؤوب مع الجماهير، ونتيجة لافتقاد كل هذه الأشياء كانت هناك الحاجة إلى درجة ما من الضغط القمعى من أعلى . وأدى ذلك إلى تشويهات فى مجرى التغييرات ، ومن ثم إلى « تكاليفها » الاجتماعية ـ السياسية والمعنوية الباهظة .

وتتمثل السمة المميزة للبيريسترويكا وقوتها فى أنها تشكل فى نفس الوقت ثورة « من أعلى » و « من أسفل » . وفى هذا تكمن أهم الضمانات التى يعول عليها لنجاحها ولأن تكون لارجعة فيها . وسنسعى بدأب لضمان أن تحافظ الجماهير « الناس من أسفل » على كافة حقوقهم الديموقراطية ويتعلموا استخدامها بطريقة عادية وكفؤة ومسئولة . وتؤكد لنا الحياة بوضوح أن الناس عند المنعطفات الحادة للتاريخ ، وفى ظل الأوضاع الثورية ، يبدون قدرة ملحوظة على الإنصات ، والفهم والاستجابة إذا ماقيلت لهم الحقيقة . وهذه هى على وجه الدقة الطريقة التى تصرف بها لينين حتى فى أصعب اللحظات بعد ثورة أكتوبر وخلال الحرب الأهلية ، عندما ذهب إلى الناس وتحدث إليهم بصراحة . ولهذا السبب فمن المهم للغاية أن تحتفظ البيريسترويكا بمستوى عال من النشاط السياسى ومن طاقة العمل بين الجماهير.

وكثيرا مايقولون فى الغرب إن البيريسترويكا ستواجه المصاعب ، وأن هذا سوف يثير استياء جماهيرنا العاملة . فما الذى يمكن أن أقوله ردا على ذلك ؟ ستكون هناك بالطبع صعوبات فى مثل هذه المهمة الكبيرة . وإذا ماصادفنا سخطا أو احتجاجا

مشروعا ، فسوف نبذل جهدا جادا لكى نتحقق ، فى المقام الأول ، من الأسباب التى تكمن وراء ذلك ، ولايمكن للحماس الإدارى أن يساعد فى مثل هذه الحالات. ويجب على هيئات السلطة والمنظمات الاقتصادية والعامة أن تتعلم كيف تعمل حتى لاتعطى أية مبررات لمثل هذه المظاهر ، وحتى تحل فى الوقت المناسب المسائل التى قد تثير ردود الفعل هذه عندما تحدث . وإذا لم تحل السلطات المشاكل الخاصة التى تهم الناس ، فإنهم سيحاولون حلها بأنفسهم . وإذا كان الناس يواصلون الحديث فى الاجتماعات ويتوجهون إلى السلطات العليا ، ولكن الأخيرة تتجاهل الأمور ، فإن أفعالا غير عادية تبدأ تحدث فى القاعدة . وهذه نتيجة مباشرة للتقصير فى عملنا .

ولدينا فقط معيار واحد فى حالتنا : سوف ننصت إلى كل مايدعم الاشتراكية ونأخذه فى الاعتبار ، فى الوقت الذى سنقاوم فيه الاتجاهات الغريبة على الاشتراكية . ولكن فى إطار العملية الديموقراطية ، وأكرر ذلك بالنزعة الثورية ، وعدم الانجراف بعيدا . هذا ، ومن مبادئ الروح الثورية اللينينية الحقة ، عدم التلاعب بالنزعة الثورية ، وعدم الانجراف بعيدا وعدم الإطراء أو الإفراط فى الأساليب الإدارية .

وعندما يسألوننا عما إذا كنا ندفع الأمور أكثر مما يجب ، نجيب عليهم : كلا ، إننا لانفعل ذلك . فليس هناك بديل معقول للبيريسترويكا الثورية الدينامية . والبديل هو الركود المستمر . ويتوقف على نجاح البيريسترويكا مستقبل الاشتراكية ومستقبل السلام . والمخاطر شديدة للغاية . ويفرض علينا الزمن خيارا ثوريا وقد حسمناه . ولن نتراجع عن البيريسترويكا وإنما سنمضى فيها .

وعندما سألنى جيمى كارتر ، الذى التقيت به هذا الصيف « هل أنت واثق من نجاح جهودك للإصلاح الاقتصادى والسياسى فى الاتحاد السوفيتى » ، أجبت :

« لقد بدأنا مهمة صعبة وكبيرة فى المجالات السياسية والاقتصادية ،

والاجتماعية ، والروحية. والبيريسترويكا تهم كافة المجموعات فى المجتمع . وهذه ليست مهمة سهلة. لقد دخلنا مراحل معينة ، وربما كانت أهم مراحل إعادة البناء. لقد اقترحنا سياسة التغيير ونحن نرى أنها تجد ترحيبا من المجتمع ، ويجرى تنفيذها . وتبرز مشاكل عديدة بالطبع .

«لقد بدأ الغرب على الفور يتحدث عن نوع ما من المعارضة، بيد أن هذا لايشكل خطورة . لقد بدأنا إعادة بناء هامة . ونحن نعيد صياغة مواقفنا وتفكيرنا وكل طريقتنا فى الحياة ، ونستبعد القوالب الجامدة . وقد تغير جو المجتمع لدرجة كبيرة . لقد أديرت حركة المجتمع . إننا نحظى بمساندة ضخمة ، وندفع الأمور إلى الأمام ، اعتمادا على هذه المساندة . وإذا لم نكن على ثقة بصحة هذه السياسة ماكنت أنا وزملائى قد اقترحناها .

« والآن لدينا خبرة العامين الأولين ، خبرة التنفيذ العملى لهذه السياسة ، وقد زادت ثقتنا فى صحة مانقوم به لدرجة كبيرة . وستتقدم على هذا الطريق مهما بلغت صعوبته . وسنبلغ بعض الأهداف خلال وقت قصير. وسيستغرق تحقيق مهام أخرى سنوات عديدة . وهناك أهداف بعيدة كذلك . وسوف نندفع إلى الأمام »

إن الشعب السوفيتى على قناعة بأن البلاد ستصبح أكثر غنى وقوة نتيجة للبيريسترويكا . وسوف تتحسن الحياة . وهناك صعوبات ، وستكون هناك صعوبات كبيرة ، على طريق البيريسترويكا ، ونحن لانخفى ذلك . ولكننا سنتغلب عليها . ونحن واثقون من ذلك .

الفصل الثانى

البيروسترويكا تحقق تقدمًا
الاستنتاجات الأولى

انقضى عامان ونصف عام منذ أن بدأت سياسة البيريسترويكا . ولدينا الآن مفهوم نظرى لها وبرنامج معين يجرى تطويرهما على الدوام ، وتوضيحهما ، وإثراؤهما بأفكار ونظريات جديدة . وهذا مايتطلب جهدا إبداعيا ضخما من جانب قادة الحزب والدولة ، ويقتضى مناقشات مستفيضة . وبعد المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى[1] والاجتماعات العديدة الكاملة للجنة المركزية ، تجرى مناقشة قضايا ونهج البيريسترويكا بحماس فى كل قطاعات المجتمع السوفيتى . وقد وجد برنامج البيريسترويكا تعبيرا عنه بالفعل فى سلسلة من الأعمال التشريعية التى وافق عليها البرلمان ـ السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتى .

ويسير جنبا إلى جنب مع ذلك العمل التطبيقى اليومى لتنفيذ استراتيجية البيريسترويكا . وتراكمت لدينا خبرة معينة ، وإن كانت محدودة . وهناك نتائج أولية مشجعة ولكن هناك أخطاء وسوء تقديرات كذلك . ونحن نرى اليوم بوضوح أكبر إمكانياتنا ونقاط ضعفنا . ومازلنا على قناعة بأننا فى المرحلة الأولى . ومع ذلك ، فقد غدت البيريسترويكا بالفعل جزءا من حياتنا ، وتشمل جماهير شعبنا . وبهذا المعنى فإنها بالفعل حقيقة واقعة .

---

(١) عقد المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتى من ٢٥ فبراير ـ ٦ مارس ١٩٨٦

أولا ـ المجتمع يبدأ فى التحرك

كيف بدأت الأمور

حينا نتحدث عما فعلناه خلال العامين ونصف العام ، فعادة مانعنى الزمن الذى سبق المؤتمر والذى تلاه على السواء .

وتحتل مؤتمرات الحزب الشيوعى السوفيتى مكانا خاصًّا فى تاريخنا ، وهى ، فى الواقع بمثابة المعالم على طريقنا . وكان على المؤتمر السابع والعشرين لأسباب عديدة أن يقدم إجابات عن المسائل الأكثر إلحاحا فى حياة المجتمع السوفيتى . وحددت لائحة الحزب[٢] زمن انعقاده . وكان يجرى الإعداد للصياغة الجديدة لبرنامج الحزب[٣] ، كما كانت توضع الخطط لفترة الخطة الخمسية الثانية عشرة وللفترة المنتهية عام ٢٠٠٠ . وتمثلت الصعوبة فى أنه قد بدأ إعداد التوجيهات السياسية للمؤتمر فى ظروف تغيرت بشكل مثير بعد اجتماعى مارس[٤] وأبريل ١٩٨٥ الكاملين للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى . وبدأت عمليات جديدة داخل الحزب نفسه وفى المجتمع بأسره على السواء .

ولم تكن عملية إدراك وفهم أفكار الاجتماع الكامل بالعملية السهلة . فقد ولدت أفكار جديدة فى المناقشات التى جرت فى كافة المستويات ـ فى المكتب السياسى ، واللجنة المركزية ، وتنظيمات الحزب المحلية ، والأسرة العلمية ، وأسر العمل .

---

(٢) لائحة الحزب الشيوعى السوفيتى ـ قانون الحزب الأساسى الذى يحدد حقوق وواجبات أعضائه ، وهيكل الحزب التنظيمى ومبادئ الديموقراطية الداخلية فى الحرب .

(٣) برنامج الحزب الشيوعى السوفيتى ـ وثيقة الحزب الأساسية التى تطرح أسسه النظرية والأيديولوجية ، ومبادئ نشاطه ، والأهداف التى يسعى إلى تحقيقها .

(٤) الاجتماع الكامل الخاص للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى الذى عقد فى ١١ مارس ١٩٨٥ وانتخب ميخائيل جورباتشوف سكرتيرا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى .

وبدأت مناقشات حية ، وأحيانا ثار جدل حاد فى وسائل الإعلام . وبدأ تقييم ماضى بلادنا بشكل انتقادى . وشارك آلاف الناس ـ من العمال والفلاحين والمثقفين ـ بشغف فى هذا الجدل ـ فى اجتماعات أسر العمل ، وفى الصحافة وفى رسائل إلى أعلى الهيئات الحزبية والحكومية ، احتوت على نقد ومقترحات . وجرى التعبير عن وجهات نظر مختلفة ، ومتعارضة بشكل مباشر أحيانا ، حول كثير من المسائل الخاصة ، وبدأ البحث بصراحة عن مخرج من الوضع القائم . ونحن نعتبر مثل هذا التعدد فى الآراء طبيعيا ومفيدا على السواء . وأصبح من الواضح أن الإعداد للمؤتمر السابع والعشرين يجب أن يستند إلى نظرات جديدة ، رغم أنه لم يبق سوى أقل من عام على الوقت الذى تحدد لانعقاده .

وكان من الممكن تأجيل المؤتمر بالطبع . وجرى التعبير عن هذا الرأى بإصرار وقدمت حجج مقنعة . ولكننا شعرنا بأن مواقف فترة الركود التى أثرت فينا جميعا تقف خلف ذلك . وسادت فى النهاية وجهة النظر التى تتفق ، فى رأيى ، بدرجة أكبر ، مع الوضع ـ بأنه يجب علينا أن نعقد المؤتمر فى موعده ونجذب كافة العناصر السليمة فى المجتمع إلى المشاركة فى الإعداد له .

وتبنى المؤتمر السابع والعشرون قرارات على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لمستقبل الاتحاد السوفيتى . وصاغ الخطوط الموجهة لعمل الحزب من أجل تنفيذ مفهوم تسريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية الذى قدمه اجتماع أبريل الكامل للجنة المركزية . نعم لقد كان مؤتمرا طرح فيه مندوبوه ، ليس فقط ، همومهم والحقائق ، وإنما أيضا أفكارهم ، وخططهم وتصميمهم على إعطاء دافع جديد وقوى لتطور الاشتراكية .

لقد كان مؤتمرا شجاعا . وتحدثنا بصراحة عن النواقص والأخطاء والصعوبات وأكدنا الإمكانيات التى لم تستغل للاشتراكية ، وتبنى المؤتمر خطة عمل تفصيلية طويلة المدى . وأصبح مؤتمر القرارات الاستراتيجية .

بيد أننا عجزنا أو لم نستطع على وجه الدقة أن ندرك بشكل كامل الطابع المثير للعمليات الجارية ونطاقها . وبإمكاننا الآن أن نرى الأمور بصورة أفضل ، ومن الواضح أنه كان علينا أن نواصل بحزم العمل الذى بدأناه فى الفترة السابقة على المؤتمر وفى المؤتمر نفسه ، وأن ندرس فى نفس الوقت بشكل أعمق المجتمع الذى نعيش فيه . ولكى نقوم بذلك ، كان علينا أن نعود إلى المصادر ، إلى الجذور ، وأن نقيّم الماضى بشكل أفضل ، وأن نقرر أولوياتنا وطرق تحقيقها . وبدون فهم ذلك كان من الممكن أن نضل طريقنا .

وحتى بعد مضى مايقرب من عام على المؤتمر السابع والعشرين استمر بعض الناس بين مختلف فئات المجتمع وفى الحزب نفسه يعتقدون بأن البيريسترويكا ليست سياسة طويلة المدى وإنما هى مجرد حملة أخرى . وأعاق العديد من المسئولين المحليين حركة الأنصار النشطين للبيريسترويكا فأخضعوهم للمراقبة وحذروا كثيرى المطالب بينهم : انتظروا أيها الرفاق ، لاتحدثوا جلبة ، وسيخمد كل شىء فى عام أو عامين . وكانوا يعتقدون بصدق أن كل شىء سيعود إلى نفس النقطة التى بدأ منها ، كما حدث أكثر من مرة قبل ذلك . وكان هناك كذلك المتشككون ذوو الأسلوب الخاص ممن يضحكون ضحكة خافتة فى ردهات المكاتب : لقد عشنا فترات مختلفة ، وسنعيش هذه الفترة كذلك . كان القلق على مصير البيريسترويكا يزداد فى المجتمع : ألن تعود الأمور إلى نفس المجرى القديم ؟.

وفى اجتماع يناير حللنا مع انتقاد أنفسنا أسباب الوضع المعقد والمتناقض . ولم نسع فقط إلى نقد الماضى وإدانة مسئول أو أكثر . فهل يكمن جوهر الأمر فقط فى إدانة شخص ما ؟ إن ماكنا فى حاجة إليه هو تقييم الظواهر وتحليل العمليات والاتجاهات . وقد سعينا لأن نقوم بذلك . وأنا على يقين من أنه لو كان اجتماع يناير الكامل قد حصر نفسه فى نقد الماضى لما كان قد أنجز مهمته . إننا فى حاجة إلى الدروس والنقد لا من أجل تسوية الحسابات وإنما من أجل حاضرنا ومستقبلنا .

وإذا لم نكن فى اجتماع يناير الكامل قد اقترحنا برنامج عمل بناء ، إذا لم نكن قد قلنا الشيء الرئيسى ـ ماالذى يجب عمله ، وماهى القوى الإضافية الواجب تنشيطها للقضاء على الدولاب الكابح ، وكيف يمكن إقامة دولاب تسريع فعّال ـ لكان معنى ذلك أننا لم نحرز أى تقدم . وإذا كان الاجتماع الكامل لم يبين لنا الاتجاه الذى نتبعه ، وإذا لم يقترح تعميم الديموقراطية باعتبارها القوة المحركة الأساسية للبيريسترويكا ، لكان قد أصبح بلا أى جدوى .

كان تطوير الديموقراطية هو الفكرة الرئيسية لاجتماع يناير الكامل ـ فيما يتعلق بطرق تحقيق مهام البيريسترويكا ، وحماية المجتمع من تكرار أخطاء الماضى . إنه الضمان الرئيسى لكى تصبح البيريسترويكا لارجعة فيها . وكلما كان هناك مزيد من الديموقراطية . سيكون هناك مزيد من الاشتراكية . هذه هى قناعتنا الراسخة ، ولن نتخلى عنها . وسوف نطور الديموقراطية فى الاقتصاد ، وفى السياسة ، وفى داخل الحزب نفسه . ويعتبر إبداع الجماهير القوة الحاسمة فى البيريسترويكا . وليس هناك من قوة أخرى أعظم .

وأوضحت الشهور التى انقضت منذ الاجتماع الكامل أننا تصرفنا بشكل سليم . ويواجه جيلنا مهمة هائلة لإعادة بناء كل البلاد . وربما لانحل كل شيء ولكن سيكون لدينا الوقت لدفع عملية التسريع . وسنضع أسس البيريسترويكا . وأنا على يقين من أن كل المجتمع السوفيتى سينخرط فى عملية البيريسترويكا .

ولكن حتى عندما يجرب الدولاب الديموقراطى الجديد ، ويبدأ استخدام الروافع المعنوية بشكل كامل ، لن تصير المهمة أيسر . وفى الحقيقة ، أعتقد أن كمية العمل ستزداد وسيغدو أكثر تعقيدا ، فمن الواضح أنه لابد من تغيير أشكاله وأساليبه أكثر من مرة لأنه سيكون علينا أن نعمل فى ظروف سياسية ، واقتصادية ، ومعنوية ، وثقافية جديدة .

البيريسترويكا تكتسب قوة دافعة

آمل فى أن أكون قد نجحت حتى الآن فى أن أوضح لكم أن المجتمع السوفيتى قد بدأ فى التحرك ، وأنه ليس هناك مايوقفه . ولكننا لا نشجع التوقعات غير الواقعية . فبعض الناس يأملون فى أن يتغير كل شىء على الفور من تلقاء نفسه ، دون أن يحتاج الأمر إلى أى جهد خاص . وكثيرون يفكرون بهذه الطريقة : لقد ظهر قادة جدد ، وهكذا فإن كل شىء سيتغير الآن ، وسيكون كل شىء على مايرام . لا ، ومن الخطأ الاعتقاد بأنه من الآن فصاعدا ستكون الأمور سهلة مثل نزهة بالجياد أسفل التل . إننا على العكس مانزال نصعد التل ، وأمامنا طريق طويل علينا أن نقطعه قبل أن تكتسب البيريسترويكا قوة .

إن البيريسترويكا مازالت تحبو . وكل مافعلناه حتى الآن أننا شكلنا فقط دولاب التسريع . وحتى وقت قريب انهمكنا بدرجة أكبر فى التعرف على الأمور ، وفى استكشاف المواقف وفى جمع الأفكار والتوصيات . وعلينا جميعا الآن أن نتقدم معا إلى الأمام . وإنها لمسألة أخرى تماما أن يكون لدى مختلف الناس أفكار مختلفة عن البيريسترويكا وعن الدور الذى يجب عليهم أن يلعبوه فيها .

وليس هناك كثير من المعارضين بصراحة للبيريسترويكا . ومع ذلك فهناك أناس يؤيدون التجديدات ولكنهم يعتقدون أن البيريسترويكا ينبغى ألا تمسهم ، لن تمس فقط إلا الذين فى القمة ـ فى الأجهزة الحزبية والحكومية والاقتصادية وغيرها من القطاعات ، وزملاء العمل فى المصانع أو المزارع أو مواقع البناء ـ بإيجاز أى شخص إلا هم . وفى حديث أجريته مع العمال فى مصنع ف ل ف[٥] لهندسة الراديو فى ريجا خلال زيارتى لجمهورية لاتفيا الاشتراكية السوفيتية رأيت من الضرورى أن أخبرهم بأن الصعوبات شىء له أهميته ، ولكن إذا ما اهتموا فقط بما يحدث « فى

---

(٥) ف ل ف ـ مصنع للهندسة الكهربائية فى لاتفيا .

القمة » ، ولم يستفيدوا من مواردهم الخاصة فسوف تتباطأ البيريسترويكا وتبدأ فى الدوران حول نفسها وتنتهى كإجراء تعوزه الحماسة .

وهناك أيضا أناس لايعرفون كيف يعملون بالطريقة الجديدة ، بمضمون البيريسترويكا . وعلينا أن نعلمهم وأن نساعدهم .

وهناك أيضا مشكلة التباطؤ ، والقصور الذاتى . ولم يتم التخلص بعد من أسلوب انتظار التعليمات من أعلى فى كل أمر ، والاعتماد على قرارات المستوى الأعلى . وليس فى هذا مايدهش ، إذ أن الأمور اعتادت أن تسير بهذه الطريقة من الورش حتى الوزارات ، وما يزال لها تأثيرها إلى اليوم ، حتى فى المراتب العليا من الإدارة . والمشكلة أن الناس زاد اعتيادهم على عدم التفكير والتصرف بطريقة مسئولة ومستقلة . وفى ذلك تكمن مشكلة كبيرة أخرى .

والمهمة الرئيسية أن نجعل المجتمع بكامله يشارك فى عملية إعادة البناء فالاشتراكية فى مجتمعنا تتطور وفق أسسها الخاصة . ونحن لانقترح ضرورة تنفيذ البيريسترويكا مع شعب مختلف ، وحزب آخر ، وعلم وأدب آخرين ، وما إلى ذلك . ليس الأمر كذلك . إننا نقوم بتنفيذها معا ، من خلال جهد على نطاق البلاد . وينبغى الاستفادة فيه من كل قدراتنا الفكرية . ويمكننى أن أرى من خبرتى الخاصة أننا جميعا نتغير من خلال مجرى البيريسترويكا . وسيكون من عدم الإنصاف أن ننكر على شخص ما حقه فى ممارسة البيريسترويكا الخاصة به ، والتصرف بشكل مختلف اليوم عما فعل بالأمس . والانطلاق اليوم من إدراك الوضع والأهداف التى طرحها وقتنا .

ليست لدينا صيغ جاهزة

السياسة هى فن الممكن . وفيما وراء حدود الممكن تبدأ المغامرة . ولهذا السبب فإننا نقدر إمكانياتنا بعناية وترو واضعين ذلك فى الاعتبار ونحن نرسم مهامنا . وقد

علمتنا التجربة المريرة ألا نسبق أنفسنا على الطريق الذى اخترناه ، وإنما نأخذ فى اعتبارنا الحقائق الواضحة لبلادنا .

وتكمن أكبر الصعوبات التى تعترض جهدنا من أجل إعادة البناء ، فى تفكيرنا الذى تشكل خلال السنوات الماضية . وعلى كل منا ، بدءا من السكرتير العام للحزب حتى العامل فى موقع الإنتاج ، أن يغير تفكيره ، وهذا أمر يمكن فهمه لأن الكثيرين منا تشكلوا كأفراد وعاشوا فى ظروف كان النظام القديم فيها قائما . وعلينا أن نتغلب على نزعتنا المحافظة . إن غالبيتنا تتمسك بمبادئ أيديولوجية وسياسية سليمة . ولكن هناك مساحة كبيرة بين الموقف السليم وبين تحقيقه .

ويحدث فى بعض الأحيان أثناء مناقشة مسألة ما فى المكتب السياسى أن يبدو أننا توصلنا إلى استنتاجات هامة واتخذنا قرارات مبتكرة . ولكن عندما يصل الأمر إلى اختيار أساليب تنفيذها ، ننتهى إلى محاولة استخدام الأساليب القديمة لتحقيق مهام جديدة .

ونحن نسعى فى السياسة والأيديولوجية إلى بعث الروح الحية للينينية . إن للعقود العديدة التى تقيدنا فيها بالعقائد الجامدة ومداخل كتب القواعد ، كان لها أثرها ونحن نريد اليوم أن نحقق عملنا النظرى بروح خلاقة حقة . إنه لأمر صعب ، ولكن يجب أن نقوم به . ويبدو أن الفكر الخلاق يقوى .

ونحن ندرك أنه ليس هناك ضمان ضد الأخطاء ، وأخطر الأخطاء ألا تفعل شيئا خوفا من ارتكاب الخطأ . ونحن نعرف من تجربتنا خطأ عدم فعل شيء . وكثير من متاعبنا تنبع من ذلك . وقد لاحظ معارضونا فى الغرب هذا الضعف الذى اتضح بشكل خاص فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات ، وكانوا على وشك أن يلقوا بالاتحاد السوفيتى إلى « كومة نفايات التاريخ » . ولكن قدّاسهم كان سابقا للأوان .

ويسرنى أن هناك فهما متزايدا ، سواء داخل الحزب أو فى المجتمع بأسره ، بأننا بدأنا مسعى سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، وأيديولوجيا لم يسبق له مثيل . وإذا

كان علينا أن ننفذ كل ماخططناه ، فعلينا أن ننفذ عملا سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا وأيديولوجيا لم يسبق له مثيل فى المجالين الداخلى والخارجى على السواء . إننا نتحمل قبل كل شىء مسئولية لم يسبق لها مثيل . ونحن ندرك الحاجة إلى جهود ضخمة وجريئة ، وبخاصة فى المرحلة الأولى .

هناك أشياء كثيرة غير معتادة فى بلادنا الآن : انتخاب المديرين فى المؤسسات والمكاتب ، وتعدد المرشحين لانتخابات السوفيتات فى بعض الأحياء ، والمشروعات المشتركة مع الشركات الأجنبية ، والمصانع والوحدات والمزارع الجماعية والحكومية التى تمول نفسها ، ورفع القيود عن المزارع التى تنتج منتجات غذائية للمؤسسات وإدارة هذه لها ، واتساع النشاط التعاونى ، وتشجيع النشاط الفردى فى الإنتاج صغير الحجم ، والتجارة وإغلاق الوحدات غير المربحة والمصانع التى تعمل بخسارة ، ومعاهد الأبحاث ومنشآت التعليم العالى التى لا تعمل بكفاءة . ولدينا الآن صحافة أكثر وضوحا ، وتواصل جدلا صريحا حول كافة المسائل الحية المتعلقة بتقدمنا وبالبيريسترويكا . وكل هذا طبيعى وضرورى ، رغم أن كل هذه الأشياء لاتتحقق بسهولة ، كما لا يتيسر فهمها على الفور بين الجمهور على اتساعه أو بين أعضاء الحزب .

ولا أعتقد أن الفترة الماضية التى امتدت عامين ونصف عام كانت أصعب الفترات بالنسبة للحزب الشيوعى السوفيتى . ومع ذلك ، فقد كانت من أكثر الفترات خطورة وتطلبت إحساسا عاليا بالمسئولية ، ونضجا وإخلاصا للمثل العليا والأهداف السياسية . وقد يناسبنا أو لا يناسبنا اتجاه معين ، ولكننا نحاول أن نرى الأشياء بروية وواقعية وبهذه الطريقة وحدها يمكننا أن نطرح سياسة ما على الشعب ونقدم له أهدافا يفهمها وتقوده إلى الأمام .

وكان يوجد لدى القيادة بالتأكيد بعض الخلافات فى الرأى حول كيفية التغلب على الركود وحول كيفية معالجة الأمور فى المستقبل . وليس فى ذلك مايثير الدهشة .

وعلى العكس ، فسيكون من الغريب ، وهذا أقل مايقال ، إذا لم تكن هناك مثل هذه الاختلافات ، وإذا ماكان كل فرد يفكر ويتحدث مثل الآخرين تماما . إن اختلاف الآراء يولد الفكر . ولكننا متحدون فيما يتعلق بالأمر الأساسى . فنحن مجمعون فى قناعتنا بأن البيريسترويكا لاغنى عنها لأنها حتمية حقا ، وبأنه ليس أمامنا من خيار آخر .

إن كل الشعب السوفيتى ، وكل الحزب ، بما فى ذلك لجنته المركزية ومكتبها السياسى ، والحكومة منخرطون جميعا فى عملية إعادة البناء . وفى هذا العمل الثورى نكتسب نحن أعضاء المكتب السياسى خبرة فى حل المشاكل التى تواجه مجتمعنا . ويحدث نفس الشىء فى الجمهوريات والمناطق وأسر العمل المشاركة فى البيريسترويكا . وفى حل المهام الجديدة تتعرض البلاد كلها لاختبار البيريسترويكا . والشىء الهام للغاية ، أن مناخ مجتمعنا نفسه قد تغير . وتجرى عملية إطلاق نشاط الشعب السوفيتى السياسى والاجتماعى . لقد غدا الناس أكثر جرأة وهم يبدون شعورا قويا بالواجب المدنى . لقد تراكم الكثير فى السنوات السابقة وهم يريدون التحدث عنه بصراحة .

وتنمو حدة هذا الوضع غير المعتاد وتتزايد . فلو أخبرنا شخص ما فى أبريل ١٩٨٥ أنه سيكون لدينا بعد عامين مايحدث اليوم بالفعل ، لما صدقناه فى الغالب ، أو لوجدنا ذلك أمرا غير مقبول . ولكن ماهى الحال بالفعل ؟ الحقيقة هى أن ما كنا نشيح بوجهنا عنه بالتأكيد أو ما كان غير واضح منذ عام مضى فقط لم يصبح فحسب موضوعا عاما للنقاش ، وإنما أصبح مكونا طبيعيا لحياتنا اليومية . إن المجتمع يتغير ، وهو يتحرك بكامله .

ونحن لانعيش فى فترة عادية . والناس من الجيل الأكبر يقارنون الجو الثورى الحالى بجو السنوات القليلة الأولى بعد ثورة أكتوبر أو بأيام الحرب الوطنية العظمى . بيد أن جيلى يمكن أن يقارن ذلك بفترة انتعاش مابعد الحرب . إننا الآن أكثر

حصافة وواقعية بكثير. وهكذا فإن الحماس والتفانى الثورى اللذين يميزان بشكل متزايد المزاج السياسى للشعب السوفيتى قيمان ومثمران لدرجة كبيرة .

وفى اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية تحدثت عن خطر السماح بأن يتطور التناقض بين النشاط المتعاظم للجماهير وبين الشكل وبين الأساليب البالية القائمة فى نشاط الهيئات الحكومية ، والإدارية وحتى تنظيمات الحزب . ومع ذلك ، فبإمكان المرء أن ينظر إلى هذا الوضع من زاوية مختلفة . فقد كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ بكثير إذا ما كانت سلبية الشعب وعجزه عن أن يكون فى مستوى احتياجات البيريسترويكا قد شكلا العقبة الرئيسية . ولحسن الحظ ، لم يكن الأمر كذلك . إن ضغط الجماهير العاملة وصراحتها يتصاعدان بل ويتخطيان المعدل الفعلى لإعادة البناء .

لقد أصبحت الاتصالات المباشرة والرسائل هى « التغذية الخلفية » الهامة التى تربط القيادة السوفيتية بالجماهير. وتصل الرسائل إلى مكاتب تحرير الصحف والمجلات (ويجرى نشر الكثير منها) ، وتوجه إلى الحكومة ، والسوفيت الأعلى ، وعلى الأخص إلى اللجنة المركزية .

وها كم نقطة جديرة بالملاحظة . كانت هناك رسائل عديدة إلى كافة أنواع المؤسسات فى أوقات سابقة ، ولكن ما تغير الآن هو طابع هذه الرسائل نفسها . والقليل منها من النوع الذى يطلق عليه « رجاوات شخصية » بطلب المساعدة فى الحصول على شقة أو معاش ، أو فى مساعدة شخص أدين خطأ ، أو إعادة شخص إلى مكانه فى العمل . ورغم أنه ماتزال هناك بعض الرسائل من هذا النوع إلا أن ذلك لم يعد الغرض الأساسى فى رسائل اليوم . فغالبيتها تتضمن أفكارا وتعبيرات عن الاهتمام بمستقبل البلاد . ويبدو كما لو أن ما كان يُكبح بشكل مؤلم فى سنوات الصمت والاغتراب الطويلة ، قد وجد أخيرا متنفسا . فالوضع الجديد يشجع الناس على الكلام . وهم يريدون أن يعرضوا أفكارهم ومشاكلهم ليس على مجرد صديق

أو قريب ، وإنما على قادة البلاد . وبعض الرسائل تموج حقا بالحماس .

وعندما قرأ الناشرون المخطوط الأصلي لهذا الكتاب ، طلبوا منى أن أستشهد بأبرز تلك الرسائل . وإليكم رسالة من أ . زيرنوف ، وهو عامل يبلغ من العمر ٣٣ عاما ويعيش فى جمهورية ياكوتسك ذات الحكم الذاتى ، فى الشرق الأقصى :

« رغم أننى لست عضوا بالحزب ، فإنى أعتبر من واجبى أن أكتب إليك وأشكرك لأنك أيقظت فينا نحن العمال العاديين شعورا بالمسئولية المدنية . إن الشعب كان ينتظر هذه التغييرات ..

« وسأكون صريحا معكم . فى البداية استجاب كثير من الناس للنهج العام للبيريسترويكا بالشك ليس لأنها تتعارض مع رغباتنا ـ كلا على الإطلاق ـ لقد كان الناس ببساطة يعرفون من خبرتهم المريرة أن الشعارات الجيدة كثيرا ما لا تتفق مع الواقع . ومع ذلك ، فسرعان ما أدركنا أن البيريسترويكا ليست حملة قصيرة المدى وإنما عملية ضرورية تاريخيا . والشيء الأهم أننا رأيناها تؤثر على كافة مجالات مجتمعنا .

« لقد غدت حياتنا ذات معنى كبير بدرجة أكبر . وبدأ الناس يبدون اهتماما حقيقيا بالوضع فى البلاد ، ويتقدمون بالمقترحات حول كيفية تحسين العمل ، ويقدمون ملاحظات انتقادية . والآن تبدأ مناقشة مشاكل الإنتاج « الصعبة » تلقائيا فى أسر العمل . وإنه لما يحيرنا أن تكون منتجاتنا بمثل هذه النوعية الرديئة ! إننا نسرق أنفسنا .

« شكرا لكم . من الصعب أن تكتب وتعبر عن امتنانك لشخص لا تعرفه ، ولكننا ، من ناحية أخرى ، لا نشعر بالحرج من توجيه الشكر إلى طبيب عالجنا من مرض خطير. لقد عالجتنا من السلبية المدنية واللامبالاة ، وعلمتنا أن نثق فى قدراتنا ، وفى العدالة . وفى الديموقراطية .... إن كثيرا من الناس لم يعتادوا أن يأخذوا الاجتماعات الكاملة للجنة المركزية أو حتى مؤتمرات الحزب بجدية ، أما الآن

فحتى ابنى الذى يبلغ من العمر سبع سنوات ينادينى بصوت عال كلما رآك فى التليفزيون ، « ياأبتى ، تعال بسرعة ، إن جورباتشوف يتحدث » .

« إن المستقبل لنا . وفيما يتعلق بالأخطاء ، فليس هناك من هو معصوم من الخطأ . لقد كنا الرواد الأوائل ، ولم يكن هناك من نتعلم منه ، ولذلك ، فإننا نتعلم من أخطائنا » .

وإليكم رسالة من ليتوانيا . وقد وردت إلينا من ف . أ . بريكوفسكيس الذى كتبها بعد اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية :

« إن قلبى يموج بانطباعات أود ببساطة أن أشارك فيها شخصا آخر . ولأول مرة منذ سنوات طويلة يمكننا أن نرى فى قيادة الحزب والحكومة أناسا ذوى وجوه إنسانية بدلا من وجوه أبى الهول المتحجرة . وهذا وحده إنجاز عظيم .

« ماذا يرى الناس فى سياستكم ؟ »

« لن أكذب عليك ، ياعزيزى ميخائيل سيرجيفيتش لأن ذلك يمكن أن يضر بقضيتنا المشتركة . وسأقول لك الحقيقة كاملة » .

« لن أتحدث عن الفئة صاحبة الامتيازات من المجتمع . فكل شىء واضح هنا . والكثيرون يودون أن يواصلوا حياتهم كما لو كانوا نياما تحت تأثير مخدر ، فى بلد العسل واللبن » .

« إننى أريد الحديث عن البروليتاريين ، هؤلاء الذين شرعت فى هذه البيريسترويكا من أجلهم ، ولسوء الحظ ، فليس لديهم فهم عميق لسياستك بينهم وماتزال ثقتهم فيها محدودة . ولكن ينبغى ألا يبدو هذا مثيرا للدهشة . فالعقول لا تفيق بسرعة بعد هذا الشتاء الطويل والرهيب . وستكون هذه عملية طويلة وصعبة » .

« ولكن كل شىء سيكون على مايرام فى النهاية » .

« إننى كاثوليكى ورع . أذهب كل أحد إلى الكنيسة وأصلى كى لا يعاقب الله

العالم على خطايانا . وأنا أعرف أنك ملحد ، لكن جهودك قد أوضحت أن على بعض المؤمنين أن يتعلموا منك شيئا ما . وأود أن تعرف أنني أذهب إلى الكنيسة كل أحد من التاسعة صباحا حتى الواحدة ظهرا ، وأصلي من أجلك ومن أجل أسرتك » .

والرسالة التالية من ب . دوبرفولسكي ، مدرس من كيشينيوف ، من جمهورية مولدانيا :

« إن علينا نحن الشباب أن نواصل قضية لينين ، القضية العظيمة للشعب السوفيتي . وإنك تقوم بمهمة ضخمة ، فتأكد أنها لن تغدو مثل مهمة سيزيف . أرجو ألا تغضبك لهجة رسالتي : إنها صادرة عن الألم الذي يعتصرني لأن بعض الناس لا يفهمون قرارات الحزب الأخيرة ولقاءاتك الشخصية مع الشعب . واسمح لي أن أخبرك صراحة أنني معك . وأنا أحيّي اجتماعاتكم مع الجماهير العاملة والمناقشة الأمينة والصريحة لمشاكلنا ومتاعبنا . لكنني أرغب فقط في أن تؤدي هذه المناقشات إلى نتيجة . فليس كل الناس يفهمون ويقبلون أسلوب عملكم اللينيني : العمل بين الشعب ، ومن أجل الشعب ، وباسم الشعب . وفي بعض الأحيان أدخل في مناقشات حول هذه المسائل حتى يبح صوتي » .

« إن كثيرا من الناس ـ وأعني الجيل الذي ولد في الثلاثينيات ، والأربعينيات ، والخمسينيات ـ قد أصبحوا متحجرين . ولست خائفا من استخدام هذه الكلمة . ففي الاجتماعات يقولون جميعا نعم (وبعضهم الآن مسئولون صغار أو حتى كبار) . على أي شيء ؟ على كل شيء . إنهم يقولون نعم للتجديد . ويقولون نعم للبيريسترويكا . وهم يقولون على الدوام « نعم » و« نحن نريد » . وهم مستعدون لتعرية صدورهم تعبيرا عن الحماس . ولكن ماذا يعني ذلك حقيقة ؟ إنه كذب . وقد حاولت أن أعثر على السبب . لماذا لا تصدقون رجلا لا يضن بحياته ، وصحته وأعصابه من أجلنا ؟ هل تعتقدون أنه من السهل إيقاظ بلد يضم عشرات الملايين ، كان يغط في سبات لعشرات السنين ؟ هل تعتقدون أن من السهل بعث روح المبادرة

فى وقت مازال فيه الكثيرون يبحثون عن معنى هذه الكلمة فى القاموس؟ هل تعتقدون أن من السهل دفعكم جميعا إلى الحركة ؟ » .

« إننى أتحدث إليك بأمانة عن مسائل تتعلق بالمبدأ . وأنا هنا اتحدث باسم جيل كامل من الشباب السوفيت الذين تلقوا تعليما عاليا » .

وإليكم رسالة أخرى ، وهذه المرة من ج . فاردانيان الذى يعيش فى جورجيا :

« قد تتذكرنى . فذات مرة ، حينما كنت لاتزال تعمل فى إقليم ستافروبول ، عقدت اجتماعا موسعا مع أول من طبقوا نظام الأجر على أساس القطعة والعقود الجماعية بين عمال تشغيل الآلات الزراعية . وكنت أعمل فى ذلك الوقت كبير الاقتصاديين بالمزرعة الجماعية المسماة « الطريق إلى الشيوعية » بحى الكسندروفسكى . ودار بيننا حديث طويل ، وطرحت علينا أسئلة عديدة عن حياتنا ، وعن الشعور العام فى المزرعة » .

« إن كل مبادراتك سواء فى السياسه الخارجية أو الداخلية تلهمنى أنا وكل الشرفاء لأنها تتفق مع طموحاتنا واهتماماتنا . ومع ذلك فمن المؤلم أن أقول لك : **ليس كل الناس متفقين معك** » .

« ولا أستطيع أن ألومهم . وسأقولها بصراحة ، كما تود أنت : إن المشكلة تكمن فى القادة المحليين ، لقد تشكلوا على صورة القادة السابقين ومن الصعوبة الآن بمكان أن نعيد تشكيلهم » .

« ونحن ندرك أن الأمور التى تواجهك صعبة . ولكننا نتوسل إليك : لا تتراجع ولو خطوة واحدة إلى الخلف . وينبغى ألّا يكون هناك أدنى تغيير فى التفكير أو حتى أدنى تراجع . لا تلق بالا لهؤلاء الذين لا يتفقون معك . إن الشعب مبتهج وعلى استعداد لتقديم التضحيات من أجل الأهداف التى رسمتها . وهذا ما أردت أن أقوله لك » .

وأخيرا ، إليكم رسالة من ك . لاستا ، وهى سيدة من لينتجراد : «إن جميع من يقفون معك يجب أن يكافحوا ضد كل أشكال الممارسات القديمة الكريهة ، مثل الروتين ، والفساد ، والامتثال ، والخنوع والخوف من السلطات القائمة . وهذا ، الآن ، هو واجب كل امرئ لا يريد العودة إلى الماضى . ويتعين على كل امرئ الآن العمل فى موقعه كما تعملون أنتم ، دون أن يضن بأى جهد . إذ أن كل امرئ يمكنه أن يرى كم من الطاقة ، والوقت ، والقوة العاطفية والصحة يتطلبها منك العبء الهائل فوق طاقة البشر الذى يقع على كاهلك . والبناء صعب على الدوام ، ولكن الأصعب منه أن تبنى على موقع يجب أولا تنظيفه من القاذورات . وآمل أن يسهل الأمور قليلا بالنسبة لك إذا ما قلت لك : إن أعدادا ضخمة من الناس العاديين تقف إلى جانبك ، وتحبك وتهتم بك » .

وبإمكانى الاستشهاد بالرسائل بلا حدود . بيد أن هذا الكتاب بكامله لن يكون كافيا لها جميعا . وفى كثير من هذه الرسائل يكتب الناس عن كيف بدأت البيريسترويكا ـ أو لم تبدأ ـ فى مصنعهم ، أو مزرعتهم الجماعية ، أو موقع الإنشاء ، أو فى مكتبهم . وهم يخبروننى ما الذى يقومون به كى يصبحوا نشطين فيها ، ويحللون الأسباب الخاصة والعامة للصعوبات التى تنشأ على طريقهم .

وتشهد هذه الرسائل ـ وهناك منها الآلاف فوق الآلاف ـ على الثقة الكبيرة فى قيادة الحزب والحكومة . الثقة المستعادة ! وهذه قوة كبيرة ، ورصيد لايقدر . وما يستوقف المرء فى هذه الرسائل هو التفكير غير المقيد ، والدرجة العالية من الثقافة السياسية ، والرغبة العارمة فى الحياة والعمل بما يمليه الضمير .

ونحن فى المكتب السياسى نناقش هذه الرسائل ، ونجمعها فى فترات منتظمة . وهذا يساعد قيادة البلاد على أن تسبق مجرى الأحداث ، وعلى أن تقيّم سياستها بدقة وتعدّلها ، وأن تضع أساليب حديثة لتناول الأمور .

وهناك شىء واحد مشترك بين كافة الرسائل ـ هو التأييد غير المتحفظ والحماس

للبيريسترويكا . وحتى الأحكام الحادة والقاسية تجدها مشربة بالرغبة فى المساعدة على أن تمضى قدما . ومع ذلك ، فكما لاحظ القارئ مما سبق أن استشهدت به ، هناك أيضا إشارة قلق من أن يكون مصير البيريسترويكا هو نفس مصير إصلاحات الخمسينيات والستينيات وأن تخمد . والناس يحثوننا ألا نتراجع ! لا خطوة واحدة إلى الخلف ! وإنما أن نتحرك إلى الأمام ونواصل بشجاعة وتصميم أكبر ! .

وباختصار ، يجب أن نكون قادرين ليس فقط على تعديل سياستنا بما يتفق ورد فعل الجماهير ، والطريقة التى تنعكس بها فى عقل الشعب ، ولكن يجب أن نضمن التغذية الخلفية ، بأن نشجع الناس على أن يقدموا لنا الأفكار ، والاقتراحات والنصح ، بما فى ذلك عن طريق الاتصال المباشر بهم .

والآن بدأ كل شخص يعتاد على الأمر . ولكن فى البداية كان هناك بعض الناس « المتحمسين » الذين حذروا من خطر أن يصاب جورباتشوف بـ « التسمم بالأكسجين » خلال أحاديثه فى الهواء الطلق مع الناس ، ومن خطر أن يقال له شيء لايليق الترحيب ، شيء لا ينبغى أن يعرفه رجال الكريملين . وقد كان هناك بعض التعليقات . وربما لا يزال هناك بعض آخر ، بأن الاجتماعات المباشرة غير الرسمية ، ليست سوى محاولة لخطب ود الشعب . ولدى ، طبعا ، رأى آخر عكسى ومختلف حول هذا الموضوع . فليست هناك تلميحات وتوصيات وتحذيرات أكثر قيمة مما نحصل عليه مباشرة من الشعب .

وبشكل عام ، أصبح الناس أكثر اقترابا منا فى مثل هذه الاجتماعات . فكيف كان الأمر قبل ذلك ؟ كان يمكن أن نطرح سؤالا على شخص ما ولكنه كان يظل صامتا ، ربما نتيجة للخوف أو عدم الثقة . وحقا ، كان هناك بعض الديماجوجية : ماذا يفكرون فيه ... هناك فى موسكو؟ هذا أمر سيىء ، وليس بحسن . ولكن لم تكن هناك مقترحات . أما الآن فتبدأ على الدوام مناقشة جادة ومثيرة للاهتمام . وأصبح العمال والفلاحون أكثر تفاؤلا ، وكان المثقفون والمهنيون

يتحدثون بطريقة آمرة ومطالبة . ولكن الأصوات العالية قد هدأت بعض الشىء وتحذر من التدخل فى مناقشة جادة وبناءة . وحينما يتدخلون بالفعل يقاطعهم الناس .

لقد تحدثت بالفعل عن الانطباع الذى خرجت به من اجتماع مع أناس فى ساحة أكتوبر فى كراسنودار فى صيف ١٩٨٦ . كم كانت مناقشة واقعية ، وكم من مشاكل طرحها الناس ! وقد سعدت حقا برؤيتهم يساندون خط اللجنة المركزية بمثل هذا الحماس . ثم أدركت كم يشعر الناس بالمرارة ، وكم لديهم من المقترحات والتوصيات لقادتهم .

لم أكن أنوى إلقاء خطاب فى منطقة كوبان[٦] (عاصمتها كراسنودار) وذهبت إلى هناك لمجرد إلقاء نظرة على كيفية سير الأمور ولكى أرى بأم عينى كيف يجرى تنفيذ تجربة اقتصادية ذات أهمية قومية ـ لقد بدأ حى بأكمله يعمل على أساس مبدأ التمويل الذاتى وتغطية التكاليف ذاتيا ـ وبعد مناقشات عديدة ، وجدت من الضرورى أن أخطب فيهم . وأعتقد أن ماقلته برهن على فائدته بالنسبة للمناطق الأخرى من بلادنا كذلك ، إذ كانت تدفعه وقائع الحياة نفسها . إن المشاورات والاجتماعات مع الشعب لا غنى عنها حقا . وليس بإمكان المرء أن يتوصل إلى الكثير بالأوامر .

إن الخبرة التى اكتسبناها بالفعل فى تنفيذ البيريسترويكا تبرز مرة أخرى فكرة لينين القائلة بأن الثورات مدرسة عظيمة وذات فعالية كبيرة للتعليم والتنوير السياسى للجماهير . والبيريسترويكا ثورة ، بل إنها أكثر الثورات سلمية وديموقراطية . وفى حدود العملية الديموقراطية سنتقدم للتغلب على المواقف الخاطئة التى نصادفها والتى سوف نصادفها فى مجرى هذا التجديد للمجتمع . بل للتغلب حتى على المقاومة

---

(٦) كوبان ـ منطقة فى القسم الغربى من شمال القوقاز يتحدر القسم الأكبر من سكانها من القوازق الذين استقروا من جديد هناك منذ بضع قرون .

الأكثر صراحة وسفورا . وليست لدينا أية مجموعة ذات شأن من السكان لاتتفق مصالحها الطويلة المدى مع البيريسترويكا .

والصعوبات التى نواجهها فى عملية إشاعة الديموقراطية هى من صنعنا لدرجة كبيرة . إننا جميعا نتاج لعصرنا ، ولنموذج معين من الأشياء والعادات . ولذلك فنحن نقول بأن علينا جميعا أن نغير أنفسنا ، بما فى ذلك من هم فى المكتب السياسى ، وفى الحكومة ، وفى المراتب العليا الأخرى للقيادة . ويعمل البعض على تنفيذ ذلك بسهولة وسرعة ، بينما يجد آخرون الأمر صعبا ويطلبون إعفاءهم أو نقلهم إلى وظائف أخرى .

ويبدى الناس رأيا فى التخلص من لامبالاتهم السابقة وفى المشاركة بشكل كامل فى الحياة العامة . ويتجلى ذلك فى أشكال مختلفة من التعبير . فالبعض يلقى خطبا قاسية فى الاجتماعات ، بينما ينظم آخرون اجتماعات ومواكب جماهيرية . وبشكل عام ، فإن العملية الديموقراطية لا تستبعد إمكانية مثل هذا النشاط القاعدى . لقد تخطينا بالفعل الأزمنة التى كانت فيها مثل هذه الأمور تثير خوف المسئولين وتؤدى إلى محظورات إدارية . ولا تتوفر لدينا بعد ، أخلاق كافية للنقاش . فأحيانا يقاطع شخص ما يجلس بين الجمهور متحدثا يقف على المنصة ، ويميل البعض فى مقالاتهم إلى تسوية حسابات قديمة مع الآخرين ، أو يلصقون بهم نعوتا كريهة . ولكن هناك إدراكا متزايدا باطراد بأن الديموقراطية لاتتفق مع التنظيم البيروقراطى الصارم المفرط للحياة الاجتماعية . وبطبيعة الحال ، لايمكن لأى مجتمع يحترم نفسه ، أن يسمح بالفوضى ، وبأن يتصرف كل فرد وفق هواه . وكذلك فإننا لانسمح بذلك . فالديموقراطية تتضمن كذلك القانون والنظام ، وتتطلب المراعاة الأكثر صراحة للقوانين من جانب السلطات والمنظمات وكذلك من جانب كافة المواطنين .

مزيد من الضوء على الجلاسنوست

لعل المناخ الجديد يتضح بحيوية أكبر فى الجلاسنوست . فنحن نريد مزيدا من العلانية بشأن المسائل العامة فى كافة مجالات الحياة . ولابد أن يعرف الناس ماهو جيد ، وماهو ردىء ، بغية الإكثار من الجيد ومكافحة الردىء . وهكذا ينبغى أن تكون الأمور فى ظل الاشتراكية .

ومن المهم أن ندرك كل ماهو إيجابى وبناء ، ونستخدمه ، ونجعل منه رصيدا لكل الشعب ، ولكل الحزب ، حتى يمكن استخدام بواكير الموقف الجديد فى ظروف البيريسترويكا .

إن الحقيقة هى الشىء الرئيسى . لقد قال لينين : « مزيدا من الضوء ! فليعرف الحزب كل شىء ! » . ونحن فى حاجة ، أكثر من أى وقت مضى ، ألا تكون هناك أركان مظلمة يظهر فيها العفن من جديد ، ويتراكم عليها كل مابدأنا نناضل ضده بحزم . ولهذا السبب يجب أن يكون هناك مزيد من الضوء .

وتقدم الجلاسنوست اليوم مثالا حيا لجو روحى ومعنوى موات وطبيعى فى المجتمع ، يجعل بإمكان الناس أن يفهموا بشكل أفضل ما الذى حدث لنا فى الماضى ، وما الذى يحدث الآن ، وما الذى نسعى إليه ، وماهى خططنا ، وأن يشاركوا بوعى ، على أساس هذا الفهم ، فى جهد إعادة البناء .

إن إشاعة الديموقراطية فى جو المجتمع والتغييرات الاجتماعية والاقتصادية ، تكتسب قوة دفع لدرجة كبيرة ، بفضل تطور الجلاسنوست . وغنى عن القول إن سياسة الحزب هى أساس هذه العملية . ومع ذلك ، فلن تبدأ الأمور فى التغير إذا لم نمارس النهج السياسى بطريقة مفهومة للجماهير . ولابد أن يعرف الشعب الحياة بكل تناقضاتها وتعقيداتها . ويجب أن يكون لدى الجماهير العاملة معلومات كاملة وصادقة عن المنجزات والعقبات ، وعما يعترض سبيل التقدم ويعرقله .

وقد يقال إن الناس قد تطور لديهم إحساس بميزات الجلاسنوست . ولا يعود

ذلك فحسب إلى رغبتهم الطبيعية فى أن يعرفوا مايجرى ومن يعمل بجد. فهم يزدادون اقتناعا بأن الجلاسنوست هى شكل فعال للرقابة العامة على نشاط كافة الهيئات الحكومية، دون استثناء، ورافعة قوية لتصحيح النواقص والعيوب. ونتيجة لذلك بدأت القدرة المعنوية لمجتمعنا تتحرك. وبدأ العقل والضمير يستردان الأرض من السلبية واللامبالاة التى كانت تعتصر الأفئدة. ولا يكفى بالطبع، أن تعرف وتقول الحقيقة. فالشىء الرئيسى هو أن تتصرف على أساس معرفة الحقيقة وفهمها.

لقد بدأنا ندرك ضرورة أن نتعلم التغلب على التناقض الراسخ بين الواقع وبين السياسة المعلنة. وهذا التحول الهام فى المجال المعنوى هو الذى يشكل المضمون والجوهر العاطفى للثورات الاشتراكية الحالية فى مجتمعنا.

لقد بدأنا نعد القوانين التى تضمن الجلاسنوست. وتهدف هذه القوانين إلى ضمان أكبر علانية ممكنة فى عمل الحكومة والمنظمات الجماهيرية وتمكين الجماهير العاملة من التعبير عن رأيها، بدون خوف، فى أى مسألة فى الحياة الاجتماعية أو نشاط الحكومة.

عند بدء عملية إعادة البناء، اعتمدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى على قوتين حقيقيتين جبارتين ـ لجان الحزب ووسائل الإعلام الجماهيرى. ويمكننى حتى القول بأن الحزب ما كان يستطيع أن يصل إلى مستوى النقاش الحالى عن كل مجموعة قضايا البيريسترويكا ـ وعملية البيريسترويكا ضخمة للغاية، ومتنوعة، ومتناقضة ـ إذا لم تشارك فيها وسائل الإعلام الجماهيرى بنشاط، وبطريقة مناسبة، بعد اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى مباشرة.

وتقدر اللجنة المركزية بدرجة كبيرة الإسهام الذى قدمته وسائل الإعلام إلى البيريسترويكا. فما السبب فى ذلك؟ لأن كل شىء يتوقف على الشعب. والناس فى

طليعة النضال ، والبيريسترويكا تتطور من خلالهم . ولهذا السبب فإن الطريقة التى يفكر بها الناس ، ومستوى وعيهم وموقفهم المدنى تعتبر كلها ذات أهمية حاسمة .

إن مجتمعنا الاشتراكى الذى سار بحزم فى طريق التجديد الديموقراطى ، له مصلحة حيوية فى المشاركة النشطة لكل مواطن ـ لكل عامل ، وكل فلاح جماعى ، وكل عالم ، وكل مهنى ـ فى مناقشة خططنا وتنفيذها على السواء . وتلعب وسائل الإعلام الجماهيرى ، وستستمر تلعب ، دورا هائلا فى ذلك . إنها ليست ، بالطبع ، القنوات الوحيدة للتعبير عن إرادة الشعب ، ولعكس آرائه ، وأمزجته ، ولكنها أكثر منابر الجلاسنوست تمثيلا وقوة . والحزب يريد من كل مواطن أن يعبر عن رأيه بثقة من على هذا المنبر ، وينبغى لصوت المواطنين ألا يعلن فقط فى المناقشات التى تجرى فى البلاد وإنما عليه أن يكون كذلك ضامنا للرقابة الديموقراطية على صحة القرارات وتوافقها مع مصالح الجماهير واحتياجاتها ، وفى المرحلة اللاحقة ، على إنجاز هذه القرارات .

وتنعكس عملية إشاعة الديموقراطية الحالية ليس فقط فى المطبوعات ، ولكنها تؤثر بصورة متزايدة على نشاط وسائل الإعلام الجماهيرى . وبالتدريج يذوب الجمود وتكشف صحفنا ، ومجلاتنا ، والإذاعة والتليفزيون عن موضوعات جديدة وتتناولها . وأحد علامات إشاعة النشاط والحيوية بشكل عام هو أن صحافتنا تفضل بشكل متزايد الحوار عن الحديث الفردى . وتخلى التقارير الرسمية مكانها للمقابلات ، والحوار ، ومناقشات المائدة المستديرة ، والمناقشات الخاصة برسائل القراء . حقا ، إن هناك فى بعض الأحيان اتجاها للحد من عدد الكتاب المشاركين إلى مابين ثلاثة وخمسة أشخاص وهذا ليس سوى عجرفة مهنية . فمن المفيد بدرجة أكبر تنويع المشاركين فى الكتابة حتى يعبر كافة المواطنين عن آرائهم ، وحتى يقول كل مواطن كلمته ، وحتى يتم تمثيل التعددية الاشتراكية ، كما هى ، فى كل مطبوع ينشر . ومن المؤكد أنه لشىء حسن عندما يحدد كاتب محترف موقفه . ومع ذلك ، فإن مايثير اهتماما أكبر أن نقرأ حوارا ومقابلات مع العمال وسكرتيرى لجان

الحزب فى الأحياء ، ورؤساء المزارع الجماعية ، والعلماء ، والشخصيات الثقافية . فهم حملة أفكار حية . أو فلنأخذ الرسائل ـ يالها من وثائق رائعة ! إنها مثيرة حقا .

ومع ذلك ، فلا يحب كل الناس الأسلوب الجديد . ويصح ذلك على وجه الخصوص بالنسبة لمن لم يتعودوا على الحياة والعمل فى ظروف الجلاسنوست والنقد المتحرر ، والذين لايستطيعون ولا يريدون أن يقوموا بذلك . إنهم هؤلاء الذين يعلنون سخطهم على وسائل الإعلام الجماهيرى ، ويطالبون حتى أحيانا بتقييد الجلاسنوست وكبحها .

ونحن لانعتبر أمرا سلبيا وجود مناقشات حول ما إذا لم يكن هناك كثير من النقد ، وما إذا كنا نحتاج إلى مثل هذه الصراحة الواسعة ، وإذا ما كان لإشاعة الديموقراطية آثار غير مرغوب فيها . وتكشف هذه المناقشات ، بأى حال ، عن الاهتمام باستقرار مجتمعنا . ومن الممكن إغراق الديموقراطية والجلاسنوست فى العبارات البلاغية وتشويه معناهما . هناك أناس يبدو وكأنهم مع التجديدات ، ولكن عندما يحين موعد العمل يضعون كافة أنواع الشروط والتحفظات أمام تطوير الديموقراطية والنقد والجلاسنوست .

ولم تعد المسألة هى ما إذا كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ستواصل سياسة الجلاسنوست من خلال الصحافة وغيرها من وسائل الإعلام الجماهيرى وبالمشاركة النشطة للمواطنين . إننا نحتاج إلى الجلاسنوست كما نحتاج إلى الهواء .

وأود أن أؤكد مرة أخرى على أن سياسة توسيع الجلاسنوست وتطوير النقد والنقد الذاتى ، بدلا من التلاعب بالديموقراطية ، هى مسألة مبدأ بالنسبة لحزبنا . ونحن نعتبر تطوير الجلاسنوست طريقة لتراكم الآراء والأفكار المتنوعة المختلفة التى تعكس مصالح كافة الفئات ، وكل المهن والحرف فى المجتمع السوفيتى . ولن يكون فى مقدورنا أن نتقدم ما لم نتأكد إلى أى مدى تستجيب سياستنا للنقد وبخاصة النقد

من أسفل ، وما لم نكافح التطورات السلبية ونمنعها ، ونستجيب للمعلومات من أسفل . ولا يمكننى تصور الديموقراطية بدون كل ذلك .

ومن ناحية أخرى ، فإن طابع النقد ومعاييره تتغير هى الأخرى فى ظروف إعادة البناء ، وإشاعة الديموقراطية . والنقد أولا وقبل كل شىء هو المسئولية ، وكلما كان النقد أكثر حدة ، كلما وجب أن يكون مسئولا بدرجة أكبر ، لأن كل مقال حول موضوع اجتماعى ليس فقط تعبيرا عن الذات بواسطة شخص معين أو انعكاس لعقد شخص ما أو طموحاته ، ولكنه أمر ذو أهمية عامة ، وإشاعة الديموقراطية تعنى إدخال تصحيحات هامة على العلاقة بين من ينتقدون وبين من يوجه إليهم النقد . وينبغى أن تكون علاقات مشاركة تقوم على المصلحة المتبادلة . والحوار هو الأكثر مناسبة فى مثل هذه الحالات ، بينما لايسمح بتاتا بكافة أنواع التعالى فى إلقاء المحاضرات والدروس وبشكل خاص لهجة قاعات المحاكم . ويمكننا أن نعثر على هذا التعالى حتى فى مقالات كُتّاب محترمون ومحترفون : فلا يحق لأحد إصدار حكم نهائى .

وهناك أمر واحد واضح : إن النقد يجب أن يرتكز على الحقيقة على الدوام ، ويتوقف ذلك على حيوية ضمير الكاتب والمحرر ، وعلى شعوره بالمسئولية أمام الشعب .

ويجب أن تغدو الصحافة أكثر فعالية . يجب ألاّ تتغافل عن المتسكعين ، والساعين وراء المنفعة والانتهازيين ، ومن يقمعون النقد والديماجوجيين ، وينبغى أن تساعد بنشاط أكبر الذين يعملون بتفان من أجل البيريسترويكا . ويتوقف الكثير هنا على لجان الحزب المحلية . فإذا ما أعادت لجنة الحزب تنظيم عملها ، فستفعل الصحافة ذلك أيضا .

وأود أن أؤكد على أن الصحافة توحد الشعب وتعبئه بدلا من تقسيم صفوفه وتوليد الاستياء ، والافتقار إلى الثقة . وتجديد المجتمع يعنى كذلك السعى لتأكيد كرامة الإنسان ، ونبله وشرفه . ويمكن للنقد أن يكون أداة فعالة للبيريسترويكا فقط

إذا ما استند إلى الحقيقة المطلقة والاهتمام الدقيق بالعدالة .

ويشكل الدفاع عن القيم الأساسية للاشتراكية تقليدا لصحافتنا. فأى حقيقة ، سواء كانت مسألة راهنة أو حدثا مؤسفا من الماضى ، قد تصبح مادة لتحليل الصحافة . وأى قيم تدافع عنها ، فالأمر الأهم فيها هو ما إذا كان مصير الشعب ومستقبله يهمك أم لا . وهكذا يحدث أحيانا أن يطرح كاتب حقيقة مثيرة وملحة فى الصحيفة ويبدأ فى الرقص حولها ، ويفرض على الآخرين أفكاره ومشاربه . وفى رأيى ، ينبغى أن نرحب بأى حديث صريح وأمين حتى ولو أثار الشكوك. ولكن إذا ما حاول أن يلبسنا ثوب شخص آخر ، فحذار! إن الجلاسنوست تهدف إلى تدعيم مجتمعنا . ولدينا الكثير لنؤكده . ولا يمكن أن يرتاب فى ذلك إلا أولئك الذين تحول الديموقراطية الاشتراكية ومطالبنا الخاصة بالمسئولية دون تحقيق مطامحهم الشخصية ، والتى هى شديدة البعد ، على أية حال ، عن مصالح الشعب .

وهذا ليس بالطبع دعوة لفرض حظر على النقد أو للتحول إلى أنصاف الحقائق أو الكف عن التحليل النقدى. إن مصالح تعميق الديموقراطية الاشتراكية وتعزيز النضج السياسى للشعب ، يتطلب استخداما أكمل لوسائل الإعلام الجماهيرى لمناقشة المسائل العامة والمتعلقة بالدولة ، ولتوسيع الرقابة بواسطة الشعب ، والسعى النشط لمزيد من المسئولية ، ومن أجل انضباط أقوى فى العمل ومراعاة للقانون والنظام الاشتراكى ، ومقاومة انتهاكات المبادئ الاجتماعية والمعايير الأخلاقية لطريقة الحياة السوفيتية . إننا نسعى إلى تنظيم هذا العمل بطريقة تمكن وسائل الإعلام الجماهيرى من أن تتصرف كقوة حرة ، متحدة ومرنة على نطاق البلاد ، قوة قادرة على أن تحل على الفور أكثر الأحداث والمشاكل إلحاحا .

والجلاسنوست ، والنقد والنقد الذاتى ليست مجرد حملة جديدة . لقد أعلنت وينبغى أن تصبح قاعدة لطريقة الحياة السوفيتية . ولايمكن أن يحدث أى تغيير

جذرى بدونها . ولا توجد ديموقراطية ولايمكن أن توجد بدون الجلاسنوست ، كما لاتوجد اشتراكية اليوم ، ولايمكن أن توجد بدون ديموقراطية .

ولايزال هناك عدد محدود إلى حد ما من المسئولين يواصلون الاستجابة بانزعاج لنقد وسائل الإعلام ويقيّمون المقالات أو ما يقال فى الإذاعات من زاوية الحس الشخصى ، والتجربة الماضية ، والتفسير الخاطئ لمصالح المجتمع ، أو لايفهمون ببساطة دور الصحافة فى المجتمع الاشتراكى اليوم . ويحاولون أحيانا تخويف النقاد بتحذيرهم من رد الفعل المحتمل من قبل الغرب على مقال نقدى . وهم يقولون إن الغرب شغوف لأن يسمع نقدنا لأنفسنا لكى يستخدمه ضدنا ، ولتشويه سمعة طريقة الحياة الاشتراكية . ولا أستطيع أن أقول شيئا محددا عن الآخرين ، ولكننى لا أخشى النقد . إن الاستعراض النقدى لتجربتنا علامة على القوة ، وليس الضعف ومثل هذه النظرة تتفق مع مبادئ الأيديولوجية الاشتراكية .

ولكن يوجد كذلك أسلوب « هادئ » آخر لقمع أو تجنب النقد ، عندما يوافق المسئولون علنا عليه ، بل ويرحبون به ويعدون باتخاذ التدابير الفعالة . ولكنهم فى الواقع العملى لايكونون متعجلين لاستخلاص الاستنتاجات العملية . ويأملون بأن ينتهى كل شىء بالكلام ، « ويغوصون فى الرمال » ، ولن يتذكر أحد خطاياهم بعد ذلك . والشىء الهام بالنسبة لمثل هؤلاء الناس أن يندموا فى الوقت المناسب .

اسمحوا لى فقط أن أكرر ماقلته فى اجتماع يناير الكامل : إن الموقف من النقد هو مؤشر هام لموقف الشخص من البيريسترويكا ، ومن كل ماهو جديد يحدث فى مجتمعنا .

وسنبذل كل مافى وسعنا لنمنع أى فرد من قمع النقد أو تجنبه . إن النقد دواء مر المذاق ولكن حتى الأمراض التى تصيب المجتمع تجعل منه ضرورة حتمية : فأنت تقطب وجهك ولكنك تبلعه . والذين يعتقدون بأننا نحتاج فقط إلى جرعات

من النقد فى فترات معينة مخطئون . والذين يميلون إلى الاعتقاد بأن الركود قد تم التغلب عليه تماما ولا داعى للانزعاج مخطئون بالمثل . إن إضعاف النقد سوف يضر حتما بالبيريسترويكا .

البيريسترويكا والمثقفون

أيد المثقفون إعادة البناء بحماس . وسأسمح لنفسى باستطراد واحد هنا . إن المثقفين المخلصين للقيم الاشتراكية ، والذين يشكلون جزءا عضويا من المجتمع السوفيتى ، لديهم إحساس عميق بالوطنية ، ويمثلون إنجازنا العظيم ، وربما الفريد ، ورأسمالنا الروحى الذى لايقدر بثمن . ولمثقفينا تاريخ شاق . فالعديد من المثقفين ، بما فى ذلك ذوى العقلية الديموقراطية ، الذين هاجموا النظام القيصرى ، بل وحتى كافحوا ضده . قد أرعبتهم الثورة واكتسحتهم موجة الهجرة البيضاء[٧] إلى الخارج ، حيث قدموا مواهبهم ومعرفتهم للآخرين . وكانت هذه خسارة كبيرة لمجتمعنا السوفيتى القليل الخبرة .

وعانى المثقفون كثيرا ، بما فيهم المثقفون فى الحزب البلشفى ، وأنزلت بهم فى بعض الأحيان خسائر لاتعوض بسبب انتهاكات الشرعية الاشتراكية وأعمال القمع فى الثلاثينيات . وكان ذلك أيضا ضربة قاصمة لقدرة البلاد الثقافية .

ومع ذلك واصل المثقفون السوفيت تكوينهم ونموهم ، وكانوا مرآة تعكس القوانين الموضوعية التى تحكم تطور الاشتراكية واحتياجاتها الحيوية . وقد حولت الثورة الثقافية[٨] اللينينية فى النهاية بلادنا شبه الجاهلة والأمية ببساطة إلى بلد من أكثر البلاد تعلما فى العالم .

---

(٧) الهجرة البيضاء ـ اصطلاح عام يطلق على كل من ترك روسيا بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ وخلال الحرب الأهلية ١٩١٨ ـ ١٩٢٢ . وحارب قسم كبير منهم بنشاط ضد الحكومة السوفيتية فى الحرب الأهلية وشاركوا فى نشاطات تخريبية ضد الجمهورية السوفيتية . وحصل كثير من المهاجرين فيما بعد على المواطنة السوفيتية وعاد بعضهم إلى وطنهم .

(٨) الثورة الثقافية ـ القضاء على الأمية فى الاتحاد السوفيتى فى العشرينيات والثلاثينيات واستيعاب الجماهير =

ومع ذلك فقد تشكل فى فترة الركود وضع متناقض عجز فيه مجتمعنا عن أن يستخدم قدراته الثقافية والإبداعية الهائلة . ومرة أخرى يعود السبب فى ذلك إلى إبطاء تطور الديموقراطية بشكل مصطنع . ولم تعجز كافة أشكال الخطر ، والخوف من الجديد ، ومن النظرات الخلاقة ، من أن يكون لها أثرها .

وأتذكر اجتماعا فى يونيو ١٩٨٦ مع العاملين فى جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى . وكان الاجتماع يتعلق بالبيريسترويكا . وكان على أن أطلب منهم أن يتبنوا أسلوبا جديدا فى العمل مع المثقفين . لقد آن الأوان لوقف إصدار الأوامر ، لأن ذلك ضار وغير مسموح به . وقد رحب المثقفون بكل قلوبهم ببرنامج التجديد الديموقراطى للمجتمع .

وعقدت مؤتمرات الاتحادات الإبداعية [٩] لمنتجى الأفلام ، والكتاب ، والفنانين ، والمؤلفين الموسيقيين ، والمعماريين ، والشخصيات المسرحية والصحفيين . وتميزت هذه المؤتمرات بمناقشات حادة . وأيدت كافة المؤتمرات البيريسترويكا بإخلاص . وانتقد المشاركون فيها أنفسهم بشدة . ولم ينتخب كبار مسئولى الاتحاد السابقين للهيئات القيادية ، كما لم ينتخب الصاخبون ، وانتخب بدلا منهم أشخاص بارزون ذوو نفوذ ليرأسوا الاتحادات .

وقلت لمن وجدوا المناقشات حادة للغاية : إن عليهم ألا يندهشوا أو يمتعضوا ، وإن هذه المؤتمرات يجب أن تقبل كظواهر معتادة ، رغم أنها جديدة . إن إشاعة الديموقراطية تجرى فى كل مكان ، وتكتسب أشكالا حادة فى بعض الأحيان . وقد عارض بعضهم ، وقالوا : إنه سيكون من الصعب العمل فى جو يجد فيه كل شخص أنه فيلسوف نفسه ، والسلطة الأولى على نفسه ، ويعتقد أنه

= الشعبية العريضة للثقافة الحديثة .

(٩) الاتحادات الإبداعية ـ جمعيات اختيارية للمثقفين توحد الكتاب ، والمهندسين ، والمؤلفين الموسيقيين ، والممثلين ، والفنانين ، والصحفيين ، ومنتجى الأفلام ، الخ .

وحده على حق . وأجبت : إنه سيكون من الأسوأ كثيرا أن نتعامل مع مثقفين سلبيين ، ومع اللامبالاة والسخرية .

إن الانفجارات العاطفية هى جزء محتوم من أى مسعى معقد . وكانت تلك هى الحال فى الأزمنة الثورية . واليوم يبدو وكأننا ندخل مدرسة الديموقراطية من جديد ونحن نتعلم . ومازلنا نفتقر إلى الثقافة السياسية . ولايوجد لدينا حتى الصبر لكى نسمع أصدقاءنا . وكل هذا سوف يمضى بالتأكيد . وسوف نستوعب هذا العلم أيضا . ولابد من مناقشة أكثر المسائل الشائكة مع الاحترام الواجب لبعضنا البعض . وحتى أكثر وجهات النظر تطرفا تحوى شيئا قيما وعقليا ، لأن الشخص الذى يدافع عنها بإخلاص ويهتم بالقضية المشتركة بطريقته الخاصة يعكس بعض الجوانب الواقعية للحياة . وهذا لايمثل بالنسبة لنا صراعا طبقيا عدائيا . إنه سعى ونقاش حول كيفية مواصلة جهد إعادة البناء وجعل تقدمنا راسخا ولا رجعة فيه . ولهذا فأنا لا أرى أى تضارب حاد فى الجدل العنيف ، وفى مقارعة الآراء . إنه شىء عادى .

لقد ظهرت فى الحقيقية بين الكُتّاب أوهام جماعية وعدم تسامح فيما يتعلق بالعلانية الجديدة . وجاء وقت زاد فيه الانفعال فى الأوساط الأدبية . ونقلنا إليهم رأى اللجنة المركزية ، القائل بأنها ستكون آسفة للغاية إذا ماتشاجر المثقفون فى مجال الفن والمجال الإبداعى بدلا من تعزيز وحدتهم . وبدأ أفراد منهم يستخدمون العلانية ، والصراحة وإشاعة الديموقراطية لتسوية حسابات قديمة والانتقام للنقد . وأسوأ مايمكن أن يحدث هو أن يسمح المثقفون الإبداعيون لأنفسهم ، فى هذه الأزمنة الثورية ، بأن يغرقوا فى التوافه ، وأن يعطوا فرصة للمطامح الشخصية وليستنفدوا طاقاتهم فى الكلمات الرنانة عديمة المعنى بدلا من المسعى الخلاق . وحثت اللجنة المركزية الكُتّاب على أن يسموا فوق عواطفهم ، وعاداتهم المريحة وقوالبهم الجامدة . وقلنا لهم ، ارتقوا بأنفسكم وفكروا فى الشعب والمجتمع .

فليشعر المثقفون بالمسئولية وليتجلى ذلك فى اتحاداتهم الإبداعية ، مهتمين ، فى المقام الأول بتطور المجتمع روحيا .

والمثقفون متشربون بشعور المسئولية المدنية ، وقد تحملوا بحماس نصيبا أكبر من جهد إعادة البناء. إن مثقفينا، جنبا إلى جنب مع الحزب، قد بدأوا التغيير. إن موقفهم المفعم بالروح العامة يتجلى بقوة متزايدة ، ولنا مصلحة راسخة فى هذا ، ونثنى على كل صوره ــ الطريقة التى شاركوا بها فى الجهد بعد أبريل ١٩٨٥ ، وحماسهم ورغبتهم فى مساعدة إعادة بناء المجتمع ــ ونحن نأمل أن يتواصل إسهام المثقفين هذا . إنهم يرتفعون إلى مستوى جديد للتفكير والمسئولية . وأن خطهم يتفق مع المسار السياسى للحزب الشيوعى السوفيتى ومع مصالح الشعب .

ثانيا ـ السياسة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة فى العمل

كيف تتطور البيريسترويكا فى الاقتصاد ؟.

يجب أن أقول صراحة إن كل جهودنا نحو تغيير بنية الاقتصاد القومى ، وتحويله إلى مسار التنمية المكثفة ، وتسريع التقدم العلمى والتكنولوجى قد حثت بدرجة زائدة الإلحاح على الحاجة إلى إصلاح جذرى للدولاب الاقتصادى وإلى إعادة بناء كل نظام الإدارة الاقتصادية .

والاشتراكية ، والملكية العامة التى ترتكز عليها ، تقدمان إمكانيات غير محدودة ، من الناحية الفعلية للعمليات الاقتصادية التقدمية . ولهذا السبب ، يجب علينا ، مع ذلك ، أن نجد فى كل مرة الأشكال الأكثر فعالية للملكية الاشتراكية ولتنظيم الاقتصاد . ومما له أهمية قصوى فى هذا الخصوص أن يكون الشعب السيد الحقيقى للإنتاج ، بدلا من أن يكون سيدا بالإسم فقط ، لأنه بدون ذلك ، لن يهتم العمال ــ الأفراد أو أسر العمل ــ ولا يمكن أن يهتموا بالنتائج النهائية لعملهم .

إن فكرة لينين المتعلقة بإيجاد أكثر الأشكال فعالية وحداثة لدمج الملكية العامة

مع المصلحة الشخصية تشكل أساس كل مساعينا ، وكل مفهومنا لتحويل الإدارة الاقتصادية جذريا .

الإصلاح الاقتصادى : اجتماع يونيو ١٩٨٥ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى

عند تنفيذ إصلاح اقتصادى جذرى ، كان من المهم أن نحول دون تكرار الأخطاء الماضية التى انتهت فى الخمسينيات والستينيات إلى فشل محاولاتنا لتغيير نظام الإدارة الاقتصادية . وفى نفس الوقت ، برهنت هذه المحاولات أنها غير كاملة ، وغير ثابتة لأنها أكدت مسائل معينة ، بينما تجاهلت مسائل أخرى . وإذا ما تحدثنا بصراحة ، فلم تكن الحلول التى قدمت حينذاك حلولا جذرية ، وإنما كانت تدابير جزئية ، كثيرا ما فاتها جوهر الأمور .

ويمكننى القول بأن مفهوم الاصلاح الاقتصادى ، الذى تقدمنا به إلى اجتماع يونيو الكامل ، ذو طبيعة شاملة . إنه ينهض بأعباء التغييرات الجوهرية فى كل مجال بما فى ذلك تحويل المؤسسات إلى الحساب الاقتصادى الكامل ، وتحويل جذرى لإدارة الاقتصاد المركزية ، وتغييرات جوهرية فى التخطيط ، وإصلاح نظام تكوين الأسعار ، والدولاب المالى والائتمانى ، وإعادة بناء العلاقات الاقتصادية الخارجية . كما ينهض كذلك بأعباء إقامة بنى تنظيمية جديدة للإدارة والتطوير الشامل للأسس الديموقراطية للإدارة ، والتطبيق الواسع لمبادئ الإدارة الذاتية .

وهناك منطق داخلى فى كل عملية معقدة ، ويعكس العلاقات الداخلية بين تدابير معينة ، وبين خطوات ملموسة معينة . وقد طرح أمامنا سؤال طبيعى : من أين نبدأ ؟ وماهى نقطة البدء فى إعادة بناء الإدارة ؟ .

وفى اقتصادنا المخطط ، قد يبدو منطقيا ، عند أول نظرة ، أن نبدأ إعادة

البناء من المركز ، وأن نحدد بنية ووظائف الهيئات الاقتصادية المركزية ، ثم ننتقل إلى مستوى الإدارة المتوسط ، ثم فى النهاية ، إلى المؤسسات والاتحادات ، باعتبارها المستوى الأول . وقد يبدو هذا صحيحا من وجهة نظر المنطق المجرد ، بيد أن الواقع والخبرة المتراكمة قد أملت نظرة مختلفة ومنطقا مغايرا : إذ ينبغى أن نبدأ بالمؤسسات والاتحادات الحلقة الرئيسية فى السلسلة الاقتصادية . علينا أن نبدأ بإيجاد النموذج الاقتصادى الأكثر فعالية لها ، ثم نخلق الظروف الاقتصادية المثلى ، ونوسع ونعزز حقوقها ، وعلى هذا الأساس فقط ندخل تغييرات جوهرية فى نشاط كافة المراتب العليا للإدارة الاقتصادية .

وعندما حددنا هذا التتابع فى جهد إعادة البناء كنا نضع فى الاعتبار أن العمليات الاقتصادية الأساسية تجرى هناك ، فى المؤسسات والاتحادات ، وأن القيم المادية تخلق بها ، وأن الأفكار العلمية والتكنولوجية تتجسد هناك . وتعطى أسرة العمل شكلا ملموسا للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، كما تتشابك فى عملها (أسرة العمل) المصالح الشخصية ، والجماعية ، والاجتماعية للناس . وتحدد أسرة العمل لدرجة كبيرة الجو الاجتماعى والسياسى على نطاق البلاد .

ووضعنا فى اعتبارنا كذلك خبرتنا السابقة ، حيث لم تنجح المحاولات المتكررة لإصلاح مستويات الإدارة العليا دون مساندة من أسفل بسبب المقاومة العنيدة من جهاز الإدارة ، الذى لم يكن يرغب فى أن يتخلى عن حقوقه وامتيازاته العديدة . وقد صادفنا أخيرا هذه المقاومة ، ومانزال نصادفها الآن . وفى ذلك أيضا ، كما فى كافة مجالات إعادة البناء الأخرى ، علينا أن نربط ما يأتى من أعلى مع الحركة من أسفل ، أى ، إعطاء جهد إعادة البناء طبيعة ديموقراطية عميقة .

ماهو العيب الرئيسى فى الجهاز الاقتصادى القديم ؟

إنه فى المقام الأول الافتقار إلى الحافز الداخلى للتطور الذاتى ، حقا ، إنه من خلال نظام مؤشرات الخطة ، تتلقى المؤسسة التكليفات والموارد . وتغطى كافة

النفقات عمليا ، ويضمن بيع المنتجات فى الأساس ثم وهو الأهم ، فإن دخول الموظفين لاتعتمد على النتائج النهائية لعمل أسرة العمل : إنجاز التزامات العقود ، وجودة المنتج والأرباح. ومثل هذا الدولاب يمكن أن ينتج عملا ذا نوعية متوسطة أو حتى رديئة ، سواء راق ذلك لنا أم لا . فكيف يمكن أن يتقدم الاقتصاد إذا ما خلق ظروفا تفضيلية للمؤسسات المتخلفة وإذا ما عاقب أكثرها تقدما ؟.

لم يعد بإمكاننا أن ندير شئوننا بهذه الطريقة . وينبغى على الدولاب الاقتصادى الجديد أن يصلح الأمور. يجب أن يصبح رافعة قوية ، وقوة باعثة على الحيوية لأداء الجودة الواسع الحيلة . ويجب أن تنطلق كل مؤسسة من مطالب اجتماعية حقة لتحدد خطط الإنتاج والبيع لنفسها . ويجب أن ترتكز هذه الخطط لا على تكليفات تفصيلية عديدة تضعها الهيئات الأعلى ، وإنما على أوامر مباشرة تضعها المنظمات الحكومية ومؤسسات الحساب الذاتى وشركات التجارة لمنتجات معينة ذات كمية وجودة مناسبة . ويجب أن توضع المؤسسات فى ظروف تمكنها من تشجيع المنافسة الاقتصادية من أجل أفضل تلبية لطلبات المستهلك ، كما يجب أن تعتمد دخول الموظفين بشكل حازم على نتائج الإنتاج النهائية ، على الأرباح .

وقد أدخلنا كل هذه المبادئ للإدارة الاقتصادية وأشكالها الخاصة فى مشروع القانون الخاص بمؤسسات الدولة (الاتحادات) الذى جرت مناقشته على نطاق البلاد فى أسر العمل ، وفى اجتماعات العمال والنقابات المحلية وفى وسائل الإعلام . وقد أثار مشروع القانون اهتمام كل الشعب . وشعر الناس أن هناك حاجة إلى رأيهم . وقامت مجموعة خاصة من المسئولين الحكوميين ، والعلماء ، وممثلى مختلف هيئات الدولة بدراسة المقترحات ، والتعديلات ، والإضافات المقدمة . وأدخل فى المشروع كل ماهو عقلى ومقبول وجرى تحسينه بدرجة كبيرة .

كان الهدف من معظم التصحيحات توسيع حقوق أسرة العمل . وكان المطلب العام ألاّ نتراجع تحت تأثير القصور الذاتى ، وإنما أن نواصل السير بحزم . وشعرنا أن

القانون الجديد لاينبغى أن يثقل بتعليمات عديدة يمكن أن تضعفه وتوقفه . وتبنى السوفيت الأعلى القانون الذى سيصبح سارى المفعول فى أول يناير ١٩٨٨ .

حقا ، لقد نشرت الصحافة بعض مقترحات كانت خارجة على نظامنا . فكان هناك رأى ، مثلا ، يقول بأن علينا أن نتوقف عن الاقتصاد المخطط ونسمح بالبطالة . إنه ليس بإمكاننا أن نسمح بذلك ، لأننا نهدف إلى تدعيم الاشتراكية ، وليس إلى استبدالها بنظام آخر. وما يقدمه لنا الغرب ، من اقتصاد مختلف ، غير مقبول لنا . ونحن على يقين من أننا إذا ما استخدمنا حقا إمكانيات الاشتراكية ، وإذا ماتمسكنا بمبادئها الأساسية ، وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا تماما المصالح البشرية واستخدمنا مزايا الاقتصاد المخطط ، لأمكن للاشتراكية أن تحقق أكثر من الرأسمالية بكثير.

ونحن نولى أهمية أساسية للقانون الخاص بمؤسسات الدولة فى إصلاحنا الاقتصادى . ونعتبره مقياسا لخطواتنا وتدابيرنا الأخرى ، التى ننظر إليها من وجهة نظر مدى اتفاقها بشكل كامل مع هذا القانون وإسهامها فى تنفيذه العملى .

ومن أجل التحضير للاجتماع الكامل ، أمضى المكتب السياسى شهورا عديدة يدرس نتائج التحليل الشامل والموضوعى تماما لنشاط مجلس وزراء الاتحاد السوفيتى، والجوسبلان (١٠) ، والجوسناب (١١) ، والمينفين (١٢) ، والجوسبانك (١٣) ، والوزارات والإدارات الاقتصادية وهيئات الإدارة الصناعية، ووضعت مشاريع قوانين محلية للتحكم فى عمل الهيئات المركزية لجعلها (ووظائفها الرسمية) تتفق تماما مع القانون الخاص بمؤسسات الدولة ، وألا تتناقض معها بأى حال ، وقد نوقشت فى

(١٠) جوسبلان (لجنة التخطيط الحكومية للاتحاد السوفيتى) ـ هيئة حكومية مسئولة عن التخطيط الطويل المدى والجارى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد والرقابة على إنجاز الخطط .

(١١) جوسناب ـ لجنة الدولة للاتحاد السوفيتى للإمداد المادى والتكنيكى . وهى هيئة حكومية .

(١٢) مينفين ـ وزارة المالية للاتحاد السوفيتى .

(١٣) جوسبانك ـ بنك الدولة للاتحاد السوفيتى . البنك الرئيسى فى البلاد .

الاجتماع الكامل ، ووضعت فى صورتها النهائية ، وأقرت ، ودخلت حيز التطبيق .

إن اجتماع يونيو الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتي ، وقراراته ، و « المواد الأساسية لإعادة البناء الجذرى للإدارة الاقتصادية » التى أقرها تكمل فى الواقع بناء نموذج حديث للاقتصاد الاشتراكى يلبى تحدى المرحلة الحالية من التطور الوطنى .

إن الاجتماع الكامل ودورة السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتى التى أعقبته ، قد طورا وعززا سياسة مشاركة الشعب النشطة فى العمليات الاقتصادية والإنتاجية ، وربطا بشكل وثيق بين مصالح الدولة ومصالح الفرد وأسرة العمل ، وجعلا الجماهير العاملة السوفيتية هي السيد الحقيقي .

ومايزال لدينا بالطبع ، أشياء لابد من تكملتها ، أو ربما إعادة عملها . وليس بإمكان أى مجتمع استبدال أى نظام للإدارة الاقتصادية في يوم وليلة ، بنظام مختلف وأكثر تقدما ، كما لوكان حيلة ميكانيكية ما . وسيكون علينا أن نكيف دولابا ديناميا ومرنا وحساسا للتغييرات فى الإنتاج وقادرا على أن نخضع للتحديث بشكل دائم ، ويقبل ماهو متقدم ويرفض ما انقضي زمانه . ويتمثل التحدى الرئيسي في وقف الاعتقاد بأنه مادامت القرارات قد اتخذت ، فستكون علي الدوام ملائمة في شكلها القائم .

وعندما وضعنا برنامجا لإصلاح اقتصادى جذرى أرسينا الأسس لهجوم واسع النطاق ، هذه المرة فى كل مجالات عملية تسريع وتوسيع إعادة البناء . وتوفر القرارات التى اتخذت المستلزمات الاقتصادية والتنظيمية للتوصل إلى أهداف الخطة الخمسية الحالية والأهداف البعيدة المدى حتى عام ٢٠٠٠ . والمهمة التى فى متناولنا الآن هي أن نشغّل الجهاز الجديد للإدارة الاقتصادية بكامل طاقته وبكفاءة ودون تأخير .

وربما كانت اللحظة الحالية هى أحرج اللحظات فى إعادة بناء الاقتصاد

والإدارة . لقد بدأت مرحلة العمل البناء . والآن ينبغى ترجمة كل شىء إلى واقع . ويجب التركيز الآن على أن ننفذ بالفعل ما كثفنا جهودنا من أجله ـ وهذه هى السمة المميزة للوضع الراهن .

نحو الحساب الاقتصادى الكامل

إن جوهر ما نخطط لعمله فى جميع أنحاء البلاد يتمثل فى أن نستبدل بأساليب يهيمن عليها الطابع الإدارى أساليب يهيمن عليها الطابع الاقتصادى فى الأساس . ومن الواضح تماما للقيادة السوفيتية أنه لابد وأن يكون لدينا حساب اقتصادى كامل .

حقا إن هناك بعض العقبات . واثنتان منها على الأقل كبيرتان . العقبة الأولى أنه يتعين علينا أن نفعل ذلك فى إطار الخطة الخمسية المعتمدة بالفعل ، أى نجعله متفقا معها . ولهذا الجانب الخاص أثر خطير على عملية الانتقال . إذن فما الذى يجب علينا عمله فى النهاية : هل نتمسك بالخطة الخمسية أو نسحبها ؟ هناك جواب واحد على هذا السؤال : يجب أن نحقق أهداف الخطة الخمسية.! إنها فترة خمسية صعبة للغاية : إذ تجرى فيها أبحاث طموحة واسعة ، وتغييرات هيكلية كبيرة ، كما يجرى حل كثير من المسائل الاجتماعية ، وإلى جانب ذلك ، يجب إدخال الكثير من التجديدات خلال هذه الفترة . إنها أوقات صعبة ومرهقة بالنسبة لمديرى المصانع : فلديهم عبء ثقيل من المشاكل التى تراكمت وعليهم فى نفس الوقت أن ينتقلوا إلى التمويل الذاتى .

والعقبة الأخرى هى أن بعضا من المكونات الأكثر أهمية لدولاب الإدارة الجديد ، ليس جاهزا بعد ولن يوضع موضع التنفيذ على الفور . وسيحتاج إلى عامين أو ثلاثة لإعداد إصلاح تكوين الأسعار وإصلاح دولاب المال والائتمان ، ومن خمس إلى ست سنوات للانتقال إلى تجارة الجملة فى وسائل الإنتاج . وماتزال

أمامنا أمور كثيرة يجب أن نحسمها بخصوص تحديد وظائف الوزارات ، وإعادة تنظيم الإدارة الإقليمية ، وتقليص العاملين .

وعلى ذلك فستكون لدينا فترة انتقال معقدة للغاية ، تتعايش خلالها كل من الدواليب القديمة وهذه التى أدخلت حديثا . بيد أن الحساب الاقتصادى الكامل سيطبق دون تأخير. وستتابع هذا المسار بنشاط مكتسبين الخبرة العملية . وسوف نجرب ونختبر كل شىء .

وكلما قابلت أناسا يعملون فى الصناعة ، أو حتى فى وزارات ، أقول لهم : لا تحجموا ، ابحثوا عن الأشياء وجربوها . إن الشعب لديه من الحكمة الكبيرة والشعور الحاد بالمسئولية ما يمكنكم ـ بل ويوجب عليكم ـ أن تتصرفوا بجرأة وثقة . حسنا ، لنفترض أننا ارتكبنا أخطاء . فماذا إذن ؟ من الأفضل أن نصححها بدلاً من الجلوس والانتظار .

مفهوم جديد للمركزية

فى مجرى البيريسترويكا يتشكل مفهوم جديد للمركزية الديموقراطية . ومن المهم أن نحافظ على توازن سليم لجانبيها ، واضعين فى اعتبارنا أنه فى المراحل المختلفة ستلقى الأضواء على جوانب مختلفة .

والوضع الآن هو كما يلى : هناك كثير من الناس يدعون إلى تقوية المركزية . إن بيانات الميزانية ، والنسب ، والحاجة إلى أن تتطابق الدخول مع مجموع السلع وحجم الخدمات ، والسياسات الهيكلية ، ونفقات الدولة ، والدفاع ـ كل هذه الأمور تتطلب مركزية حازمة . ويجب أن تشعر كل جمهورياتنا وكافة شعوبنا أنهم يعيشون فى ظروف متكافئة ، ولديهم فرص متساوية للتطور. وفى ذلك يكمن ضمان استقرار المجتمع السوفيتى . ولهذا السبب فنحن لانريد أن نضعف من دور المركز ، لأننا لو فعلنا ذلك فسوف نفقد ميزات الاقتصاد المخطط .

وفى نفس الوقت ، لا يعجز المرء عن أن يرى أن السلطات المركزية محملة أكثر مما يجب بأعمال صغيرة . ولسوف نحررها من الواجبات الحالية لأنها بالقيام بها ، تفوت عليها الأمور الاستراتيجية .

ويعود الكثير مما انتقدناه بحق فى اجتماعى يناير ويونيو الكاملين ، فى المقام الأول ، إلى لامبالاة فى المركز : فليس فى مقدوره أن يشعر بالاتجاهات الخطرة فى الوقت المناسب ، وأخفق فى إيجاد الحلول للمشاكل الجديدة ، الخ . وأكرر أن كل إعادة تنظيم للجهاز المركزى ووظائفه ستكون فى جميع مراحلها متفقة بدقة مع قانون مؤسسات الدولة . والمركزية فى ظروف البيريسترويكا لا علاقة لها بالتنظيم البيروقراطى للحياة المتعددة الوجوه للإنتاج ، وللأسر العلمية ، وأسر التصميم . وعلينا مع ذلك أن نفرق بين وظائف المركز والمحليات ، وأن نغير جوهر عمل الوزارات ، وأغراضها .

إننا نعتزم إشاعة الديموقراطية فى التخطيط . وهذا يعنى أن وضع الخطط الفعلية وليست الإسمية ـ سيبدأ داخل المؤسسات وأسر العمل . فهى التى ستخطط إنتاج منتجاتها ، على أساس الحاجات الاجتماعية التى تعبر عنها أرقام الخطة والعقود الحكومية ، وعلى صلات العقود الاقتصادية المباشرة مع المستهلكين .

وسيكون على لجنة تخطيط الدولة أن تكف عن التنظيم التفصيلى والرقابة اليومية على عمل الوزارات والإدارات ، وسيكون على الأخيرة أن تفعل نفس الشىء بالنسبة للمؤسسات . وسيجرى تنظيم نشاط المؤسسات (ميزانيات الأجور ، وتوزيع الأرباح ، والمدفوعات إلى الميزانية ، الخ) وفقا للقواعد الاقتصادية بعيدة المدى ، وسيكون ذلك فى الواقع تنظيما ذاتيا .

ونحن نستهدف توسيع العلانية فى كل مراحل التخطيط ، وإدخال المناقشة الواسعة للمشاكل الحكومية والإقليمية الاجتماعية ، والاقتصادية ، والعلمية ،

والتكنولوجية ، والبيئية . وسوف يطبق مبدأ التغيرية فى نظام التخطيط بهدف العثور على الحلول المثلى .

ويشكل متميز عن الأسلوب السابق ، سوف تراقب الأجهزة المركزية المؤسسات فى عدد محدود من المناطق ــ فى إنجاز الطلبيات الحكومية ، والأرباح ، وإنتاجية العمل ، والمؤشرات العامة للتقدم العلمى والتكنولوجى والمجال الاجتماعى . إن إنجاز المؤسسات لالتزامات التعاقد وللطلبيات الحكومية بالنسبة للمنتجات الأكثر أهمية ، وأنماط العمل والخدمات يغدو معيارا هاما لنشاط المؤسسات . وسيقلص تركيب وحجم الطلبيات الحكومية بالتدريج مع تشجيع السوق لما فيه مصلحة الصلات المباشرة المتزايدة بين المنتجين والمستهلكين . وعندما نكتسب الخبرة اللازمة . سنضع الطلبيات الحكومية على أساس تنافسى ، مطبقين مبدأ المباراة ، أو المنافسة الاشتراكية .

وسيخضع نظام الإمدادات المادية والتكنيكية لتغيرات جذرية . وسيكون التركيز على الانتقال من تكوين الأموال إلى التوزيع الممركز للموارد ، إلى تجارة الجملة .

وباختصار ، فسوف ترتبط مزايا التخطيط بصورة متزايدة بالعوامل الحافزة للسوق الاشتراكى . ولكن كل ذلك سيحدث فى خلال المجرى الرئيسى للأهداف الاشتراكية ومبادئ الإدارة .

إن توسيع حقوق الاستقلال الاقتصادى للمؤسسات ، وتغيير وظائف الإدارات القطاعية والاقتصادية المركزية ، والانتقال فى الإدارة من الأساليب ذات الطابع الإدارى الغالب إلى الأساليب ذات الطابع الاقتصادى الغالب يتطلب تغييرات جذرية فى البنية الإدارية .

وفيما مضى ، غالبا ما صاحب تحسين الإدارة إقامة عناصر تنظيمية جديدة ، مما أدى إلى تضخم الجهاز ، إلى أن أصبح كبير الحجم ، يصعب التعامل معه ،

وبيروقراطيا . ونحن ندرك أن معدلات إعادة البناء الاقتصادى تعوق منها بدرجة غير قليلة ضخامة الجهاز الإدارى وكفاءته غير الكافية . ولذلك فإننا ننوى أن نجرى تخفيضات كبيرة فى الجهاز الإدارى ، وسوف نبسط بنيته ، عند الضرورة ، ونوسع الوزارات القطاعية . ولدينا بالفعل بعض الخبرة فى القيام بذلك . وعلى سبيل المثال ، فلقد كانت الزراعة وتصنيع منتجاتها تديرها فى بلادنا سبع وزارات وإدارات اتحادية . وقد دمجنا كل هذه الإدارات فى الجوساجرو بروم(١٤) . وفى نفس الوقت خفضنا العاملين الإداريين بها إلى النصف تقريبا . وفى حالة أخرى ، اخترنا تكبير بعض الوزارات عن طريق إدماجها . وهكذا سوف نتصرف فى المستقبل ، على أن نأخذ كل حالة وفقا لخصائصها الفردية .

ومن الواضح الآن لكل امرئ أنه فى ظل النطاق الحالى للاقتصاد ، لا يمكن لأى جهاز وزارى أو إدارى ، مهما كانت كفاءته ، أن يأخذ على عاتقه حل كل مسألة بشكل مطلق ، كما لا يمكنه أن يحل محل فكر ومبادرة أسر العمل . إن إعادة توزيع الحقوق بين الإدارات المركزية والمؤسسات لا تسير بشكل سلس . فجهاز الوزارات والوزراء أنفسهم غير راغبين فى أن يكفوا عن عادة إقرار الأمور الصغيرة بأنفسهم . إنهم معتادون على هذا الأسلوب ، الذى يجعل الأمور أسهل كثيرا بالنسبة لهم . وأى تحويل للحقوق من المركز إلى المحليات ، مؤلم بشكل عام ، رغم أن ضرورة ذلك ، كما أكرر ، واضحة للجميع ، لكل من الوزارات والعاملين . وهم يدركون أن هذا العمل يفيد القضية ، ولكن رغم ذلك ، توضع المصالح الديوانية الضيقة ومصالح بعض التجمعات فى بعض الأحيان فوق مصالح المجتمع والشعب .

وهناك طريق آخر لإتقان الإدارة الاقتصادية . وتبين التجربة أن هناك إمكانية للتوصل إلى الكفاءة القصوى فى نقاط التقاء الصناعات . بيد أن توقعنا أن يكون فى مقدور لجنة الدولة للتخطيط متابعة كافة العلاقات فيما بين القطاعات واختيار

---

(١٤) جوساجرو بروم (اللجنة الحكومية الزراعية الصناعية للاتحاد السوفيتى) ـ الهيئة المركزية للإدارة الحكومية للمجمع الزراعى الصناعى فى البلاد ، التى تشكلت عام ١٩٨٥ .

أفضل بديل ، يعنى التعلق بالأوهام. فالوزارات فى وضع لايسمح لها حتى بأن تقوم بذلك . وهذا ما دعا إلى أن ندرج فى جدول الأعمال مسألة إقامة هيئات تدير المجمعات الاقتصادية الكبيرة . وكما نرى ، فإن نظام الإدارة سيخضع لتغييرات ضخمة . ونحن ننوى أن نتصرف بحزم ، ولكن بطريقة متوازنة كذلك ، وبدون ضجة لا لزوم لها .

الهدف : المستويات التكنولوجية العالمية

فى الوقت الذى نعيد بناء نشاطنا التخطيطى والاقتصادى ونوسع حقوق المؤسسات قمنا كذلك بمعالجة مسائل التقدم العلمى والتكنولوجى . وكانت تقدم للفروع التى تحتل مركز الصدارة فى هذا التقدم مساندة مالية ومادية إضافية . ومن أجل هذه الغاية رسمنا برنامجا قوميا صارما ، وخصصنا الأموال اللازمة .

وسوف نجدد ، خلال فترة الخطة الخمسية الثانية عشرة[١٥] ، الجزء الأكبر من الأصول الثابتة فى صناعة آلات الإنتاج . وستكون الأموال المرصودة لهذه الأغراض حوالى ضعف ما أنفق فى السنوات الخمس السابقة .

وقد كشف تحليل أداء الصناعة عن أخطاء فى سياسة الاستثمار . ولقد كانت سياستنا لسنوات عديدة أن نبنى مزيدا من المؤسسات . واستوعب بناء الورش والمبانى الإدارية أموالا ضخمة . وفى غضون ذلك ، ظلت المؤسسات القائمة عند المستوى التكنولوجى نفسه . وإذا ماجرى بالطبع استخدام جيد لكل مايتوفر فى ورديتين أوثلاث ، لأمكن تلبية أهداف الخطة الخمسية الثانية عشرة باستخدام المعدات القائمة. بيد أن المعدات العتيقة تجرنا بطريقة أو بأخرى إلى الخلف ، لأنها ستعنى أننا لن نكون قادرين على إنتاج منتجات حديثة . ولذا يجب التخلى عن الآلات القديمة . ولهذا السبب فإننا نغير لدرجة كبيرة سياستنا الاستثمارية والهيكلية .

---

(١٥) فترة الخطة الخمسية الثانية عشرة ـ فترة التنمية الخمسية الحالية (١٩٨٦ ـ ١٩٩٠) .

فى عام ١٩٨٣ قمت بزيارة مصنع «زيل»[١٦] . وكان ذلك فى وقت الإعدادات النشطة لتحديث هذا المصنع ، الذى يعتبر واحدا من أهم المشاريع فى صناعة السيارات السوفيتية. وفى عام ١٩٨٥ زرت مصنع «زيل» ثانية ، وسألت كيف تقدم التحديث . واتضح أن المعالم الرئيسية قد انتقلت إلى المستوى التكنولوجى المتوسط ، بالاعتماد على معدات صنعت قبل ذلك بخمس أو سبع سنوات . ولذلك ، ما كان بإمكان المرء أن يتوقع تقدما هاما فى التكنولوجيا . وبالإضافة إلى ذلك ، سيحتاج الأمر إلى قوة عمل أكبر. إن التركيز على التكنولوجيا التى انقضى زمانها لا يؤدى إلى تكثيف كبير فى الإنتاج ، إنه يعزز فقط التباطؤ فى التنفيذ . ومع اتضاح ذلك ، تقدمت أسرة المصنع بخطة أخرى أكثر تقدما . ولكنها لم تجد مساندة وتوقف العمل بها ، وقد ساندنا قرار أسرة المصنع بالرجوع إلى هذه الخطة لتحديث زيل . ورسمت خطة جديدة لتجديد معدات المصنع ، وهى تنفذ بشكل ناجح . وستصبح مصانع « زيل » مؤسسة حديثة حقا .

وبشكل عام ، فإن التغييرات الكبيرة فى التكنولوجيا وفى المعدات تستغرق وقتا طويلا . وكما نقول ، « إن موسكو لم تبن فى يوم واحد » . وإذا ما بدأنا مهمة حسم كل شيء دفعة واحدة ، لكان علينا تحديث الإنتاج باستخدام معدات عتيقة ، انقضى زمانها . ولكان هذا يعادل عدم إحراز أى تقدم .

عندئذ ألقينا نظرة على المعدات لدينا . وبحثنا ما إذا كانت تتمشى مع المستويات العالمية . واكتشفنا أن جزءا صغيرا منها هو فقط الذى على هذا المستوى . وفرض الاستنتاج نفسه : فبدلا من الاحتفاظ بتخلفنا التكنولوجى لسنوات عديدة ، سيكون من الأفضل أن نخوض آلام تطوير معدات جديدة من حين لآخر ، رغم أن التجديدات فى بناء الآلات ، تفتح الطريق نحو أحدث التكنولوجيات . وهذا « الحين » لا يتضمن بالضرورة مستقبلا بعيدا . كلا ، إن التحديث الهيكلى لصناعة

---

(١٦) زيل ـ مصانع أ. أ. ليجاتشوف للسيارات فى موسكو.

بناء آلات الإنتاج فى الاتحاد السوفيتى يجب أن يرتبط بجهود هائلة لتحويل القدرة العلمية إلى قيمة جيدة . وهذه هى ألح المهام وأكثرها حيوية بالنسبة لنا ، بل إنها المهمة ذات الأولوية الأولى . وقد وجدنا أنفسنا فى هذا الوضع تكنولوجيا لأننا أسأنا تقدير قدرتنا العلمية واعتمدنا بدرجة كبيرة على الارتباطات الخارجية .

وفى رأيى ، لقد قبلنا سياسة الانفراج بآمال مشرقة للغاية ، وقد أقول بثقة كبيرة جدا . واعتقد الكثيرون أنها ستكون بغير رجعة وستفتح إمكانيات بلا حدود ، وعلى الأخص لتوسيع التجارة والعلاقات الاقتصادية مع الغرب . بل إننا توقفنا عن بعض أبحاثنا وتطوراتنا التكنولوجية ، متطلعين إلى تقسيم العمل الدولى ، ومعتقدين بأنه قد يكون من الأفيد شراء بعض الآلات من الخارج عن إنتاجها فى الداخل . ولكن ما الذى حدث فى الواقع ؟ لقد تعرضنا لعقاب شديد نتيجة سذاجتنا . وجاءت فترة من الحظر والمقاطعة ، والتحريم ، والقيود ، وتخويف من يتاجرون معنا الخ . وتوقع بعض الساسة الغربيين ، حتى فى العلانية ، انهيار النظام السوفيتى . ولكن عبثا كانوا يأملون .

لقد خلصنا بالتأكيد إلى الاستنتاجات اللازمة ، وبدأنا الأبحاث والتطوير اللازمين وإنتاج ما اقترحنا ذات يوم شراءه ، وبذلك ستكون الشركات الغربية هى الخاسرة فى النهاية . ومن المصادفة أن كل هذه الضجة حول الحظر والقيود لم تكن على ما أعتقد موجهة فقط ضد الاتحاد السوفيتى ، وإنما كذلك ، ولدرجة كبيرة ، ضد الشركات غير الأمريكية المنافسة .

وبشكل عام . لقد ساعدت « العقوبات » و « أعمال الحظر » الأمريكية وغيرها من القيود على توضيح الأمور لدرجة كبيرة . وكما يقولون ، فإن لكل سحابة إطارا فضيا . لقد استخلصنا الدروس من القرارات التى اتخذتها الولايات المتحدة وبعض البلدان الغربية برفض بيع التكنولوجيا المتقدمة للاتحاد السوفيتى . وربما كان هذا هو السبب فيما نمرّ به الآن من ازدهار حقيقى فى مجالات علم المعلومات ، وتكنولوجيا

الحاسبات ، وغيرها من مجالات العلوم والتكنولوجيا .

لقد قررنا أن نضع نهاية حاسمة لـ «كارثة الاستيراد» كما يسميها المسئولون الاقتصاديون لدينا . ومن أجل هذه الغاية ، فإننا نحشد قدراتنا الكبيرة فى العلوم والهندسة الميكانيكية .

وإنه لمن التناقض أن كثيرا من منجزات العلماء السوفيت قد طبقت فى الغرب بأسرع مما طبقت فى بلادنا ، ومثال ذلك ، خطوط نقل الحركة الدوارة وقد تباطأنا أيضا فى حالة أخرى . فقد كنا أول من اخترع سباكة الصلب المستمرة . فماذا عاد علينا من هذا الاختراع؟. إن ثمانين فى المائة من الصلب الذى تنتجه بعض البلدان الآن تجرى سباكته بأسلوبنا بينما يتم ذلك بدرجة أقل فى بلادنا . فالمسافة طويلة فى بلادنا بين الاكتشاف العلمى وتطبيقه فى الإنتاج . وهذا مايمكن الصناعيين الأجانب المغامرين من تحقيق الأرباح من وراء أفكارنا . ومثل هذا وضع لا يناسبنا طبعا . ولابد أن تكون هناك معاملة بالمثل فى المبادلات . ومن الواضح أن الوضع لابد أن يتغير . وقد تغير أخيرا فعلا .

ويبذل الآن جهد كبير لبعث النشاط فى التقدم العلمى والتكنولوجى . ونقوم بتنفيذ برامج هادفة ، ونحث أسر العمل وعلماء الاقتصاد وغيرهم على العمل بطريقة خلاقة ، وقد نظمنا ٢٢ بحثا بين القطاعات ومجمعات تكنولوجية تحت قيادة علماء كبار . وتتمثل الأولوية اليوم ، كما قلت ، فى تطوير الهندسة الميكانيكية السوفيتية . وقد اقترح اجتماع يونيو ١٩٨٦ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى برنامجا للتحديث الجذرى فى الهندسة الميكانيكية . وحدد هدفا لم يسبق له مثيل فى تاريخ الصناعة السوفيتية ، وهو التوصل فى السنوات الست أو السبع التالية إلى المستويات العالمية فيما يتعلق بالآلات والمعدات والأدوات الرئيسية . وتقرر تركيز الاهتمام على بناء الآلات ، وصناعة الأدوات ، والإلكترونيات ، والهندسة الكهربائية . كما يجرى كذلك تحديث صناعة الحديد والصلب والصناعات الكيماوية ، وعلى نطاق واسع .

إن الأمانى التى لاتقوم على أساس ، عمل خطير للغاية . ومع ذلك ، فكل التغييرات الجارية واعدة للغاية . لقد زرت أخيرا مدينة زلينوجراد التى لاتبعد كثيرا عن موسكو ، حيث تتركز بعض منظمات ومؤسسات الأبحاث الخاصة بالصناعة الإلكترونية . وقد سرنى أن أسمع العلماء والمتخصصين يقولون إننا فى عدد من المجالات لانزحف وراء الولايات المتحدة أو حتى نسير معها فى نفس المستوى وإنما نسبقها فى بعض النواحى . وهكذا برهنت العجرفة التكنولوجية للغرب على أنها ذات فائدة لنا . والمهمة الآن ، التى لاتقل صعوبة ، هى أن نترجم هذه النتائج إلى ممارسة .

النسيج الحى للبيريسترويكا

تتضمن البيريسترويكا نطاقا هائلا من المشاكل والمهام المتباينة المرتبطة بما ورثناه مما سبق عن الماضى، وبما ينبغى عمله الآن، وعلى الفور، وبما لايزال ينتظرنا. ورغم أننى أخاطر بتكرار أن قلته ، فإنى أود أن أقدم للقارئ صورة متعددة الألوان للبيريسترويكا ، وأدعوه إلى النظر فى مشكال[١٧] الحياة اليومية حيث يتشكل النسيج الحى لمستقبلنا . إننا نعد الجماهير لتغييرات جذرية . ويتضمن ذلك ضرورة إعداد الظروف الاقتصادية والنفسية اللازمة ، لأنه ليس من السهل تحطيم العادات القديمة والتخلى عن مفاهيم الأشكال الاجتماعية التى فرضت نفسها فى ظروف تاريخية معينة .

ومانزال نسمع الاتهامات توجه إلى الأفراد المستقيمين . انظروا إلى هؤلاء الذين يشيرون بأصابعهم فى سخط إلى الفوضى ، وإلى النواقص والأخطاء . وإذا بدأ شخص ما يفعل شيئا ذا شأن ولكنه غير عادى ، تصايح هؤلاء الاشتراكيون الزائفون ، بأنه إنما يقوض أسس الاشتراكية ! وهذه أيضا من وقائع

---

(١٧) المشكال : أداة تحتوى على قطع متحركة من الزجاج الملون ما أن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان .

البيريسترويكا . فعلينا أن نحاول بصبر مع أمثال هؤلاء المكافحين من أجل اشتراكية « نقية » ، مثالية ، غير ملطخة فى شكلها المجرد ، لنبرهن على أنها اشتراكية لا صلة لها بالحياة الواقعية ! .

لم يكن لينين أبدا على قناعة بأن الطريق إلى الاشتراكية سيكون مستقيما وكان يعرف كيف يغير الشعارات عندما تتطلب الحياة ذلك . كما أنه لم يكن على الإطلاق عبدا للقرارات إذا ماتخذت . ولم يكن يخشى أن يحفز نشاط العمل الفردى عندما تكون الدولة والقطاع العام ضعيفين . واليوم ، فى مجرى جهد إعادة البناء ، يخشى بعض الأفراد من التدابير التى يجرى تنفيذها لتطوير التعاونيات ، وحفز نشاط العمل الفردى ، والعقود والتمويل الذاتى ، وهم قلقون من أننا نضعف « الأسس » وننشئ ملاكا صغارا . وهم يشعرون بأننا بتطبيقنا لمختلف أشكال العقود قد نقوض المزارع الجماعية . ولكن ماذا عن حقيقة أن المتاجر تفتقر إلى السلع ؟ هذا مايجب أن نحذر منه ، بدلا من أن نتصايح فى ذعر «النجدة ، فالاشتراكية فى خطر !»

ونحن على قناعة بأن ربط المصالح الشخصية بالاشتراكية لايزال يشكل المشكلة الرئيسية. ونحن نشير، بالطبع، إلى المصالح الشخصية بمعناها الواسع، وليس بمجرد المعنى المادى . إن مانحتاج إليه ليس الاشتراكية « النقية » المذهبية المخترعة ، وإنما الاشتراكية اللينينية الحقة . ولقد كان لينين واضحا بهذا الخصوص ـ وحيث أننا قد طورنا الصناعة والطاقة بدرجة هائلة ، فليس هناك مانخشى منه . واعتمادا على هذه القوة ، يمكننا أن ننفذ التحويلات الاشتراكية بطريقة مخططة . وهذا هو العمل الاشتراكى الحقيقى . كان هذا صحيحا آنذاك وهو أكثر صحة الآن ، لأن مجتمعنا اليوم قوى اقتصاديا وسياسيا . ولم يفقد لينين على الإطلاق رؤية الحالة الواقعية للأمور ، وكان يسترشد بمصالح الجماهير العاملة .

وإننى لعلى قناعة بأن أكثر الأشكال فعالية لتنظيم الإنتاج على أساس الحساب الاقتصادى الكامل ستقوى بشكل أسرع فى المجمع الزراعى الصناعى . فمن ناحية ،

توجد لدى مزارعنا الجماعية تقاليد راسخة . ومن ناحية أخرى ، فإن جماهير الريف مقدامة وواسعة الحيلة . ويتطلب كل ذلك حركة ومرونة أعلى عند تطبيق الحساب الاقتصادى ، والاكتفاء الذاتى والتحويل الذاتى .

لقد برهن العقد الجماعى [١٨] على نجاحه فى الزراعة من وجهة نظر تنظيم العمل وعائده . وقد أنشئ الآن نظام العقد الأسرى [١٩] ، والنتائج الأولى مشجعة .

وفى أوائل أغسطس ١٩٨٧ كنت فى حى راسين خارج موسكو، حيث تحدثت مع أعضاء فريق يعمل على أساس تعاقدى ويطبق تكنولوجيا مكثفة لخمس سنوات ، كانوا يزرعون البطاطس ، وفى العام الماضى حققوا هم الخمسة أرباحا ضخمة للمزرعة الحكومية . وهكذا تحدث أشياء مذهلة عندما يأخذ الناس على عاتقهم مسئولية كل شيء . فالنتائج تكون مختلفة تماما ، ويصعب تقييم الناس فى بعض الأحيان . إن العمل يتغير، كما يتغير الموقف منه كذلك .

إن الفرد فى مجتمعنا يريد أن يكون جزءا من كل شيء . وهذا شيء طيب . إنه لايحب الأوضاع التى لايؤخذ رأيه فيها ، والتى ينظر إليه فيها كمجرد قوة عمل ، ولا تقدر صفاته البشرية والمدنية . إن العقد الجماعى وما يرتبط به من ديموقراطية هو على وجه التحديد ، مايدعم إحساس الشخص بأنه مواطن وسيد .

واليوم ، توجد لدينا مزارع جماعية كبيرة وسوفخوزات [٢٠] فى كثير من المناطق الزراعية . وقد نظمت فرق عمل ، وأقسام ومجمعات كبيرة . وهى إلى حد ما منفصلة عن الأرض وهذا مايؤثر على النتائج النهائية . وعلينا اليوم أن نضمن ربطا أكثر قوة ومباشرة لمصالح الأفراد من خلال العقود الجماعية ، والأسرية وعقود

---

(١٨) العقد الجماعى ـ أسلوب للعمل يقوم فريق من العمال فى ظله بتنفيذ بعض العمل بكامله فى ظل عقد مع إدارة مؤسسة أو مع أى تنظيم آخر . وفى هذه الحالة يتوقف مايدفع لكل عامل فى الفريق مباشرة على كفاءته فى العمل .

(١٩) العقد الأسرى ـ عقد جماعى ترتبط به أسرة .

(٢٠) المزرعة الجماعية ـ مزرعة تعاونية . السوفخوز ـ مزرعة حكومية .

الإيجار فى إطار هذه المزارع الجماعية والحكومية . وعندئذ سنربط مزايا الاقتصاد الجماعى الكبير بالمصالح الفردية . وهذا هو مانحتاج إليه على وجه الدقة . وإذا ما تصرفنا بهذه الطريقة لأمكننا تحقيق قفزات تثير الإعجاب فى حل مشكلة المواد الغذائية خلال عامين أو ثلاثة .

وإذا أغفلت المصالح الشخصية ، فلن تؤدى جهودنا إلى شىء ، وفقط ، سيتعرض المجتمع للخسارة . ولهذا السبب من الضرورى مراعاة توازن المصالح ، ونحن نقوم بذلك من خلال الدولاب الاقتصادى الجديد ، ومن خلال مزيد من الديموقراطية ، ومن خلال جو العلانية ، ومن خلال مشاركة الجماهير فى كافة جوانب إعادة البناء .

إن أول ماينبغى ضمانه هو جو يشجع جهود إعادة البناء ويجعل الفرد مسئولا ونشطا اجتماعيا . وهذا هو مناخ العلانية ومناقشة كافة الأمور ، وحتى أصعبها ، مع الشعب ، لكى نحلها جميعا معا . ومن أجل التوصل إلى ذلك فإننا نحتاج إلى مشاركة جماهيرية حقة فى الإدارة . ولهذا السبب فإننا نقول إن إشاعة الديموقراطية هى حجر الزاوية فى جهد إعادة البناء . وقد طبقت على نحو سليم أشكال مثل دولاب الإدارة الجديد . وانتخاب المديرين ، وإقامة مجالس لأسر العمل على مستوى فرق العمل ، وورش المصانع والمؤسسات . ويتضح من مثال أسر العمل فى المزارع التعاقدية والتى تديرها الأسرة كيف افتقد شعبنا دور المالكين . إنهم لايريدون فحسب أن يكسبوا المزيد ، وهو أمر مفهوم تماما ، ولكنهم يريدون أن يؤدوا عملهم بأمانة . وهم يريدون أن يكسبوا من الدولة لا أن يسرقوها . وهذه الرغبة تتفق تماما مع الروح الاشتراكية . ولذلك يجب ألا تكون هناك أية قيود ـ فما يكسبه المرء يجب أن يحصل عليه . وفى نفس الوقت ، يجب ألا نسمح لشخص بأن يحصل على مالم يتكسبه .

السياسة الاجتماعية لإعادة البناء

إننا ننطلق من الافتراض القائل بأن السياسة الاجتماعية القوية التى أعلنها المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتى هى وحدها التى يمكن أن تضمن النجاح للبيريسترويكا. فينبغى رفع مستويات المعيشة ، وتحسين ظروف السكن ، وإنتاج مزيد من المواد الغذائية وتحسين جودة السلع ، ومواصلة تطوير خدمات الصحة العامة ، وتحقيق إصلاح المدارس الثانوية والعليا ، كما ينبغى حل كثير من المشاكل الاجتماعية الأخرى .

وعندما عالج اجتماع يونيو الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى عام ١٩٨٧ المهام الحالية والطويلة الأمد ، أولى اهتماما خاصا للمسائل المتعلقة بزيادة إنتاج المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية والتوسع فى بناء المساكن .

ويجرى تنفيذ تدابير واسعة النطاق . فنحن نبنى مساكن أكثر. وهذه بالنسبة لنا ، مهمة على نطاق البلاد . وسوف نستثمر أموالا أكبر فى حلها . فلابد أن نساعد الناس فى الحصول على مساكن أكثر وأفضل ، فى المناطق الحضرية والريفية على السواء .

ولابد أن تتوفر للناس نوعية حياة طيبة . وإذا ما حلت هذه المشكلة استقرت أسرة العمل والناس يقدرون بدرجة أكبر التغييرات التى تجرى فى مدنهم أو قراهم ، وفى الإنتاج ، وفى ظروف العمل ، وفى طبيعة العمل ذاته أكثر من تقديرهم لسرعة زيادة الأجور.

ولا يمكن التسامح بشكل خاص مع السلبية الحالية للزعماء الذين يعجزون عن الاستفادة من الفرص المتاحة لحل المشاكل الاجتماعية . ويرجع ذلك ، من ناحية إلى العادة القديمة لمعالجة هذه المسائل على أساس ما يسمى بمبدأ المتبقى ، عندما يخصص فقط ما يبقى ، بعد تلبية حاجات الإنتاج ، للأغراض الاجتماعية . ومن ناحية أخرى ، يرجع إلى كونه نتيجة لسيكولوجية التبعية ، التى ضربت بجذورها

عميقا . إن الحساب الاقتصادى والتمويل الذاتى يضعان حدا لكل ذلك . ويدعو الدولاب الاقتصادى نفسه إلى معالجة نشطة ، ومعقولة ، وجريئة ، وإلى التصرف بطريقة المالك .

وإنجازاتنا فى التعليم معروفة للجميع . إنها تثير الإعجاب عند مقارنتها بأكثر البلدان تطورا . ومع ذلك فإننا ننفذ إصلاح المدرسة . فما الذى دعانا إلى فعل ذلك؟ قبل كل شىء ، المطالب الجديدة التى يفرضها المجتمع الحديث على الناس ، وإلى جانب ذلك ، فقد أثرت ظواهر الركود فى مجتمعنا على النظام التعليمى كذلك : وكان فى التعليم أيضا مظاهر الرضى عن النفس فى النتائج التى تم التوصل إليها ، مما أثر بشكل مباشر على كل شىء آخر .

والآن ، بعد مناقشة على نطاق البلاد ، تبنينا برنامجا لتحويل جذرى للمدارس الثانوية والعليا ، ويتمثل الاتجاه الرئيسى لجهودنا فى تدريب الشباب على العمل فى المستقبل بهدف تلبية احتياجات التقدم العلمى والتكنولوجى والتخلص من كل ما هو ثانوى الأهمية ويعطى للناس القليل بعد الأعباء التى لا لزوم لها . كما يجرى تحسين التعليم الإنسانى للشباب ، الذى يهدف إلى تربية سليمة وتحصيل مستويات ثقافية مناسبة . وتولى الكليات والمدارس الثانوية الاهتمام بالحث على أساليب التعليم والتربية الخلاقة وغرس المبادرة والاستقلال فى أسر المدارس الثانوية والعليا . وتتطلب المهام الجديدة إعادة بناء الأساس المادى ، كما يتطلب ــ وهو الأهم ــ بلوغ المدرسين مستوى جديدا فى عملهم . وسيجد من يرتقون بمهاراتهم التشجيع المادى المناسب . وتلقى هذه البرامج المساندة المالية اللازمة ، ويمضى تنفيذها قدما .

وتجرى حاليا على نطاق البلاد مناقشة الخطوط التوجهية لتحسين الخدمات الصحية العامة للبلاد . وعندما تنتهى المناقشة ستخضع الخطوط التوجهية لدراسة دقيقة من جانب اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى والحكومة ثم السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتى . وسيحتاج هذا المشروع الشامل إلى استثمارات ضخمة

وجهود كبيرة . وقد وفرنا الموارد المالية والمادية لمرحلته الأولى ، التى سيجرى تنفيذها فى السنوات المتبقية من فترة الخطة الخمسية الثانية عشرة وخلال فترة الخطة الخمسية الثالثة عشر .

إن تكثيف الإنتاج الاجتماعى يوحى بموقف جديد من العمالة الكفؤة ويتطلب إعادة تجميع قوة العمل . وفى الوقت الذى نعمل فيه فى هذا الاتجاه ، علينا أن نتفحص بدقة كيف ينفذ مبدأ العدالة الاجتماعية . وقد شكلت الممارسة الواسعة النطاق للمساواة واحدا من التشوهات الرئيسية خلال العقود القليلة الماضية ، وأدت إلى تطوير مواقف الاتكالية والنزعة الاستهلاكية وإلى تفشى فلسفة ضيقة الأفق من نوع : «إن الأمر لا يخصنا ، فليتحمل الرؤساء المتاعب» .

وقد صاغ المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتى مشكلة العدالة الاجتماعية فيما يلى : فى ظل الاشتراكية يعتبر العمل أساس العدالة الاجتماعية . والعمل وحده يحدد مكان المواطن الحقيقى فى المجتمع ، ووضعه الاجتماعى . ويحول ذلك دون أى مظهر من مظاهر المساواة .

إن المواقف المرتبطة بالمساواة تبرز على نحو غير متوقع من حين لآخر حتى فى هذه الأيام . وقد فهم بعض المواطنين الدعوة إلى العدالة الاجتماعية على أنها «مساواة بين كل الناس» . بيد أن المجتمع يطالب بدأب أن يترجم مبدأ الاشتراكية بحزم إلى الحياة . وفى كلمات أخرى ، فإن ما نقدره أكثر من غيره هو إسهام المواطن فى شئون البلاد . وعلينا أن نشجع الكفاءة فى الإنتاج وموهبة الكاتب ، أو العالم أو أى مواطن مستقيم يعمل بجد . ونحن نريد أن نكون واضحين تماما فيما يتعلق بهذه النقطة : إن الاشتراكية لاعلاقة لها بالمساواة. والاشتراكية لايمكن أن تضمن ظروف الحياة والاستهلاك وفقا للمبدأ ، «من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته» إذ سيكون ذلك فى ظل الشيوعية . أما الاشتراكية فلها معيار آخر لتوزيع المزايا الاجتماعية ، «من كل حسب قدرته ، ولكل حسب عمله .» فليس هناك استغلال

إنسان لإنسان ، وليس هناك تقسيم إلى أغنياء وفقراء . إلى أصحاب ملايين ومعوزين . وكل الشعوب متساوية بين متساويين ، والوظائف مضمونة لكل الناس ، ولدينا تعليم ثانوى وعال بالمجان ، وخدمات طبية مجانية ، ونوفر للمواطنين حياة كريمة فى شيخوختهم . وهذا هو التجسيد للعدالة الاجتماعية فى ظل الاشتراكية .

واليوم ، حين تكون العدالة الاجتماعية هى القضية المطروحة فى بلادنا ، يقال الكثير عن المزايا والامتيازات التى يحصل عليها الأفراد ومجموعات الأفراد . إن لدينا مزايا وامتيازات أقرتها الدولة ، وتمنح على أساس كمية ونوعية العمل المفيد اجتماعيا ، مثال ذلك ، أننا نولى رعاية خاصة لعلمائنا البارزين وأكاديميينا وكتابنا . وتمنح الألقاب الشرفية للأشخاص مقابل إسهامهم البارز فى البناء الاشتراكى . وهكذا يحظى أبطال العمل الاشتراكى ، والعلماء الحائزون على جوائز والشخصيات الثقافية بمزايا إضافية معينة . وهناك أيضا مزايا معينة لأشخاص فى الصناعات المختلفة ولمن يعملون فى مناطق مختلفة (وفى المقام الأول ، فى المناطق الشمالية والبعيدة) ولرجال القوات المسلحة والدبلوماسيين الخ . وأعتقد أن لهذا الأسلوب ما يبرره . لأنه فى مصلحة المجتمع فى مجموعه . كما يرتكز أيضا على أهمية وحجم إسهام المواطن .

ولكن إذا ما كانت هناك امتيازات لم تقرها الدولة ، وإنما أقرها لأنفسهم بعض من يسيئون استخدام سلطاتهم الرسمية ، فنحن نحظر هذه الامتيازات باعتبارها شيئا غير مقبول .

وهناك جانب آخر للقضية . إن كثيرا من تنظيماتنا ، ومعاهدنا ، ومؤسساتنا تدير مرافق للخدمات . وعمليا فى كل مكان يعمل نظام عام لتوريد الأغذية فى المؤسسات الكبرى . وبالإضافة إلى ذلك ، تتحمل المؤسسات فى معظم الحالات نفقات الحفاظ على التنظيمات العامة لتوريد الأغذية . ويتم ذلك بالاشتراك بين

الإدارة واللجنة النقابية مما يترتب عليه أن تكون تكلفة الوجبات أقل .

وتوجد فى بلادنا شبكة واسعة من المنشآت الطبية التى توفر خدمات الرعاية الصحية للناس فى أماكن عملهم . وهى لا تضم فقط عيادات خارجية ، وإنما دور لقضاء الإجازات ومراكز لتحسين الصحة بعد ساعات العمل تقع بالقرب من المؤسسة أو فى مناطق الاستجمام والمنتجعات الصحية . وتدير كثير من المؤسسات متاجرها الخاصة ، وخدمات تقديم الطعام ، ومنشئات لصناعة الملابس ، وما إلى ذلك ، ويمكنك القول ، بأنها مجالات خدمات حقيقية تابعة لهذه المؤسسات .

ويتحقق هذا ، ليس فقط للمؤسسات الصناعية . بل مثلا ، توجد لدى أكاديمية العلوم ، واتحاد الكتاب ، والتنظيمات الأخرى من هذا القبيل ، مراكز صحية ، وفنادق للاجازات ، ومستوطنات سكنية للصيف . ويوجد لدى النقابات (وتعتبر من أغنى المنظمات فى بلادنا) ولدى منظمات الحزب والسوفيتات مثل هذه الخدمات كذلك .

وبالتأكيد ، فإن وجود مثل هذه الأشكال من الخدمات يمكن أن يولد ، بل إنه يولد بالفعل المشاكل ، وبخاصة عندما تكون نوعية الخدمات التى تقدم لمجموع السكان أقل كثيرا منها فى المنظمات والمؤسسات سالفة الذكر . وتنتقد الجماهير العاملة بالطبع مثل هذه الظواهر . وينبغى حل هذه المسائل فى مجرى مواصلة تنفيذ البرامج التى تبنيناها .

وسنواصل بحزم النضال ضد السكر وإدمان الكحوليات . وهذا الشر الاجتماعى قد ضرب بجذور عميقة فى مجتمعنا لقرون وأصبح عادة سيئة . ومن ثم فليس من السهل مقاومتها . بيد أن المجتمع ناضج لتحول جذرى فى هذه الناحية فقد زاد سوء استخدام الكحوليات ، وبخاصة فى العقدين الماضيين بمعدل ينذر بالخطر ويهدد مستقبل البلاد ذاته. وتذكرنا الجماهير العاملة على الدوام بالحاجة إلى تكثيف جهودنا لمقاومة هذا الشر. ويطالب البعض حتى بتحريمها على نطاق البلاد .

ولكننا ندرك أنه من غير المستحسن تطبيق التحريم على نطاق الدولة . ونحن نجيب : إذا ما أردتم فطبقوا التحريم فى أسرتكم ، أو منطقتكم أو حيكم . ولقد قررت الجماهير العاملة ، فى آلاف القرى والمستوطنات ، وفى الاجتماعات العامة أن تضع حدا لبيع واستخدام المشروبات الكحولية . وتتواصل الحملة . لقد انخفض معدل استهلاك الكحوليات بالنسبة للفرد إلى النصف خلال العامين الماضيين . ومع ذلك فتر الحماس وتوقف هذا التقدم . إنه من المستحيل حل هذه المسألة بالإجراءات الإدارية وحدها . وأنجع الطرق للتخلص من بلاء مثل إدمان الخمور هو تطوير مجالات الترفيه ، واللياقة البدنية ، والنشاط الرياضى والثقافى الجماهيرى ، ومواصلة إشاعة الديموقراطية فى حياة المجتمع فى مجموعه .

ثالثا ـ على طريق إشاعة الديموقراطية

احتياطينا الرئيسى

إن إحدى المهام السياسية الأولى لجهود إعادة البناء ، إن لم تكن الأساسية ، تتمثل فى إحياء وتعزيز الشعور بالمسئولية عن مصير البلاد فى الشعب السوفيتى . فما زال للاغتراب الذى نتج عن ضعف الروابط بين الدولة والهيئات الاقتصادية ، وبين أسر العمل والعمال العاديين ، والذى نتج عن سوء تقدير دورهم فى تطور المجتمع الاشتراكى ، ما زال له أثره المزعج .

إن العامل البشرى بمعناه الأوسع يشكل الأولوية الرئيسية بالنسبة لنا . ونحن نفعل كل ما فى وسعنا لكى يلعب دوره ، وفى المقام الأول ، عن طريق تعزيز قوى الدفع الاجتماعى لكل خططنا . وكل ما أريد إضافته هو أننا نعمل من أجل توازن بين الجانبين ـ الاقتصاد والمجال الاجتماعى ـ وإذا ما تم تجاهل مصالح هذا الأخير لصالح معدلات التنمية الاقتصادية وحدها ، تلاشى الاهتمام بنتائج العمل الأمر الذى يؤثر على إنتاجية العمل ويضعف الاقتصاد. ومن ناحية أخرى، لايجب بناء المجال الاجتماعى بطريقة تضعف الأساس ، لأنه حينئذ تتقوض إمكانية نفس التنمية الاجتماعية الدينامية . ولذلك يتعين علينا التزام الاعتدال الذى يعزز التنمية الاجتماعية الاقتصادية المتجانسة . فالعلاقة بين هذين الجانبين ليست علاقة ساكنة ، وإنما تتغير على الدوام . واليوم تدفع السياسة الاجتماعية إلى المقدمة .

ويحتل الجانب المعنوى أهمية بالغة . فإذا لم ننشط بشكل فعال القيم الاشتراكية والمناخ الاشتراكى فى أسر العمل وفى المجتمع فى مجموعه ، فسوف نعجز عن مواصلة حركة إعادة البناء. وبإمكاننا أن نقترح السياسات الصحيحة والميكانيزمات الفعالة ، ولكننا لن نحقق أى شيء ما لم يتحسن المجتمع من خلال تعزيز القيم المعنوية للاشتراكية ، وفى المقام الأول ، العدالة الاجتماعية ، والتوزيع وفقا لناتج العمل ،

والانضباط المتسق ، والقوانين ، واللوائح ، ومتطلبات الجميع .

ونحن ننشط أيضا العامل البشرى عن طريق تحسين نظام الإدارة ، ودولابها . فما هو الحساب الاقتصادى من هذه الزاوية ؟ إنه ليس فقط حقوق أسرة العمل ، وإنما مسئوليتها كذلك . وإذا ما قلنا بأنك ستعيش حسب عملك فهذا يعنى أننا نعطى الناس المسئولية عن مستقبلهم . وتطور أسرة العمل بالطبع رغبة متبادلة بأن يكون لها حق إدارة مؤسساتها وتسيير عملية العمل ، اللذين تحدد نتائجها دخول أسرة العمل وحياتها . وهنا ، أيضا ، نجد جانبين لعملية واحدة . وفى كلمات أخرى ، يرتبط الحساب الاقتصادى بالإدارة الذاتية باستقلال أسر العمل .

إننا نتبنى رأيا آخر عن العلاقة بين إدارة رجل واحد وبين مشاركة أسر العمل فى معالجة مهام الإنتاج . وهذه قضية موضوعية . ولن يكون هناك تقدم دون مشاركة العمال فى الإدارة من خلال ميكانيزمات مناسبة ـ على مستوى فرق العمل ، وورش المصانع ، ووحدات الإنتاج والمصانع المتكاملة . وزيادة على ذلك ، فإن أسرة العمل يجب أن يكون لها الحق فى انتخاب مديرها . ويحصل الأخير على حق إدارة الرجل الواحد نيابة عن أسرة العمل ، موحدا الجميع بقوة إرادته .

ويعتبر انتخاب المديرين الاقتصاديين ديموقراطية مباشرة فى العمل . وكان الناس فزعين من ذلك فى البداية ، مدعين أننا ذهبنا بعيدا للغاية ، وأن الأمور يمكن أن تصل إلى نهاية سيئة. بيد أن من يفكرون بهذه الطريقة ينسون النقطة الأساسية ، وهى أن التفكير الصائب يسود دائما . إن مصالح الجماعة ، وهو أسلوب لتغطية مصالح بعضهم البعض ، سوف يتم الإحساس بها فى مكان ما . بيد أن كل امرئ فى الأساس يريد أن يرأس فريق عمله ، أو ورشته ، أو مؤسسته ، أو مزرعته الجماعية أو الحكومية ، مديرون أذكياء يعتمد عليهم ، وقادرون على القيادة ، وعلى فتح آفاق لتحسين الإنتاج والحياة . ويدرك شعبنا هذا . وهو لا يحتاج بالتأكيد إلى إدارة ضعيفة . إنه يريد أناسا موهوبين ، متروين ، ومع ذلك متشددين بطريقة مناسبة .

والناس يريدون أن يروا مواقف متغيرة ، من جانب مديرى الوحدة الإنتاجية ، والمشرفين على الورش والمراقبين والملاحظين . والناس يتوقعون قدوة خلقية ويتوقعونها على الأخص من رؤسائهم . وهناك العديد من الأمثلة من هذا القبيل . وحيثما يوجد مدير جيد ، يوجد النجاح . فهو يرعى الناس . وكل امرئ يريد التحدث معه . وهو لا يحتاج لأن يرفع صوته عندما يعطى الأوامر . وقد يبدو عاديا تماما ، ولكنه يرى كل شيء ويمكن أن يوضحه . ومن المهم للغاية أن يكون قادرا على شرح الوضع . وسيوافق الناس على الانتظار إذا عرفوا السبب فى أن بعض مطالبهم لا يمكن أن تلبى مباشرة بشكل كامل .

ونحن نبعث النشاط كذلك فى العامل البشرى بمساعدة مزيد من التدابير الديموقراطية ، والعمل الأيديولوجى الأفضل ، ومناخ معنوى أكثر صحية فى المجتمع . لقد بات كل امرئ يدرك بشكل كامل الطابع الحاسم لهذه المرحلة . وهناك حاجة إلى جهود كبيرة إذا ما أريد للبيريسترويكا أن تنتصر على هؤلاء الذين ما يزالون يقيسون حجمها ، أو يرون الأوضاع الحالية مناسبة لهم .

ولا يمكن ازالة الأفكار الروتينية العديدة بضربة واحدة . والعادات النفسية التى غرست خلال السنين لا يمكن إلغاؤها بأى مرسوم ، وحتى أقوى المراسيم . وللأسف ، فإن علينا أن نخلص أنفسنا تماما من الأشكال البالية للعمل مع الناس ، والأشكال المتعلقة باتجاهنا نحو الحملات الأيديولوجية والثرثرة الطنانة . ونحن نحتاج هنا إلى نضال طويل ومكثف ، نضال ضد الروتين ، والأبهة التى لا مبرر لها ، والشعارات المجردة ، وتكرار عبارات التباهى المتسم بالغرور . والشيء الهام هو ألّا نستسلم لأوهام الرفاهية ، وألّا نسمح للبيروقراطية والشكلية بأن تقيد المصادر الواهبة للحياة فى مبادرات الشعب .

وعند أحاديثى مع الناس فى الشارع أو فى أماكن العمل أسمع على الدوام : «الكل هنا يؤيد البيريسترويكا .» وأنا مقتنع بإخلاص وصدق بهذه الكلمات ، ومع

ذلك أجيب كل مرة بأن أهم شيء يواجهنا الآن هو أن نقلل الكلام عن البيريسترويكا وأن نعمل الكثير من أجلها . إن ما نحتاج إليه هو مزيد من النظام ، والضمير الحي ، واحترام بعضنا البعض ، ومزيد من الأمانة . يجب علينا أن نتبع ما يمليه علينا ضميرنا . وإنه لشيء طيب أن يدرك الناس ذلك ، فضلا عن أنهم يرحبون به بعقولهم وقلوبهم . وهذا شيء هام للغاية . إن لدينا سياسة ، ولدينا حكومة مكافحة من أجل هذه السياسة ، وشعبا يساندها . وهذا هو الأمر الأهم . وكل ما عداه يهون أمره ، وسوف تمضي حملات إعادة البناء قدما وتعطي نتائجها . والانطباع الرئيسي الذي خرجت به من لقاءاتي الشخصية مع المواطنين السوفيت هو أنهم يحسون بعمق بالمعنى السياسي والأخلاقي للبيريسترويكا .

الالتزام بالقانون ـ عنصر لا غنى عنه في إشاعة الديموقراطية

يعتبر الالتزام بالقانون مسألة مبدأ بالنسبة لنا ، وقد نظرنا إلى المسألة نظرة واسعة ومبدئية . فلا يمكن أن يكون هناك التزام بالقانون بدون ديموقراطية . وفي نفس الوقت لا يمكن للديموقراطية أن توجد وتتطور دون حكم القانون ، لأن القانون يهدف إلى حماية المجتمع من سوء استخدام السلطة ويضمن للمواطنين ومنظماتهم وأسر العمل حقوقهم وحرياتهم . ولهذا السبب ، فقد اتخذنا موقفا حازما من هذه المسألة . ونحن نعرف من تجربتنا الخاصة ماذا يحدث عندما تكون هناك انحرافات عن هذه المبادئ .

منذ البداية الأولى للحكم السوفيتي أولى لينين والحزب أهمية فائقة للمحافظة على القانون وتعزيزه . وهذا أمر طبيعي ، بالطبع ، لأن الواقع السياسي لنشأة مجتمع جديد كان يتطلب ذلك: فقد كان علينا أن نعزز نظام الحكم الجديد، ونلغي الملكية الفردية لوسائل الإنتاج ، ونؤمم الأرض ، ونمكن الجماهير العاملة من الرقابة على الإنتاج ، ونحمي مصالح العمال والفلاحين من الثورة المضادة . كان يتعين تبرير كل

ذلك ، وإعطاؤه الطابع الرسمى فى القوانين ، وإلا لكانت العملية الثورية قد واجهت الفوضى ولكان من المستحيل تعزيز مكتسباتنا ، وضمان العمل الطبيعى لنظام الحكم السوفيتى واقرار مبادئ جديدة فى الحياة العامة .

وأنجزت مراسيم الحكومة السوفيتية هذا الغرض ، فقد أعلنت منذ البداية الأولى أن الشرعية «مبدأ» أساسى يوجه حياة المجتمع فى الاتحاد السوفيتى . وأعلنت مهمة تشجيع مشاركة ملايين الجماهير العاملة فى إدارة بلادهم وتعليمهم ، كما قال لينين ، «أن يكافحوا من أجل حقوقهم» . وانطلقت هذه الفكرة فى الدستور السوفيتى الأول لعام ١٩١٨ وفى القرار اللاحق «حول الالتزام الصارم بالقوانين» والذى أصدره مؤتمر السوفيتات فى عموم روسيا .

وبعد الحرب الأهلية ، ازداد العمل التشريعى كثافة . وكان يهدف رسميا إلى تقنين التحولات الاشتراكية . وأصبحت القوانين ووظائف الهيئات المسئولة عن مراعاة القانون وتنفيذ العدالة أداة هامة فى بناء الدولة الجديدة وإضفاء الشرعية على كل ما تم التوصل إليه نتيجة للنشاط الاقتصادى ، والاجتماعى ، والثقافى وغيره . وروعى بصراحة مبدأ لينين القائل بضرورة وجود مجموعة واحدة من القوانين لكل البلاد ، وبأننا «لايجب أن نتزحزح قيد أنملة عن قوانيننا» .

غير أنه ينبغى أن نشير إلى الفترة التى نطلق عليها فترة عبادة الشخصية . فقد أثرت على قوانيننا وتوجهها ، وبشكل خاص ، على التقيد بها . وكذلك أدى التأكيد على المركزية الصارمة والإدارة بواسطة الأوامر ، ووجود عدد ضخم من التعليمات والقيود الإدارية ، أدى إلى التقليل من دور القانون . فأدى ذلك فى مراحل معينة إلى حكم تعسفى ، وإلى عدم الخضوع للقانون ، مما لا علاقة له بمبادئ الاشتراكية أو ببنود دستور ١٩٣٦ . ويعتبر ستالين وزملاؤه القريبون منه مسئولين عن تلك الأساليب لحكم البلاد . وأية محاولات لتبرير عدم الخضوع للقانون بالاحتياجات السياسية أو التوتر الدولى أو التفاقم المزعوم للصراع الطبقى فى البلاد

هى محاولات خاطئة . إن انتهاك القانون كانت له آثار فاجعة لايمكننا أن ننساها أو نصفح عنها . وقد قيّم المؤتمر العشرون للحزب هذه الفترة تقيما قاسيا للغاية .

ووجد ذلك انعكاسا له فى التشريع . واستعيدت مبادئ الديموقراطية . .وجرى تعزيز القانون والنظام ونفذ تقنين التشريع . وبدأت ممارسة مناقشة مشاريع القوانين وغيرها من المسائل الهامة على نطاق البلاد . وخلال ربع القرن الأخير شارك ملايين الناس فى مناقشة حوالى ثلاثين مشروع قانون وطنيا هاما وأعربوا عن رأيهم فى هذه المشاريع ، واقترحوا تعديلات وإضافات .

ولكن ، ارتبطت فترة لاحقة من الركود بالتراخى فى تنفيذ القانون . وظهرت من جديد عناصر السلوك التعسفى وانتهاك القانون ، بما فى ذلك من جانب بعض القادة . إن المحاكم ، ومكاتب الادعاء ، وغيرها من الهيئات التى كانت مكلفة بحماية النظام ، ومقاومة إساءة استخدام السلطة غالبا ما كانت تحكمها الظروف ، وتجد نفسها فى مركز تابع تدفع ثمن موقفها المبدئى فى النضال ضد منتهكى القانون . وغدت حالات الفساد متكررة الحدوث أكثر فى جهاز تنفيذ القانون نفسه .

والآن وقد بدأنا البيريسترويكا ، وقررنا أن نصفى الظواهر السلبية للماضى ونعطى حافزا جديدا لتطور الديموقراطية الاشتراكية ، رأينا الحاجة إلى تحول بعيد المدى فى كل من مجالات تشريعنا ، وكمال الشرعية الاشتراكية فى مجموعها . وألقى الضوء على هذه الحاجة أيضا التغييرات الجذرية فى دولاب الإدارة الاقتصادية والتنمية الاجتماعية . وهذا جزء لا يتجزأ من إشاعة الديموقراطية فى كافة جوانب مجتمعنا . إن التدابير التى نتخذها فى مجال التشريع والقانون تغدو سندا فى عملية إعادة البناء . ونحن نقوم بهذا العمل فى إطار الإصلاحات فى المجالات الاقتصادية ، والاجتماعية والثقافية ، واضعين فى اعتبارنا رغبات الجماهير العاملة ، ونتائج استطلاعات الرأى العام .

وتتطلب البيريسترويكا قدرا أكبر من التنظيم فى المجتمع ، وانضباطا واعيا

للمواطنين. وسأضع الأمر كما يلي: كلما زادت إعادة البناء عمقا، كلما كان من الواجب تنفيذ مبادئ الاشتراكية بثبات وصرامة أكبر، والالتزام بقواعد الحياة فى المجتمع الاشتراكى الواردة فى الدستور والقوانين.

وتحدد البيريسترويكا مطالب أعلى فيما يتعلق بمحتوى القوانين التشريعية ذاتها. فالقانون يجب أن يحمى بحزم مصالح المجتمع، ويحرّم ماقد يضر بالمصالح القومية. وهذه بديهية. ولكن القانون إذ يحدد هذا الإطار الصارم مطالب كذلك بأن يتيح فرصة لمبادرة المواطنين، وأسر العمل وتنظيماتهم. وينبغى أن تقدم كل مساندة وتشجيع للنشاط والمبادرة التى تتطور فى إطار القانون. لقد فقدنا الكثير ونحن نحاول تحديد كافة حقوق المؤسسات فى مختلف التعليمات. وفى الحقيقة، فقد افترض أن أى مشروع تخطى تلك التعليمات ينبغى النظر إليه باعتباره غير مقبول. وفى نفس الوقت، فقد أوضحت التجربة أن ما نحتاج إليه ليس التنظيم التشريعى الكامل لظواهر الحياة الاجتماعية المتباينة، وإنما الترشيد السليم، والرعاية والمساندة الدائمة للعامل، ولقوة العمل، ولكافة أشكال المبادرة الشعبية. وعلينا أن نلتزم بصراحة بالمبدأ القائل: بأن كل ما لا يحرمه القانون مباح.

لقد تم إقرار مجموعة كاملة من القوانين التشريعية الهامة بالفعل فى مسار البيريسترويكا. وتشمل قانون المؤسسة الحكومية (الاتحاد)، والقوانين الخاصة بتغيير نظام إدارة المجمع الزراعى الصناعى[٢١]، وإصلاح المدرسة، والعمل الفردى، ومقاومة الدخول غير المشروعة، وتعاطى الكحوليات وإدمان المخدرات. كما صدرت قوانين لتحسين الصحة وحماية البيئة، ولتعزيز رعاية الأمومة والطفولة.

ونحن نولى اهتماما خاصا لتعزيز ضمانات حقوق وحريات الشعب السوفيتى. ومراسيم هيئة رئاسة السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتى تجعل من قمع النقد أمرا يعاقب

(٢١) المجمع الزراعى الصناعى للاتحاد السوفيتى ــ وحدة هيكلية للاقتصاد القومى تضم فروعا تعمل فى إنتاج المنتجات الزراعية وتصنيعها، ونقلها، وتخزينها، وبيعها.

عليه القانون ، وتقر التدابير للتعويض عن الخسائر التى لحقت بالمواطنين نتيجة الأعمال غير المشروعة للحكومة والهيئات العامة والمسئولين . كما تم إقرار قانون حول الإجراءات التى تتبع عند رفع الأمر إلى المحكمة ضد أى أعمال مخالفة للقانون يرتكبها المسئولون ويكون فيها إجحاف بحقوق المواطنين . كذلك نص القانون الذى أقره السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتى فى يونيو ١٩٨٧ رسميا على إخضاع المسائل الهامة فى الحياة السياسية للمناقشة العامة على نطاق البلاد .

وفى نفس الوقت فنحن ندرك أن إعادة البناء ستستمر تتطلب مزيدا ومزيدا من الخطوات الجديدة فى مجال التشريع والقانون والنظام . إن التقنين الكامل للتشريع يتقدم فى جدول الأعمال . إذ ينبغى أن يعالج المهام الجديدة مثل دعم الكفاءة الاقتصادية ، وانتهاج سياسة اجتماعية قوية ، والكشف عن قدرة كافة مؤسسات الديموقراطية الاشتراكية ، وفى كلمات أخرى ، ينبغى أن يمهد الطريق إلى الحكم الذاتى بواسطة الشعب .

وينبغى إدخال تغييرات هامة على قانون الانتخاب . وقد ساعدت تجاربنا خلال الحملة الانتخابية فى يونيو ١٩٨٧ على تحديد أكثر دقة لكيفية معالجة هذه المشكلة المعقدة إلى حدّ ما . ويجرى العمل الآن فى أشكال تشريعية ترتبط بإعادة بناء نظام إدارة الاقتصاد القومى ، وبإعطاء دور أكبر للهيئات المحلية لسلطة الدولة ، واضعين فى الاعتبار أن هناك حوالى ٣٠,٠٠٠ قانون قومى يعمل بها فى اقتصادنا . ويحتاج الكثير منها إلى تغييرات أساسية ، وغالبا ماتحتاج ببساطة إلى إلغاء . وقد ألغيت آلاف منها بالفعل بعد تطبيق قانون المؤسسة الحكومية .

وبعد المؤتمرات الأخيرة ، تقدمت النقابات والكومسومول (٢٢) باقتراحات لإعداد مشاريع قوانين حول العمل المنظم والشباب . ويجرى الإعداد لمشروعات

---

(٢٢) الكومسومول هو رابطة الشباب الشيوعى اللينينى فى عموم الاتحاد ، وهو منظمة عامة نشطة للشباب السوفيتى تأسست عام ١٩١٨ .

قوانين خاصة بالعمل ، وبالنشاط التعاونى ، وبتوسيع نطاق المسائل التى تقرر فى اجتماعات أسر العمل ، وبحجم معاشات العمال والعاملين الإداريين والفلاحين الجماعيين ، وبمستويات جودة المنتجات .

وسيكون علينا أن نبذل كثيرا من الجهد لإحداث تعديلات فى تغييرات على القانون الجنائى لدينا . وينبغى أن يكون متلائما تماما مع المرحلة الحالية من نضوج المجتمع السوفيتى . وسوف يتم إكمال هذا القسم الهام من عملنا فى مجال التشريع والقانون فى إطار التحول الهائل المرتبط بإعادة البناء وإشاعة الديموقراطية .

ومن الأهمية بمكان تعزيز دور المحاكم كهيئة انتخابية وثيقة الصلة بالسكان ، وضمان استقلال القضاة ، ومراعاة أكثر المبادئ الديموقراطية صرامة فى الإجراءات القانونية ، والموضوعية ، والانتخاب القائم على المنافسة ، والعلانية . وتخدم نفس الأهداف الإجراءات التى اتخذت أخيرا لتعزيز إشراف مكتب الإدعاء على الالتزام الصارم والمنسق بالقوانين ، وتوسيع وظائف التحكيم الحكومى فى تسوية المنازعات الاقتصادية ، وتعديل الخدمات القضائية فى الاقتصاد القومى ، وتطوير الثقافة القانونية للجمهور .

وفى كلمات أخرى ، فإن العمل يمضى على نطاق واسع ، بهدف تعزيز الأسس القانونية للاشتراكية . إن القانون والشرعية ليسا مجرد عنصرين متلازمين لتعميق ديموقراطيتنا وتسريع التقدم الاجتماعى . إنهما أداتان للعمل فى إعادة البناء وضمان يعول عليه فى عدم إمكانية الرجوع فيها .

البيريسترويكا والسوفيتات

والآن حيث يجرى تنفيذ البيريسترويكا وتطوير الديموقراطية ، أضيف بعد جديد إلى مسألة الربط بين قيادة الحزب السياسية وبين دور هيئات الدولة ، والنقابات والمنظمات العامة الأخرى . فمثلا ، لنأخذ السوفيتات عندنا . لقد أجبرتنا

البيريسترويكا على أن نوضح الدور الذى يجب أن تلعبه هذه السوفيتات فى الإصلاح الجارى . ولايمكن أن تكون هناك أى إشاعة للديموقراطية فى الوقت الذى لاتشارك فيه السوفيتات فى العملية ولا يتعرض وضعها ونشاطها للتحولات الثورية .

والسوفيتات فى روسيا ظاهرة فريدة فى تاريخ السياسة العالمية . إنها ثمرة المشاركة المباشرة الخلاقة للجماهير العاملة . وربما يعرف قليل من الناس فى الغرب أن فكرة السوفيتات ذاتها ، وقد أعقبتها مباشرة الخطوات التنظيمية الأولى ، بدأ التفكير فيها قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧ بوقت طويل ـ فى ١٩٠٥ . وفى أعقاب ثورة فبراير ١٩١٧ التى أطاحت بالحكم القيصرى ، تطورت السوفيتات إلى أجهزة للسلطة فى جميع أنحاء روسيا ، رغم أن سلطاتها كانت محدودة لأنها تعايشت مع الحكومة المؤقتة(٢٣) . وقد شكلت بالطبع الأساس السياسى للجمهورية الجديدة التى ظهرت فى أكتوبر ١٩١٧ . وقد أطلق على بلادنا منذ ذلك الحين الجمهورية السوفيتية .

ولو لم تكن هناك سوفيتات ، ماكنا قد كسبنا الحرب الأهلية . ولو لم تكن هناك سوفيتات ، ماكنا قد نجحنا فى حشد ملايين الناس ، وعلى الأخص العمال والفلاحين ، فى مثل هذا البلد الواسع . ولو لم تكن هناك سوفيتات ما كان قد تحقق شىء من السياسة الاقتصادية الجديدة(٢٤) . وتكمن سلطاتها الحقيقية فى حقيقة

---

(٢٣) الحكومة المؤقتة هى الجهاز المركزى لسلطة البرجوازية ـ كبار الملاك فى روسيا ـ الذى تشكل بعد ثورة فبراير . وقد قامت فى الفترة من ٢ (١٥) مارس إلى ٢٥ أكتوبر (٧ نوفمبر) ١٩١٧ .

(٢٤) السياسة الاقتصادية الجديدة (نيب) ـ كانت سياسة اقتصادية وضعها لينين وطبقها فى ١٩٢١ . وتمثل مضمونها الرئيسى فى استبدال « البرودرازفيورستكا » أو مصادرة الأغذية من الفلاحين من أجل احتياجات المدن والجيش خلال الحرب الأهلية ، وعندما كان وجود الدولة السوفيتية ذاته يتعرض لخطر قاتل ، وذلك أداءـ « الضريبة النوعية » حيث كان يدفع الفلاح قسما معينا من إنتاجه كضريبة وكان الهدف العاجل من النيب هو التبادل بين المدينة والريف على أساس العلاقات السلعية النقدية مما يؤدى إلى سرعة تطبيع الإنتاج والوضع الغذائى فى البلاد . وكان لابد من تقديم تنازلات للشركات الأجنبية . ولكن هذا الجانب لم يقدر له التطور . وسمح كذلك =

أنها ، منذ أن أقامتها الجماهير ، عبرت عن مصالح الجماهير العاملة وقامت بالدفاع عنها . وكانت السمة والسر الكامنين وراء انتشارها السريع ، بل التلقائى فى جميع أنحاء البلاد ، هما أنها كانت تتخذ القرارات وتنفذها بإرادتها فى الوقت الذى كانت فيه موضع رعاية الجماهير ، وتحت الرقابة المباشرة لكل من يهمهم تحركاتها . وكانت طريقا فريدا وكفؤا للجمع بين الديموقراطية المباشرة والديموقراطية التمثيلية .

ومع ذلك ، فعندما دفع إلى الوجود نظام الاقتصاد بالأوامر فى الإدارة ، كانت السوفيتات قد دفعت إلى الخلف بشكل ما . وتقرر عدد غير قليل من المسائل دون مشاركتها ، أو ترك دون حسم ليتحول إلى مشاكل . وقلل هذا من هيبة السوفيتات . ومنذ هذه اللحظة بدأ تطور الديموقراطية الاشتراكية يتباطأ ، وظهرت أمارات تشير إلى أن الجماهير العاملة قد أبعدت عن حقها الدستورى فى المشاركة بشكل مباشر فى شئون الدولة . وكنتيجة لذلك ، أضعف بشكل خطير مبدأ الثورة الاشتراكية ـ بأن السلطة لا يجب أن تكون فقط للجماهير العاملة ، وإنما تسوسها أيضا الجماهير العاملة .

ويجب أن نعترف أنه فى هذه الظروف بدأ كثير من المديرين الاقتصاديين معاملة المطالب والتوصيات المشروعة للسوفيتات بدون الاحترام اللائق . ويبدو أن كل شخص يدرك ـ ولم ينكر أى امرئ رسميا ذلك ـ أن على السوفيتات المحلية أن تكون مسئولة تماما عن مناطقها الخاصة فى كافة المسائل المتعلقة بالتنمية وأن عليها أن تلبى الحاجات اليومية للشعب . بيد أن القدرات الحقيقية للسوفيتات ، بالمقارنة بقدرات الهيئات الاقتصادية ، لم تجعلها فى وضع يسمح لها بإنجاز هذه الوظائف . وكان بمقدور المديرين والجهاز الإدارى فى العديد من المؤسسات ، وبخاصة فى المؤسسات الكبيرة ، أن يتجاهلوا المطالب الملحة والعادلة المقدمة من السوفيتات لبناء المساكن ، ومرافق تنقية الهواء والماء ، والارتقاء بالبرامج الاجتماعية والثقافية ،

= بالمؤسسات الخاصة فى الإنتاج الصغير ومبيعات التجزئة . وتحولت المؤسسات إلى نظام الحساب الاقتصادى . لقد كانوا يتصورون النيب كفترة انتقالية طويلة نسبيا ، يجرى الإعداد خلالها بالتدريج للتحول الاشتراكى للمجتمع ويبدأ تنفيذه .

وتطوير شبكة النقل العام ، وتوفير وسائل ترفيه أفضل فى مناطقهم ، الخ .

ولايمكننا القول بأن الجماهير العاملة والهيئات الحزبية كانت غير مهتمة على الإطلاق . فقد بذلت محاولات لعلاج الوضع وتغيير النظام القائم . ولكن كانت هذه المحاولات ضعيفة للغاية . وهو مايرجع بدرجة كبيرة لأسباب موضوعية وذاتية . وفى السنوات الخمس عشرة الأخيرة اتخذ أربعة عشر قرارا بخصوص تحسين نشاط السوفيتات . ورغم أنها كانت قررات طيبة ، فإن الأوضاع لم تتحرك من مكانها ، لأن البيئة الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية للدولاب الكابح قاومت تماما إعطاء دور أكبر للسوفيتات ، التى كانت فى الأساس الهيئات التى تجسد الديموقراطية والعلانية الواسعتين .

وبإمكاننا أن نرى الآن جيدا أنه نتيجة لانتشار أساليب الإدارة والإشراف لاقتصاد الأوامر ، فى الوقت الذى سادت فيه المواقف البيروقراطية فى كثير من مجالات العمل الحكومى والعام ، قلّ استخدامنا لقدرات السوفيتات على إفادة الشعب . إن الدور المضمحل للسوفيتات أدى إلى نشأة مانرى فيه استبدالا لوظائف ونشاط الهيئات الحزبية بوظائف ونشاط الحكومة والهيئات الإدارية .

وأدت الاستعاضة عن السوفيتات بهيئات الحزب ، أدت بدورها ، إلى التأثير الشديد على العمل السياسى والحزبى . وعندما وجه المسئولون الحزبيون جهودهم نحو الشئون الاقتصادية والإدارية ، تم تجنيد الكوادر من بين المهنيين الأكفاء ، رغم أنهم غالبا ماكانوا مفتقدين للمهارة والتجربة فى مسائل القيادة . وباختصار ، ظهر خطأ فى عمل الجهاز الديموقراطى الذى يدين بوجوده لثورتنا الاشتراكية .

وهكذا واجهنا فى سعينا المستمر نحو إعادة البناء ، مهمة ضخمة ألا وهى الحاجة إلى إحياء دور السوفيتات بشكل كامل باعتبارها هيئات السلطة السياسية وأساس الديموقراطية الاشتراكية ونحن الآن نجدد بشكل كامل هيبة وسلطات السوفيتات ،

ونخلق الشروط اللازمة لقيامها بعمل خلاق كفء وناضج فى ظل ظروف البيريسترويكا .

لقد دعا اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل لجان الحزب إلى الالتزام بخط دعم دور السوفيتات ، وتجنب التدخل فى شئونها . ومن المهم كذلك أن يعمل رؤساء السوفيتات والعاملون فيها بكل قوة من أجل اجتثاث القصور الذاتى والتغلب على عادتهم بالتطلع إلى شخص ما على الدوام وانتظار الأوامر من أعلى . إن القوانين التى أقرت حديثا حول دور السوفيتات فى مرحلة إعادة البناء تشجع المواقف الديموقراطية من جانب السوفيتات وهيئاتها التنفيذية عندما تعمل . ويجب أن يكون محور نشاطها هو توثيق صلاتها مع الشعب . وتتيح القوانين الجديدة للسوفيتات أن تنظم عملها بطريقة تسمح لها بأن تصبح الهيئات الحقيقية للحكم الشعبى . لقد أنيطت إليها حقوق واسعة لتنسق وتمارس الرقابة على نشاط كافة المؤسسات والمنظمات فى مناطقها الخاصة .

وهذه ليست سوى الخطوات المحدودة الأولى فى استعادة الطبيعة الثورية الديموقراطية للسوفيتات . وسيقوم المؤتمر الحزبى القادم لكل الاتحاد[٢٥] بدراسة واتخاذ القرارات المناسبة بشأن إصلاح النظام الانتخابى وعمل السوفيتات ، على كافة المستويات : وتجرى الاستعدادات جيدا لطرح المقترحات اللازمة . ومن السابق لأوانه تقييمها ، بيد أن أهميتها الكبيرة واضحة ـ إنها تهدف إلى تعزيز الديموقراطية الشعبية .

---

(٢٥) سيعقد الاجتماع الموسع (الكونفرنس) التاسع عشر للحزب الشيوعى السوفيتى فى عموم الاتحاد . فى موسكو ، فى ٢٨ يونيو ١٩٨٨ ، وفقا لقرار اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى .

الدور الجديد للنقابات

إن ماتضطلع به بلادنا وما تعالجه من مسائل يتضمن إعادة تقييم دور النقابات فى الشئون الاجتماعية .

وينبغى أن نقول أولا وقبل كل شىء إن نقاباتنا تمثل قوة هائلة ، فلا يمكن وضع قانون للعمل مالم يصدق عليه المجلس المركزى لنقابات عموم الاتحاد(٢٦) . وبالنسبة لكافة المسائل المتعلقة بقوانين العمل ، ووضعها موضع التنفيذ ، وحماية حقوق الجماهير العاملة ، فإن للنقابات الكلمة الأخيرة . وإذا ماقام مدير بفصل عامل دون طلب موافقة النقابة تقوم المحكمة أوتوماتيكيا باتخاذ قرار بعدم شرعية هذا الفصل دون أية مداولات ، طالما أن النقابة لم تجر استشارتها . وأخذ رأيها ، ولايجرى تقديم أى خطة تنمية اقتصادية ، لعام أو لخمسة أعوام ، للسوفيت الأعلى ، مالم توافق عليها النقابات . وعندما تكون الخطط فى دور الإعداد ، تشارك النقابات كذلك على مختلف المستويات .

إن التأمين الاجتماعى ، وإدارة المصحات ومنتجعات الاستجمام ، والسياحة ، والتربية البدنية والرياضية ، والترفيه واستجمام الأطفال ، هى جميعا مسئولية النقابات . وبالتالى فإنها تمتلك سلطة حقيقية . ولكن للأسف ، كان هناك نشاط نقابى أقل فى السنوات القليلة الماضية . وفى بعض القضايا ، تخلت النقابات عن حقوقها للمديرين الاقتصاديين ، فى الوقت الذى لم تكن تحظى ببعض حقوقها بالفعالية الكاملة .

وهكذا ، فعندما بدأنا إعادة البناء ، رأينا عمل النقابات لايمكن اعتباره مرضيا . وخلال رحلتى إلى منطقة كوبان ، وجهت اللوم إلى قادة النقابات لتسترهم على المديرين ، والذهاب أحيانا إلى حد التصرف وفق هواهم . وسألتهم ألم يحن

---

(٢٦) المجلس المركزى لنقابات العمال لكل الاتحاد الجهاز الإدارى لنقابات العمال السوفيتية فيما بين انعقاد مؤتمرها .

الوقت لاتخاذ موقف مبدئى ، والدفاع عن مصالح الجماهير العاملة ؟.

والدور الجديد للنقابات فى ظروف البيريسترويكا ينبغى أن يشمل أساسا إعطاء توجه اجتماعى أقوى للقرارات الاقتصادية ، ومعادلة التجاوزات التكنوقراطية التى انتشرت فى الاقتصاد فى السنوات القليلة الأخيرة . ويعنى أن تكون النقابات أكثر نشاطا فى صياغة الأجزاء الاجتماعية من الخطط الاقتصادية . وإذا مالزم ، التقدم بمقترحاتها البديلة والدفاع عنها .

وينبغى على اللجان النقابية أن تكون ذات أنياب ، وألا تكون شريكا طيّعا للإدارة . ولكن يبدو أن المنظمات النقابية قد اعتادت على ظروف العمل الرديئة فى بعض المؤسسات ، وعلى تدهور الخدمة الصحية ، وغرف الدواليب الأدنى من المستوى . بيد أن النقابات السوفيتية لها حق الرقابة على استجابة الإدارة لعقود العمل ، والحق فى انتقاد الإدارة ، وحتى الحق فى المطالبة باستبعاد المدير الذى يعجز عن الاستجابة للمصالح المشروعة للجماهير العاملة ، من منصبه .

وسيكون من الخطأ الاعتقاد بأن الجماهير العاملة لاتحتاج إلى أية حماية فى ظل الاشتراكية . إذ تنبغى حمايتها حتى بدرجة أكبر ، لأن الاشتراكية نظام للجماهير العاملة . ومن ثم تكون المسئولية الهائلة للنقابات . إن المجتمع السوفيتى بكامله له مصلحة حيوية فى أن تقوم النقابات بدور أكثر حيوية .

الشباب والبيريسترويكا

يتيح الشباب السوفيتى إمكانية هائلة لجهود إعادة البناء . فالجيل الشاب هو الذى سيعيش ويعمل فى المجتمع الذى أعيد تشكيله . ولذلك فمن الطبيعى أن يصبح لعمل الشباب ، ودراسته ووقت فراغه ، الأولوية . ويبحث الشباب عن مكان له فى العالم . إنها فترة صعبة فى حياة المرء . وهى فترة تقويمية فيما يتعلق بأسرته ومهاراته المهنية وآرائه السياسية والمدنية ، إنه يدخل عالمه كفرد . ولهذا السبب ينبغى

إيلاء أكبر قدر من الاهتمام للشباب والكومسومول (رابطة الشباب الشيوعى) .

وقد رتبنا الأمور بحيث لاتعالج أى مشكلة هامة للشباب دون أن يؤخذ رأى الكومسومول فى الاعتبار. وهذا لايعنى أننا نمالئ الكومسومول . كلا ، على الإطلاق . إن علينا أن نعزز مسئوليته بشكل كبير. وليس هناك مايمكن أن يكون له تأثيره الفعال على تكوين جيل الشباب ، وعلى قدرته على أن يأخذ حاضر البلاد ومستقبلها بين يديه ، مثل الثقة فيه وإشراكه فى العملية السياسية والاقتصادية الحقيقية . إن تدليل الشباب أو زيادة التبسط معهم أو تملقهم لن يؤدى إلى النتائج المرجوة . ينبغى أن تتاح الفرصة للكومسومول والشباب لكى يكشفوا حقا عن قيمتهم . ويجب أن يتحرر الشباب من شبه الوصاية والإشراف ، وينبغى أن نعلمهم بتحميلهم المسئولية وبالثقة فى مساعيهم الحقيقية .

لقد دعا اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى زعماء الحزب إلى إيلاء مزيد من الاهتمام بعمل الشباب ، وإلى صقلهم الأيديولوجى والمعنوى . إن اللهجة التعليمية والصارمة أمر غير محتمل فى العمل مع الشباب ، ومهما كانت الأسباب ـ كعدم الثقة فى نضوج تطلعات الشباب وأعماله ، والحذر الأوّلى الشديد والرغبة فى تسهيل الأمور لأبناء المرء منا ـ فلا يمكننا أن نوافق على مثل هذا الموقف . وهناك مجالان أساسيان فى حياة الشباب وعمله . فأولا ، عليهم أن يستوعبوا كل ترسانة الطرق إلى الديموقراطية والاستقلال ويتنفسوا طاقة شبابهم فى إشاعة الديموقراطية على كافة المستويات ، وأن يكونوا نشطين فى المساعى الاجتماعية . فبدون ذلك ، يستحيل على الإطلاق أى تشريع وأى تقدم . فعلى كل شاب أن يشعر بأنه يشارك فى كل مايدور فى البلاد . وثانيا ، ينبغى أن يكون الجيل الشاب مستعدا للمشاركة فى التحديث الواسع لاقتصادنا ، وفى المقام الأول من خلال تعميم استخدام الحاسبات، وإدخال تكنولوجيات ومواد جديدة. إن التجديد الفكرى وإثراء المجتمع هو ما نتوقعه من الشباب .

ويواجه الشباب مشاكل اجتماعية معقدة . وكثير من المسئولين يدعونهم إلى التوجه إلى العمل ، ولنقل مثلا ، فى مواقع البناء ، ولكنهم سرعان ماينسونهم عندما يتعلق الأمر بالمسائل الاجتماعية . وليست هذه هى الطريقة التى يجب التصرف بها . إننا نؤيد فكرة قانون للشباب لايكرر الفرضيات العامة المتعلقة بكافة المواطنين السوفيت ولكنه يعالج المشاكل والحقوق والواجبات الخاصة بالشباب. ومثل هذا القانون يجب أن يحدد فى عبارات أكثر تحديدا مجالات التفاعل بين الكومسومول وهيئات الدولة ، والنقابات وغيرها من المنظمات فى حدود مايتعلق الأمر بعمل الشباب ودراساته وحياته اليومية ووقت فراغه . وينبغى أن يعزز القانون مسئولية الوزارات والإدارات الحكومية فى حل المشاكل المتعلقة بالشباب .

لقد أثار مؤتمر الكومسومول [٢٧] الذى انعقد عام ١٩٨٧ استجابة عريضة على نطاق البلاد . وكشف عن أن أعضاء الكومسومول يعون مسئوليتهم نحو بلادنا وشعبنا ، وأنهم متعطشون للمشاركة بدور إيجابى فى عملية التجديد الاجتماعى. وقد راقنى مناخ العناية الفائقة فى المؤتمر. وربما لم تخالجنى قبل ذلك مثل هذه الرغبة الشديدة فى المشاركة فى المناقشة كما حدث فى المؤتمر. وكانت هناك صلة حية مع الحضور المتحمسين الذين شحنوا كل امرئ بطاقتهم .

وهناك مايدعو إلى الاعتقاد بأن شبابنا يرحب من كل قلبه بالتغييرات الثورية ، التى بدأت فى البلاد ، وبأنهم على استعداد لتطويرها بطاقتهم الثورية واخلاصهم المتحمس .

المـرأة والأسـرة

يتحتم على بلادنا اليوم إشراك المرأة بنشاط أكثر فعالية فى إدارة الاقتصاد ، وفى التطور الثقافى والحياة العامة . ولهذا الغرض أقيمت مجالس للمرأة فى جميع أنحاء البلاد .

---

(٢٧) عقد المؤتمر العشرون للكومسومول فى أبريل ١٩٨٧ .

وطرح اجتماع يناير الكامل كذلك مسألة إعداد عدد أكبر من النساء للمناصب الإدارية ، وبخاصة أن ملايين النساء يعملن فى مجالات الصحة ، والتعليم والثقافة ، والعلوم . ويستخدم كثير من النساء ، كذلك فى الصناعات الاستهلاكية والتجارة والخدمات أيضا .

وغالبا ماينظر إلى درجة تحرير المرأة ، كمقياس للحكم على المستوى الاجتماعى والسياسى للمجتمع . لقد وضعت الدولة السوفيتية حدا للتمييز ضد المرأة الذى كان سائدا فى روسيا القيصرية بتصميم ودون مساومة . وكسبت المرأة مكانة اجتماعية يضمنها القانون وتتساوى مع مكانة الرجال . ونحن نفخر بما قدمته الحكومة السوفيتية للمرأة : نفس الحق فى العمل كالرجل ، والأجر المتساوى للعمل المتساوى والضمان الاجتماعى . وأتيحت للمرأة كل فرصة للحصول على التعليم ، ولبناء مستقبلها ، وللمشاركة فى النشاط الاجتماعى والسياسى . وبدون إسهام المرأة وعملها المتفانى ماكان بمقدورنا أن نبنى مجتمعا جديدا أو نكسب الحرب ضد الفاشية .

ولكن طوال سنوات تاريخنا البطولى والشاق عجزنا عن أن نولى اهتماما لحقوق المرأة الخاصة ، واحتياجاتها الناشئة عن دورها كأم وربة منزل ووظيفتها التعليمية التى لاغنى عنها بالنسبة للأطفال . إن المرأة إذ تعمل فى مجال البحث العلمى ، وفى مواقع البناء ، وفى الإنتاج والخدمات ، وتشارك فى النشاط الإبداعى ، لم يعد لديها وقت للقيام بواجباتها اليومية فى المنزل ـ العمل المنزلى ، وتربية الأطفال ، وإقامة جو أسرى طيب . لقد اكتشفنا أن كثيرا من مشاكلنا ـ فى سلوك الأطفال والشباب ، وفى معنوياتنا ، وثقافتنا وفى الإنتاج ـ تعود جزئيا إلى تدهور العلاقات الأسرية ، والموقف المتراخى من المسئوليات الأسرية . وهذه نتيجة متناقضة لرغبتنا المخلصة والمبررة سياسيا لمساواة المرأة بالرجل فى كل شىء ، والآن ، فى مجرى البيريسترويكا ، بدأنا نتغلب على هذا الوضع . ولهذا السبب فإننا نجرى الآن مناقشات حادة فى الصحافة ، وفى المنظمات العامة ، وفى العمل والمنزل ، بخصوص مسألة مايجب أن نفعله لنسهل على المرأة العودة إلى رسالتها النسائية البحتة .

وهناك مشكلة أخرى هى استخدام المرأة فى الوظائف الشاقة الضارة بصحتها . وهذا هو تراث الحرب التى فقدنا فيها أعدادا ضخمة من الرجال ، والتى خلفت لنا نقصا حادا فى اليد العاملة فى كل مكان ، فى كافة مجالات الإنتاج . لقد بدأنا الآن نعالج هذه المشكلة بشكل جاد .

وإحدى المهام الاجتماعية والأكثر إلحاحا بالنسبة لنا ـ وهى مهمة هامة كذلك فى الحملة ضد المسكرات ـ تتمثل فى تحسين صحة الأسرة وتعزز دورها فى المجتمع . ونحن نتوقع أن تكون مجالس المرأة نشطة للغاية وأن تأخذ زمام المبادرة . إنها قد شبت لتوها عن الطوق ويمكنها أن تحقق الكثير ، لأنه لاتوجد منظمة أخرى تشارك عن قرب فى الحياة الخاصة ومشاكل المرأة كما تفعل هذه المجالس .

إن مواصلة إشاعة الديموقراطية فى المجتمع ، وهو مايعتبر محور وضمان البيريسترويكا مستحيل دون تعزيز دور المرأة ، ودون مشاركتها النشطة والخاصة ، ودون التزامها بكل جهودنا الإصلاحية . وأنا على قناعة بأن دور المرأة فى مجتمعنا سينمو باطراد .

اتحاد الأمم الاشتراكية ـ تشكيل فريد

إننا نعيش فى بلد متعدد القوميات . وهذا عامل من عوامل قوته أكثر مما هو من عوامل ضعفه أو تفككه . كانت روسيا القيصرية تسمى بسجن الشعوب . وقد قضت الثورة الاشتراكية على القهر القومى وانعدام المساواة . وضمنت التقدم الاقتصادى والفكرى والثقافى لكافة الأمم والقوميات . وفيما مضى امتلكت الأمم المتخلفة صناعة متقدمة وبنية اجتماعية حديثة . وارتفعت إلى مستوى الثقافة الحديثة رغم أن بعضا منها لم يكن لديه قبل ذلك أبجدية خاصة به . وأى شخص غير متحيز لابد له وأن يعترف بأن حزبنا قد نفذ قدرا هائلا من العمل وقام بتحويل الوضع . مما ترتب عليه إثراء المجتمع السوفيتى والحضارة العالمية بشكل عام .

وقد أسهمت كافة الأمم والقوميات التى تقطن بلادنا فى تكوين وتطوير وطننا

الاشتراكي. ودافعت معا عن حريته، واستقلاله، ومكتسباته الاشتراكية ضد غزوات أعدائه. وإذا لم تكن المسألة القومية قد حلت من حيث المبدأ، ماكانت لدى الاتحاد السوفيتى على الإطلاق القدرة الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، والدفاعية التى يمتلكها اليوم. وماكان لدولتنا أن تبقى إذا لم تشكل الجمهوريات أسرة تقوم على الأخوّة والتعاون والاحترام والمساعدة المتبادلة.

غير أن كل هذا لايعنى، أن العمليات القومية خالية من المشاكل. فالتناقضات تلازم أى تطور. وهى تحدث هنا كذلك. وقد اعتدنا، للأسف، أن نؤكد على انجازاتنا الكبيرة حقا فى حل المشكلة القومية، وقيّمنا الوضع بعبارات فضفاضة. لكن هاهى ذى الحياة الواقعية بكل تنوعها ومصاعبها.

ويبدو الجدل هكذا: إن نمو المستويات التعليمية والثقافية، إلى جانب تحديث الاقتصاد، يؤدى إلى ظهور المثقفين فى كل أمة، وإلى نمو الوعى الذاتى القومى ونمو اهتمام الأمة الطبيعى بجذورها التاريخية. وهذا أمر رائع. وكان هذا مطمح الثوريين من مختلف القوميات ممن أعدوا لثورتنا، والذين بدأوا يبنون مجتمعا جديدا على أنقاض الامبراطورية الروسية. ويحدث أحيانا فى العملية أن ينزلق قطاع معين من الناس إلى النزعة القومية، وتظهر الآراء القومية الضيقة والمنافسة والغرور القومى.

ولكن ليس هذا كل مافى الأمر. فالشىء الأهم يتمثل فى التغيرات التى تحدث فى المجتمع الذى يحل فيه جيل محل جيل، وينبغى أن يتعلم كل جيل جديد كيف يعيش فى دولة متعددة الأجناس، الأمر الذى لايحدث بسهولة. فالاشتراكية التى ساعدت كل أمة على أن تنشر أجنحتها، تملك كافة الظروف لحل المشاكل القومية على أساس المساواة والتعاون. ومن المهم أن نعمل بروح المبادئ الاشتراكية، متذكرين أن الأجيال الجديدة لاتعرف حتى فى الغالب كيف وصلت أممها إلى مثل هذه المستويات. ولم يخبرهم أحد كيف كانت الأممية تعمل فى صالحهم، ولكم من السنين.

وعلى عكس خلفية النزاعات القومية ، التى لم تترك حتى أكثر بلدان العالم تقدما يقدم الاتحاد السوفيتى مثالا فريدا حقا فى تاريخ الحضارة البشرية . وتلك هى ثمرات السياسة القومية التى وضعها لينين . ولكن كم كان الأمر صعبا فى البداية ، وكم كانت شاقة بدرجة لاتصدق تلك الخطوات الأولى فى بناء دولة متناسقة متعددة الأجناس . ولعبت الأمة الروسية دورا بارزا فى حل المسألة القومية . ومرت كثير من الشعوب بنوع من النهضة أو التنوير فى ظل السياسة القومية اللينينية ، وفى فترة قصيرة جدا من الوقت . وعندما يستجيب شخص ما لذلك بغروره القومى ، وينسحب إلى داخل نفسه ، ثم يحاول نقل قيمه الخاصة على أنها قيم مطلقة ، فإن ذلك أمر غير سليم ولا يمكن قبوله . ويغدو ذلك موضع مناقشات حية وشاملة فى المجتمع السوفيتى .

وتعتبر كل ثقافة قومية ثروة لايمكن التفريط فيها . بيد أن الاهتمام الصحيح بكل ماهو قيّم فى كل ثقافة قومية لايجب أن ينحدر إلى محاولات الانغلاق عن العمليات الموضوعية للتفاعل والتقارب . وإنه لمن الخطير كذلك أن يفتقر موقف ممثلى أحد القوميات إلى احترام ممثلى قومية أخرى . لقد قضيت سنوات عديدة فى شمال القوقاز ، وهى منطقة تقطنها مجموعة من القوميات المتعددة ، ولايقتصر الوضع هناك على أن كل مدينة أو مستوطنة أو قرية جبلية هناك يقطنها أناس من قوميات مختلفة ، بل ينطبق ذلك على المنطقة كلها . ويتضمن تاريخ شمال القوقاز صفحات عديدة كئيبة ، ولكن فى سنوات الحكم السوفيتى تغير الوضع جذريا ، وأنا لن أضفى طابعا مثاليا على الوضع ، ولكن العلاقات بين القوميات التى تقطن هذه المنطقة المتعددة الأجناس تتميز بمواقف الاحترام ، والتعاون ، والتقارب ، والوحدة . وأنا أعرف من خبرتى الشخصية أن سكان المرتفعات شديدو الاستجابة للصداقة ، ولكنهم فى نفس الوقت حساسون للغاية لأى مظهر من مظاهر الغطرسة نحوهم . ويمكننى أن أتذكر أن منطقة كراتشايفو- تشيركاسيا ذات الحكم الذاتى ــ وهى جزء من إقليم ستافروبول ــ يقطنها كراتشايفون ، وشركس ، وروس ،

وأبازنيون ، ونوجيون ، وأوستانيون ، ويونانيون ، وممثلو قوميات أخرى ، وأنهم يعيشون جميعا فى وفاق مع بعضهم البعض . ويعود ذلك إلى المساواة والموقف العادل من حل مشاكلهم من واقع حياتهم . وعندما كان يحدث فى بعض الأحيان انحراف عن هذه المبادئ ، كان الثمن غاليا على الدوام . وداخل هذه المنطقة الصغيرة ذات الحكم الذاتى تجرى المحافظة على ثقافات كل القوميات وتطويرها . إن تقاليدهم محل رعاية ، كما ينشر أدبهم بلغاتهم القومية . وهذا لا يباعد بينهم ، وإنما بالأحرى يقربهم من بعضهم البعض . وليس بكاف أن تعلن المساواة بين الأمم ، فلابد من كفالة معرفة كافة الجماعات العرقية لأسلوب حياة هادفة .

وأود أن أقول مرة أخرى إنه إذا ماظهرت ظواهر سلبية فى هذا المجال الحساس للغاية للعلاقات البشرية ، فإنها لاتظهر من تلقاء نفسها ، وإنما كنتيجة للروتين ، وعدم الاهتمام بحقوق الناس المشروعة . وهناك أحيانا مناقشات حادة حول تطور اللغات العرقية فى هذا البلد . فما الذى يمكن أن يقال فى هذا الموضوع ؟ حتى أصغر الأعراق لايمكن أن ينكر عليها الحق فى لغتها القومية الخاصة . ومع ذلك فهذه هى الثقافة البشرية فى تنوعها اليوم ، بلغاتها ، وزيها ، وطقوسها ، ومظاهرها العديدة . وهذه هى ثروتنا المشتركة . فكيف يمكن تجاهلها ؟ وكيف يسمح المرء بالتقليل من قدرها ؟ .

ولكننا فى نفس الوقت ، فى بلدنا الفسيح المتعدد الأجناس لايمكننا أن نستغنى عن وسيلة مشتركة للاتصال . وأصبحت اللغة الروسية بالطبع تقوم بإنجاز هذا الدور . وكل فرد يحتاج لهذه اللغة ، وقد حدد التاريخ نفسه أن تتطور العملية الموضوعية للاتصال على أساس لغة أكبر الأمم . وعلى سبيل المثال ، فرغم أن ممثلى العديد من المجموعات العرقية التقوا معا فى الولايات المتحدة ، أصبحت الإنجليزية لغتهم المشتركة . وكان هذا على مايبدو اختياراً طبيعيا . وبإمكان المرء أن يتصور ما الذى كان يحدث إذا ما تحدث أفراد كل أمة انتقلت إلى الولايات المتحدة بلغتهم

الخاصة فقط ، ورفضوا تعلم اللغة الإنجليزية ! وينطبق نفس الشيء على هذا البلد ، حيث برهن الشعب الروسى بكل تاريخه أن لديه قدرة هائلة على النزعة الأممية ، وعلى احترام الشعوب الأخرى والنوايا الطيبة نحوها . وأوضحت التجربة أنه لابد من دراسة لغتين (بالإضافة إلى لغة أجنبية) ـ اللغة الأم واللغة الروسية ـ لكى تتصل المجموعات العرقية ببعضها البعض .

إن أية محاولات لتغذية الأحقاد على أسس قومية عرقية ، لا يمكن إلا أن تؤدى إلى التعقيد فى البحث عن حلول معقولة . ونحن لسنا بصدد تجنب هذه المشاكل أو غيرها مما قد ينشأ . ولكننا ستتصدى لها جميعا فى إطار العملية الديموقراطية عاملين على تعزيز الأممية لدى شعوبنا .

وقد علمنا لينين أن نبدى أقصى حذر وبراعة فى المسألة القومية ، ولايمكن ولايجب أن يكون هناك أية نماذج مقولبة هنا . هناك شيء واحد واضح : عندما تلتقى المصالح الأساسية للأمم ، وعندما يشكل مبدأ المساواة فى كل شيء عصب العلاقات بين الشعوب ـ وهذا على وجه الدقة هو واقع الأمر فى المجتمع السوفيتى ـ يمكن عندئذ تسوية أية مشاكل أو سوء تفاهم ينشأ ، حتى فى الأوضاع الصعبة . وهناك بالطبع عدد محدود من الناس فى الغرب ، وفى الشرق كذلك ، يودون أن يقوضوا الصداقة والوحدة بين شعوب الاتحاد السوفيتى . بيد أن هذا أمر مختلف تماما ، فهنا يقف القانون السوفيتى يقظا ، يحمى منجزات السياسة القومية اللينينية .

وانطلاقا من هذه المواقف، سنظل ملتزمين بحزم بمبادئنا. ينبغى احترام المشاعر القومية للناس ، ولايمكن تجاهلها . بيد أن المزايدة عليها تعنى انعدام المسئولية السياسية ، إذا لم تكن تعنى جريمة . ومن تقاليد حزبنا أن يقاوم أية مظاهر لضيق الأفق القومى والشوفينية ، والطائفية ، والصهيونية ، ومعاداة السامية ، فى أى شكل يجرى التعبير عنها . وسنبقى ملتزمين بهذا التقليد . وتبين كل خبرتنا أن المواقف القومية يمكن مواجهتها بفعالية عن طريق الأممية الثابتة ، والتربية الأممية .

وعندما ألتقى بالناس خلال جولاتى فى الجمهوريات والمناطق القومية للاتحاد السوفيتى ، أرى بنفسى المرة بعد المرة أنهم يدركون ويفخرون بأن أممهم تنتمى لأسرة دولية كبيرة واحدة ، وأنهم جزء لايتجزأ من دولة عظمى وواسعة تلعب مثل هذا الدور الهام فى تقدم البشرية . وهذا على وجه الدقة ما تعنيه الوطنية السوفيتية . وسوف نواصل دعم الاتحاد والأخوة بين الأمم الحرة فى بلد حر .

النفـوذ والثقـة

شملت البيريسترويكا كل مجالات المجتمع . وتتطور عملية البيريسترويكا عن طريق حل المشاكل والتغلب على الصعوبات . ويعمل الحزب كمبادر ومولد للأفكار ، وكقوة منظمة ومرشدة ، بل أقول أيضا كضامن للبيريسترويكا من أجل مصالح تعزيز الاشتراكية ، ومصالح الشعب العامل . لقد أخذ الحزب على عاتقه مسئولية تاريخية حقة . وقد قال لينين فى عام ١٩١٧ : «إننا وقد بدأنا الثورة ، علينا أن نمضى إلى نهاية الطريق » . وينطبق نفس الشيء على البيريسترويكا : فسوف يمضى الحزب فيها إلى نهاية الطريق .

وينمو نفوذ الحزب والثقة فيه . ورغم أننا لا نزال فى مرحلة الانتقال من حالة نوعية إلى أخرى ، فإن هيئات الحزب تحاول ألّا تأخذ على عاتقها واجبات التنظيمات الاقتصادية والإدارية . وهذا أمر ليس باليسير أبدا . ويتراءى لنا مثل هذا الطريق الذى خبرناه ــ مارسوا ضغط الحزب والخطة سوف تنجز ! بيد أن هدف الحزب مختلف : إنه فى المقام الأول ، تحليل العمليات نظريا ، والإحساس بالنقاط الحرجة فى تطور التناقضات فى الوقت المناسب ، وإدخال التصحيحات فى الاستراتيجية والتكتيكات ، ورسم السياسة وتحديد أساليب وأشكال تحقيقها واختيار العاملين ووضعهم فى أماكنهم ، وتوفير الظروف التنظيمية والأيديولوجية على السواء للبيريسترويكا . وبمقدور الحزب وحده أن يفعل كل هذا .

إن الإدارة والشئون الاقتصادية هى مهمة الحكومة والمنظمات الأخرى المسئولة

عن هذه الأمور . وهذه النظرة لم تنشأ من فراغ ، وإنما دفعت إليها التجربة ويجب على الحزب أن يقوم بمهمته . وعلى كل الآخرين أن يقوموا بمهامهم . وعندما لا يحدث ذلك يتضح أن قيادة الحزب ونشاطه الأيديولوجى وعمله مع الكوادر غير كاف .

لقد تطور مجتمعنا تاريخيا بطريقة جعلت كل مايحدث داخل الحزب يجد انعكاسه فى حياة بلادنا . والمعارضة الرسمية غير قائمة فى بلادنا . وهذا مايلقى مسئولية أكبر على الحزب الشيوعى السوفيتى باعتباره الحزب الحاكم . ولهذا السبب فإننا نعتبر مواصلة تطوير الديموقراطية الداخلية فى الحزب ، وتدعيم مبدأ القيادة الجماعية فى العمل ، ومزيدا من العلانية فى الحزب ، كذلك ، ذات أولوية عليا . وتطلب اللجنة المركزية بأن يكون من ينتخبون للمناصب العليا متواضعين ، ومهذبين ، وأمناء ، وغير متسامحين حيال المداهنة والتملق . ولا يمكن أن يكون فى الحزب من هو فوق النقد أو من ليس له حق النقد .

وكان واضحا لنا أن علينا ان نبدأ بتغيير تفكيرنا وعقليتنا ، وتنظيم طراز وأساليب عملنا ، وأن علينا أن نبدأ بالناس ، وفى المحل الأول بالمديرين .

لقد بدأنا بتصميم كبير نسير فى الطريق الهادف إلى دعم الأشخاص الواسعى الحيلة ، الذين يفكرون ، والديناميون والقادرون على تقييم وضع ما بنظرة انتقادية ذاتية ، وعلى التخلص من الشكلية والمواقف الجامدة فى العمل ، ويجدون حلولا جديدة غير جامدة ، الأشخاص الذين يمكنهم ، ويريدون ، أن يتحركوا إلى الأمام بجرأة والذين يعرفون كيف يصلون إلى النجاح . وقد أعطت البيريسترويكا لمثل هؤلاء الناس مكانا كبيرا لنشاطهم الخلاق .

وليست هناك حاجة ، بالطبع ، لتغيير العاملين بشكل كامل . كما أن هذا غير ممكن فى الواقع . ومن الممكن أن تكون هناك ، بالطبع ، بعض التغييرات فى العاملين فى المستويات العليا والوسطى وعلى مستوى مؤسسة واحدة كذلك . إننا فى

حاجة إلى قوى جديدة وهذا ما يحدث بالفعل فى الحقيقة . وإلى جانب ذلك ، هناك أيضا عملية طبيعية تفصح عن نفسها : فبعض الناس وصلوا بالفعل إلى نهاية خدمتهم ، وبعضهم لم يعد ببساطة من القوة بحيث يتحمل عبء مسئولية جديدة . وهذا أمر مفهوم ، فليس هناك مايدعو إلى المبالغة الحادة فيما يتعلق بالوضع .

إن لكل فترة مطالبها الخاصة ، وأناسها المتقدمين ، وطرقها الخاصة لتناول الأمور . والقادرون على إعادة تنظيم أنفسهم ، واتباع طرق جديدة فى العمل السياسى والتنظيمى والأيديولوجى ، سيعملون وسيحظون بمساندة الجماهير العاملة وتنظيمات الحزب . وغالبية كوادرنا مستعدة لذلك ، ولو بطرق مختلفة : فسيقبل بعضهم المطالب الجديدة بسرعة أكبر ، بينما قد يفكر غيرهم أكثر من مرة . ونحن من حيث المبدأ ننطلق من افتراض أن غالبيتهم قادرون على حل مشاكل البيريسترويكا . ومع ذلك فليس بإمكاننا أن نتحمل وضعا يستمر فيه فعل كل شىء بالطريقة القديمة ، بدون تسريع ، أى بدون أن نزيد من سرعتنا .

وتتطلب البيريسترويكا كفاءة ونزعة مهنية عالية ، ولا يمكننا أن نستغنى عن التدريب الحديث والشامل ، دون معرفة دقيقة فى مجالات الإنتاج ، والعلم ، والتكنولوجيا ، والإدارة ، والاقتصاد ، وفى تنظيم العمل وحوافز العمل ، وعلم الاجتماع ، وعلم النفس . وباختصار ، يجب أن نحرك أكبر قدر من طاقة البلاد الفكرية ، ونزيد بشكل أساسى من كفاءتها الخلاقة .

وأود أن أؤكد مرة أخرى أهمية نشاط الحزب فى المجال النظرى . فهناك قدر كبير من العمل يجرى فى هذا المجال كذلك ولكننا نسعى فى هذا المجال أيضا إلى ديموقراطية أكبر ولن نسمح باحتكار شخص واحد أو مجموعة من الأشخاص . وتدعو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى كافة القوى الخلاقة فى الحزب والمجتمع لأن تشارك فى هذا العمل . وإذا ما سمحنا لكل شىء بأن يأتى من

المركز ، أو من شخص واحد أو مجموعة من الأشخاص ، وهذا أسوأ ، فمن المحتمل أن نتزلق إلى تفكير متحجر. وسيكون ذلك ضربة قاتلة لبرنامج البيريسترويكا ، وبالتالى ، لتطور المجتمع . ويعرف تاريخ الحزب الشيوعى السوفيتى بعض الدروس المؤسفة والمريرة فى هذا الخصوص . وليس بإمكانك أن تحصر دور علم الاجتماع والقوى الخلاقة فى الحزب فى التعليق على قرارات أو خطب الأفراد فى المناصب العليا . لقد اخترنا موقفا آخر ـ وسوف نتصرف بما يتمشى مع مبادئ لينين ، وتقاليد لينين .

رابعا ـ الغرب والبيريسترويكا

إننا نهتم على الدوام بالطريقة التى ينظر بها إلى البيريسترويكا خارج البلاد ، وبخاصة فى الغرب . ولا يعود ذلك إلى مجرد حب الاستطلاع ، وإنما إلى أنه واجبنا كسياسيين . فنحن نرى أن عملية إعادة البناء تثير اهتماما متزايدا ليس فقط لأنها مثار اهتمام فى حد ذاتها ، وإنما لأنها تتعلق بمصير أمة كبيرة . إن إعادة البناء فى بلادنا تعتبر بحق حدثا له آثار دولية كبيرة . وقد كتبت إحدى الصحف فى أوروبا الغربية تقول : « إن ما يحدث فى الاتحاد السوفيتى يهم العالم أجمع » .

وينبغى أن أشير أولا إلى أن الاهتمام الحقيقى بالبيريسترويكا بين الغالبية الساحقة من الناس فى العالم أجمع يصاحبه تفاؤل ورغبة مخلصة بأن تكلل التغييرات التى بدأت فى الاتحاد السوفيتى بالنجاح . ويتوقع العالم الكثير من البيريسترويكا ويأمل أن تؤثر بشكل إيجابى على مجرى التطورات العالمية والعلاقات الدولية فى مجموعها .

وفيما يتعلق بالدوائر الرسمية وغالبية وسائل الإعلام الجماهيرى فى الغرب ، كانت هناك فى البداية قناعة محدودة للغاية بإمكانية الإصلاحات التى أعلناها فى أبريل ١٩٥٥ . وكثرت الملاحظات الساخرة : إنه مجرد تغيير فى الفرق ، كما يقولون ، وهكذا تسرع الفرقة الجديدة إلى طرح مفهوماتها وبرامجها . وزعموا أن الروس شعب عاطفى اعتاد أن يقوم الزعماء الجدد بإلقاء مسئولية النواقص على الزعماء السابقين ، بينما يظل كل شىء على حاله . ومع مضى الوقت ، كما يقولون ، سيذوى النقد وينسون الالتزامات الجديدة .

بيد أن وجهة النظر هذه لم تدم طويلا . وأصبح من الواضح تماما أن إعادة البناء حقيقة تاريخية وأنها تزداد قوة . وبعد اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى لم يعد بالإمكان إنكار حقيقة أن هذا البلد قد دخل بالفعل فترة من الإصلاحات الجريئة والبعيدة المدى .

بل إن الحوافز الجديدة أصبحت أكثر وضوحا فى التعليقات على اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية . وبدأوا يقولون بأن مدى ونطاق الإصلاحات المقترحة فى الإدارة الاقتصادية فاقت تنبؤات معظم المختصين بالدراسات السوفيتية . ونحن نرى أن الكثيرين فى الغرب لم يتوقعوا مثل هذه المناقشة الصريحة والعميقة ، ومثل هذه التدابير البناءة الواسعة النطاق . ويبدو أن نعت « منتصف الطريق » الذى استخدم لوصف نشاطنا حتى يونيو ، قد أصبح باليا عند وصف قرارات اجتماع يونيو الكامل ودورة السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتى . لقد ذهبنا بعيدا خارج « دائرة الطباشير » التى حصر فيها الغرب إمكانياتنا ونوايانا . وحتى قبل الاجتماع الكامل ، كانت هناك ثروة من الأقوال عن أن « حملة جورباتشوف من أجل الإصلاحات » تفقد قوة اندفاعها .

والآن يتحدثون عن « ثورة ثانية » ، وعن الطبيعة التى لا رجعة فيها لإعادة البناء ، وعن قيامنا « بقفزة جديدة » على أساس إصلاحات اقتصادية وقانونية أقرت أخيرا . وبشكل عام ، فإن لديهم الآن الحق فى أن يشعروا بأهمية اجتماع يونيو الكامل لعملية إعادة البناء . وهكذا أصبح من الضرورى حتى بدرجة أكبر تحديد موقف من إعادة البناء . وهم ينتقدوننا على معدل مسيرة إعادة البناء . لأننا فى غاية التباطؤ ، فى رأى « اليسار » ، ولأننا نسير بقفزات كبيرة للغاية ، فى رأى « اليمين » . ولكن يبدو أنهم جميعا متفقون على أن القيادة السوفيتية تنفذ الإصلاحات بشكل جاد .

ويريد المراقبون الأجانب الوقوف على نتائج إعادة البناء ، بالنسبة للاتحاد السوفيتى والعالم ، إذا ما استمرت العملية . وهم يريدون أن يعرفوا ما قد يناسب الغرب بشكل أفضل : نجاح البيريسترويكا أو فشلها ؟ .

ومن الواضح ، أن هناك إجابات عديدة على هذه الأسئلة . ويقول كثير من المتخصصين الأكفاء : إن التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع السوفيتى يمكن

زيادة سرعتها ، وأن النجاح فى الحركة الحالية من أجل إعادة البناء سيكون له آثار دولية إيجابية . وهم يقولون بحق : إن الأسرة العالمية يمكنها أن تستفيد فقط من نمو رفاهية الشعب السوفيتى ومواصلة تقدم الديموقراطية . إن نطاق ومدى البرامج الاجتماعية والاقتصادية التى ينفذها الاتحاد السوفيتى تدل على سياسته الخارجية السلمية وتقدم ضمانات مادية لها . ومن ثم أبعث بهذه الرسالة إلى قادة الدول الغربية ــ لا تخشوا البيريسترويكا ، ولا تجعلوا منها موضوع حرب نفسية ، بل بالأحرى طوروها من خلال دولاب العلاقات الاقتصادية والمبادلات الثقافية والإنسانية ، وخذوا بجدية المبادرات السوفيتية لنزع السلاح وتحسين الوضع الدولى ، واسعوا إلى اتفاقات حول هذه المسائل .

وإذا ما تركنا جانبا كثيرا من التقييمات والتقديرات التى نراها قابلة للنقاش ، فإننا بشكل عام نعتبر هذا الموقف موقفا واقعيا ونرحب بتوجهه البناء فى الغالب . إنه يتلاءم مع الحركة الرامية إلى تحسين العلاقات الدولية ، ويعكس المشاعر العامة .

ويبدى بعض السياسيين بعد نظر فى الاعتراف بأن الغرب قد يرتكب خطأً تاريخياً إذا لم يستجب لرسالة موسكو الإيجابية . وإذا لم يتخلص من الآراء الخاطئة عن الاتحاد السوفيتى ومن الأثقال التى خلقها بنفسه .

بيد أن هناك فكرة مختلفة تماما يجرى تطويرها بنشاط فى وسائل الإعلام والمناقشات السياسية فى الغرب . فما تزال تبذل محاولات لتشويه سمعة سياستنا ونوايانا . وكانت هناك تنبؤات متشائمة ومخاوف بخصوص دينامية السياسة الخارجية والداخلية. ويوضح ذلك مرة أخرى، مدى قوة القصور الذاتى للحرب الباردة، ومدى عمق جذور معاداة السوفيت فى دوائر معينة . وإذا ما انتهت الأمور إلى مناقشات مدرسية وإلى تمرين فى الدعاية فمن الممكن للمرء أن يتجاهلها . وفى الحقيقة فستبرهن التجربة تماما أين تكمن الحقيقة . بيد أن المسألة هى أن ذلك

يعطى فرصة لتخويف الناس بفكرة أن تؤدى البيريسترويكا كما يزعمون إلى تنامى القدرة العسكرية والاقتصادية للاتحاد السوفيتى. وبالتالى إلى تزايد «الخطر السوفيتى.» وإذا كان الأمر كذلك ، فيجب النظر إلى العلاقات مع الاتحاد السوفيتى فى إطار الفشل المحتمل للبيريسترويكا ، ويجب أن يكون الهدف العام هو عرقلتها وإحباطها تمشيا مع المبدأ الذى يستخدمه أعداء السوفيت المحمومون : «كلما ساءت الأمور بالنسبة للاتحاد السوفيتى ، كلما كان ذلك أفضل بالنسبة للغرب» .

ولا تحاول الدوائر اليمينية المتطرفة للغاية إخفاء مواقفها المعادية للبيريسترويكا ، لأنها تبرهن على خطأ الرأى القائل بأنه لا يوجد فى الاشتراكية شىء تقدمه « للعالم الحر» . وبالنسبة لهؤلاء الناس ، يعتبر رفض المبدأ الجامد البالى عن « عدم التحرك الاجتماعى » السوفيتى معادلا لكارثة أيديولوجية ، لأنه سيكون عليهم عندئذ أن يراجعوا كلية مبدأ معاداة السوفيت والتوجهات السياسية الناجمة عنه . وسوف تتبدد أسطورة « الخطر السوفيتى » الذى ينشأ كما يزعمون من حقيقة أن الاتحاد السوفيتى ، لعجزه عن التغلب على مصاعبه الداخلية ، يبدأ فى التوسع .

وقد حاولوا حتى تشويه سمعة العلانية وإشاعة الديموقراطية . فمثلا ، يرسلون بأخبار زائفة من الاتحاد السوفيتى ، مستشهدين بالصحافة السوفيتية ، كمصدر رئيسى ولكن سرعان ما يتضح أن لا شىء من هذا القبيل قد نشر فى المطبوعات السوفيتية : وهم بفعلهم هذا يهدفون إلى استفزازنا لتقييد العلانية واحتوائها والتخلى عن إشاعة الديموقراطية ، وليجعلونا نثور على وسائل إعلامنا . وهدفهم هو وقف العمليات الكامنة فى البيريسترويكا والتى لا يمكن تصورها دون العلانية وإشاعة الديموقراطية .

وقد بذلت جهود متزايدة لبذر الشكوك بين مواطنينا حول صواب البيريسترويكا ، ومحاولات لتخويفهم من الصعوبات وإثارة توقعات غير واقعية . وهم يأملون فى أن ينشروا عدم الثقة فى شعبنا نحو القيادة ، وفى إثارة بعض

القادة ضد آخرين ، وتقسيم صفوف الحزب والمجتمع .

ويحاول بعض السياسيين ووسائل الإعلام ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، تصوير البيريسترويكا كحركة من أجل «الانفتاح» مبعثها ضغوط الغرب . وبالطبع ، لا يسع المرء إلا أن يعترف بقدرات مسئولى الدعاية فى الغرب ، الذين نجحوا للغاية فى مباراتهم الكلامية عن الديموقراطية . ولكننا سنقتنع بالطبيعة الديموقراطية للمجتمعات الغربية عندما يبدأ عمالها وموظفوها فى انتخاب أصحاب المصانع ووحدات الإنتاج ورؤساء البنوك الخ . وعندما توجه وسائل الإعلام لديها وابلا من النقد المنتظم ضد الاحتكارات والبنوك ورؤسائها ، وتبدأ فى مناقشة العمليات الحقيقية الكامنة فى بلدان الغرب ، بدلا من أن يقتصر دورها على الانغماس فى مناقشات عديمة الجدوى ولا نهاية لها مع الشخصيات السياسية .

ويقول بعض منتقدى إصلاحاتنا إن وجود ظواهر مؤلمة فى مجرى البيريسترويكا أمر محتوم . وهم يتنبأون بحدوث التضخم ، والبطالة ، وتزايد التمايز الاجتماعى ، أى ، العلل ، التى تزخر بها المجتمعات الغربية ، أو يقولون بأن اللجنة المركزية تجد معارضة قوية بين مسئولى الحزب والحكومة ، أو يقولون بأن جيشنا ضد إعادة البناء ، وإن الـ ك . ج . ب[٢٨] لم يقل كلمته بعد . إنهم على استعداد لادعاء أى شىء للتوصل إلى أهدافهم .

ولكن يجب أن أقول لمعارضينا بعض أشياء تثبط هممهم : إن أعضاء المكتب السياسى واللجنة المركزية متفقون جميعا اليوم فى الرأى أكثر من أى وقت مضى ، وليس هناك ما يجعل هذا الاجماع يهتز . وسواء فى الجيش ، أو فى لجنة أمن الدولة ، أو فى أية إدارة حكومية أخرى ، فإن الحزب يمارس أعلى سلطة ولديه صوت حاسم سياسيا . وقد تعزز الاندفاع نحو البيريسترويكا فقط من موقع الحزب ، فأضاف بعداً جديداً لدوره المعنوى والسياسى فى المجتمع والدولة .

---

(٢٨) ك . ج . ب ـ لجنة أمن الدولة التابعة لحكومة الاتحاد السوفيتى .

ومع ذلك ، فسأقول ، إحقاقا للحق ، إن كفاءة المراقبين الغربيين ترى بشكل صائب الطبيعة الاشتراكية لتحولاتنا ، وأنها تهدف إلى دعم الاشتراكية . ولكن أولئك الذين يحاولون أن يخيفوا الرأى العام فى الغرب من البيريسترويكا إنما يخشون فعلا من نجاحها ، وإن يكن فقط لأن هذا النجاح يحبط فرص استخدام «الخطر السوفيتى» كمصدر للذعر ، وتعتيم الصورة الحقيقية لبلادنا «بصورة العدو» الغريبة والقبيحة ، ويحبط كذلك مواصلة سباق التسلح العديم المعنى تحت شعارات ديماجوجية وتكوين ثروات منه .

وإذا ما تحققت خططنا التنموية بنجاح حقا ، فكيف سيمكنهم خداع الناس بإخبارهم أن الاشتراكية ليست نظاما مفعما بالحيوية وقادرا على أن يعطى لمواطنيه الغذاء والملبس ؟ إن الفكرة القائلة بأن بلادنا «امبراطورية الشر» وبأن ثورة أكتوبر خطأ تاريخى فاضح ، وبأن فترة ما بعد الثورة خط متعرج فى التاريخ ، تتناثر الآن أشلاء . وهذا النوع من البيريسترويكا لا يلائم بالفعل بعض الناس .

وقد كتبت المجلة الألمانية الغربية «شتيرن» ، إنهم يحاولون اليوم بشكل متهور الإفتراء على الاصلاحات الحالية فى الاتحاد السوفيتى وتلطيخ سمعتها . وهم إذ يقولون ذلك فإنهم فى الواقع إنما يدعمون فقط النظام السوفيتى . إن الكرملين يريد شيئا واحداً ــ أن يجعل النظام أكثر كفاءة ، ولكن ، يا إلهى ، إذا ما كانت الحركة ضد الفساد وسوء الإدارة ، وإذا ما كان المزيد من حرية الفكر يدعمان النظام الشيوعى ، فإنه طبقا لهذا المنطق عندئذ ، ستكون الديموقراطية هى الوسط الغذائى الأفضل للماركسية « اللينينية » ! وأود أن أضيف بضع كلمات لهذا الاقتباس البليغ . إذا ما كانت الاشتراكية فى الحقيقة لا تتفق كلية مع الديموقراطية والكفاءة الاقتصادية ، كما يقول معارضوها ، فلن يكون لديهم ما يقلقهم على المستقبل وعلى أرباحهم .

وإذا ما انتقدنا أنفسنا بطريقه لم ينتقدنا بها أحد على الإطلاق ، فى الغرب أو

الشرق أو فى أى مكان آخر ، فذلك يرجع إلى أننا أقوياء ولانخشى على مستقبلنا . وسوف نصمد فى مواجهة هذه الانتقادات ، وسيصمد الحزب والشعب . ولكن عندما تعطى إصلاحاتنا النتائج المتوقعة ، فإن نقاد الاشتراكية عليهم أن يجتازوا كذلك مرحلة «بيريسترويكا» .

لقد وضعناهم فى مأزق ، لأننا نعرف نواقصنا أفضل كثيرا ونكتب ونتحدث عنها بإخلاص وكفاءة أكثر منهم . وهكذا سيكف الناس فى الغرب بالتدريج عن تصديق كل الهراء الذى يقال لهم عن الاتحاد السوفيتى . وكل هذا يجعل من الصعب تطوير الثقة فى سياسة البلدان الغربية .

فى مناقشاتى مع الأمريكيين ومع أناس من بلدان الغرب الأخرى ، كنت أتساءل بشكل قاطع على الدوام إذا ما كانوا يريدون أن يكون لدى الاتحاد السوفيتى الفرصة لتوجيه مزيد من الموارد لتنميته الاقتصادية والاجتماعية عن طريق تخفيضات فى إنفاقه العسكرى . أو هل يريد الغرب ، فى مقابل ذلك ، أن يجهد الاتحاد السوفيتى اقتصاديا بتسريع سباق التسلح لكى يحبط العمل الهائل الذى بدأناه ويجبر القيادة السوفيتية على تخصيص موارد أكثر فأكثر للأغراض غير المنتجة ، للتسلح ؟ وهل تنتهى الفكرة كلها حقا إلى إجبار الاتحاد السوفيتى على التركيز كلية على المشاكل الداخلية ، وبذلك يسمح للغرب بالسيطرة على بقية العالم ؟ .

ولكن هناك جانبا آخر لهذه المسألة . فالذين يأملون فى إجهاد الاتحاد السوفيتى يبدون فى غاية التجاسر بالنسبة لرفاهيتهم الاقتصادية الخاصة . ومهما كانت الولايات المتحدة غنية فبإمكانها أيضا أن تسيء التصرف بإنفاقها ثلث تريليون دولار فى العام على التسلح . إن الزيادة فى الإنفاق على الأسلحة يطلق العنان لزيادات فى عجز الميزانية . والولايات المتحدة اليوم تقترض ثلثى ما تنفقه على التسلح . والدين الاتحادى للولايات المتحدة ، هو فى الحقيقة دين البنتاجون ، ولابد أن تقوم بتسديده أجيال عديدة من الأمريكيين . ولابد من وضع نهاية لهذا الخيط فى مكان

ما . ولكن على أية حال ، إنه أمر يخص الأمريكين وحدهم .

أحيانا يتكون لدىّ انطباع بأن بعض السياسيين الأمريكيين بينما يمتدحون نظامهم الرأسمالى ، وديموقراطيتهم ، فإنهم ليسوا متأكدين رغم ذلك من أيهما ، ويخشون المنافسة مع الاتحاد السوفيتى فى ظروف السلام . ويرغمهم هذا على الإصرار على الاحتفاظ بآلة الحرب ، وتغذية التوترات ، الخ . وأشعر أن بعض المراقبين سيكتبون ، عند قراءة هذه السطور ، أن جورباتشوف ، للأسف ، ليست لديه معرفة طيبة بالديموقراطية الغربية . وأأسفاه ، إننى أعرف شيئا أو شيئين ، ولكن ذلك يكفى بأية حال لكى تكون لدى ثقة قوية فى الديموقراطية الاشتراكية والنزعة الإنسانية الاشتراكية .

وسوف نحل المسائل التى نناقشها بأمانة ، وسنصل إلى الأهداف التى رسمناها . إن نزعة شعبنا يجب أن تؤخذ كذلك فى الاعتبار . فإذا كان قد اشتعل حماسة ، إن جاز التعبير ، وألقى بثقل مشاعره الوطنية فى المعركة ، فإنه عندئذ لن يدخر وسعا فى إنجاز أهدافه ، وسيفعل المعجزات من أجل ذلك . والاتحاد السوفيتى بلد واسع غنى بمعادنه وقواه العاملة الماهرة وموارده العلمية الضخمة وكل العمال تقريبا لديهم تعليم ثانوى كامل . ولهذا لا تتعجلوا بأن تلقوا بنا إلى « كومة نفايات التاريخ » ، وفقط تدفع هذه الفكرة الشعب السوفيتى إلى الابتسام .

فى محادثاتى مع وفد من مجلس النواب الأمريكى فى أبريل الماضى ، قلت إن تنفيذ خططنا للتجديد لا يشكل خطرا ــ سواء سياسيا أو اقتصاديا ، أو أى خطر آخر ــ على الشعب الأمريكى ، أو على أى بلد . وقلت نفس الشىء فى الكرملين فى خطابى إلى المشاركين فى منتدى « من أجل عالم خال من الأسلحة النووية وبقاء البشرية » : نحن نود أن يفهمنا غيرنا ، ونأمل بأن تعترف الأسرة العالمية بأنه هناك من هو بحاجة لأن يكون خاسرا وسيكسب العالم كله من رغبتنا فى جعل بلادنا أفضل .

وهكذا ، فلا الاتحاد السوفيتى ، ولا البيريسترويكا يشكلان أى خطر على أى أحد، إلا أن يكون عملنا مثالا لكل من يجده مقبولا . ونحن نتهم المرة بعد المرة ، بأننا نريد أن نغرس الشيوعية فى جمع أنحاء العالم . ياله من هراء . إن الأمر لم يكن ليهمنا لو صدرت هذه الاتهامات عن أناس لا تساورهم الشكوك كثيرا فيما يكتبون من أجل كسب معاشهم . ولكن نفس الاتهامات يرددها ، حتى يومنا هذا ، وعلنا رجال دولة مسئولون كما يبدو . وقد عجبت كثيرا أن أسمعها بعد عامين من بدء البيريسترويكا من سياسى تعودت احترامه . واستفسرت منه ، لماذا ؟ إننا نعرف مبادئ ترومان ، وأيزنهاور ، وريجان . ولكن أحدا لم يسمع عن أية بيانات من جانبنا عن « غرس » الهيمنة « الشيوعية » . وقد قال لينين إننا نحن الدولة الاشتراكية سنؤثر على التطورات العالمية أساسا من خلال منجزاتنا الاقتصادية .

وسيبين نجاح البيريسترويكا أن الاشتراكية ليست قادرة فحسب على الاضطلاع بالمهمة التاريخية ، مهمة التوصل إلى قمم التقدم العلمى والتكنولوجى ، وإنما فى استطاعتها أيضا أن تتناولها بأقصى قدر من الكفاءة الاجتماعية والمعنوية ، عن طريق أساليب الديموقراطية ، من أجل الشعب وبفضل جهوده ، وذكائه ، ومهاراته ، ومواهبه ، ووعيه وإدراكه لمسئوليته تجاه الشعوب الأخرى .

وسيكشف نجاح البيريسترويكا تماما عن ضيق الأفق الطبق وأنانية القوى التى تحكم الغرب فى هذه الأيام ، القوى التى تتمسك بالنزعة العسكرية وبسباق التسلح ، والتى تبحث عن «أعداء» فى جميع أنحاء العالم .

وسوف يساعد نجاح البيريسترويكا البلدان النامية على أن تجد طرقا للتوصل إلى التحديث الاقتصادى والاجتماعى دون حاجة إلى تقديم تنازلات للاستعمار الجديد أو أن تلقى بنفسها فى مرجل الرأسمالية .

وسيكون نجاح البيريسترويكا آخر حجة فى النزاع التاريخى حول أى نظام هو أكثر اتساقا مع مصالح الشعب . إن التخلص من السمات التى ظهرت فى الظروف

الصعبة ، سيكسب صورة الاتحاد السوفيتى جاذبية جديدة ، وسيكون التجسيد الحى للمزايا الكامنة فى النظام الاشتراكى . وستكسب مثل الاشتراكية العليا قوة دافعة .

لقد تحققت فى أكثر من مناسبة من أن من يتحدثون معى من الغربيين يفهمون ذلك تماما . لقد قال لى سياسى غربى ، ليس شيوعيا بأية حال : «إذا فعلتم ما تعتقدونه ، فسيكون لذلك نتائج خيالية ، نتائج عالمية حقا » .

وربما لا يكون من السهل على قارئ أجنبى أن يدرك كثيرا من صعوباتنا . وهذا أمر طبيعى : فكل شعب وكل بلد له حياته الخاصة ، وقوانينه الخاصة ، وآماله ومفهوماته الخاطئة الخاصة ، ومثله العليا الخاصة . ومثل هذا التنوع رائع . إنه يحتاج إلى تطويره بدلا من كبحه . وأنا من جانبى أشمئز من محاولات بعض السياسيين تعليم الآخرين كيف يعيشون وأية سياسة يتبعون . إنهم ينطلقون من الافتراض المتعجرف بأن الحياة والسياسة فى بلدهم إنما هى مثال ونموذج للحرية ، والديموقراطية ، والنشاط الاقتصادى ، والمستوى الاجتماعى . وأعتقد أنه سيكون من الأكثر ديموقراطية بكثير أن يفترضوا أن البلدان الأخرى يمكنها ألّا توافق على وجهة النظر هذه . فنى عالمنا المعقد والمضطرب من المستحيل أن يقاس كل شىء بمقياس المرء الخاص . إن محاولات فرض الآراء من موقع القوة ، وكذلك محاولات الضغط المعنوى ، والسياسى ، والاقتصادى أصبحت طرازاً باليا . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن هذه المحاولات خطيرة ، فهى تثير الرأى العام ، وبالتالى تعوق التقدم نحو السلام والتعاون .

والفهم الصحيح للبيريسترويكا هو أيضا مفتاح لفهم السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى . والحقيقة المنبثقة من البيريسترويكا تتفق ومصالح السلام العالمى والأمن الدولى . وإننا إذ نطالب الغرب بإخضاع عملنا لدراسة مسئولة وأمينة وغير متحيزة لا ننطلق من مصالحنا الخاصة وحدها . إن العجز عن إدراك جوهر البيريسترويكا

وعدم الرغبة فى ذلك يكونان إما نقطة بداية لمفهومات خاطئة عن نوايانا فى المعترك العالمى ، وإما أنه محاولة أخرى للإبقاء على عدم الثقة وتعميقها فى العلاقات بين البلدان والشعوب .

والصلة العضوية بين كل من السياسة الخارجية والداخلية لكل دولة وثيقة للغاية ، وذات معنى على وجه الخصوص فى اللحظات الحاسمة . وأى تغير فى السياسة الداخلية يقود بالضرورة إلى تغييرات فى الموقف من المسائل الدولية . ولهذا السبب ، يصبح اتساق نشاطنا الآن فى ظروف البيريسترويكا ، فى الداخل وفى المعترك الدولى أكثر وضوحا ، وملموسا بدرجة أكبر من أى وقت مضى . والمفهوم الجديد للسياسة الخارجية السوفيتية ، وخطوطها التوجيهية ونشاطاتها العملية هى جميعا امتداد عاجل لفلسفة وبرنامج وممارسة إعادة البناء .

إن عملية البيريسترويكا فى الاتحاد السوفيتى تتيح فرصا جديدة للتعاون الدولى . ويتنبأ المراقبون غير المتحيزين بنمو نصيب الاتحاد السوفيتى فى الاقتصاد العالمى وزيادة الحيوية فى الصلات الخارجية الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية ، بما فى ذلك الصلات التى يحرص عليها من خلال المنظمات الاقتصادية الدولية .

ونحن نقول للجميع بصراحة ليسمعوا : إننا نحتاج إلى سلم وطيد كى نركز على تنمية مجتمعنا ولكى نضطلع بمهام تحسين حياة الشعب السوفيتى . ورسمنا خططا طويلة المدى وجوهرية . ولهذا السبب ينبغى أن يدرك كل امرئ ، بما فى ذلك شركاؤنا ومنافسونا فى الغرب ، أن سياستنا الدولية لبناء عالم خال من الأسلحة النووية ومن العنف ، والتى تؤكد المعايير الحضارية فى العلاقات بين الدول ، جوهرية وجديرة بالثقة على حد سواء مع المبادئ التى تقوم عليها .

الباب الثانى
التفكير الجديد والعالم

الفصل الثالث

كيف نرى عالم اليوم ؟

أين نقف

لقد بدأنا البيريسترويكا فى وضع يتزايد فيه التوتر الدولى . وكان انفراج السبعينيات قد أوقف فى الواقع . ولم تجد نداءاتنا من أجل السلام أية استجابة فى الدوائر الحاكمة للغرب . وكانت السياسة الخارجية السوفيتية تكبح . وكان سباق التسلح يستعر من جديد . وكان خطر الحرب يتزايد .

وعند التأكيد على كيفية التوصل إلى تحول نحو الأفضل ، كان على المرء أن يسأل الأسئلة التالية . لماذا يحدث ذلك ؟ من أى مفترق يقترب العالم فى تطوره ؟ ولكى نجيب على ذلك كان علينا أن نلقى بنظرة واقعية وحصيفة على صورة العالم على اتساعه ، وأن نتحرر من قوة العادة فى تفكيرنا . وكما نقول فى روسيا ، ننظر إلى الأمور « بنظرة جديدة » .

ماذا يشبه هذا العالم الذى نعيش فيه جميعا ، عالم الأجيال الحالية من البشرية ؟ إنه متنوع ، ومتباين ودينامى ومشرب باتجاهات متعارضة وتناقضات حادة . إنه عالم تحولات اجتماعية جوهرية ، وثورة علمية وتكنولوجية شاملة ، ومشاكل عالمية تتدهور ـ مشاكل تتعلق بالبيئة ، وبالموارد الطبيعية الخ ـ وتغيرات جذرية فى تكنولوجيا المعلومات . إنه عالم توجد فيه إمكانيات لم يسمع من قبل عنها للتطور والتقدم جنبا إلى جنب مع الفقر المدقع ، والتخلف ، ومعالم العصور الوسطى . إنه عالم حافل بـ « مجالات توتر » ضخمة .

كل شىء كان أكثر بساطة بدرجة كبيرة منذ عدة سنوات خلت . فقد كان هناك دول عديدة تحدد مصالحها وتوازنها إذا استطاعت ذلك ، وتلجأ إلى الحرب إذا مافشلت . وبنيت العلاقات الدولية على أساس توازن مصالح هذه الدول

العديدة . هذا مجال لواحدة ، وذاك لأخرى ، وما يزال هناك مجال لثالثة . ولكن لنلق نظرة على ماحدث طوال الأربعين عاما التى تلت الحرب العالمية الثانية حتى وقتنا الحاضر.

تشمل الخريطة السياسية للعالم اليوم المجموعة الضخمة للبلدان الاشتراكية التى قطعت طريقا طويلا فى تطورها التقدمى عبر تاريخ ليس بطويل ، والامتداد الواسع للدول الرأسمالية المتطورة بمصالحها الخاصة ، وبتاريخها الخاص ، ومشاغلها ومشاكلها ، والمحيط المترامى من بلدان العالم الثالث الذى ظهر فى الثلاثين أو الأربعين عاما الماضية عندما حصلت عشرات من بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية على استقلالها .

ويبدو من الواضح أن كل مجموعة من الدول وكل بلد له مصالحه الخاصة . ومن وجهة نظر المنطق الأوّلى ، ينبغى أن تجد كل هذه المصالح انعكاسا معقولا فى السياسة العالمية . بيد أن الأمر ليس كذلك . لقد قلت أكثر من مرة لمن تحدثوا معى من البلدان الرأسمالية : ينبغى أن نرى الوقائع ونأخذها فى اعتبارنا ـ فهناك عالم الرأسمالية وعالم الاشتراكية ، كما أن هناك عالما ضخما للبلدان النامية . والأخير هو موطن لملايين الناس . ولكافة البلدان مشاكلها . ولكن البلدان النامية لديها مشاكل أكثر مائة مرة من الدول الأخرى ، وينبغى أخذ ذلك فى الاعتبار . ولهذه البلدان مصالحها الوطنية الخاصة . لقد كانت مستعمرات لعقود كثيرة ، وكافحت بعناد من أجل تحررها . وبعد أن كسبت استقلالها ، تريد أن تحسن حياة شعوبها ، وتستخدم مواردها كما تريد ، وتبنى اقتصادا وثقافة مستقلين .

فهل هناك أمل فى بناء علاقات دولية طبيعية وعادلة ، تنطلق كلية ، من مصالح الاتحاد السوفيتى ، مثلا ، أو الولايات المتحدة أو بريطانيا أو اليابان ؟ كلا ! إن هناك حاجة إلى توازن المصالح . وفى وقتنا الحاضر لايوجد مثل هذا التوازن . لأن الأغنياء الآن يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً . ومع ذلك ،

فالعمليات التى يمكن أن تهز نظام العلاقات الدولية بأسره تختمر فى العالم الثالث .

ليس بإمكان أحد أن يوقف عالم الاشتراكية أو العالم النامى أو عالم الرأسمالية المتطورة . ولكن هناك رأيا يقول . بأن الاشتراكية حدث عارض فى التاريخ ، وأن الوقت لن يطول قبل أن يلقى بها فى كومة النفايات . عندئذ يمكن ترويض العالم الثالث وتعود كافة الأمور إلى مجراها الطبيعى ، ويكون الرخاء ممكنا من جديد على حساب الآخرين . إن الهروب إلى الماضى ليس إجابة على تحديات المستقبل ، لكونه مجرد مغامرة ترتكز على الخوف وعدم الثقة بالنفس .

ونحن لم نشهد من جديد فقط واقع العالم المتعدد الألوان والمتعدد الأبعاد . ولم نقيّم فقط اختلاف المصالح بين الدول منفردة . لقد رأينا القضية الرئيسية ـ الاتجاه المتعاظم نحو الاعتماد المتبادل بين دول المجتمع العالمى . وهذه هى جدليات التطور اليوم . فالعالم ـ المتناقض ، والمتنوع اجتماعيا وسياسيا ، ولكنه مع ذلك مترابط ومتكامل لدرجة كبيرة ـ يتشكل بصعوبات كبيرة ، كما لو كان يتحسس طريقه من خلال الصراع بين الأضداد .

وهناك حقيقة أخرى فى عصرنا لاتقل وضوحا هى ظهور وتفاقم مايسمى بالقضايا العالمية التى غدت كذلك حيوية بالنسبة لمصائر الحضارة . وأعنى بذلك قضايا المحافظة على الطبيعة ، والوضع الحرج للبيئة ، وتلوث الجو والمحيطات ، وموارد كوكبنا التقليدية ، التى اتضح أنها ليست بلا حدود . وأعنى الأمراض القديمة والجديدة البغيضة ومشاغل البشرية العامة : كيف نضع حداً للمجاعة والفقر فى مناطق واسعة من الأرض ؟ وأعنى العمل الذكى المشترك فى استكشاف الفضاء الخارجى والمحيط العالمى واستخدام المعرفة التى نحصل عليها لصالح البشرية .

ويمكننى أن أقول الكثير عما نقوم به على المستوى القومى فى بلادنا للمساعدة على حل هذه المشاكل . وقد لمستها إلى حد ما عندما ناقشت البيريسترويكا .

وسوف نبذل فى هذا المجال كل مايتعلق بنا .

بيد أنه ليس فى مقدور الاتحاد السوفيتى وحده أن يحل كل هذه القضايا . ونحن لانخجل من تكرار ذلك ، وندعو إلى التعاون الدولى . ونقول بكامل المسئولية ، مستبعدين الاعتبارات الزائفة « للمكانة » ، فكلنا فى عالم اليوم نزداد اعتمادا على بعضنا البعض ونصبح بشكل متزايد ضروريين لبعضنا البعض . ولما كانت هذه الوقائع موجودة فى العالم ، ولما كنا نعرف أننا فى هذا العالم ، بشكل عام ، نرتبط الآن بنفس المصير ، لأننا نعيش على نفس الكوكب ، ونستخدم نفس الموارد ، ونرى أنها ليست بلا حدود ويلزم إنقاذها ، وإن الطبيعة والبيئة تحتاجان إلى الحفاظ عليها ، فإن هذا الواقع يهمنا جميعا . وهكذا تصبح الضرورة ملحة بدرجة أكبر لاتخاذ اجراءات دولية فعالة وعادلة وميكانيزمات يمكن أن تضمن الاستخدام الأرشد لموارد كوكبنا باعتبارها ملكا لكل البشرية .

وفى ذلك نرى الاعتماد المتبادل بيننا ، وتكامل العالم ، والحاجة الملحة لتعبئة جهود البشرية من أجل المحافظة على نفسها ، ومن أجل مصلحتها اليوم ، وغدا وفى كافة الأوقات .

وأخيرا وليس آخرا ، هناك حقيقة أخرى ينبغى أن نعترف بها . فالبشرية بعد أن دخلت العصر النووى حيث تستخدم طاقة الذرة للأغراض العسكرية ، قد فقدت أبديتها . وفى الماضى ، كانت هناك حروب ، وحروب مخيفة قضت على أرواح ملايين وملايين من النفوس البشرية ، وحولت المدن والقرى إلى خرائب ورماد ودمرت بلدانا وثقافات بأكملها ، بيد أن استمرار البشرية لم يتهدد . وعلى النقيض الآن ، إذا ما اندلعت حرب نووية ، فسوف يمحى كل شىء حى من على وجه الأرض .

بل إن ماهو مستحيل منطقيا ، وهو أن البشرية يمكن إفناؤها عده مرات ، قد أصبح الآن ممكنا تقنيا . لقد أصبحت الترسانات النووية القائمة من الضخامة

بحيث يوجد لكل فرد من سكان الأرض شحنة قادرة على حرق منطقة هائلة حتى تحيلها رماداً . واليوم ، باستطاعة مجرد غواصة استراتيجية واحدة أن تحمل طاقة تدميرية تعادل عدة حروب مثل الحرب العالمية الثانية . وثمة عشرات من مثل هذه الغواصات .

إن سباق التسلح ، شأنه شأن الحرب النووية ، لايمكن كسبه . إن مواصلة مثل هذا السباق على الأرض ، ومده إلى الفضاء ، سيعجلان من تراكم الأسلحة النووية وتحديثها ، الأمر الذى يحدث فعلا بمعدل محموم . ويمكن أن يصل الوضع العالمى إلى نقطة لايعود فيها الأمر يعتمد على السياسيين وإنما يصبح أسير الصدفة . وكل منا يواجه الحاجة لأن يتعلم كيف يعيش فى سلام فى هذا العالم ، الحاجة لأن يصوغ طريقة جديدة للتفكير ، لأن الظروف اليوم تختلف تماما عما كانت عليه حتى منذ ثلاثة أو أربعة عقود مضت .

وأصبح الوقت ملائما للتخلى عن تلك الآراء فى السياسة الخارجية التى تتأثر بوجهة النظر الامبريالية . وليس فى استطاعة كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة أن يفرض إرادته على الآخرين . وقد يكون ممكنا اتخاذ اجراءات للقمع ، أو الرشوة ، أو التحطيم ، أو التفجير ، ولكن ذلك لفترة معينة فقط . ومن وجهة نظر السياسة الطويلة الأمد ، سياسة الأوقات الحاسمة ، فلن يكون فى مقدور أحد أن يخضع الآخرين . ولهذا السبب يبقى شىء واحد ، وهو علاقات المساواة ، وينبغى أن يدرك كل منا ذلك . وإلى جانب الحقائق السالفة الذكر للأسلحة النووية ، والبيئة ، والثورة العلمية والتكنولوجية ، وعلم المعلومات ، فإن ذلك يفرض علينا أن نحترم بعضنا بعضا ، بل وكل كائن حى .

هذا هو عالمنا المعقد وإن لم يكن بغير أمل . ونحن نؤمن بالرأى القائل بأنه يمكن حل كل شىء ولكن يجب على كل منا أن يعيد التفكير فى دوره فى هذا العالم ويتصرف على نحو يتسم بالمسئولية .

التفكير السياسي الجديد

خلال العامين والنصف التى انقضت منذ أبريل ١٩٨٥ ، اجتزنا طريقا طويلا فى فهم الوضع العالمى وطرق تغييره إلى الأفضل . وسوف أكتب أيضا عن التحركات العملية التى قمنا بها بهدف تحسين المناخ العالمى جذريا . ولكن لنتناول الآن النقطة الأهم .

بعد أن تبنينا فى المؤتمر السابع والعشرين مفهوم العالم المتناقض ولكنه مترابط ومعتمد على بعضه ، ومتكامل فى جوهره ، بدأنا نبنى سياستنا الخارجية على هذا الأساس . وتأكيدا ، ستبقى الخلافات قائمة مع الآخرين فيما يتعلق بنظامنا الاجتماعى وآرائنا الأيديولوجية ، والدينية ، وطريقة حياتنا . ولكن هل يجب أن نتبارز بسببها ؟ ألن يكون من الأسلم أن نتخطى الأشياء التى تفصل بيننا من أجل المصالح البشرية ، من أجل الحياة على الأرض ؟ لقد حسمنا خيارنا ، مؤكدين نظرة سياسية جديدة سواء عن طريق البيانات الملزمة أو الأعمال والأفعال المعينة .

لقد تعب الناس من التوتر والمواجهة . وهم يفضلون البحث عن عالم أكثر أمنا وضمانا ، عالم يحتفظ فيه كل فرد بآرائه الفلسفية والسياسية والأيديولوجية وبطريقته فى الحياة .

إننا ننظر إلى ما يحدث بعيون مفتوحة . ونرى أن القوالب الجامدة تستمر وأن وجهة النظر القديمة قد ضربت بجذورها عميقا ، لتغذى النزعة العسكرية والطموحات الإمبريالية التى ـ وفق منطقها ـ تعتبر البلدان الأخرى أهدافا لأنشطتها السياسية وغيرها ، وتحرم من حق الخيار المستقل والسياسة الخارجية المستقلة .

ونحن لانقترح تقديم أية أساليب ممعنة فى تطرفها وجذريتها لحل المشاكل الإقليمية المختلفة ، رغم أن مثل هذه الأساليب ضرورية أيضا فى بعض الحالات . ونحن لانريد معالجة الشئون الدولية بطريقة تؤدى إلى تصعيد المواجهة . وفى الوقت الذى لانقر فيه طابع العلاقات الحالية بين الغرب والبلدان النامية ، فإننا لانحث

على تقويضها . ونحن على قناعة بأن هذه العلاقات يجب تحويلها بتخليصها من الاستعمار الجديد ، الذى يختلف عن الاستعمار القديم فقط فى أن دولاب استغلاله أكثر تعقيدا . وهناك حاجة إلى ظروف يمكن فيها للبلدان النامية أن تكون سيدة مواردها الطبيعية والبشرية ، وأن تستخدمها من أجل مصلحتها ، لا من أجل مصلحة الآخرين .

ينبغى أن يستند تطبيع العلاقات الدولية فى المجالات الاقتصادية ، والإعلامية ، والبيئية ، على التدويل الواسع . والغرب يفضل ، بكل الدلائل ، أن يحتفظ بالأمور فى داخل الأسرة ، أى فى إطار «الدول السبع »، أو «الدول الخمس» ، أو ماشابه ذلك . وربما يفسر ذلك محاولات تشويه سمعة الأمم المتحدة . فهم يزعمون مثلا أن الأمم المتحدة تفقد معناها وأنها تتفكك تقريبا . ويقال هذا اليوم ، حيث تحدث تغييرات كثيرة للغاية فى عالم مشبع بمصالح مختلفة لدول عديدة وحيث يعتبر العثور على توازن لهذه المصالح مسألة لها الأولوية . وفى هذه الظروف ، يكون دور الأمم المتحدة بخبرتها فى تنظيم التعاون الدولى أكثر أهمية من أى وقت مضى .

صحيح أن جهود الأمم المتحدة لم تكن ناجحة على الدوام . بيد أن هذه المنظمة ، فى رأيى ، هى المحفل الأكثر مناسبة للبحث عن توازن المصالح بين الدول ، وهو الأمر الجوهرى لاستقرار العالم .

وأنا أدرك أن كل شىء لايمكن أن يتغير بين عشية وضحاها . وأدرك كذلك أننا والغرب سيكون لنا على الدوام نظرات مختلفة للأوضاع المختلفة . وكما سبق أن قلت بالفعل ، فإن بلدان العالم اليوم تشبه مجموعة من متسلقى الجبال يربطها معا حبل لتسلق هذه الجبال . وليس أمامهم سوى أن يتسلقوا معا نحو قمة الجبل أو يسقطوا معا فى الهاوية ، ولكى نحول دون الكارثة فعلى الزعماء السياسيين أن يرتفعوا فوق مصالحهم الضيقة ويدركوا مأساوية الوضع الحاضر . ولهذا السبب فهناك حاجة

ملحة للغاية لفهم جديد للوضع وعناصره المتداخلة .

لم يعد بالإمكان رسم سياسة على أساس مفترضات عام ١٩٤٧ ، ومبدأ ترومان وخطاب تشرشل فى فولتون . فمن الضرورى أن نفكر ونتصرف بطريقة جديدة . والأكثر من ذلك أن التاريخ لايمكن أن ينتظر ، والناس لايمكنهم أن يتحملوا إضاعة الوقت . وقد يكون الوقت متأخرا للغاية غدا ، وقد لايأتى مابعد الغد .

والمبدأ الأساسى للنظرة السياسية الجديدة بسيط للغاية : إن الحرب النووية لايمكن أن تكون وسيلة للتوصل إلى أهداف سياسية ، أو اقتصادية ، أو أيديولوجية ، أو أية أهداف أخرى . وهذا الاستنتاج ثورى حقا ، لأنه يعنى استبعاد الأفكار التقليدية للحرب والسلام . إن الوظيفة السياسية للحرب كانت على الدوام تبريرا للحرب ، تفسيرا « عقليا » لها . ولكن الحرب النووية عديمة المعنى ، إنها غير عقلانية. فلن يكون هناك منتصرون أو منهزمون فى نزاع نووى عالمى: فالحضارة العالمية سوف تفنى بشكل محتوم . إنها انتحار ، وليست حربا بالمعنى التقليدى للكلمة .

ولكن التكنولوجيا العسكرية قد تطورت لدرجة أنه حتى الحرب غير النووية يمكن مقارنتها الآن بالحرب النووية من حيث أثرها التدميرى . ولهذا السبب فإنه من المنطقى أن ندخل فى مقولتنا عن الحروب النووية هذا « الشكل الآخر » من الصدام المسلح بين القوتين العظميين أيضا .

وبذلك ، فقد ظهر وضع مختلف تماما . لقد تشكلت خلال القرون ، بل خلال آلاف السنين طريقة للتفكير وطريقة للسلوك ، تستندان إلى استخدام القوة فى السياسة العالمية . ويبدو أنهما قد ضربتا بجذورهما كأنهما شىء لا يتزعزع . واليوم فقدنا كل الأسس المعقولة . إن القول المأثور لكلاوزوفيتز بأن الحرب استمرار للسياسة ولكن بوسائل أخرى ، والذى كان قولا كلاسيكيا فى زمانه ، قد انقضى زمانه بالتأكيد . وأصبح الآن محفوظا فى المكتبات . ولأول مرة فى التاريخ غدا احتياجا

حيويا وضع السياسة الدولية على أساس معايير معنوية وأخلاقية مشتركة لكل البشرية ، وكذا إضفاء الطابع الإنسانى على العلاقات الدولية .

وتنبع من استحالة الحل العسكرى ـ أى النووى ـ للخلافات الدولية جدلية جديدة للقوة والأمن . فلم يعد من الممكن ضمان الأمن بالوسائل العسكرية ـ سواء باستخدام الأسلحة أو الردع ، أو بمواصلة اتقان « السيف » و « الدرع » . ومحاولات التوصل إلى تفوق عسكرى منافية للعقل . والآن تبذل مثل هذه المحاولات فى الفضاء. وإنها لمفارقة عجيبة تسبب فى استمرارها الدور المتضخم الذى يلعبه العسكريون فى السياسة . وقد أصبح سباق التسلح من وجهة نظر الأمن أمرا سخيفا لأن منطقه نفسه يؤدى إلى إشاعة الاضطراب فى العلاقات الدولية وإلى نزاع نووى فى النهاية . إن سباق التسلح إذ يحوّل موارد ضخمة بعيدا عن أولويات أخرى ، فإنه يخفض من مستوى الأمن ، ويضعفه . إنه فى حد ذاته عدو للسلام . والطريق الوحيد إلى الأمن هو من خلال القرارات السياسية ونزع السلاح . وفى عصرنا يمكن ضمان الأمن الحقيقى والمتكافئ عن طريق الخفض الدائم لمستوى التوازن الاستراتيجى الذى يجب أن تزال منه تماما الأسلحة النووية ، وغيرها من أسلحة الدمار الشامل .

وربما يخيف ذلك بعض الناس . ويتساءلون ، « ما الذى سيتم مع التجمع العسكرى الصناعى عندئذ ؟ وهو الذى ترتبط به وظائف وأجور عدد كبير من الناس . وقد جرى تحليل هذه المسألة بشكل خاص فى واحد من أحدث مؤلفات ف . ليونتيف ، الحائز على جائزة نوبل . وقد برهن على أن حجج العسكريين خاوية من وجهة نظر اقتصادية . وإليكم ما اعتقده : وأقول بداية بأن كل وظيفة فى التجمع العسكرى الصناعى تكلف مثلين أو ثلاثة أمثال مثيلتها فى الصناعة المدنية . ولذا يمكن إقامة ثلاث وظائف بدلا منها . وثانيا ، فإلى اليوم نجد أن قطاعات الاقتصاد العسكرى ترتبط بالاقتصاد المدنى ، وتعمل الكثير له . وهكذا ، فلتكن هذه نقطة بداية للاستفادة من إمكانياته للأغراض السلمية . وثالثا ، يمكن للاتحاد

السوفيتى والولايات المتحدة أن يتفقا على برنامج ضخم مشترك ، يعبئ مواردنا وقدراتنا العلمية والفكرية من أجل حل أكثر المشاكل تباينا من أجل مصلحة البشرية .

وتدعو النظرة السياسية الجديدة إلى الاعتراف ببديهية بسيطة أخرى : إن الأمن لايتجزأ . فإما أن يكون أمنا متكافئا للجميع أو لايكون على الإطلاق . والأساس الصلب الوحيد للأمن هو الاعتراف بمصالح كافة الشعوب والبلدان ، وبالمساواة بينها فى الشئون الدولية ، وأمن كل بلد يجب أن يرتبط بأمن كل أعضاء المجتمع الدولى . فهل يكون من مصلحة الولايات المتحدة ، مثلا ، أن يجد الاتحاد السوفيتى نفسه فى وضع يعتبر بموجبه أنه أقل أمنا من الولايات المتحدة ؟ أو هل يمكن أن نستفيد من وضع معاكس ؟ يمكننى أن أقول بحزم إننا لانفضل ذلك . وهكذا يجب أن يصبح الخصوم شركاء وأن يبدأوا فى البحث معا عن طريق للتوصل إلى الأمن العالمى .

ونستطيع أن نرى العلامات الأولى للتفكير الجديد فى العديد من البلدان ، وفى مختلف فئات المجتمع . وهذا أمر طبيعى تماما ، لأنه الطريق إلى الاتفاقات ذات المنفعة المتبادلة والحلول الوسط المتبادلة على أساس المصلحة المشتركة العليا ـ تجنب الكارثة النووية ـ وبالتالى ، لاينبغى أن يكون هناك أى سعى لأمن طرف على حساب الآخرين .

والنظرة الجديدة تؤثر بقوة مماثلة على طابع المبادئ العسكرية .. إنها يجب أن تكون بحزم مبادئ للدفاع . ويرتبط ذلك بالأفكار الجديدة أو الجديدة نسبيا مثل الكفاية المعقولة للتسلح ، والدفاع غير العدوانى ، وإزالة عدم التوازن ، وعدم التماثل فى مختلف أنواع القوات المسلحة ، وفصل القوات الهجومية للحلفين ، وهكذا وما إلى ذلك[1] .

---

(١) لقدبدأت بلدان أوروبا الاشتراكية تسير بحزم فى هذا الطريق فى ٢٩ مايو ١٩٨٧ ، فى برلين تبنى =

ويرتكز الأمن العالمى فى عصرنا على الاعتراف بحق كل شعب فى اختيار طريقه الخاص للتطور الاجتماعى ، وعلى التخلى عن التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأخرى ، وعلى احترام الآخرين احتراما مقترنا بنظرة انتقادية ذاتية موضوعية لمجتمع كل منهم . وقد يختار الشعب الرأسمالية أو الاشتراكية . وهذا حقه السيادى ، ولايمكن للشعوب ولاينبغى لها أن تشكل حياتها وفقا لنموذج الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى . ومن ثم ، ينبغى أن تكون المواقف السياسية خالية من التعصب الأيديولوجى .

ولاينبغى أن تنقل الخلافات الأيديولوجية إلى مجال العلاقات بين الدول ، كما لا يجب أن تخضع السياسة الخارجية لها ، لأن الأيديولوجيات يمكن أن تتباعد ، بينما تبقى المصلحة فى البقاء وفى تجنب الحرب مصلحة عالمية وسامية .

وعلى قدم المساواة مع الخطر النووى ، تبحث طريقة التفكير الجديد حل مشاكل عالمية أخرى ، بما فيها مشاكل التنمية الاقتصادية والبيئة ، كشرط لاغنى عنه لضمان سلم عادل ووطيد . والتفكير بطريقة جديدة يعنى كذلك رؤية الصلة المباشرة بين نزع السلاح والتنمية .

ونحن نؤيد تدويل الجهود من أجل تحويل نزع السلاح إلى عامل للتنمية . وفى

= اجتماع اللجنة الاستشارية السياسية وثيقة ذات أهمية مبدئية : « حول المبدأ العسكرى للبلدان الأعضاء فى معاهدة وارسو » . وتطرح الوثيقة جوهر الطابع الدفاعى البحت لهذا المبدأ ، وتقول : « لن نبدأ على الإطلاق ، وفى أى ظروف ، حربا ضد أية دولة أو أى تحالف من الدول مالم نتعرض أنفسنا لهجوم مسلح . ولن نكون على الإطلاق البادئين باستخدام الأسلحة النووية . وليست لنا أية مطالب إقليمية حيال أى دولة سواء فى أوروبا أو خارجها . ولاتنظر البلدان الأعضاء فى معاهدة وارسو إلى أية دولة أو شعب كعدو : وهى على استعداد لبناء العلاقات مع البلدان دون استثناء على أساس المراعاة المتبادلة لصالح الأمن والتعايش السلمى » . ولاتسعى بلدان معاهدة وارسو إلى أن يكون لديها من القوات المسلحة والأسلحة أكثر مما هو ضرورى لأغراض الدفاع . وسوف تتمسك بحزم بمبدأ الكفاية فى حماية أمنها . وقد اقترحت على بلدان حلف الأطلنطى بأن يجلسوا جميعا معا ويقارنوا المبادئ العسكرية للمتحالفين لكى يفهموا بصورة أفضل نوايا بعضهم البعض . وكان الرد على هذا الاقتراح بالصمت .

رسالة إلى الاجتماع الدولى الموسع حول هذا الموضوع فى نيويورك فى أواخر أغسطس ١٩٨٧ كتبت : « إن تنفيذ المبدأ الأساسى « نزع السلاح من أجل التنمية » يمكن بل يجب أن يحشد البشرية ، وييسر تكوين وعى عالمى » .

إن بيان دلهى حول مبادئ عالم خال من الأسلحة النووية ومن العنف ، الذى وقعه راجيف غاندى ، رئيس جمهورية الهند، ووقعته معه فى نوفمبر١٩٨٦ ، يحوى كلمات أود أن أنوه بها هنا أيضا : « فى العصر النووى ، ينبغى على البشرية أن تطور طريقة جديدة للتفكير السياسى ، مفهوما جديدا للعالم يوفر ضمانات يعول عليها لبقاء البشرية . إن الناس يريدون أن يعيشوا فى عالم أكثر أمنا وعدلا . والبشرية تستحق مصيرا أفضل من بقائها رهينة للرعب النووى واليأس . ولابد من تغيير الوضع العالمى القائم وبناء عالم خال من الأسلحة النووية ، وخال من العنف ، والكراهية والخوف والشك » .

وهناك دلائل جادة على أن طريقة التفكير الجديد أخذت تتشكل ، وأن الناس بدأوا يدركون أية حافة يقترب منها العالم . بيد أن هذه العملية صعبة للغاية ، والشىء الأكثر صعوبة هو أن نضمن انعكاس هذا الفهم فى أعمال صانعى السياسة ، وفى عقولهم . ولكننى أعتقد بأن العقلية السياسية الجديدة ستشق طريقها ، لأنها قد ولدت من وقائع عصرنا .

طريقنا إلى نظرة جديدة

نحن لا ندعى بأننا قادرون على تعليم الآخرين . وبعد أن سمعنا تعليمات لاحصر لها من غيرنا ، خلصنا إلى نتيجة مفادها أن هذه تسلية عديمة الجدوى . فالحياة نفسها تعلم الناس أولا أن يفكروا بطريقة جديدة . وقد توصلنا بأنفسنا وبالتدريج إلى ذلك ، واستوعبناه خطوة خطوة ، وأعدنا النظر فى آرائنا المعتادة حول مشاكل الحرب والسلام ، وحول العلاقات بين النظامين ، وفكرنا فى مشاكل العالم .

كان طريقا طويلا . فمنذ مايزيد على ثلاثين عاما مضت ، توصل المؤتمر العشرين إلى استنتاج هام ، إلى نتيجة أن حربا عالمية جديدة ليست أمرا محتوما وأن من الممكن تجنبها . وكان ذلك يتضمن أنه ليس من المستطاع فقط تأجيل النزاع المقبل وإطالة أمد الفترة السلمية ، بل إن أى أزمة دولية يمكن تسويتها بوسائل سلمية . وأعلن حزبنا قناعته بإمكانية وضرورة إزالة خطر الحرب فى حد ذاته ، وإلغاء الحرب من تاريخ البشرية . كما أعلن عندئذ أن الحرب ليست بأية حال شرطا لاغنى عنه للثورات الاجتماعية . ونقح مبدأ التعايش السلمى ، واضعين فى الاعتبار التغيرات التى جاءت بها الحرب العالمية الثانية .

وفى سنوات الانفراج حاولنا ملء هذا المبدأ بمحتوى محدد على أساس الحوار والتعاون الدولى المتكافئ . وشهدت تلك السنوات توقيع عدد من المعاهدات الهامة التى أكملت فترة « مابعد الحرب » فى أوربا ، وتحسنا فى العلاقات السوفيتية الأمريكية أثر على الوضع العالمى بأكمله .

إن منطق الانفراج ذاته قد دفع إليه الإدراك المتزايد بأن الحرب النووية لايمكن كسبها ، وانطلاقا من هذه الحقيقة ، أعلنا منذ خمس سنين مضت للعالم أجمع أننا لن نكون البادئين باستخدام الأسلحة النووية .

وتم التوصل إلى نقطة تحول بعيدة المدى فى المفهومات فى اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، والمؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السيوفيتى . وكان ذلك ، على وجه التحديد ، تحولا نحو طريقة جديدة للتفكير السياسى ، إلى أفكار جديدة عن العلاقة بين المبادئ الطبقية والمبادئ المشتركة للبشرية فى العالم الحديث .

والطريقة الجديدة فى التفكير ليست ارتجالا ، ولاتدريبا عقليا ، إنها نتيجة تفكير جاد فى وقائع عالم اليوم ، .وإدراكاً ، بأن الموقف المسئول بالنسبة للسياسة يتطلب إقامة الدليل العلمى عليه ،وأن بعض الفرضيات التى بدت راسخة قبل ذلك

ينبغى التخلى عنها . هذا وتكلفنا غاليا النظرة المتحيزة ، والقرارات المتعلقة بها من أجل أهداف عابرة ، والابتعاد عن التحليل العلمى الدقيق للوضع .

ويمكن القول بأننا أدركنا العقلية الجديدة من خلال المعاناة ، واستمددنا الإلهام من لينين ، وعند التوجه إليه ، « وقراءة » مؤلفاته فى كل مرة بطريقة جديدة ، يدهش المرء لقدرته على النفاذ إلى جذور الأشياء ، وعلى رؤية أكثر جدليات العمليات العالمية تعقيدا . إن لينين باعتباره زعيم حزب البروليتاريا ، وقد أقام الدليل نظريا وسياسيا على المهام الثورية للأخيرة ، أمكنه أن يرى أبعد ، أمكنه أن يتخطى الحدود التى فرضتها مصالحها الطبقية . وقد تحدث أكثر من مرة عن أولوية المصالح المشتركة لكل البشرية على المصالح الطبقية . والآن فقط بدأنا نفهم كل عمق ومغزى هذه الأفكار . إنها هى التى تغذى فلسفتنا عن العلاقات الدولية ، وطريقة التفكير الجديدة .

وقد يقول قائل بأن الفلاسفة ورجال الدين عبر التاريخ قد تناولوا أفكار القيم الإنسانية « الخالدة » . حقا ، لقد كان الأمر كذلك ، ولكنها كانت عندئذ « تأملات مدرسية » انتهت لأن تكون حلما طوباويا . وفى الثمانينيات ، ونحن نقترب من نهاية هذا القرن المثير ، ينبغى أن تعترف البشرية بالضرورة الحيوية للقيم البشرية ، وأولويتها .

ومنذ أمد بعيد ، كانت المصالح الطبقية حجر الزاوية فى كل من السياسة الخارجية والداخلية . وغنى عن القول ، إنها كقاعدة ، كانت تقدم رسميا على أنها مصالح البلاد أو الدولة أو التحالف ، وكانت تغلف بإشارات إلى « الرفاهية العامة » أو الدوافع الدينية . ولكن الماركسيين وعددا كبيرا غيرهم من الناس المتزنين على قناعة بأن سياسة أى دولة أو تحالف من الدول إنما تحددها ، فى التحليل النهائى ، مصالح القوى الاجتماعية السياسية السائدة . وقد أدت الصدامات الحادة بين هذه المصالح فى المجال الدولى إلى نزاعات مسلحة وحروب طوال التاريخ . ولهذا السبب

فإن السجل السياسى للبشرية هو لدرجة كبيرة سجل الحروب . واليوم يقودنا هذا المنوال مباشرة إلى الهاوية النووية إننا ـ كل البشرية ـ فى قارب واحد ، وليس بإمكاننا إلا أن نغرق أو ننجو معا ، ولهذا السبب فإن محادثات نزع السلاح ليست مباراة يمكن أن يكسبها جانب واحد . يجب أن يكسب الجميع ، أو يواجه الجميع الخسارة .

إن عصب طريقة التفكير الجديدة يتمثل فى الاعتراف بأولوية القيم البشرية ، أو لكى نكون أكثر دقة ، ببقاء البشرية .

وقد يبدو غريبا لبعض الناس أن يضع الشيوعيون تأكيدا قويا على المصالح والقيم البشرية . حقا إن النظرة ذات الدافع الطبقى إلى كافة ظواهر الحياة الاجتماعية هى من أبجديات الماركسية . واليوم تتقابل مثل هذه النظرة بشكل كامل مع وقائع المجتمع القائم على الطبقات ، المجتمع ذى المصالح الطبقية المتعارضة ، وكذلك مع وقائع الحياة الدولية الزاخرة كذلك بالنزاعات . وحتى وقت قريب جدا كان الصراع الطبقى ومازال هو محور التطور الاجتماعى ، وهو مايزال كذلك فى البلدان المنقسمة إلى طبقات . ونتيجة لذلك ، فقد سادت الفلسفة الماركسية ـ فيما يتعلق بالمسائل الأساسية للحياة الاجتماعية ـ مدخل ذو طابع طبقى . وكان ينظر إلى الأفكار الإنسانية على أنها الوظيفة والنتيجة لنضال الطبقة العاملة ـ الطبقة الأخيرة ، التى إذ تحرر نفسها ، تحرر المجتمع بكامله من العداوات الطبقية .

واليوم ، مع ظهور أسلحة الدمار بالجملة ، أى الدمار الشامل ، ظهر حد موضوعى للمواجهة الطبقية فى المعترك الدولى : خطر الدمار الشامل . ولأول مرة على الإطلاق .ظهرت مصلحة بشرية مشتركة ، حقيقية وليست تأملية وبعيدة ـ لإنقاذ البشرية من الكارثة .

وأدخلت تغييرات بروح النظرة الجديدة فى الصياغة الجديدة لبرنامج الحزب الشيوعى السوفيتى التى أقرها المؤتمر السابع والعشرون للحزب . ورأينا ، على وجه

الخصوص ، أنه لم يعد بالإمكان الاحتفاظ فيها بتعريف التعايش السلمى بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة «كشكل خاص للصراع الطبقى» .

وكان ثمة اعتقاد سائد بأن مصدر الحروب العالمية يكمن فى التناقضات بين النظامين الاجتماعيين . وقبل ١٩١٧ كان هناك نظام واحد فقط فى العالم ـ الرأسمالية ـ ولكن هذا النظام لم يحل دون الحرب العالمية بين الدول التى تنتمى إليه . وكانت هناك حروب أخرى كذلك . والعكس بالعكس ، فخلال الحرب العالمية الثانية ، حاربت البلدان التى تمثل أنظمة مختلفة فى ائتلاف واحد ضد الفاشية وسحقتها فى نهاية الأمر . لقد تغلبت المصلحة المشتركة لكافة الشعوب والدول أمام الخطر الفاشى على الخلافات الاجتماعية السياسية بينها ووفرت أساسا لائتلاف « فوق الأنظمة » معاد للفاشية . ومعنى ذلك اليوم أيضا ، أنه فى مواجهة خطر أكثر سوءا تستطيع الدول المنتمية إلى أنظمة اجتماعية مختلفة ، بل يجب عليها أن تتعاون مع بعضها البعض باسم السلام .

وعندما طورنا فلسفتنا للسلام ، تبنينا نظرة جديدة تقوم على الترابط بين الحرب والثورة ، ففى الماضى ، غالبا ماكانت الحرب تعمل على تفجير الثورة . وقد يتذكر المرء كوميون باريس الذى جاء كصدى للحرب الفرنسية البروسية ، أو ثورة ١٩٠٥ الروسية التى فجرتها الحرب الروسية اليابانية . وقد أثارت الحرب العالمية الأولى عاصفة ثورية حقة بلغت أوجها فى ثورة أكتوبر فى بلادنا . وأثارت الحرب العالمية الثانية موجة جديدة من الثورات فى شرق أوربا وآسيا ، وكذلك ثورات عارمة معادية للاستعمار .

وساعد كل هذا على تعزيز المنطق الماركسى اللينينى القائل بأن الأمبريالية تولد بشكل محتوم مواجهات مسلحة هامة ، فى الوقت الذى تخلق فيه هذه المواجهات بالطبع «كتلة حرجة» من السخط الاجتماعى ووضعا ثوريا فى عدد من البلدان . ومن ثم كان التنبؤ الذى تمسكنا به طويلا فى بلادنا : إن الحرب العالمية الثالثة ، إذا

ما أشعلتها الامبريالية ، ستؤدى إلى اضطرابات اجتماعية جديدة ، ستقضى على النظام الرأسمالى تماما ، وهذا سيؤدى إلى سلام عالمى .

وعندما تغيرت الظروف جذريا بحيث أصبحت النتيجة الوحيدة للحرب النووية يمكن أن تكون الدمار الشامل ، خلصنا إلى استنتاج بخصوص انتفاء العلاقة السببية بين الحرب والثورة . « وتطابقت » آفاق التقدم الاجتماعى مع آفاق تجنب الحرب النووية . وفى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى « فصلنا » بوضوح فكرتى الحرب والثورة ، مستبعدين من الصياغة الجديدة لبرنامج الحزب العبارتين التاليتين : « فإذا ماغامر المعتدون الإمبرياليون رغم ذلك ببدء حرب عالمية جديدة ، فلن تحتمل الشعوب أكثر من ذلك نظاما يجرهم إلى حروب مدمرة . وسيكتسحون الإمبريالية ويدفنونها » . وقد استبعد هذا النص الذى يعترف نظريا بإمكانية حرب عالمية جديدة باعتباره لايتفق مع وقائع العصر النووى .

إن المنافسة الاقتصادية ، والسياسية ، والأيديولوجية بين البلدان الرأسمالية والاشتراكية أمر محتوم . ومع ذلك ، يمكن ويجب الإبقاء عليها فى إطار المنافسة السلمية التى تقتضى التعاون بالضرورة . وعلى التاريخ أن يصدر حكمه حول مزايا كل نظام بعينه . وسوف يصنف كل شيء. فليقرر كل بلد أى نظام وأية أيديولوجية أفضل . فليتقرر ذلك عن طريق المنافسة السلمية ، وليبرهن كل نظام على قدرته على تلبية حاجات ومصالح الإنسان . إن دول وشعوب الأرض مختلفون للغاية ، وإنه لأمر طيب بالفعل أنهم كذلك . وهذا حافز على المنافسة . وهذا المفهوم للوحدة الجدلية بين الأضداد يتفق مع مفهوم التعايش السلمى .

هذه هى، بشكل عام ، المراحل الرئيسية لانتقالنا إلى فلسفة جديدة للسلام ولفهم الجدليات الجديدة للمصالح والمبادئ الطبقية والإنسانية المشتركة فى حقبتنا الحديثة .

فهل يعنى ذلك أننا قد تخلينا عن التحليل الطبقى لأسباب الخطر النووى وغيره

من المشاكل العالمية ؟ كلا . وسيكون من الخطأ تجاهل عدم التجانس الطبق بين القوى التى تعمل فى المعترك الدولى وعلى مشارف تحقيق كافة المهام الأخرى للبشرية .

ونحن ندرك مدى قوة مواقع الجانب العدوانى والعسكرى من الطبقة الحاكمة فى البلدان الرأسمالية الكبرى . إنهم يستمدون دعمهم الرئيسى من التجمع العسكرى الصناعى القوى الذى تكمن مصالحه فى طبيعة النظام الرأسمالى نفسه والذى يعتصر أرباحا ضخمة من إنتاج الأسلحة على حساب دافع الضرائب. ولكى يجعل الشعب يصدق بأن كل هذه الأموال لاتنفق عبثا ، ينبغى إقناعهم بوجود « عدو خارجى » يرغب فى أن يعتدى على رفاهيتهم و « مصالحهم الوطنية » بشكل عام . ومن ثم كانت سياسة القوة المتهورة وغير المسئولة . فكيف يمكن أن يكون هذا الاعتماد الكامل على القوة ممكنا فى عصرنا النووى حيث التكديس القائم للأسلحة أصبح ضخما لدرجة أن جزءا صغيرا من هذه الأسلحة يمكن أن يفنى البشرية بسهولة ؟.

وهذا هو على وجه التحديد مانسميه بعقلية « الحرب الباردة » المشئومة . غير أن هذه العقلية ، مع ذلك ، لاتزال راسخة الجذور فى المصالح الاقتصادية الملموسة لاحتكارات السلاح وفى التأثير الذى يمارسه الجيش على السياسة والذى يرفض أن يتخلى عن موقفه المتميز ، ويمارسه أيضا الجهاز البيروقراطى الذى يخدم النزعة العسكرية .

وقد يتساءل المرء لماذا نحتفظ بأسلحتنا وقواتنا المسلحة ونعمل على تحديثها . بإمكانى أن أقدم إجابة دقيقة على ذلك باعتبارى رئيسا لمجلس الدفاع للاتحاد السوفيتى . فمنذ ثورة أكتوبر ونحن تحت تهديد دائم باحتمال العدوان . وحاولوا أن تضعوا أنفسكم فى مكاننا ، واحكموا بأنفسكم . ولنستعرض الأحداث معا : حرب أهلية شاركت فيها قوات أجنبية ، تدخل من جانب أربع عشرة دولة ، حصار اقتصادى ، وحجر صحى ، عدم اعتراف دبلوماسى (من قبل الولايات المتحدة

حتى ١٩٣٣) استفزازات عسكرية فى الشرق ، وأخيرا ، حرب دموية مدمرة ضد الفاشية جاءت من الغرب . وهل باستطاعتنا أن ننسى المخططات لهجوم ذرى على الاتحاد السوفيتى من جانب العسكريين الأمريكيين ومجلس الأمن القومى بالولايات المتحدة . ونحن نسأل أيضا عن السبب فى أن الغرب كان أول من أقام تحالفا عسكريا ، حلف شمال الأطلنطى ، وكان على الدوام أول من طور أنظمة أسلحة جديدة . أو لماذا لاترغب الإدارة الأمريكية القائمة فى وقف تجارب الأسلحة النووية ، وماهو السبب فى أنها تدفع الأمريكيين لتبديد مبالغ هائلة على برنامج حرب النجوم ؟ هذه ليست أسئلة عديمة الجدوى . فهل يمكن تصنيف كل هذه الحقائق على أنها طموحات سلمية ؟ ومرة أخرى أكرر : حاولوا أن تضعوا أنفسكم فى مكاننا لتروا كيف يكون رد فعلكم ..

من أجل كل ذلك ، نحن مستعدون بإخلاص لنزع السلاح ، ولكن فقط على أساس عادل من الأمن المتكافئ ، ومن أجل التعاون على جبهة عريضة للغاية . ومع ذلك ، فإننا إذ نأخذ فى الاعتبار دروس الماضى المريرة ، لايمكننا أن نتخذ خطوات هامة من جانب واحد خوفا من أن يكون فى ذلك إغراء للمدافعين عن « المصالح الوطنية العالمية » . وكما نرى ، فإن أهم شىء نفعله الآن هو أن ندفع بدولاب المحافظة على ذات البشرية إلى الحركة ، وندعم إمكانية السلام ، والعقل والنوايا الطيبة .

« يد موسكو »

ربما كانت أكثر عبارة تكررت بشكل مبتذل قالها زعيم سوفيتى فى الغرب هى الصيحة التى أطلقها نيكيتا خروتشوف : « سوف ندفنكم ! » وهى صيحة لابد من تفسيرها للقراء الأجانب بأنه جرت لدينا فى أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات مناقشات حادة بين خبراء الزراعة والعلماء وصفت بتهكم مرير بأنها مناقشة « عمن سيدفن الآخر » . إن صيحة خروتشوف ، المستعارة من هذه المناقشات ، كانت غير

مناسبة من كافة الوجوه ، ولكن يجب النظر إليها فى إطار كل خطابه . ولاينبغى أن تؤخذ حرفيا . لقد كان يصف المنافسة بين النظامين ، وأراد أن يبين أن الاشتراكية لاتخشى أن تقارن بالرأسمالية ، وأن المستقبل ملك للاشتراكية . لقد كان خروتشوف رجلا عاطفيا ، وأضعف من حماسه كثيرا أن جهوده المخلصة ومقترحاته الخاصة بتحسين الوضع الدولى اصطدمت بجدار سميك من عدم الفهم والعناد .

واسمحوا لى أن أقول لكم ، هذه المرة من تجربتى الخاصة ، بأنه لكى تتفاوض مع الغرب حول مشاكل نزع السلاح ، يجب أن يتحلى المرء بصبر لايصدق ، لأن المصالح الاقتصادية تتدخل على الدوام . وربما يجب أن نضيف أيضا أننا إذا ماحكمنا فى الاتحاد السوفيتى على سياسة دولة أخرى بتصريحات مفردة لزعمائها ، لكان قد حان الوقت منذ أمد بعيد لبدء القتال . بيد أن ذلك لايحدث . ولذلك يجب أن يكف الناس فى الغرب عن استغلال بضع كلمات قالها شخص لم يعد بين الأحياء ، وعليهم ألا يسوقوها باعتبارها وجهة نظر .

أما فيما يتعلق بكتاب البيت الأبيض عن الاقتباسات الغامضة التى يشير إليها الغرب ، والتى تتناول « مبدأ » لينين لفرض الشيوعية فى جميع أنحاء العالم وخطط إخضاع كل أوربا ، فيجب أن أقول إن مثل هذا المبدأ لم يفكر فيه إطلاقا ماركس أو لينين أو أى من الزعماء السوفيت . ومايسمى بـ « الاقتباسات » التى يستخدمها كبار المتحدثين هى ثمرة تزييف فج أو هى جهل فى أفضل الأحوال .

وهذا ما أريد أن أقوله عن « يد موسكو » المشئومة . ووفقا للنظرية الماركسية ، فإن المستقبل هو ملك لمجتمع لايوجد به استغلال الإنسان للإنسان ولا يوجد به قهر قومى أو عرقى . ولكن لكل أمة الحق فى أن تقرر ما إذا كانت هذه المبادئ مناسبة لها وما إذا كانت تريد تبنيها فى إعادة بناء حياتها . وإذا ما أرادت ، فإنها هى التى ستقرر السرعة والشكل اللذين ستؤدى بهما ذلك .

« إن البروليتاريا الظافرة لايمكنها أن تفرض على أية أمة أخرى مثلها الأعلى عن

الحياة السعيدة دون أن تلحق ضررا بانتصارها الخاص » . هذه العبارة التى قالها ماركس هى تحديد دقيق لموقفنا من كل أنواع « تصدير الثورة » و « الثورة » كما يقول لينين « تنضج عندما يدرك ملايين الناس أنه لم يعد بوسعهم أن يعيشوا بالطريقة القديمة » وهى « تنضج فى عملية التطور التاريخى وتتحطم عندما ينشأ ترابط معين للظروف الداخلية والخارجية » وأية محاولات « لتفصيل » ثورة أو تحديد تاريخ لها أدانها لينين باعتبارها « شعوذة » .

وتقول النظرية التى نطلق عليها الاشتراكية العلمية : إن المجتمع البشرى يمر بمراحل معينة فى تطوره . كان هناك المجتمع البدائى ، ثم نظام ملاك العبيد ، ثم الإقطاع . وأخلى الإقطاع مكانه للرأسمالية وشهد القرن العشرون مولد المجتمع الاشتراكى . ونحن على قناعة بأن هذه الخطوات طبيعية على سلم تاريخى واحد وهذا هو التطور المحتوم للعالم . فليعتقد الغرب أن الرأسمالية أرقى إنجازا للمدنية ، فمن حقهم أن يعتقدوا ذلك . ونحن ببساطة لا نتفق مع هذا . وليقرر التاريخ أينا على حق .

تظهر الثورات وحركات التحرر على التربة الوطنية . وهى تنشأ عندما يصبح الفقر واضطهاد الجماهير أمرا غير محتمل ، وعندما تمتهن الكرامة الوطنية ، وعندما ينكر على الأمة حقها فى أن تقرر مصيرها بنفسها . وإذا ماهبت الجماهير للنضال ، فهذا يعنى أن حقوقها الحيوية قد قمعت . وأن مطامح شخص آخر أو « يد موسكو » لاعلاقة لها بذلك . وباختصار ، فإن هذه الأسطورة كذبة ماكرة .

المغزى الدولى للتفكير الجديد

إننا لانعتبر التفكير الجديد شيئا ثابتا مرة وإلى الأبد . ونحن لانعتقد أننا قد عثرنا على الحقيقة النهائية التى يبقى على الآخرين مجرد أن يقبلوها أو يرفضوها ، أى يتخذوا موقفا قد نسميه خاطئا . إن الأمر ليس كذلك . والتفكير الجديد ، بالنسبة لنا كذلك ، هو عملية نواصل خلالها أن نتعلم ونكتسب خبرات جديدة دوما . وقد قال

لينين إن سبعين ماركسيا قد لا يكفون لتحليل كافة العمليات المترابطة فى الاقتصاد العالمى . ومنذ ذلك الوقت أصبح العالم أكثر تعقيدا بكثير . إن تطوير طريقة جديدة فى التفكير تحتاج إلى حوار ليس فقط مع الذين يؤمنون بنفس الآراء ، وإنما كذلك مع الذين يفكرون بشكل مختلف ويمثلون نظاما فلسفيا وسياسيا يختلف عن نظامنا . إذ أنهم يحملون كذلك خبرة تاريخية ، وثقافية ، وتقاليد شعوبهم ، وهم يشكلون جزءا من التطور العالمى ، ويحق لهم أن يدافعوا عن آرائهم الخاصة وأن يقوموا بدور نشط فى السياسة العالمية. وأنا على قناعة بأن سياسى اليوم يجب أن يعوا القدرة الفكرية للبلدان والشعوب الأخرى ، وإلا سيكون مصير نشاطهم إلى النزعة الإقليمية وإلى نظرة قومية ضيقة إن لم يكن ماهو أسوأ .

ولهذا السبب ، فإننا مع إجراء حوار واسع ، ومقارعة الآراء والجدل والنقاش . فهذا يحفز الفكر ويحول دون وقوع الناس فى روتين التفكير التقليدى . ومع ذلك ، فالشيء الرئيسى هو أن ذلك يساعد على تدويل طريقة التفكير الجديدة .

إن الحوار بين الناس « من مختلف العوالم » ، بين الناس من مختلف مشارب الحياة ومن مختلف الآراء ، هام للغاية . وإذا ماكان الاهتمام المشترك بمستقبل البشرية يوحدهم ، فإن المشاحنات والخلافات العديدة بينهم لن تحول بينهم وبين إيجاد نقاط للاتصال والاتفاق حول المسائل الأساسية . وهذا مثال طيب للعالم بأسره .

وبإمكان المرء أن يرى ذلك بوضوح خاصة خلال اجتماعات العلماء ، والكتاب ، والشخصيات الثقافية . فالإخلاص والكفاءة يميزان اهتمامهم وقلقهم على مستقبل العالم ، وعلى مصير الإنسان وقدرته ، وكذلك قوتهم المعنوية ومعاناتهم من أجل الذين مازالوا يعيشون فى ظروف غير ملائمة للإنسان . وهذا شيء هام للغاية فى عصر يكشف فيه العلم وذكاء البشرية عن أكثر الأسرار غموضا فى الطبيعة والحياة ، ويحدد بالفعل مجرى التاريخ . ولذلك يمكننى القول بأن الحوار الحى وغير

الرسمى بين السياسيين والعلماء والشخصيات الثقافية ضرورة ملحة .

إن الاجتماعات مع أمثال هؤلاء الناس لاتثرى فقط نظرية وفلسفة المرء ، بل إنها قد أثّرت أيضا على التحركات والقرارات السياسية التى كان لابد من اتخاذها فى السنوات الأخيرة . وأتذكر جيدا اجتماعى فى نوفمبر ١٩٨٥ مع وفد من مؤتمر الحائزين على جائزة نوبل ـ جورج وولد (الولايات المتحدة) ، تبوكنيبنبرج وسوزان جابرييل (هولندا) ، اليوسى انجلاندر (النمسا) والكسندر بروخوروف (الاتحاد السوفيتى) . وحضر هذا الاجتماع العالمان الأكاديميان أناتولى ألكسندروف ويفجينى فيليخوف . وجرت مناقشاتنا قبل وقت قصير من ذهابى إلى جنيف لأول اجتماع لى مع الرئيس ريجان . وسلمنى العلماء نداء من المشاركين فى مؤتمرهم ، وأجرينا مناقشات جادة للغاية حول الآثار الممكنة لاستخدام الأسلحة النووية ، وأهمية حظر التجارب النووية ، ومخاطر عسكرة الفضاء . واتفقنا على ضرورة ربط الجهود من أجل الأمن من خلال نزع السلاح بالجهود المبذولة من أجل ضمان ظروف الحياة اللائقة بالإنسان .

وأذكر أن الحائزين على جائزة نوبل قالوا إن صيانة السلام تتطلب اليوم شجاعة أكبر من تلك التى يتطلبها الإعداد للحرب . وأعطى هذا اللقاء السند المعنوى للمواقف التى خططنا لاتخاذها فى الاجتماع مع رئيس الولايات المتحدة .

ولنأخذ مثالا آخر . فى محفل موسكو الدولى «من أجل عالم خالٍ من الأسلحة النووية ومن أجل بقاء البشرية » ـ الذى يعتبر لقاء لم يسبق له مثيل من حيث عدد المشاركين فيه وسلطانهم ـ أتيحت لى فرصة للإحساس بأمزجة صفوة فكرية دولية وسماع أفكارها . وأثارت مناقشاتى معهم انطباعا قويا لدىّ . وقد ناقشت نتائج المؤتمر مع زملائى فى المكتب السياسى وقررنا تقديم حل وسط رئيسى جديد ـ أى فض ملف ركيافيك وفصل مشكلة الصواريخ المتوسطة المدى فى أوربا عن المسائل الأخرى .

وإليكم مثال ثالث . لقد مدّد الاتحاد السوفيتي مرارا قراره من جانب واحد بوقف مؤقت للتفجيرات النووية . وعلى أن أقول إن ذلك كان نتيجة لدراسة جادة لنداءات عديدة وجهت إلى القيادة السوفيتية من مختلف المثقفين فى بلدان أخرى . لقد أخذنا همومهم وحججهم بجدية لأننا أدركنا أن السياسة المسئولة يجب أن تأخذ فى الاعتبار رأى مايمكن أن نسميه بالجانب الأكثر تأثيرا فى الرأى العام . وأعتقد أن السياسة التى لاتبدى الاهتمام بمستقبل البشرية ـ ويجب أن يكون هذا الاهتمام العلامة المميزة لأى مثقف حقيقى ـ هى سياسة غير أخلاقية وغير جديرة بالاحترام .

وقد ترك محفل إيسيك ـ كولسك ، وهو المحفل الذى حضرته شخصيات ثقافية عالمية مرموقة بدعوة من الكاتب السوفيتى جنكيز إيتماتوف ـ ترك انطباعا عميقا فيما يتعلق بالنظرة الجديدة . ولقد التقيت بهم . وكانت الفكرة الرئيسية لمناقشتنا هى الإنسانية والسياسة ، والجانب المعنوى والفكرى للنشاط السياسى فى العصر النووى . وقلت فى هذا اللقاء : إن الأمم قد تعلمت من مآسيها السابقة واستجمعت شجاعتها وصنعت أفكارها ، وتغلبت على الصعاب والمشاق والخسائر ، ونهضت ثانية وانطلقت إلى الأمام ، واختار كل منها طريقه الخاص . فما الذى سيحدث إذا ما أخفقنا فى إبعاد الخطر النووى الذى يحوم فوق وطننا المشترك ؟ أخشى أن نكون غير قادرين على تصحيح خطأ من هذا القبيل . وتلك هى مهمتنا الأكثر أهمية . ولهذا السبب ينبغى أن توضع القدرة الفكرية والمعنوية للثقافة العالمية فى خدمة السياسة .

لقد بدأ «أطباء العالم من أجل تجنب الحرب النووية» يمارسون تأثيرا هائلا على الرأى العام العالمى خلال فترة قصيرة نسبيا من الزمن . وقد بدأ هذه الحركة البروفسور الأمريكى برناردلون والأكاديمى السوفيتى يفجينى تشازوف . والتحق بالحركة عشرات الآلاف من أطباء الأمريكتين ، وأوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا ، واستراليا . وقد سبق أن التقيت بالبروفسور لون من قبل ، ولكنى التقيت هذه المرة بكل زعماء الحركة بعد مؤتمر فى موسكو . ومن المستحيل تجاهل ما يقوله هؤلاء الناس . إن ما يقومون به يستحق قدراً كبيراً من الاحترام . لأن مايقولونه وما يفعلونه

تحفز إليهما معرفة دقيقة ورغبة عارمة فى تحذير البشرية من الخطر المحدق بها .

وفى ضوء حججهم والمعطيات العلمية الدقيقة التى تتوفر لديهم ، لا يبدو أن هناك مكانا للانهماك فى المناقشات السياسية . فليس لأى سياسى جاد ، الحق فى تجاهل استنتاجاتهم أو إهمال أفكارهم التى ينقلون بها الرأى العام العالمى مرحلة إلى الأمام .

وفيما يتعلق بالقيادة السوفيتية، ينبغى أن أقول: إننا تواقون لمعرفة رأى (وحتى نقد) كافة أنواع الناس فى عالمنا اليوم . ونحن فى اتصالاتنا معهم ، نختبر إمكانية طريقة التفكير الجديدة وواقعية سياستنا . والآن فأى تماثل ، وأحيانا التطابق فى الآراء اللذان نكتشفهما خلال هذه الاتصالات يوفران لنا دليلا يمكننا من أن نرى أن طرق معالجتنا الجديدة تتبع نفس المنهج الذى اتبعه الجانب المخلص التفكير من البشرية .

ومن الطبيعى بالنسبة لى كشيوعى أن أظل باستمرار على اتصال بممثلى الحركة الشيوعية فى البلدان الأجنبية . وقد تغير الكثير فى هذه الاتصالات فى السنوات الأخيرة . إننا نبتعد عن الدبلوماسية بين الأحزاب ، وهى الدبلوماسية التى تغلف الحقيقة بغلاف حلو المذاق أو تعالجها بأساطير أيوب ، وهذا أسوأ حالا .

وليس مهما ما يعتقده معارضو الشيوعية ، فقد نشأت الشيوعية ووجدت من أجل صالح الإنسان وحريته ، ولكى تدافع عن حقوقه الحقيقية ، وعن العدالة على الأرض . وللشيوعية قدرة هائلة على النزعة الإنسانية . ولهذا السبب فإن نظرتنا العالمية المشتركة ، والأفكار والتقييمات والاعتبارات والنقد النافع الذى نتبادله مع أصدقائنا هى أمور لا غنى عنها. وهى تساعد على تطوير طريقة جديدة فى التفكير وعلى أن نطبق سياسيا الثروة الفنية للخبرة الدولية التى تعكس مصالح الجماهير العاملة ومشاعرها .

ونحن ننظر إلى العلاقات الدولية المكثفة بين العلماء، والشخصيات الثقافية،

والمثقفين بشكل عام ، وحركاتهم المهنية ، على أنها محاولة لجذب خبرة القوى فى الأمم والشعوب إلى صفوفهم ، ومساعدتهم على فهم العالم المعاصر والتعبير عن رأيهم حول مستقبله لكى يحولوا دون الكارثة النهائية .

وينطبق ذلك ، ليس فقط ، على نزع السلاح ، وتجريد المواقف الفردية والمجتمع نفسه من الطابع العسكرى ، بل ينطبق أيضا على مشاكل ذات اهتمام مشترك للبشرية كالخطر البيئى ، وآفاق الطاقة والموارد ، والرعاية الصحية ، والتعليم ، والمواد الغذائية ، ونمو السكان ، والمعلومات ، والهجوم الاعلامى الخ . ونجد نقاط اتصال عديدة للغاية وأشياء مفيدة كثيرة للغاية ، وذلك من خلال تبادل الآراء مع رجال العلم والثقافة وأفراد الشعب ذوى النفوذ حول كل هذه المسائل .

وأود أن أقول : إنه قد أصبح محتوما على الساسة وممثلى العلوم والثقافة أن يلتقوا ويواصلوا تبادل الآراء - ويبدو أن ذلك لابد وأن يصبح شيئا طبيعيا يودونه فى الظروف الحالية .

لقد تحدثت أخيرا مع كاتب أمريكى لا تينى بارز هو جابريل جارسيا ماركيز . إنه عقل كبير حقا . ومدى تفكيره عالمى : وقراءة مجرد كتاب واحد من كتبه يكشف عن ذلك . وهكذا اتضح أن المرء أثناء حديثه عن إعادة البناء التى تجرى فى الاتحاد السوفيتى يستطيع أن يتطرق إلى أى مشكلة دولية أو اجتماعية فى عصرنا . إذ أن كل العالم يحتاج لإعادة البناء ، أى ، إلى تغير نوعى وتطور تقدمى . إن رأى رجل من طراز ماركيز ذو أهمية بدرجة كبيرة . وذلك لأنه على وجه التحديد يعكس أفكار واهتمامات ومشاعر الملايين - البيض ، والسود ، والصفر ، وكل الناس على الأرض - إنه ملهم فعلا . وهذا يعنى أن ما بدأنا عمله فى الداخل قد يكون مفيدا للشعوب الأخرى كذلك .

ونحن نرحب بما تمارسه الحركات العامة المتباينة والعديدة - الحركات النقابية ، أو النسائية ، أو الشبابية ، أو البيئية ، أو المعادية للحرب - من تأثير مباشر على السياسة

الدولية ، هذا التأثير الذى زاد كثيرا فى السنوات القليلة الماضية . إنها تغزو بمطالبها الملحة ، وشعورها بالمسئولية ، ماكان ذات يوم مجال الدبلوماسية فقط .

وإنه لمن الصواب أن يحصل الناس على أهم المعلومات عن نوايا رجال الدولة الذين يتوقف عليهم بالفعل مجرى الأحداث فى المجالات الرئيسية للحياة الدولية . وقد التقيت بوفد من الاتحاد العالمى للنقابات . وهو أكبر مركز نقابى ، يجمع خلفه مئات الملايين من الجماهير العاملة من بلدان عديدة فى العالم . وسلمنى الوفد وثيقة المؤتمر النقابى العالمى الحادى عشر مع نداء موجه إلىّ وإلى الرئيس الأمريكى . وتكمن أهمية هذه الوثيقة فى رأيى فى أنها تمثل إرادة الطبقة العاملة ، وتعكس المصلحة المشتركة للبشرية فى قيام سلم آمن . وقد أقنعتنى هذه الوثيقة هى والحديث الصريح الذى أجريته مع الزعماء النقابيين أن الرسالة التاريخية للطبقة العاملة بوصفها متحدثا ـ من خلال مصالحها الخاصة ـ باسم مصالح كل التطور الاجتماعى ، ما تزال تنبض بالحياة ، حتى فى الآونة الحاضرة ، حيث تغيرت الظروف جذريا للغاية .

ولقد هزنى بعمق مؤتمر المرأة العالمى الذى اجتمع فى موسكو فى يونيو ١٩٨٧ . وقد طُلب إلىّ أن أتحدث فيه . وكان المؤتمر غير عادى من حيث تمثيله ـ إذ ضم ممثلات لأكثر من ١٥٠ دولة . وقد أحسست عندما سمعت المندوبات يتحدثن وعندما تحدثت إليهن ، بإحاطتهن المثيرة للإعجاب بما يجرى فى العالم . حقا إن النساء اللاتى يتمثل قدرهن الطبيعى فى الحفاظ على الجنس البشرى واستمراره ، هن خير نصير لفكرة السلام فى التفانى والتجرد عن الهوى . لقد كسبت كثيرا من حضور هذا المؤتمر سواء عاطفيا أو سياسيا .

وفى كل يوم ، أتلقى عشرات الخطابات والرسائل والبرقيات من جميع أنحاء العالم ـ من ساسة ، وشخصيات عامة ، وعمد ، وأعضاء برلمانات ، ورجال أعمال ، وغالبيتها من أناس عاديين ، وأزواج ، وكذلك عائلات وأطفال ونداءات

جماعية . وبعضها يهزنى فعلا ، إذ يتضمن أشعارا ، ورسوما ، وهدايا تذكارية صغيرة ومصنوعة باليد ، ودبلومات من المدارس والمجموعات والنوادى . بل وأيضا صلوات ودعوات . وخلف كل هذه المشاعر والافكار الإنسانية المتباينة . يوجد القلق على مستقبل السلام ، والأمل فى أن تكون البشرية جديرة بشىء أفضل من الحياة فى ظل التهديد بالكارثة النووية .

ومهما كنت مشغولا ، فإننى أحاول قدر جهدى أن أجيب على هذه الرسائل . وأهم ما تبينه هذه الرسائل والنداءات هو الثقة فى الاتحاد السوفيتى وفى سياستنا الحالية . ونحن نعتز بهذه الثقة وسنبذل كل ما فى وسعنا لنكون على مستواها بأعمالنا سواء فى الداخل أو فى الشئون الدولية .

إن مثل هذا الاتصال بالناس من جميع أنحاء العالم يعزز قناعتى بأن آفاق الحضارة ليست بلا أمل ، حيث أن أفضل العقول وشرفاء الناس يفكرون ويقلقون على حاضرها ومستقبلها . وهم على استعداد لتكريس مواهبهم ، ومعارفهم ، ووقتهم ، وطاقتهم العاطفية للمحافظة على هذا العالم وبناء عالم أفضل وأكثر عدالة . وهكذا ففى الوقت الذى نبنى فيه سياستنا على التفكير الجديد ، لا نرى أن نحصر أنفسنا فى الأفكار التى اعتدنا عليها وفى اللغة السياسية التى عرفت عنا ولا توجد لدينا أية نوايا من أى نوع لتحويل كل الناس إلى الماركسية . إن التفكير السياسى الجديد بإمكانه ، بل وعليه ، أن يستوعب تجارب كافة الشعوب وأن يضمن الإثراء والتأثير المتبادلين لمختلف التقاليد الثقافية .

من أجل سياسة خارجية صريحة وأمينة

تسعى القيادة السوفيتية لتناول الشئون الخارجية بطريقة جديدة . وأول ما يجب أن أذكره فى هذا الإطار هو الحوار . فمن الصعوبة بمكان أن يتحدث المرء عن التوصل إلى تفاهم متبادل بدونه . ومنذ أن اقتنعنا بمبادئ التفكير الجديد جعلنا من الحوار أداتنا الأساسية لاختبارها فى الممارسة الدولية . وبالاضافة إلى ذلك ، فعن

طريق الحوار نتأكد من مدى واقعية أفكارنا ومبادراتنا وأعمالنا الدولية ، ونحن نشير بارتياح إلى أن هذه الكلمة ، رغم أنها على خلاف البيريسترويكا ، ليست من أصل روسى ، فقد ضربت بجذورها عميقا فى المفردات الدبلوماسية فى السنوات الأخيرة . ويبدأ الحوار السياسى نفسه يلعب دوراً أكبر أهمية فى العلاقات الدولية أكثر من أى وقت مضى .

وخلال العامين ونصف العام ، لشغلى منصب السكرتير العام ، أجريت ما لا يقل عن ١٥٠ لقاء وحديثا مع رؤساء دول وحكومات ، وزعماء برلمانات وأحزاب شيوعية ، واشتراكيين ديموقراطيين ، وليبراليين ، ومحافظين ـ ومع سياسيين وشخصيات عامة على مستويات مختلفة فى أوروبا ، والأمريكتين ، وآسيا ، وأفريقيا . وأصبح ذلك أيضا ممارسة طبيعية لكثير من زملائى فى القيادة السوفيتية . إنها مدرسة عظيمة لنا ، وأعتقد أن مثل هذا الحوار مفيد لكل من يتحدثون معى كذلك . إنه يساعد على تشكيل ودعم العلاقات الدولية المتحضرة والضرورية تماما للعالم الحديث .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإننا نريد أن نعود إلى المعنى الحقيقى الأصلى للكلمات التى نستخدمها فى العلاقات الدولية . وعندما نعلن عن التزامنا بسياسة أمينة وصريحة ، فنحن نعنى بالفعل الأمانة ، والاحترام ، والإخلاص ، ونحن نتبع هذه المبادئ فى أعمالنا وهذه المبادئ ليست بجديدة فى حد ذاتها ـ فقد ورثناها عن لينين . والشىء الجديد هو أننا نحاول تحريرها من الغموض الذى انتشر كثيرا فى العالم الحديث . والشىء الجديد كذلك هو أن الوضع الحالى يجعلها إلزامية للجميع .

وكحقيقة ، فقد استبعدنا كل تناقض بين ما نقوله لمحدثينا الأجانب خلف أبواب مغلقة وبين ما نصرح به ونفعله علنا . ويجب أن أعترف بأننى لست مع مثل هذه الدبلوماسية المبهمة التى تعجز عن طريقها أن تفهم فى النهاية ما الذى أراد شريكك قوله خلال اللقاء أو فى تبادل الرسائل . فأنا مع السياسة الصريحة التى تؤدى بالفعل

إلى نتيجة ما . ويجب ألّا تكون السياسة ذات وجهين ، لأن قدرة السياسة على التنبؤ شرط لا غنى عنه للاستقرار الدولى. ينبغى أن يكون هناك مزيد من الضوء ومزيد من العلانية فى الشئون الدولية ، وأن تكون المناورات التكتيكية والتلاعب الكلامى أقل . فلم يعد باستطاعة أحد خداع الآخرين . وأنا أواصل تكرار ذلك لمن أتحدث إليهم فى الغرب . إن ما نحتاجه من الزعماء اليوم هو تقييم صائب للوقائع ، وعقل صاف ، وإحساس متزايد بالمسئولية . أى أننا بحاجة إلى سياسة جادة بدلا من اللعب فى السياسة ، أو التلاعب فى السياسة .

وأعتقد أن الأسلوب الجديد فى العلاقات الدولية يتضمن توسيع إطارها خارج حدود العملية الدبلوماسية البحتة . لقد أصبحت البرلمانات تشارك بنشاط متزايد فى العلاقات الدولية إلى جانب الحكومات ، وهذا تطور مشجع . إن هذا يشير إلى اتجاه نحو مزيد من الديموقراطية فى العلاقات الدولية . إن غزو الرأى العام والمنظمات الدولية والوطنية لهذا المجال على نطاق واسع هو من علامات عصرنا ، وبالمثل فإن دبلوماسية المواطن ، والجمهور ، وهى طريقة للتوجه إلى الشعوب مباشرة ، تصبح وسيلة مناسبة للعلاقات بين الدول .

ليست هناك خدعة فى استخدام دبلوماسية المواطن . ونحن ننطلق فقط من إدراك أن كل عبء سباق التسلح ، ناهيك عن النتائج المحتملة للنزاعات الدولية ، يقع على عاتق كل الشعوب . ونحن نريد أن يكون موقف الاتحاد السوفيتى معروفا لشعوب العالم .

وعند هذه النقطة ، ينبغى أن أتناول المسألة الآنية والحادة للعلاقة بين السياسة والدعاية . لقد كانت الاستجابة لمبادراتنا فى السياسة الخارجية فى الغالب هى : «هذه دعاية ! » ويجب أن نعترف أن مقترحات السياسة الخارجية فى هذا العصر ، عصر الإعلام الجماهيرى ، والاهتمام الجماهيرى بالمشاكل الدولية تواكبها الدعاية على الدوام . إذ يجب أن «تؤثر» . فالزعماء الأمريكيون ، على سبيل المثال ، يبدأون

بالإعلام عن تحركاتهم الدولية التى ينوون القيام بها قبل أن يعلنوها رسميا بوقت طويل ، ويقدمونها على الدوام على أنها « هامة » ، و « تاريخية » ، و « حاسمة » ، الخ . بيد أن الشيء المهم فى النهاية هو الطابع والغرض الحقيقى للمقترحات : وما إذا كان الهدف منها أن توضع بالفعل موضع التطبيق ، وما إذا كانت واقعية ، وما إذا كانت تأخذ فى اعتبارها مصالح كافة الأطراف المعنية أو ما إذا كانت دعاية الغرض منها هو مجرد إثارة الاضطراب . ولذلك يمكننى أن أعلن بشعور كامل بالمسئولية بأن كل مبادراتنا جادة ، وأنها ، إذا ما استشهدنا بلينين ، «شعارات للعمل » وليست « شعارات للدعاية » .

وعند هذه النقطة يمكننى أن أكرر بوجدان صاف ما سبق أن قلته لمجلة «تايم» فى أغسطس ١٩٨٥ . ومع ذلك ، إذا لم يروا سوى الدعاية فى كل ما نفعله ، فلماذا لا يستجيبون له وفقا للمبدأ القائل «العين بالعين»؟ لقد أوقفنا التفجيرات النووية . فلماذا لم يستطع الأمريكيون أن يقوموا بنفس الشيء ويتبعوا ذلك «بضربة دعائية» أخرى بإيقاف ، مثلا ، أحد صواريخهم الاستراتيجية الجديدة ؟ وقد نستجيب بنفس نوع «الدعاية» ، وهكذا دواليك . وقد يحار المرء عمن سوف يخسر من هذا النوع من المنافسة «الدعائية»؟ .

إن عامين ونصف العام ليست بالفترة الزمنية الطويلة إلى حد ما . وإذا حكمنا بكل الدلائل ، فإن الفترة التى نتحدث عنها قد برهنت على أنها مليئة بالشيء الكثير. فما هو الشيء الرئيسى فيها ؟ قد يقول بعض الناس إن التفكير السياسى الجديد ما يزال يشق طريقه فى السياسة العالمية بصعوبة . وهذا صحيح . وقد يقول البعض إن القصور الذاتى لطريقة التفكير القديمة ما يزال أقوى من الاتجاهات الجديدة . وهذا صحيح أيضا . ومع ذلك فالشيء الرئيسى هو أن العمل الصعب المتعلق بتجهيز الأرض لإعادة تشكيل العلاقات الدولية قد تم القيام به . ونحن نعتقد أن العالم سيتغير نحو الأفضل . وهو يتغير فعلا .

الفصل الرابع
إعادة البناء فى الاتحاد السوفيتى والعالم الاشتراكى

يتمثل جوهر مبدئنا الأممى فى : اتخاذ قرارات هادفة وهامة فى الداخل ، وتقدير ما يعنيه ذلك بالنسبة للاشتراكية فى مجموعها بعناية . وغنى عن القول ، بأنه لايمكن لأى بلد اشتراكى أن يتحرك إلى الإمام بنجاح وبإيقاع صحى دون التفاهم والتضامن ، والتعاون المتبادل المثمر مع البلدان الشقيقة الأخرى ، بل ودون عون منها فى بعض الأحيان .

حول الاشتراكية الحقة

عندما بدأنا السير على طريق البيريسترويكا ، انطلقنا من الفرضية القائلة بأن إعادة البناء بدأت تعمل ، وسوف تواصل العمل . إن تدعيم الاشتراكية فى مجموعها فى عملية إعادة البناء هذه قضية الشعب السوفيتى بأسره . ويهدف إلى النهوض بمجتمعنا إلى مستوى نوعى جديد . وهذه هى النقطة الأولى .

والنقطة الثانية هى أن كلا من النهج الذى اخترناه والحاجة إلى تسريع خطانا جعلانا ننظر إلى كيفية تطوير التعاون مع البلدان الاشتراكية الأخرى فى إطار تاريخى عريض . والنتيجة المترتبة على ذلك ــ وقد توصلت جميع الأحزاب الشقيقة إليها ــ هى ضرورة إضفاء دينامية أكبر على تعاوننا ، وإن هذا المجال بدوره جاهز لنوع من إعادة البناء . وارتكزت أفكارنا ، ومبادراتنا فيما بعد على ما يلى :

أصبحت الاشتراكية ، طوال عقود ما بعد الحرب ، تشكيلا دوليا قويا وعاملا هاما فى السياسة العالمية . ويعمل الآن شكل اشتراكى من الاقتصاد فى مجموعة كبيرة من البلدان . وقد وضعت الأسس لتقسيم دولى اشتراكى للعمل . واكتسبت

المنظمات المتعددة الأطراف للدول الاشتراكية خبرة متنوعة من النشاط . واتخذ التبادل الثقافى والعلمى أبعادا واسعة . ولا يعنى هذا ، بالطبع ، أن تطور الاشتراكية العالمية سار بنجاح على الدوام .

لقد اختلف المستوى الاقتصادى الأوّلى للبلدان التى سارت فى طريق التطور الاشتراكى اختلافا كبيرا . بل حتى اليوم نجده بعيدا عن أن يكون متطابقا . ويشكل ذلك واحدة من الصعوبات أمام تحقيق الإمكانات الشاملة للاشتراكية وأمام إتقان دواليب تكاملها .

لقد مرت الاشتراكية بمراحل تطور معقدة . ففى العقود الأولى بعد الحرب ، كان الاتحاد السوفيتى وحده هو الذى لديه خبرة ما فى بناء المجتمع الجديد . وكان عليه أن يكون مسئولا عن كل مايحدث ، سواء كان طيبا أم رديئا . وكان طابع العلاقات الاقتصادية مع البلدان الاشتراكية الأخرى يتمشى أيضا مع ذلك . فقد تطورت هذه العلاقات مع التركيز على إمدادات المواد الخام والوقود السوفيتية وعلى معونة الاتحاد السوفيتى فى بناء الصناعات الأساسية . وفى مجال بناء الدولة ، كذلك ، اعتمدت الدول الاشتراكية الشقيقة لدرجة كبيرة على النموذج السوفيتى . وكان هذا حتميا إلى حد ما . وكان الإصرار على فرض « النموذج السوفيتى » يشوه هذه الضرورة الموضوعية لذلك الوقت . ومهما يكن فإن خبرة الدولة الاشتراكية الأولى ومساعدتها قد عززت بشكل عام جهود البلدان الأخرى لبناء مجتمع جديد .

بيد أن ذلك لم يحدث دون خسائر ، وبالأحرى خسائر جسيمة . فاعتمادا على الخبرة السوفيتية عجزت بعض البلدان بالتالى عن أن تدرس خصوصياتها . والأمر الأسوأ أن بعض المنظرين السوفيت وبخاصة زعمائنا العمليين الذين تصرفوا باعتبارهم الحراس الوحيدين للحقيقة قد أعطوا مسحة أيديولوجية للنظرة الجامدة . فدون أن يأخذوا فى اعتبارهم جدة المشاكل والسمات الخاصة للبلدان الاشتراكية المختلفة ، أبدوا الشكوك فى بعض الأحيان حيال مواقف هذه البلدان من مشاكل معينة .

ومن ناحية أخرى ، نمت فى عدد من البلدان الاشتراكية اتجاهات نحو نوع من الانغلاق ، مما أدى إلى نشأة تقديرات وأنشطة ذاتية . وبالإضافة إلى ذلك ، كانت البلدان الاشتراكية ، منذ مولدها ، هدفا لضغط شديد من جانب الإمبريالية - ضغط سياسى ، وعسكرى ، واقتصادى ، وأيديولوجى .

وأدى كل هذا فى بعض الحالات إلى عمليات موضوعية معينة ، وإلى ظهور مشاكل لم تلاحظها الأحزاب الحاكمة والقيادات فى الوقت المناسب . وفيما يتعلق بأصدقائنا فى البلدان الاشتراكية ، فعادة ما كانوا يلزمون الصمت ، حتى عندما يلاحظون شيئا يثير الاهتمام . كانت الصراحة تواجه بالغضب ، ومن الممكن أن « يساء فهمها » . ومرت بعض البلدان الاشتراكية بأزمات خطيرة فى تطورها . وكانت تلك هى الحال ، مثلا ، فى المجر عام ١٩٥٦ ، وفى تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ، وفى بولندا عام ١٩٥٦ ، ثم مرة أخرى فى أوائل الثمانينيات . وكان لكل من هذه الأزمات سماته الخاصة . وعولجت بطرق مختلفة . ولكن الحقيقة أنه لم تحدث عودة إلى النظام القديم فى أى من البلدان الاشتراكية . وأود أن أشير هنا إلى أنه لا ينبغى إلقاء اللوم على الإشتراكية عن مصاعب وتعقيدات تطور البلدان الاشتراكية ، وإنما يقع اللوم أساسا على الحسابات الخاطئة للأحزاب الحاكمة . ويمكن بالطبع أن « يعود الفضل » للغرب كذلك ، لمساعدته ، من خلال محاولاته الدائمة والعنيدة لتقويض تطور الدول الاشتراكية .

وخلال تجارب شاقة ، وأحيانا مريرة ، حشدت البلدان الاشتراكية خبرتها فى تنفيذ التحولات الاشتراكية . إن ممارسات الأحزاب الشيوعية الحاكمة ، وكذلك مساهماتها النظرية قد أثرت بالتدريج فكرة أكمل وأكثر تحديدا عن الأساليب والطرق والوسائل اللازمة لتحويل اشتراكى للمجتمع . إن ماركس ، وانجلز ، ولينين ، الذين أقاموا الدليل نظريا على المبادئ التى قام عليها مفهوم الاشتراكية ، لم يسعوا إلى إعطاء صورة مفصلة للمجتمع المقبل . وهذا ما يستحيل عمله بشكل عام . فقد اكتسبت هذه الصورة حدودها العامة ، وما تزال فى طور التكوين نتيجة

العمل الثورى الخلاق لكافة الدول الاشتراكية .

وكانت هناك كذلك فترات خطيرة فى العلاقات بين البلدان الاشتراكية . وكان من الخطير على وجه الخصوص تقويض علاقات الاتحاد السوفيتى الأخوية مع يوغوسلافيا ، ومع جمهورية الصين الشعبية ، ومع ألبانيا . وبشكل عام كانت هناك دروس مريرة كافية . ولكن الشيوعيين تعلموا . ومانزال نتعلم حتى اليوم .

وبشكل عام فإن إحدى ميزات الاشتراكية هى قدرتها على التعلم . تعلم كيف تحل المشاكل التى تطرحها الحياة . تعلم كيف تتجنب الأزمات التى يحاول معارضونا أن يخلقوها ويستخدموها ضدنا . تعلم كيف تقاوم محاولات تقسيم العالم الاشتراكى وتحريض بعض البلدان ضد الأخرى . تعلم كيف تحول دون النزاعات فى المصالح بين الدول الاشتراكية المختلفة ، عن طريق تنسيق هذه المصالح وإيجاد حلول مقبولة بشكل متبادل لأعقد المشاكل .

فإلى أى شيء توصلت الاشتراكية العالمية بحلول منتصف الثمانينيات؟ الآن يمكننا القول فى أمان : إن النظام الاشتراكى قد استقر بشكل راسخ فى مجموعة كبيرة من البلدان ، وإن القدرة الاقتصادية للبلدان الاشتراكية تتزايد باطراد ، وإن قيمها الثقافية والروحية هى قيم معنوية لدرجة عميقة وتشرف الشعوب .

ولكن فى هذه الحالة قد يسأل سائل : إذا كان كل شيء على مايرام ، فلماذا تثير البيريسترويكا اهتماما كبيرا فيما يتعلق بالعلاقات مع البلدان الاشتراكية ؟ حسنا ، إنه سؤال مشروع .

وبشكل عام ، فإن الجواب بسيط للغاية : لقد انتهت المرحلة الأولى لنشأة الاشتراكية العالمية وتطورها ، بيد أن أشكال العلاقات التى أقيمت فى ذلك الوقت ظلت بالفعل دون تغيير. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن عمليات النمو السلبية فى هذه العلاقات لم تدرس بدرجة كافية من الصراحة ، مما يعنى أنه لم يتم تحديد كل ما يعرقل تطورها ويحول بينها وبين دخولها مرحلة جديدة معاصرة . وفى نفس الوقت -

جمع كل بلد اشتراكى وكل مجتمع اشتراكى إمكانيات كبيرة خاصة به فى كل مناحى الحياة . وسوف تلحق أضرار مباشرة بهيبة الاشتراكية وإمكانياتها إذا ماتشبثنا بأشكال التعاون القديمة أو حصرنا أنفسنا فيها .

وفى الحقيقة ، فابتداء من أواخر السبعينيات أصبحت العلاقات بين قادة البلدان الشقيقة تتجه أكثر فأكثر للاستعراض أكثر منها للعمل الجاد فقلت الثقة فيها وأصبحت أشبه ماتكون بأداء مهمة .

والآن تغير الكثير من الأمور . فخلال العامين ونصف العام الماضيين نفذ الاتحاد السوفيتى واصدقاؤه فى الأسرة الاشتراكية عملا عظيما . وهو يحتاج إلى الاستمرارية بل هو مستمر فعلا . وتجرى من جديد صياغة المدى العام للعلاقات السياسية والاقتصادية والإنسانية مع البلدان الاشتراكية . وهذا ما تمليه الحاجات الموضوعية لتطور كل بلد كما يمليه الوضع الدولى فى مجموعه ، بدلا من الانفعالات والعواطف .

نحو علاقات جديدة

إن دور الاتحاد السوفيتى فى الأسرة الاشتراكية فى ظروف البيريسترويكا يحدده الوضع الموضوعى فى بلادنا . وإذا كانت الأمور تسير سيرا حسنا فى بلادنا ، أو تسير بطريقة سيئة ، فإن هذا يؤثر بالضرورة على كل امرئ . بيد أن مستوى التفاعل الذى توصلنا إليه الآن هو نتيجة لما هو أكثر من مجرد العمل الذى نقوم به فى الداخل . إنه أولا وقبل كل شىء نتيجة للنشاط الاقتصادى والجهود الدؤوبة للبلدان الشقيقة . وقد ناقشنا بدقة كل جوانب التعاون مع اصدقائنا وحلفائنا .

إننا ننطلق جميعا من الفرضية القائلة أنه فى هذه المرحلة الحاسمة من تطور العالم ، ينبغى أن تبين الاشتراكية لأقصى درجة دينامية نظامها السياسى والاقتصادى وطريقتها للحياة الإنسانية . وتجرى بالفعل إعادة ملاءمة علاقات الأسرة الاشتراكية مع متطلبات المرحلة الحاضرة . ونحن لانستسلم للرضى عن

النفس : فالعمل بدأ لتوه يكتسب قوة دافعة . بيد أن الأهداف الرئيسية قد جرى تحديدها .

ماذا تتضمن هذه النقاط التى نرجع إليها ؟ أولا ، إن كل إطار العلاقات السياسية للبلدان الاشتراكية ينبغى أن يستند بحزم إلى الاستقلال المطلق . وهذا هو الرأى الذى يؤمن به زعماء كافة البلدان الشقيقة . ويعتبر استقلال كل حزب ، وحقه السيادى فى تقرير المسائل التى تواجه بلده ومسئوليته أمام شعبه ، مبادئ غير قابلة للجدل .

ونحن على قناعة راسخة بأن الأسرة الاشتراكية ستكون ناجحة فقط إذا ما اهتم كل حزب ودولة بمصالحها الخاصة وبالمصالح الاشتراكية على السواء ، وإذا ما احترما أصدقاءهما وحلفاءهما ، وراعيا مصالحها وأوليا اهتماما بخبرة الآخرين . إن إدراك هذه العلاقة بين المسائل المحلية ومصالح الاشتراكية العالمية هو شيء تتميز به بلدان الأسرة الاشتراكية . ونحن متحدون ، وفى الوحدة تكمن قوتنا ، ومن الوحدة نستمد ثقتنا بأننا سنحل المسائل التى يطرحها عصرنا .

ويعتبر التعاون بين الأحزاب الشيوعية الحاكمة أمرا محوريا بالنسبة للتعاون بين البلدان الاشتراكية . وخلال السنوات القليلة الماضية أجرينا لقاءات ومناقشات مفصلة مع قيادة كل بلد شقيق . ويجرى تحديد أشكال هذا التعاون أيضا . وأحد الحلقات الجديدة ، وربما الرئيسية فى هذا ، هى إقامة لقاءات عمل متعددة الأطراف بين زعماء البلدان الشقيقة . وتمكنا أمثال هذه اللقاءات من التشاور ، على الفور بطريقة رفاقية ، فى كل سلسلة المسائل المتعلقة بالتنمية الاشتراكية ، وبجوانبها الداخلية والخارجية .

إن تمديد أجل معاهدة وارسو ، فى الوضع الدولى المعقد ، نتيجة قرار جماعى ، كان حدثا حاسما ، وتمهد الاجتماعات المنتظمة للجنة الاستشارية السياسية لمعاهدة

وارسو الطريق لتراكم أفكار ومبادرات المشاركين فيها ، وتسمح لهم « بضبط ساعاتهم معا » كما يقولون .

ما الذى نعنيه بالتوفيق بين مبادرات كل بلد شقيق وبين الخط العام فى الشئون الدولية . لقد أوضحت التجربة مدى أهمية كل من عنصرى هذه الصيغة . فليس بإمكان أى بلد شقيق ـ ونحن ننسب هذا إلى الاتحاد السوفيتى بكل معنى الكلمة ـ أن يحل مهامه فى المجال الدولى إذا ماانعزل عن المسار العام . وبالمثل ، فإن السياسة الخارجية المنسقة بين دولنا يمكنها أن تكون فعالة فقط إذا ما أخذت فى الاعتبار ، على النحو المناسب ، إسهام كل بلد فى القضية المشتركة .

وفيما يتعلق بالعلاقات الاقتصادية ، فإننا نقوم بتطويرها على أساس الالتزام الثابت بمبادئ المنفعة والمساعدة المتبادلتين . ولقد توصلنا إلى تفاهم بأننا جميعا نحتاج الآن إلى قفزة فى العلم والتكنولوجيا وفى المجال الاقتصادى . ومن أجل هذه الغاية ، وضعنا وتبنينا برنامجا شاملا للتقدم العلمى والتكنولوجى يهدف إلى زيادة كفاءة الإنتاج بشكل حاد ، وإلى مضاعفة بل والتوصل إلى ثلاثة أمثال الإنتاجية بحلول عام ٢٠٠٠ . فهل هذا خيال ؟ كلا . إن الأسرة الاشتراكية تملك كل ما تحتاج إليه لتحقيق هذه المهمة ، بما فى ذلك قدرة انتاجية ضخمة ، وعدد هائل من مشاريع الأبحاث والمشاريع الهندسية ، وكذلك موارد طبيعية وقوة عمل كافية ، إن نظامنا الذى يرتكز على خطة ، يمكننا كذلك من أن نوجه موارد هامة نحو تلبية احتياجات ذات أهمية وأولوية .

لقد توصل زعماء الدول الأعضاء فى مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة نتيجة للمناقشات ، إلى استنتاج أن كافة المكونات البنيوية للنظام الاشتراكى يجب أن تعمل بكفاءة أكبر . وهذا مانوافق عليه جميعا . ولكنه لايعنى بالطبع ، أن تلك العمليات ستسير بطريقة متماثلة فى كافة البلدان الاشتراكية . إذ أن لكل بلد تقاليده الخاصة ، وخصائصه والطرق التى تعمل وفقا لها مؤسساته السياسية . ومن حيث

المبدأ ، فإن كافة البلدان الاشتراكية تمر ، بطريقة أو أخرى ، بعملية بحث عن التجديد والتحولات العميقة . ولكن كل بلد ، أى قيادته وشعبه ، يقرر بشكل مستقل النطاق والحجم ، والأشكال ، والمعدلات ، والأساليب التى يجب أن تحدث وفقا لها هذه التحولات وليست هناك خلافات حول هذا الموضوع ، وإنما هناك فقط سمات خاصة .

لقد سألنى رئيس وزراء فرنسا جاك شيراك : « هل تعتقد أن روح البيريسترويكا ستترك بصماتها على كافة الدول الاشتراكية فى أوروبا الشرقية » . قلت : إن التأثير متبادل . فنحن نستعير بعضا من خبرة اصدقائنا وهم يأخذون منا مايرون أنه يلائمهم بشكل أفضل . وباختصار ، فإنها عملية تبادل وإثراء متبادل .

وإذا ما تحدثنا بأمانة ، فإنه يبدو لى أن هذه النقطة قد طرحت بدافع أكثر من مجرد الرغبة فى معرفة كيف نقوم بالعمل . لقد حفزتها لدرجة ما الشائعات حول أن بعض أصدقائنا « يختلفون » مع خط القيادة السوفيتية إزاء البيريسترويكا . فماذا يمكننى قوله حول ذلك ؟ إنه ليست لدينا خلافات خطيرة مع أصدقائنا وحلفائنا . لقد تعودنا أن نتحدث بصراحة وبطريقة جادة . وأعتقد أننا نكسب من التقييم النقدى الجاد لتحركاتنا ومبادراتنا أكثر مما نكسب من التصفيق الحاد لأى شىء نقوم به . وهذه هى النقطة الأولى . أما الثانية ، وسأكررها فى هذا السياق ، فهى أننا لا نزعم أننا وحدنا الذين نعرف الحقيقة . والحقيقة يسعى إليها الناس من خلال المساعى والجهود المشتركة .

ولكن اسمحوا لى بأن أقول بضع كلمات أخرى عن الشئون الاقتصادية : إننا نرى العلاقات المباشرة بين الشركات والمؤسسات والتخصص باعتبارها المعين والرافعة الرئيسية لتعميق تكاملنا . ووفق هذه الخطوط على وجه التحديد نعيد بناء نشاطنا الاقتصادى الخارجى ونزيل الحواجز التى تعوق المؤسسات عن وجود شركاء مناسبين فى البلدان الشقيقة وعن البت على مسئوليتها فى كيفية التعاون معهم . ونحن ننشئ

شركات اشتراكية مشتركة ، بما فى ذلك تلك الشركات التى نتوقع أن تلبى حاجات بلادنا بسرعة أكبر إلى أكثر السلع تعقيدا . وتقام مثل هذه الشركات فى مجالات الخدمات ، والانشاء ، والنقل . والاتحاد السوفيتى على استعداد لأن يتقدم إليها ببعض الطلبيات المربحة . ونحن مستعدون كذلك للتفكير فى إمكانية إشراك رجال الأعمال الغربيين فى أنشطة مثل هذه الشركات .

ونحن نأمل فى التعجيل بعملية التكامل فى السنوات القليلة المقبلة . ومن أجل هذه الغاية يجب على مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة أن يركز بصورة متزايدة على مسألتين هامتين .

الأولى ، عليه أن ينسق بين السياسات الاقتصادية ، ويضع برامج طويلة المدى للتعاون فى بعض المجالات الجوهرية ويطور الأبحاث الهامة المشتركة والبرامج والمشروعات الهندسية . وإذا مافعل ذلك فسيكون بالإمكان ، ومن الملائم ، التعاون مع البلدان غير الاشتراكية ومنظماتها ، وفى المقام الأول مع الجماعة الاقتصادية الأوربية .

والثانية ، أن يركز مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة على تطوير وتنسيق المقاييس العيارية اللازمة لدولاب التكامل ، وكذلك المتعلقة بالشروط الاقتصادية والقانونية لعلاقات التعاون المباشر ، بما فى ذلك بالطبع ، تحديد الأسعار .

ونحن نريد أن يكون لدى مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة جهاز إدارى أقل ، ولجان وهيئات أقل ، وأن يولى اهتماما أكبر للحوافز الاقتصادية والمبادرات ، والروح الاشتراكية للمشروعات ، ولزيادة مشاركة أسر العمل فى العملية . ونحن وزملاؤنا نعتقد أن مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة يجب أن يتخلص من فائض العمل المكتبى والتشويش البيروقراطى .

ولاينبغى على مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة أن يعتدى بأية حال على استقلال أى من الدول المشاركة فيه وعلى حقها السيادى فى أن تكون مسئولة عن

مواردها وقدراتها ، وأن تفعل كل مافى وسعها من أجل مصلحة شعبها . إن مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة ليس تنظيما فوق القوميات . وهو يعتمد فى صنع القرارات على مبدأ الاجماع ، بدلا من التصويت بالأغلبية . والشيء الوحيد الهام هو أن عدم رغبة أو مصلحة أى بلد فى المشاركة فى مشروع ما لاينبغى أن يكون قيدا على الآخرين . ومن يريد أن يشارك فعلى الرحب والسعة ، ومن لايريد ، فيمكنه الانتظار ورؤية مايقوم به الآخرون. وكل بلد حر فى أن يقرر ماإذا كان مستعدا لمثل هذا التعاون ولأى درجة سيشارك، وأعتقد أن هذا هو الموقف الوحيد الصحيح.

ولدينا كذلك مهمة ذات قيمة كبرى تتعلق بالتعاون فى المجال الفكرى . والتغيير ضرورى هنا كذلك . فكل بلد اشتراكى ، هو فى الحقيقة ، معمل اجتماعى يختبر فيه الأشكال والأساليب المختلفة للجهد الاشتراكى البناء ، وهذا هو السبب فى رأينا بأن تبادل الخبرات فى البناء الاشتراكى وتجميع تلك الخبرات تكتسبان قيمة متزايدة .

ونحن الشيوعيين السوفيت ، عندما ندرس مستقبل الاشتراكية ، ننطلق من فكرة لينين بأن هذا المستقبل ، سوف يبنى من خلال سلسلة من الجهود التى تقوم بها مختلف البلدان . ولهذا السبب فإننا نؤمن بالطبع بأن أحد الطرق الجيدة للحكم على جدية حزب حاكم هو أن ننظر إلى كيفية استخدامه لخبرته الخاصة ، وكذلك لخبرة أصدقائه ، والخبرة العالمية . وفيما يتعلق بقيمة هذه الخبرة ، فلدينا معيار واحد هنا : الممارسة الاجتماعية والسياسية ـ نتائج التطور الاجتماعى والنمو الاقتصادى ، وتقوية الاشتراكية فى الممارسة . وتقوم الآن مراكزنا العلمية ، وصحافتنا ، واختصاصيونا ، بتحليل خبرة البلدان الشقيقة على نطاق أوسع بكثير وبنشاط أكبر بكثير حتى يطبقوها بشكل خلاق على الظروف السوفيتية .

وتبدى هذه البلدان من جانبها ، اهتماما كبيرا بما يحدث فى الاتحاد السوفيتى . وقد رأيت ذلك حينما التقيت بزعماء البلدان الاشتراكية ، وبالمواطنين العاديين خلال رحلاتى فى الخارج . وإليكم توضيح بسيط . فخلال رحلتى إلى

تشيكوسلوفاكيا ، أتيحت لى الفرصة للتحدث إلى الناس فى الشوارع وفى مصانع براغ ، وقد أخبرونى : « إن ماتفعلونه الآن هو الشيء السليم » . وأشار رجل شاب : « وهكذا يتلخص الأمر فى : تحدثوا الحقيقة ، واحبوا الحقيقة ، وتمنوا للآخرين الحقيقة » . وأضفت : « وتصرفوا وفقا للحقيقة . وهذا هو أصعب العلوم » . وواصلت كلامى لأقول : « إن الحياة أصعب من أى مدرسة ، فلا يأتى كل شيء بسهولة . ويكون عليك أن تتراجع أحيانا ، ثم تتقدم . ومن المؤلم أن تفكر وتحلل وتعيد التحليل ، ولكن لايجب أن تخشى من ذلك » .

وتتمثل النتيجة العامة التى خلصت إليها القيادة السوفيتية فى أننا يمكن أن نصل إلى مستوى جديد من الصداقة بين البلدان الاشتراكية عن طريق تطوير الصلات بين أسر العمل فيها والأفراد وكذلك من خلال تبادل الخبرة . إن صلاتنا فى كافة المجالات قد أصبحت أكثر قوة . وقد بدأنا بداية طيبة . وتلعب الشبكة الصلبة من الصلات على خطوط الحزب والدولة والجماهير دورا هاما بل وحاسما فى التعاون بين البلدان الشقيقة . ولدينا أنواع مختلفة من الصلات ـ من تلك التى بين المؤسسات ، وفرق العمل ، والأسر ، ومنظمات الأطفال والشباب ، والجامعات والمدارس ، والاتحادات الابداعية ، والشخصيات الثقافية والأفراد ، إلى الروابط الاقتصادية الدائمة بين مسئولى الإدارات ، وأعضاء الحكومة وامناء اللجنة المركزية .

وإليكم بضع كلمات عن علاقاتنا مع جمهورية الصين الشعبية ، حيث يتحقق فى عملية « التحديثات الأربعة » أفكار هامة للغاية أو فى عدة وجوه مثمرة . ونحن نرى فى الصين دولة اشتراكية عظمى ، ونتخذ خطوات محددة لضمان أن يجرى تطوير العلاقات الصينية السوفيتية بروح حسن الجوار والتعاون . وقد طرأ بالفعل تحسن ما . ونحن على قناعة بأن فترة الاغتراب قد ولَّت . وندعو رفاقنا الصينيين للعمل معنا من أجل تطوير العلاقات الطيبة بين بلدينا وشعبينا .

إن المرحلة الحالية من التطور التاريخى تفرض مطلبا ملحا على الدول الاشتراكية

بأن تزيد معدلاتها ، وأن تنتقل إلى مواقع اقتصادية وعلمية وتكنولوجية أكثر تقدما ، وأن تبرهن باقتناع على جاذبية طريقة الحياة الاشتراكية .

لقد كنا صريحين ومنتقدين لأنفسنا ، فى تقييمنا للتطور الماضى وتحملنا نصيبنا من اللوم عن جوانب فشل الأسرة الاشتراكية . وقد استجاب أصدقاؤنا بسرعة ، ومهد ذلك الطريق لإعادة بناء العلاقات ، وللوصول بها إلى مستوى عصرى جديد .

وقد انجزنا معا فى السنوات الأخيرة الكثير فى السياسة والاقتصاد وفى تبادل المعلومات . وإن كان هناك مالم ينجز حتى الآن فلا يجب أن يفقدنا ذلك أعصابنا . إننا نعمل بدأب ، ونستكشف مشارف جديدة . والشىء الرئيسى هو أننا على قناعة بأهمية التعاون وبالحاجة إلى تعزيزه . وفى المرحلة التاريخية الراهنة ، التى تعتبر فى الواقع نقطة انعطاف ، تعى الأحزاب الحاكمة فى البلدان الاشتراكية مسئوليتها الكبيرة ، وطنيا ودوليا ، وهى تتطلع بدأب إلى مزيد من الطرق لتسريع التنمية الاجتماعية . إن التوجه نحو التقدم العلمى والتكنولوجى ، ومسعى الشعب الخلاق ، وتطوير الديموقراطية ، هذا التوجه هو الضمان فى أن الاشتراكية فى الفترة القادمة ، وعلى عكس تنبؤات ذوى النوايا الشريرة ، سوف تكشف حتى بدرجة أكثر عن إمكانياتها الحقيقية كاملة .

لقد أصبحت التغييرات الثورية جزءاً لايتجزأ من العالم الاشتراكى الواسع . وهى تكتسب قوة دافعة مستمرة . وينطبق ذلك على البلدان الاشتراكية ، ولكنه إسهام أيضا فى تقدم الحضارة العالمية .

الفصل الخامس

العالم الثالث فى المجتمع الدولى

يعتبر ظهور أكثر من مائة دولة من بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية على المسرح الدولى ، وسلوكها طريق التطور المستقل ، إحدى الحقائق لعالم اليوم . ونحن نهلل لهذه الظاهرة للقرن العشرين . إن تلك البلدان عالم ضخم ومتنوع ، ومصالحه كبيرة ، ومشاكله صعبة . ونحن ندرك أن مستقبل الحضارة يتوقف على الكيفية التى يتطور بها هذا العالم .

إن المسئولية عن عشرات البلدان هذه والتى يصل مجموع سكانها إلى العديد من الملايين ، وعن تسخير إمكانياتها الهائلة لمصلحة تقدم العالم لاتقع على هذه البلدان وحدها .

فمن ناحية ، نرى فى العالم الثالث أمثلة من النمو الاقتصادى السريع وإن يكن غير متساوٍ وفيه معاناة . وقد أصبحت بلدان كثيرة منه دولاً صناعية حديثة ، وبعضها يتحول إلى دول عظمى . إن السياسة المستقلة لمعظم دول العالم الثالث ، والتى ترتكز على الكرامة الوطنية المكتسبة ، تؤثر بشكل متزايد على الشئون الدولية فى مجموعها .

ومن ناحية أخرى ، فإن الفقر ، وظروف المعيشة غير الإنسانية ، والأمية ، والجهل ، وسوء التغذية ، والمجاعة ، ومعدل وفيات الأطفال المنذر بالخطر ، والأوبئة ، لاتزال تشكل سمات مشتركة للحياة لبليونين ونصف من الناس ممن يقطنون هذه البلدان التى كانت مستعمرات وشبه مستعمرات سابقة . وهذه هى الحقيقة المرة . وفى أوائل الثمانينيات كان الدخل بالنسبة للفرد فى بلدان العالم الثالث أقل ١١ مرة عن الفرد فى البلدان الرأسمالية الصناعية . وهذه الفجوة تتسع بدلا من أن تضيق .

ومع ذلك ، تواصل الدول الغربية الفنية جمع «الجزية» الاستعمارية الجديدة . وخلال العقد الماضى وحده ، أدت أرباح الاحتكارات الأمريكية التى انتزعتها من البلدان النامية إلى مضاعفة الاستثمارات أربع مرات . وقد يسمى الأمريكيون هذا أعمالا مربحة ، ولكننا نقيم الوضع على نحو مختلف . وسأتعرض لذلك فيما بعد .

وتتحمل البلدان النامية عبء دين خارجى ضخم . وعند ربط هذا الدين المتنامى بحجم الأرباح التى تنقل إلى الخارج كل عام ، فإنه يعنى شيئا واحدا ـ نظرة كئيبة للتنمية وتفاقما محتوما للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من المشاكل التى بلغت بالفعل حد الخطورة البالغة .

وتحضرنى مناقشة اجريتها مع الرئيس ميتران . وتتلخص فيما يلى : تسعى كل مؤسسة رأسمالية بوضوح من أجل الحد الأقصى من الأرباح . ومع ذلك يضطر الرأسمالى أو الشركة ، تحت ضغط العمال ، أن يضع فى حسابه حقيقة أنه إذا ما أريد للمؤسسة أن تعمل بشكل فعال ، فمن الضرورى ضمان دخول الموظفين ، والتى رغم مستواها المنخفض فإنها تكفى لتمكينهم من استعادة قدراتهم الانتاجية ، والمحافظة على صحتهم ، والنهوض بمستواهم المهنى وتربية أطفالهم . والرأسمالى مضطر لأن يقوم بذلك ، لأنه يدرك أنه عندما يقوم به فإنه يضمن لنفسه الربح اليوم وغدا . بيد أن الرأسمالية فى مجموعها ، ممثلة فى بلدان الغرب ، لاتريد أن تدرك حتى هذه الحقيقة البسيطة فى علاقاتها مع مستعمراتها السابقة . لقد دفعت الرأسمالية العلاقات الاقتصادية مع آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى نقطة أصبح محكوما عندها على بلدان بأكملها بالركود الاقتصادى ، وبالعجز عن تلبية احتياجاتها الأساسية الخاصة ، والغرق فى ديون ضخمة .

وستكون هذه البلدان عاجزة ، بالطبع ، عن سداد هذه الديون فى ظل الأوضاع الحالية ، وإذا لم يوجد حل عادل ، فمن الممكن أن يحدث شىء . لقد تحول دين البلدان النامية إلى قنبلة موقوتة من نوع ردىء . ويمكن أن يكون للانفجار

نتائج تبعث على اليأس . ويتراكم الآن انفجار اجتماعى ذو قوة تدميرية هائلة .

وتعتبر ديون البلدان النامية واحدة من أخطر المشاكل فى العالم . وهذه المشكلة قائمة منذ وقت طويل . وجرى إما تأجيلها أو تجاهلها أو مناقشتها بشكل عام . إن زعماء الغرب يهونون من الخطر ، ويرفضون أن يروا خطورة الاضطرابات الاقتصادية التى قد تحدث . ولهذا السبب فإنهم يقترحون تدابير غير مدروسة ويحاولون حل الوضع بالمسكنات . وهناك عزوف واضح عن اتخاذ خطوات حقيقية وهامة لتطبيع التعاون الاقتصادى مع البلدان النامية .

وهناك حاجة إلى القيام بجهود واسعة إذا ما أردنا اجراء تغييرات حقيقية وإقامة نظام اقتصادى عالمى جديد . وسيكون طريقا شاقا وطويلا ، وينبغى أن يكون المرء على استعداد لأى تحول غير متوقع . وتتطلب إعادة بناء العلاقات الدولية وضع مصالح جميع البلدان فى الاعتبار ، كما تتطلب توازنا فى المصالح ، بيد أن الكثيرين لا يريدون أن يتنازلوا عن شىء من مصالحهم .

النزاعات الإقليمية

إن الحالة الرهيبة للبلدان النامية هى السبب الحقيقى لكثير من النزاعات فى آسيا ، وأفريقيا ، وأمريكا اللاتينية . وعند مناقشة ذلك مع الرئيس ريجان فى لقائنا فى جنيف ، أخبرته بأن على المرء أن يدرك أولا من أين تأتى النزاعات الإقليمية .

والحقيقة هى أنها ، رغم عدم تماثلها من حيث الجوهر ومن حيث طبيعة القوى المتعارضة ، فإنها تنشأ عادة على تربة محلية ، كنتيجة لنزاعات داخلية أو إقليمية ، أفرزها الماضى الاستعمارى ، والعمليات الاجتماعية الجديدة ، أو عودة سياسة النهب ، أو أفرزتها الثلاثة معا .

إن الأزمات والنزاعات تربة صالحة للإرهاب الدولى . ويعارض الاتحاد السوفيتى الإرهاب من حيث المبدأ ، وهو على استعداد لأن يتعاون بنشاط مع الدول

الأخرى لاجتثاث هذا الشر . ومن الملائم أن تتركز هذه المهمة داخل الأمم المتحدة . وقد يكون من المفيد أن تقيم تحت إشرافها محكمة للتحقيق فى أعمال الإرهاب الدولى . وخلال حوار ثنائى مع بلدان الغرب (جرى فى العام الماضى تبادل هام للآراء حول هذا الموضوع بيننا وبين الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا الاتحادية ، وإيطاليا ، وكندا ، والسويد) اتفقنا على وضع اجراءات فعالة لمقاومة الإرهاب . ونحن على استعداد للتوقيع على اتفاقيات على وضع اجراءات فعالة لمقاومة الإرهاب . ونحن على استعداد للتوقيع على اتفاقيات ثنائية خاصة ، وآمل أن تتسع فى السنوات القادمة جبهة النضال المشترك ضد الإرهاب الدولى. ولكن شيئا واحدا لايقبل الجدل إذا ما أردنا استئصال الإرهاب ، إذ من الضرورى إزالة الأسباب التى تولد النزاعات والإرهاب .

وغالبا ما قابلت ساسة غربيين بارزين يعتبرون وجود النزاعات الإقليمية ذاته نتاجا «لنشاط الكريملين التآمرى». فكيف تجرى الأمور حقا ؟ .

فى الشرق الأوسط ، يوجد منذ سنوات عديدة نزاع بين إسرائيل وجيرانها . وتوضع موسكو فى موضع الاتهام ، لأنها تعارض بثبات التوسع الإسرائيلى وتدافع عن الحقوق المشروعة للشعوب العربية ، ومن بينها الشعب العربى الفلسطينى . وتعزى إلى الاتحاد السوفيتى أوهام لا وجود لها بالعداوة لإسرائيل ، رغم أن بلادنا كانت من أوائل الدول التى شجعت قيام دولة إسرائيل .

إن الأمور الهامة تنبغى مناقشتها بشكل جاد . والشرق الأوسط عقدة مستعصية تتشابك فيها مصالح العديد من الدول . وسيظل الوضع هناك خطيرا . ونحن على قناعة بأن من المهم بالنسبة للشرق والغرب أن نحل هذه العقدة إنه مهم أيضا بالنسبة للعالم كله . ولكن هناك أيضا رأى يقول بأن مسائل الشرق الأوسط يستحيل حلها تماما . ومن الصعب حتى أن تفهم مثل هذا الموقف ، كما يستحيل الموافقة عليه لاعتبارات سياسية وأخلاقية على السواء . ومن حيث المنطق، فإن النتيجة الوحيدة

التى يمكن استخلاصها هو أن الوضع لابد وأن يزداد تفاقما ، وأنه لابد من اندلاع معارك جديدة ومزيد من المعاناة لشعوب المنطقة . أليس من الأفضل أن نتخذ موقفا إيجابيا ونساند جهود هؤلاء الذين يبحثون عن طرق لوضع حد لمأزق الشرق الأوسط عن طريق تسوية سياسية عادلة؟.

ونحن ندرك أنه فى ظل الأوضاع القائمة يصعب التوفيق بين مصالح الأطراف المتنازعة ، ومع ذلك فمن الضرورى أن نجد قاسما مشتركا بين مصالح العرب ، وإسرائيل وجاراتها والدول الأخرى . ومع ذلك فنحن لانريد بأية حال أن تؤدى عملية وضع تسوية للمشكلة ، أو أهداف هذه العملية ذاتها ، إلى المساس بطريقة ما بمصالح الولايات المتحدة والغرب . وكذلك لانرمى إلى دفع الولايات المتحدة خارج الشرق الأوسط ـ فهذا ببساطة تفكير غير واقعى ـ وكذلك الولايات المتحدة يجب ألا تربط نفسها بأهداف غير واقعية هى الأخرى .

والشىء الرئيسى فى هذه القضية هو أن نأخذ مصالح كافة الأطراف فى الاعتبار . ويفسر هذا ، بشكل خاص ، مبادرتنا التى مضت عليها فترة طويلة فيما يتعلق بعقد مؤتمر دولى للشرق الأوسط . وقد ذكرت ذلك فى محادثة لى مع جيمى كارتر . وقد استغرق الأمر من الأمريكيين عشر سنوات لكى يروا من خلال تجربتهم الخاصة ، رغم أنه كان بإمكانهم أن يعتمدوا على تجربة أسلافهم ، أن الصفقات المنفردة لانتيجة لها . والآن فقط ، وبعد أن مرت واشنطن بدورة « إعادة تأهيل » ، يبدو وكأنها تتحرك نحو تقييم أكثر واقعية للوضع وتعود إلى مناقشة أوسع لهذه المسائل .

ومن الضرورى أن تتحرك المفاوضات من مكانها . ويجب أن تدمج الاتصالات الثنائية والمتعددة الأطراف القائمة مع مسعى أكثر قوة وحيوية نحو تسوية سياسية عادلة ، وإذا لم يكن المؤتمر ليقدم مظلة لصفقات وخطوات منفردة ، وإذا كان يهدف إلى تسوية حقيقية فى الشرق الأوسط ، مع إيلاء مصالح البلدان العربية ، بما

فى ذلك مصالح الفلسطينيين وإسرائيل ، ماتستحقه من اعتبار ، فإننا على استعداد لتقديم كافة أنواع المساعدات والمشاركة فى كافة مراحل المؤتمر. وأن نفعل ذلك بشكل بناء .

وأود أن أؤكد فى هذا الخصوص أننا لانكن أى عداء لإسرائيل من حيث المبدأ . ونحن نعترف بحقها المشروع فى الوجود . ومع ذلك ، فإننا فى ظل الوضع الحالى وفى ضوء الأعمال التى ترتكبها إسرائيل ، لايمكننا أن نوافق على إقامة علاقات دبلوماسية معها . ولكن إذا ما تغير الوضع ، وإذا مارأينا إمكانية تطبيع وتسوية فى الشرق الأوسط ، فبإمكاننا إعادة النظر فى هذا الأمر. وليست لدينا أية عقد فى ذلك . أما فيما يتعلق بالاتصالات القائمة بالفعل بين بلدينا ، فلن نتخلى عنها .

ولنأخذ منطقة متفجرة أخرى من العالم ـ أمريكا الوسطى . فحول أى شىء يدور النزاع هناك؟ لقد أطيح بنظام سوموزا غير الشعبى فى نيكاراجوا ، وخرجت الثورة الشعبية ظافرة . ومرة أخرى ، أعلن أن ثورة الساندينستا مرفوضة لأنها « من صنع موسكو وكوبا » . وهذا هو التبرير الأيديولوجى النمطى المبتذل لحرب غير معلنة ضد بلد صغير كانت « خطيئته » الوحيدة أنه يريد أن يعيش بطريقته الخاصة ، ودون تدخل من الخارج . وبالمناسبة ، فإن ماحدث فى نيكاراجوا يبين مايمكن أن نتوقعه فى البلدان الأخرى . وإنه لما ينافى العقل أن نسمع مزاعم تقول بأن نيكاراجوا « تهدد » أمن الولايات المتحدة ، وأن القواعد العسكرية السوفيتية تجرى إقامتها هناك ـ القواعد التى يزعم الأمريكيون أنهم يعرفون عنها ، ولكننى من ناحيتى لم أسمع عنها إطلاقا .

وقد أجريت حوارا مع مارجريت تاتشر حول هذه النقطة . وقلت لها إن ظروف الحياة غير المحتملة قد أجبرت مواطنى نيكاراجوا على القيام بالثورة . وقد خلق هذه الظروف الأمريكيون أصدقاء بريطانيا ، الذين حولوا كل أمريكا الوسطى إلى فناء خلفى لهم ، مستنزفين مواردها بلا رحمة ، وهم الآن يتعجبون لماذا تثور الشعوب .

إن مايحدث فى نيكاراجوا هو من اختصاص الساندينستا وشعب نيكاراجوا . وكان حديثنا يتسم بالصراحة . وسألت السيدة تاتشر : «أنت تتهميننا بالتضامن مع نيكاراجوا ، ولكن هل تعتبرين أنه من الطبيعى تقديم مساعدات للتمييز العنصرى أو للعنصريين ؟ ألا تزعجكم الصورة التى تبدون بها أمام الرأى العام العالمى ؟ إننا نتعاطف مع حركات تحرير الشعوب التى تكافح من أجل العدالة الاجتماعية . ولكنكم ، كما أرى ، لاتفعلون ذلك . وهنا تختلف مواقفنا » .

والحقيقة أن الولايات المتحدة إذا تركت نيكاراجوا وشأنها تعيش فى سلام فإن ذلك سيكون أفضل للولايات المتحدة نفسها ، ولشعوب أمريكا اللاتينية . ولبقية العالم .

إن المشاكل المتفجرة لايمكن وضعها على الرف ، ولن تحل أو تختفى من تلقاء نفسها . إن الوضع فى جنوب أفريقيا كان عاصفا للغاية منذ زمن طويل . ويقاوم سكان جنوب أفريقيا كلا من التفرقة العنصرية والنظام القمعى غير الأخلاقى الذى تزداد عزلته . بيد أن الكثيرين فى الغرب يرون خلف هذا الموقف المتصارع مؤامرة شيوعية ونفوذ موسكو ، رغم أنه لايوجد أى أثر لوجود سوفيتى فى جنوب أفريقيا ، وهو ما لايمكن أن يقال عن الولايات المتحدة وحلفائها .

وينطبق نفس الشيء على الوضع فى منطقة الخليج . إن تقييم الاتحاد السوفيتى للوضع وأسباب تفاقمه معروف ، وقد جرى توضيح ذلك فى بيانات رسمية . كما اتخذ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قرارا يطالب بوقف إطلاق النار ووقف كل النشاط العسكرى وكذلك سحب إيران والعراق لقواتهما إلى الحدود المعترف بها دوليا . وقد صوَّت الاتحاد السوفيتى إلى جانب القرار . بيد أن الولايات المتحدة التى تتصرف على نحو يناقض قرار مجلس الأمن ، كانت تبحث عن ذريعة للتدخل فى النزاع الايرانى العراقى ، وتعمل على تعزيز تواجدها فى منطقة الخليج . وهى تزعم أن الاتحاد السوفيتى يهدد المصالح الغربية ، التى يجب أن تحمى ، وتعد بالإضافة إلى ذلك بأن تبقى فى الخليج حتى بعد أن ينتهى النزاع .

هذا هو تقييم جميع النزاعات الإقليمية من خلال منظور المواجهة السوفيتية الأمريكية . ولدينا انطباع بأن الولايات المتحدة تحتاج إلى النزاعات الإقليمية لكى تجد على الدوام فرصة للمناورة عن طريق التلاعب بمستوى المواجهة واستخدام سياسة القوة والدعاية المعادية للسوفيت . ويعتقد الاتحاد السوفيتى ، من الناحية الأخرى ، أن هذه النزاعات ينبغى ألا تستخدم فى إثارة مواجهة بين النظامين ، وبخاصة عندما تشمل الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة .

وطالما تناولت مسألة النزاعات الإقليمية ، فقد يسأل القارئ عما أراه بخصوص المسألة الافغانية . ربما لايكون معروفا عالميا أن أفغانستان كانت أول دولة يقيم معها الاتحاد السوفيتى علاقات دبلوماسية ، وقد كنا على الدوام على علاقات ودية مع هذا البلد ، ومع ملوكه ورؤسائه القبليين . وأفغانستان لديها بالتأكيد مشاكل كثيرة بسبب تخلفها الشديد ، الذى نشأ لدرجة كبيرة عن الحكم البريطانى . وعلى ذلك كان من الطبيعى تماما أن يرغب كثيرون من الأفغان فى مساعدة شعبهم فى التغلب على أنماط العصور الوسطى . وتحديث الدولة والمؤسسات العامة ، وفى الاسراع بالتقدم . ولكن بمجرد وضع معالم التغييرات التقدمية ، بدأت الدوائر الإمبريالية ضغطها على أفغانستان من الخارج . وهكذا ، فوفقا للمعاهدة السوفيتية الأفغانية طلب زعماء أفغانستان من الاتحاد السوفيتى المساعدة ، وخاطبونا إحدى عشرة مرة قبل أن نوافق على إدخال قوة عسكرية محدودة إلى هذا البلد .

ونحن نريد إعادة جنودنا إلى الوطن بأسرع مايمكن . لقد تمت تسوية المسألة فى الأساس . ولكنها ترتبط بضرورة تسوية الوضع حول أفغانستان سياسيا . ونحن نؤيد النهج الحالى للقيادة الأفغانية فى المصالحة الوطنية . والاتحاد السوفيتى يريد لأفغانستان أن تكون مستقلة ذات سيادة وغير منحازة كما كانت من قبل . وإنه من حقوق السيادة لشعب أفغانستان أن يقرر أى طريق يختار ، وأية حكومة يريد ، وأية برامج للتنمية ينفذ . والتدخل الأمريكى يؤخر انسحاب قواتنا ويعرقل تنفيذ سياسة المصالحة الوطنية ، ومن ثم تسوية المسألة الأفغانية برمتها . إن نقل صواريخ ستنجر

إلى العصابات المعادية للثورة ، والتى تستخدمها لإسقاط الطائرات المدنية ، هو ببساطة عمل لا أخلاقى ولامبرر له على الإطلاق .

لكل بلد الحق فى اختيار طريق تطوره الخاص

لكل بلد الحق فى أن يختار طريق تطوره الخاص ، وأن يتصرف فى مصيره ، وأرضه ، وموارده البشرية والطبيعية . ولا يمكن تطبيع العلاقات الدولية مالم تدرك ذلك كافة البلدان إذ أن الاختلافات الأيديولوجية والاجتماعية .. والاختلافات فى الأنظمة السياسية هى نتيجة للاختيار الذى قام به الشعب . والاختيار القومى يجب ألّا يستخدم فى العلاقات الدولية بطريقة تؤدى إلى خلق اتجاهات وأحداث يمكن أن تفجر النزاعات والمواجهة العسكرية .

لقد آن الأوان لكى يطرح زعماء الغرب جانبا سيكولوجية وأخطار الأزمنة الاستعمارية . وسيفعلون ذلك إن عاجلا أم آجلا . وطالما يواصل الغرب النظر إلى العالم الثالث باعتباره مجالا لنفوذه ، ويواصل ممارسة سيطرته هناك ، فسوف تستمر التوترات ، وستظهر بؤر جديدة مع تصاعد المقاومة المعادية للامبريالية .

ولا يحب معارضونا فى الغرب أن نتحدث إليهم بهذه الطريقة . فهم يفقدون السيطرة على أعصابهم ويزداد انزعاجهم حينما نسمى الأشياء بأسمائها . وهم يفسرون تقييماتنا بأنها تطاول على العلاقات التقليدية بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، فى المقام الأول ، والبلدان النامية ، فى المقام التالى . ويقولون إننا نرغب أن تتدنى مستويات المعيشة فى البلدان الرأسمالية .

وقد أوضحت فى مناسبات عديدة أن أهدافنا ليست موجهة ضد مصالح الغرب . ونحن نعرف مدى أهمية الشرق الأوسط ، وآسيا ، وأمريكا اللاتينية وغيرها من مناطق العالم وكذلك جنوب أفريقيا ، لاقتصاديات أمريكا وأوروبا الغربية وعلى الأخص كموارد للمواد الخام . وقطع هذه العلاقات هو آخر ما نصبو إليه ،

ولا تساورنا أية رغبة فى قطع هذه العلاقات الاقتصادية المتبادلة التى تشكلت تاريخيا .

لقد آن الأوان لأن نعترف بحق شعوب العالم الثالث فى أن يكونوا سادة أنفسهم لقد توصلت هذه الشعوب إلى استقلالها السياسى بعد سنوات عديدة من النضال الشاق . وهم يريدون تحقيق الاستقلال الاقتصادى كذلك . ويحظى زعماء هذه البلدان (وقد التقيت بعدد منهم شخصيا) بمساندة شعوبهم ويريدون أن يعملوا شيئا من أجلها . وهم يريدون أن تكون بلادهم مستقلة حقا وأن تتمكن من التعاون مع الآخرين على أساس متكافئ . ونحن نفهم رغبة هذه البلدان فى أن تستخدم مواردها الطبيعية والبشرية الضخمة من أجل التقدم الوطنى . وهم يريدون أن يعيشوا فى وضع لا يقل عن شعوب البلدان المتطورة . ولا يوجد لديهم الآن سوى سوء التغذية والأمراض . وتستغل الدول المتطورة مواردهم وتلحقها بدخلها القومى من خلال قنوات التبادل غير المتكافئ . ولن تقبل البلدان النامية هذا الوضع لزمن طويل .

وهذه إحدى حقائق عالمنا المعاصر التى لا يرغب الجميع فى الغرب أن يأخذوها فى الاعتبار ، رغم أنهم يعونها تماما . ولكنه أمر ينبغى أن يؤخذ فى الحساب ، وبخاصة لأنه يهم عشرات الدول .

وكلما أسرع الجميع إلى الاعتراف بهذه الحقيقة ، فى كافة القارات ، كلما أصبحت العلاقات الدولية طبيعية بصورة أسرع . وهذا أمر فى غاية الأهمية ، لأنها المسألة الرئيسية .

لقد آن الأوان لطرح المشكلة على نطاق عالمى ، والبحث عن طريق لحلها على أساس توازن المصالح وإيجاد أشكال تنظيمية لحلها فى إطار المجتمع الدولى . وتعتبر الأمم المتحدة أفضل محفل لمناقشة هذه المسألة . ونحن نعد مقترحاتنا فى هذا الشأن . وقد أحطت بيريز دى كويار السكرتير العام للأمم المتحدة علما بذلك خلال لقائنا

ورحب بفكرة طرح المسألة على الأمم المتحدة .

وتتمسك غالبية البلدان النامية بسياسة عدم الانحياز . وقد نشأت حركة عدم الانحياز على أساس هذا البرنامج لتوحد مايزيد على مائة بلد ، تضم غالبية سكان العالم . وأصبحت الحركة قوة جبارة وعاملا هاما فى الشئون الدولية . وهى تساعد على تشكيل نوع جديد من العلاقات الدولية ، رغم ما تتميز به الحركة من سمات وتفاوت . وتجسد حركة عدم الانحياز رغبة البلدان الحديثة التحرر فى التعاون مع بعضها على أساس متكافئ ، وفى إلغاء الإملاء ومحاولات الهيمنة فى العلاقات الدولية . ويتفهم الاتحاد السوفيتى أهداف الحركة ويتضامن معها .

وحتى وقت قريب ، اعتقد كثير من دول عدم الانحياز أن نزع السلاح وإزالة الترسانات النووية أمور تخص الدولتين العظميين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وأنها لاتهم كثيرا البلدان النامية . ومع ذلك أبدت الحركة تفهما عميقا للعلاقة القائمة بين نزع السلاح والتنمية وذلك فى المؤتمر الثامن لرؤساء دول وحكومات بلدان عدم الانحياز فى هرارى . وأعلنت هناك عن موقفها بشكل رسمى ، وهو موقف يستند إلى أسس قوية . وإذا ما أوقف سباق التسلح ، وتحقق نزع السلاح ، فسوف تتوفر موارد كافية لحل أخطر مشاكل العالم الثالث .

ولقد ناقشت العلاقة بين نزع السلاح والتنمية مع السيد بيريز دى كويار . واتفقنا على أن المسألة تستحق اهتماما كبيرا من منظمة الأمم المتحدة . وتقدم الاتحاد السوفيتى بمقترحات محددة إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة حول العلاقة بين نزع السلاح والتنمية . ورفضت الولايات المتحدة للأسف أن تشارك فى هذا المؤتمر .

ويرحب الاتحاد السوفيتى بهذه الحقيقة ويأخذها بعين الاعتبار فى سياسته الخارجية . واليوم ، لا تعتبر الدول الاشتراكية وحدها حركة عدم الانحياز عاملا إيجابيا وهاما فى السياسة العالمية بل يشاركها فى ذلك كثير من الدول الرأسمالية .

عقدة آسيا ـ المحيط الهادى

إن الشرق ، وعلى الأخص آسيا ومنطقة المحيط الهادى ، يعتبر الآن المكان الذى تسرع الحضارة فيه خطاها . ويتجه اقتصادنا فى تطوره نحو سيبريا والشرق الأقصى . ولذلك فنحن مهتمون حقا بتعزيز التعاون فى آسيا والمحيط الهادى .

والاتحاد السوفيتى بلد آسيوى ، كما هو أوروبى ، وهو يريد أن يرى لدى هذه المنطقة الضخمة ، آسيا والمحيط الهادى ، وهى المنطقة التى يرجح كثيرا أن تركز عليها السياسة العالمية فى القرن القادم ، كل ماتحتاجه لتحسين الأوضاع فيها ، وإن مصالح كافة الدول والموازنة بينها ، يوليان مايستحقان من اعتبار . ونحن نعارض أن تكون هذه المنطقة مجالا لأحد . ونريد للجميع فيها مساواة وتعاونا وأمنا حقيقيا .

وفى آسيا ، ربما لاتكون مسائل السلام أقل حدة وإيلاما منها فى مناطق أخرى من العالم ، بل هى أكثر فى بعض أجزائها . وكان من الطبيعى أن يتقدم الاتحاد السوفيتى والهند وغيرهما من الدول المعنية بذلك ، بمبادرات مختلفة فى أعوام مختلفة . وكانت المبادرة المعروفة أكثر هى اقتراح بتحويل المحيط الهندى إلى منطقة سلام . وقد أيدته الجمعية العامة للأمم المتحدة وحركة عدم الانحياز . وأصبح التعهد بعدم البدء باستخدام الأسلحة النووية ، وهو ما قطعه على نفسه كل من الاتحاد السوفيتى وجمهورية الصين الشعبية ، عاملا هاما للسلام ليس فى آسيا والمحيط الهادى فحسب ، بل وفى العالم كله فى الحقيقة .

وعندما قابلت لأول مرة فى مايو ١٩٨٥ ، باعتبارى سكرتيرا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، راجيف غاندى ، رئيس وزراء جمهورية الهند ، اقترحت أنه فى إطار المبادرات السابقة ، والتجربة الأوروبية ، سيكون من المستحسن أن نفكر مليا فى موقف عام ومتكامل من مسألة الأمن فى آسيا وفى إمكانية تنسيق جهود البلدان الآسيوية فى هذا الاتجاه . وأخذت هذه الفكرة تنضج عندما التقيت بزعماء دول أوروبا وبغيرهم من الشخصيات السياسية . وقارنت ،

على غير رغبة منى ، الوضع فى آسيا بالوضع فى أوروبا . ودفعنى ذلك إلى التفكير بأن منطقة المحيط الهادى تحتاج بدورها بسبب النزعة العسكرية المتصاعدة إلى نظام ما من «اجراءات الحماية» الخاصة ، كتلك التى نصت عليها عملية هلسنكى فى أوروبا .

وأكد التقرير السياسى للجنة المركزية إلى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى تزايد أهمية اتجاهات آسيا والمحيط الهادى فى السياسة الخارجية السوفيتية . وأعلنّا أن الحلول المحلية يجب البحث عنها دون إبطاء ، بادئين بالتنسيق ثم حشد الجهود للتوصل إلى تسويات سياسية للمشاكل الحساسة ، يمكنها فى خط متوازٍ ، وعلى هذا الأساس ، على الأقل بنزع حدة المواجهة العسكرية فى مختلف مناطق آسيا وإشاعة الاستقرار فى الوضع هناك . وقدمت المقترحات المتصلة بالموضوع فى فلاديفوستوك فى يوليو ١٩٨٦ (وكانت تتعلق بإقامة حاجز ضد انتشار وتعزيز الأسلحة النووية فى آسيا ومنطقة المحيط الهادى ، وتقليص النشاط البحرى فى المحيط الهادى ، وتخفيض القوات المسلحة والأسلحة التقليدية فى آسيا ، وتدابير بناء الثقة وعدم استخدام القوة فى هذه المنطقة) .

وبينما كنت فى زيارة لهذه المدينة بدا لى من المناسب على وجه الخصوص أن أدرس مسائل السياسة العالمية من زاوية آسيا والمحيط الهادى . وكان الوضع فى الشرق الأقصى بشكل عام ، فى آسيا ومناطق المحيط المجاورة ، حيث كنا نعيش ونبحر منذ وقت طويل يمثل أهمية قومية عظمى بالنسبة لنا . وهنا ، فى المساحات المترامية التى تغطى قرابة نصف الكرة الأرضية ، توجد بلدان رئيسية كبيرة ، من بينها الاتحاد السوفيتى ، والولايات المتحدة ، والهند ، والصين واليابان ، وفيتنام ، والمكسيك ، وأندونيسيا . كما تشمل أيضا دولا تعتبر متوسطة الحجم ، ولكنها كبيرة نسبيا بالمقاييس الأوروبية ـ كندا ، والفيلبين ، استراليا ونيوزيلندا ، وإلى جانبها عشرات من الدول الصغيرة والمتناهية الصغر .

وبهذه المناسبة ، فقد أثيرت ضجة كبيرة حول خطابى فى فلاديفوستوك . لقد

صدرت تلميحات عديدة بخصوص قرار الاتحاد السوفيتى « معالجة الوضع » فى المحيط الهادى وإقامة هيمنة سوفيتية هناك ، والعدوان ، بطبيعة الحال ، على المصالح الأمريكية فى المقام الأول . ولكننا اعتدنا بالفعل على مثل هذه الاستجابة ، استجابة « إنسان الكهف » لمبادراتنا . وكل محاولاتنا ، مهما كانت ، فى تحسسها لإقامة علاقات طيبة أو ببساطة علاقات دبلوماسية أو تجارية مع هذا البلد أو ذاك فى المنطقة كان ينظر إليها على الفور على أنها مخططات ماكرة .

لكن ماهى الحقائق ؟ بعد عام من رحلتى إلى الشرق الأقصى السوفيتى أدليت بحديث صحفى للصحيفة الأندونسية « ميرديكا » . وقد قيّم رئيس تحريرها ب . م . ضياء تقييما سليما تماما فحوى خطابى هناك على أنه دعوة لكافة دول المنطقة لمعالجة مشاكلها المشتركة حقا . ولكن عند تعداد البلدان نسى أن يذكر الولايات المتحدة . وقد لفت نظره إلى ذلك وقلت إننا نأمل فى التعاون مع الولايات المتحدة كذلك . ومن السخف التخمين بأن انشطتنا ومصلحتنا فى هذه المنطقة يشكلان خطرا على مصالح الآخرين . إن ما قيل فى فلاديفوستوك هو تعبير عن سياسة مدروسة . ولاينبغى أن يقلق أحد من ذلك . لقد أعلنا أننا على استعداد للتعاون مع الولايات المتحدة بنفس الطريقة التى نتعاون بها مع اليابان ورابطة دول جنوب شرقى آسيا ، والهند وغيرها من الدول ونحن ندعو الجميع لأن يعملوا معا من أجل السلام ومن أجل مصالح الجميع .

وعندما أجبت على رئيس تحرير « ميرديكا » ، ساندت نوايانا فى هذه المنطقة بمقترحات محددة جديدة ، أهمها الاقتراح بإزالة كافة الصواريخ المتوسطة المدى فى الجزء الآسيوى من الاتحاد السوفيتى ، وبالطبع على أساس « خيار الصفر » مع الولايات المتحدة .

وترتكز نظرتنا إلى هذا الجزء الهائل من العالم ، حيث تقع بلدان وشعوب مختلفة كثيرة ، على معرفة وفهم الحقائق الموجودة فيه . وترتكز مفاهيمنا حول وسائل ضمان

الأمن الدولى والتعاون السلمى فى آسيا والمحيط الهادى على هذه الحقائق ، وتنبع من رغبتنا الحقيقية فى بناء علاقات جديدة وعادلة فى هذه المنطقة بأكملها .

بعد ذلك بعام تمكنا من تحديد اتجاهات ايجابية عديدة ـ وقد ذكرتها فى حديثى مع رئيس تحرير « ميرديكا » . بيد أن التناقضات والتعقيدات لم تقل ، وتزايدت اتجاهات المواجهة . وهذا ما دفعنا إلى اقتراح تدابير إضافية لتخفيف حدة التوتر فى آسيا والمحيط الهادى ، وهى تدابير تعتبر تطويرا وتفصيلا لمبادرات فلاديفوستوك .

ونحن نتابع بحرص مواقف ومبادرات الدول الواقعة فى هذا الجزء من العالم . وقد ظهرت أخيرا أفكار بناءة وأصيلة ويجرى تداولها فى الاتصالات الإقليمية . إن السمات المحددة للنظرة العالمية للشعوب التى تعيش هناك ، وخبرتها التاريخية والسياسية وهويتها الثقافية يمكن أن تساعد لدرجة كبيرة فى حل مشاكل المنطقة ، ويمكن أن تقدم أفكارا مفهومة ومقبولة لدى الجميع .

لقد أثار إعجابنا الاسهام المتنامى لرابطة بلدان جنوب شرقى آسيا فى الشئون الدولية ، ونحن على استعداد لتطوير علاقاتنا مع كل بلد من بلدان الرابطة على حدة ، ومع الرابطة ككل ، مع الاحترام الواجب للإسهام المستقل الذى قدمته بلدان الرابطة بشكل فردى وجماعى لتحسين الوضع الدولى .

لماذا أتحدث عن أهمية النهج المستقل الذى تسلكه دول بمفردها أو مجموعة من الدول ؟ ليس لأننا بمساندتنا لمثل هذا الخط نود أن نعمل ضد مصالح الطرف الآخر ، وإنما لأن العلاقات الدولية الجديدة لايمكن بناؤها إلا على أساس نهج مستقل . وحتى الآن كانت العلاقات الدولية تعتمد بدرجة كبيرة على تحركات دول معينة أو مجموعة من الدول . ولكن ذلك لم يؤد إلى تحسين الوضع فى العالم . هذا هو درس الماضى الذى يجب أن يتعلمه كل الساسة ذوى العقلية الجادة . إن بناء علاقات جديدة فى عالمنا المعقد ، وفى منطقة على هذه الدرجة من التشابك مثل آسيا والمحيط الهادى ، لايمكن أن يقوم إلا عبر طريق التعاون حيث تلتقى معا مصالح

كل الدول . أما نمط العلاقات التى ورثناها عن الماضى ، والتى تقف فيها البلدان المستعمرة فى جانب والمستعمرات فى الجانب الآخر ، قد انقضى زمانه . ويجب أن يخلى الطريق لنمط جديد من العلاقات .

وقد جرت تعليقات كثيرة عندما اقترح عقد مؤتمر للمحيط الهادى فى المستقبل المنظور تحضره كافة الدول المطلة على المحيط . وقد طرحت هذه الفكرة كافتراض عملى مفيد ، أو لكى نكون أكثر دقة ، كدعوة إلى المناقشة . والتماثل مع هلسنكى يجد تفسيره فى حقيقة أن الأسرة العالمية ليس لديها بعد أى خبرة أخرى من هذا القبيل . بيد أن أى تجربة دولية فى عصرنا يكون لابد فيها من بعض السمات العامة ، العالمية .

ومن بين الأسئلة التى طرحتها علىّ صحيفة « ميرديكا » كان هذا السؤال : « كيف ترى دور الاتحاد السوفيتى فى تنمية التعاون الاقتصادى الإقليمى ؟ وتمشيا مع مفهوم بلادنا فى النمو الاقتصادى والاجتماعى المتسارع ، فإننا نولى اهتماما خاصا للمناطق شرقى الأورال التى تفوق قدرتها الاقتصادية الجزء الأوروبى من الاتحاد السوفيتى مرات عديدة ، ونحن على قناعة بأن الشركات والمشروعات المشتركة التى تقام بالتعاون مع دوائر الأعمال فى دول آسيا والمحيط الهادى يمكن أن تشارك فى استثمار ثروات هذه المناطق .

حول نزع السلاح النووى فى آسيا

وإذ يهتم الاتحاد السوفيتى بآراء وهموم بلدان آسيا ، فقد اتخذ خطوة هامة إلى الإمام بموافقته على « خيار الصفر المزدوج » فيما يتعلق بالصواريخ المتوسطة المدى والصواريخ التكتيكية . وأبدينا كذلك استعدادنا بألّا نزيد فى عدد الطائرات الحاملة للرءوس النووية فى الجزء الآسيوى من بلادنا إذا ما وافقت الولايات المتحدة بألا تنشر فى المنطقة أسلحة نووية إضافية يمكن أن تصل إلى الاتحاد السوفيتى . ونحن نتوقع بأن يعطى كل ذلك دفعة قوية لعملية نزع السلاح النووى فى آسيا .

ورغم تعقيد لوحة آسيا والمحيط الهادى وتصميمها المتعدد الألوان والتوزيع المتفاوت للألوان الفاتحة والداكنة فيها ، فإن تركيب الصورة العامة ، الأساسى والمعادى للأسلحة النووية ، تركيب واضح تماما . ومن الممكن أن تكون إحدى الخطوات الهامة فى هذا الاتجاه ، هى مثلا ، إقامة مناطق خالية من السلاح النووى . ومن المعروف أن الاتحاد السوفيتى قد وقع بروتوكولات معاهدة راروتونجا لإقامة مثل هذه المنطقة فى جنوب المحيط الهادى . كما نؤيد مقترحات البلدان الأخرى بإقامة مناطق خالية من السلاح النووى فى جنوب شرقى آسيا وشبه الجزيرة الكورية . كما يمكن لمؤتمر دولى بشأن المحيط الهندى أن يعزز مقاصد نزع السلاح النووى بدراسة وإقرار مسألة اعلان هذه المنطقة من العالم منطقة سلام .

إن أساليبنا ونظرتنا إلى نزع السلاح النووى فى آسيا وفى أوروبا متماثلة . ويجب أن يطبق نزع السلاح فى ظل اشراف دولى صارم ، بما فى ذلك التفتيش فى الموقع . ونحن نحث الولايات المتحدة على أن تبدأ محادثات حول الأسلحة النووية فى منطقة آسيا والمحيط الهادى ، وأن تحل هذه المشكلة على أساس المعاملة بالمثل ، مع المراعاة الصارمة للمصالح الأمنية للجميع .

هذا بشكل عام هو مفهومنا للطريقة التى يجب أن تُحل العقدة النووية الآسيوية وفقا لها. إن الدول الواقعة فى المنطقة يمكنها إذا ما تبنت المسألة أن تبدأ فى بناء نظام أمن إقليمى . فما الذى نعنيه بالفعل بالعلاقات الطبيعية والوقع المواتى لمنطقة يقطنها بليون ونصف من البشر. إن الأمر أشبه ببناء بيت ، يضع كل منا طوبة أو اثنين فى جدرانه كى نشيد صرحا للتعاون والتفاهم المتبادل خطوة خطوة ، من خلال الجهود المشتركة . وهذا هدف عظيم يتحدانا ولكنه ممكن .

ومن الممكن تعبئة جهود بلدان القارتين ـ أوروبا وآسيا ، فى هذا الاتجاه ، لتصبح عملية أوروبية آسيوية مشتركة تعطى دافعا قويا لنظام شامل للأمن الدولى .

وتقنعنا التطورات الأخيرة بصورة متزايدة بأن طرح مسألة الأمن لمنطقة آسيا

والمحيط الهادى من جانبنا كان صحيحا وأنه جاء فى وقته . فقد أبدى مؤخرا اهتماماً كبيراً فى البحث عن الطرق المؤدية إلى التعاون البناء على أساس إقليمى وقارى ؛ كما أصبحت علاقاتنا الثنائية مع بعض دول منطقة آسيا والمحيط الهادى أكثر دينامية .

العلاقات السوفيتية الهندية

إن الهند ، جارتنا الجنوبية ، التى يبلغ عدد سكانها ٨٠٠ مليون نسمة هى قوة كبيرة . وهى تحظى بنفوذ كبير فى حركة عدم الانحياز ، والعالم أجمع ، وتشكل عاملا حاسما للسلام فى آسيا وفى العالم .

ولقد تطورت العلاقات السوفيتية الهندية باطراد طوال سنوات عديدة . والتقيت براجيف غاندى ، رئيس وزراء الهند ، عدة مرات ، فى موسكو ودلهى على السواء . وتركت زيارتى للهند فى ١٩٨٦ انطباعا فى نفسى لا ينسى . وتبنينا خلال هذه الزيارة إعلان دلهى الذى ذاعت شهرته الآن .

والاهتمام العالمى بهذه الوثيقة أمر طبيعى. فإعلان دلهى لم يسبق له مثيل. إنه يكشف عن نظرة فلسفية سياسية جديدة تماما للعلاقات بين الدول . ويشكل الاعتراف بأولوية القيم الإنسانية العالمية فى هذا العصر، عصر الذرة والفضاء، يشكل الأساس الفلسفى والأخلاقى . ورغم أن الوثيقة قد وضعها دولتان ، فإن دلالتها تتخطى الحدود الثنائية والإقليمية .

ونفس ظهور إعلان دلهى يعكس الطبيعة الفريدة للعلاقات السوفيتية الهندية . إن لدينا أنظمة اجتماعية مختلفة ، لكن هذا لا يمنع من قيام نوع من التعاون بيننا يثرى الجانبين روحيا ويؤدى إلى اتفاق واسع فى الآراء حول مسائل الساعة الأساسية . وقد وصل كل بلد إلى النظرة التى يشاطره الآخر فيها بطريقته الخاصة ، ولديه دوافعه الخاصة لهذه المواقف .

والعلاقات السوفيتية الهندية نموذجية من عدة وجوه : فى محتواها السياسى ،

والاقتصادى، والعلمى، والتقنى والثقافى المتنوع، وفى الاحترام والحب الذى يكنه شعبانا لبعضهما البعض ، وفى الطابع العام لعلاقاتنا الذى يعكس ثقتنا المتبادلة ورغبتنا العميقة فى الصداقة . فكيف أمكن للهند والاتحاد السوفيتى ، وهما دولتان ذاتا أنظمة اجتماعية وسياسية مختلفة ، أن تعملا على تطوير علاقات من هذا النوع الرفيع ؟ لأن كلا منهما يقيم سياسته ـ ليس بالأقوال وإنما بالأفعال ـ على مبادئ السيادة والمساواة ، وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للآخرين ، والتعاون . وكلاهما يعترف بحق كل شعب فى أن يختار نظامه السياسى الخاص ونموذج تطوره الاجتماعى .

ولذلك فلدينا كل الحق فى أن نقول باعتزاز له كل ما يبرره بأن الاتحاد السوفيتى والهند يقدمان مثالا للعلاقات الطيبة بين الدول ، مثالا للآخرين ليحتذونه . ونحن نرى فى علاقاتنا نظاما عالميا يتفتح ، سوف يكون فيه التعايش السلمى ، والتعاون القائم على المنفعة المتبادلة القائمة على الارادة الطيبة ، سوف يكونان نموذجين عالميين .

عند خط فاصل صعب

التقيت فى فترة العام ونصف العام الماضية بالعديد من الزعماء السياسيين فى أفريقيا (والتقيت ببعضهم أكثر من مرة) ، وأجريت مناقشات شاملة معهم . وكان من بينهم جبريل موجابى ، ومانجستو هيل ماريام ، ومارسلينو دوش سانتوش ، وأوليفر تامبو، وموسى تراورى، ومشيوكريكو، والشاذلى بن جديد. وكلهم زعماء وطنيون ذوى نفوذ كبير ومعترف بهم على نطاق واسع . وخرجت من محادثاتى معهم بانطباع بأن أفريقيا تمر بفترة نشطة من تطورها تتطلب مسئوليات . إن أفريقيا فى حالة اختمار، وتجرى بها تغييرات حيوية ، كما يواجه هذا الجزء من العالم مشاكل جادة عديدة .

ونحن لا ننظر إلى أفريقيا كقارة متجانسة تتطور فيها كافة العمليات وفقا لنفس

النموذج . وكأى بلد آخر فى العالم ، يمتلك كل بلد أفريقى سماته الخاصة المميزة ويرسم سياسته وفق هواه . والزعماء الأفارقة مختلفون كذلك . وقد ظل بعضهم فى الرئاسة لفترات طويلة نسبيا ، لدرجة أن العالم يعرفهم . بينما ظهر آخرون حديثا على المسرح الأفريقى والعالمى ، وهؤلاء يكتسبون خبرة عملية .

إننا نقدر تماما المهام الضخمة التى تواجه الأنظمة التقدمية فى أفريقيا . والحقيقة أن البلدان الأفريقية ارتبطت تاريخيا بالبلدان الاستعمارية الأم السابقة ، وما يزال بعضها يواصل اعتماده عليها اقتصاديا . ورغم أن الإمبريالية تعمل على الاحتفاظ بمواقعها بوسائل اقتصادية ومالية ، وحتى باللجوء إلى السلاح ، فإن الدول الافريقية المعنية مصممة على انتهاج المسار الذى يدعم مكاسبها .

ويساند الاتحاد السوفيتى هذه الجهود وهذه السياسة ، لأن السيادة السياسية المنيعة ، والاستقلال الاقتصادى يمكن أن يقدما أساسا سليما للعلاقات الدولية فى عالم اليوم . إن كل بلد أفريقى له حق مشروع فى الاختيار الحر لطريق تطوره . ونحن ندين بحزم كافة محاولات التدخل فى شئونه الداخلية . وقد عمل بلدنا على الدوام ، وسيستمر فى العمل من أجل مساندة نضال التحرر الوطنى لشعوب أفريقيا ، بما فى ذلك شعب جنوب أفريقيا ، حيث تقع إحدى القلاع الأخيرة للعنصرية .

وعندما التقيت باوليفر تامبو ، رئيس المؤتمر الوطنى الأفريقى ، قلت له : « إننا نساندكم فى نضالكم ضد نظام التفرقة العنصرية وأذنابه ، ومن أجل دولة ديموقراطية وتطور مستقل ، ومن أجل المساواة بين كافة الأجناس والمجموعات العرقية . ومما له دلالته ، أن أعداداً متزايدة من البيض فى جنوب أفريقيا يدينون التفرقة العنصرية ويعلنون عن مساندتهم لأهداف المؤتمر الوطنى الأفريقى ، ويسعون إلى إقامة علاقات معه . ويبرهن ذلك مرة أخرى أنه لا مستقبل للتمييز العنصرى » .

ولدينا علاقات صداقة مع دول المواجهة فى جنوب أفريقيا . ونحن نؤيد مواقفها العادلة وندين بقوة أعمال جنوب أفريقيا المعادية ضدهم .

وليس للاتحاد السوفيتي أية مصالح خاصة فى جنوب أفريقيا . نحن نريد شيئا واحدا فقط . ينبغى أن تحصل شعوب ودول المنطقة فى النهاية على الفرصة لحل قضايا نموها وتطورها ، وتصريف شئونها الداخلية والخارجية بشكل مستقل وفى سلام واستقرار .

أمريكا اللاتينية : زمن التغير الكبير

ونحن ننطلق كذلك من نفس المبادئ العامة فى علاقاتنا ببلدان أمريكا اللاتينية . إن لهذا الجزء من العالم تقاليد فريدة وقدرات ضخمة . وتبدى بلدانها مسعى كبيرا لمستقبل أفضل. وهى ترغب فى أن تحقق آمالها رغم كل العقبات. إن الطريق إلى الحرية طريق صعب على الدوام ، ولكننا على يقين من أن حركة أمريكا اللاتينية من أجل التقدم ستكتسب قوة دافعة .

إن القوى والدعاية اليمينية فى الولايات المتحدة تصور اهتمامنا بأمريكا اللاتينية بأنه يرمى إلى تدبير سلسلة من «الثورات الاشتراكية» هناك. لغو فارغ ! إن الطريقة التى تصرفنا بها لعشرات السنين تبرهن على أننا لا نخطط لأى شىء من هذا القبيل ، ومثل هذه المخططات تتعارض مع نظريتنا ، ومبادئنا ، وكل مفاهيمنا للسياسة الخارجية .

لقد قلت للرئيس ريجان : «لقد نظرتم لعقود كثيرة إلى أمريكا اللاتينية باعتبارها عتبة بابكم ، وتصرفتم هناك على هذا الأساس . وتحملت الشعوب نتيجة لذلك ما فيه الكفاية . وإنه لمن صميم شئونها أن تحقق آمانيها بوسائل سلمية أو عسكرية ، فأنتم الذين زرعتم قنبلة فى أمريكا اللاتينية فى شكل دينها الخارجى الضخم . ولابد أن تفكروا حقا فى ذلك» .

وربما تفهم الدوائر الحاكمة الأمريكية ذلك فعلا ، ولكنها لن تعترف به ، لأنه سيكون عليها عندئذ أن تغير سياستها . وسيرى كل امرئ أن «يد موسكو» ليست إلا أكذوبة كبرى .

ونحن نتعاطف بالفعل مع بلدان أمريكا اللاتينية فى نضالها من أجل تأكيد استقلالها فى كافة المجالات ، وتحطيم كافة أغلال الاستعمار الجديد ، ولم نخف ذلك أبدا . ونحن نقدر كثيرا السياسة الخارجية النشطة للمكسيك والأرجنتين ، ومواقفهما المسئولة حول نزع السلاح والأمن الدولى ، وإسهامهما فى مبادرات الدول الست . ونحن نؤيد الجهود السلمية لمجموعة الكونتادورا ، ومبادرات رؤساء دول أمريكا الوسطى ، واتفاق جواتيمالا . ونحن نرحب بالتغيرات الديموقراطية فى عديد من بلدان أمريكا اللاتينية ، ونقدر التضامن المتزايد بين بلدان القارة ، والذى سيساعد فى المحافظة على سيادتها الوطنية وتعزيزها .

وفى نفس الوقت ، أود أن أؤكد مرة أخرى أننا لا نسعى لأى مكاسب لأنفسنا فى أمريكا اللاتينية . فلسنا بحاجة لا لموادها الخام ولا لليد العاملة الرخيصة . ولن نستغل المواقف المعادية للولايات المتحدة ، ناهيك عن تغذيتها ، ولن ننوى إضعاف العلاقات التقليدية بين أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة . إن ذلك سيكون نزعة إلى المغامرة وليس سياسة متعقلة ، ونحن واقعيون ، ولسنا مغامرين متهورين .

بيدأن تعاطفنا يظل على الدوام مع الشعوب التى تكافح من أجل الحرية والاستقلال . ويجب ألا يكون هناك أى سوء فهم حول هذا الموضوع .

التعاون ، وليس المواجهة

إننى على قناعة بأن الجنس البشرى قد دخل مرحلة نعتمد فيها جميعا على بعضنا البعض . ولا ينبغى اعتبار أى بلد أو شعب فى عزلة تامة عن غيره ، ناهيك عن دفعه إلى موقف المجابهة مع الآخرين . وهذا ماتسميه مفرداتنا الشيوعية بالأممية ، وهى تعنى القيم الإنسانية العالمية .

وسيكون على الدوائر الحاكمة فى الغرب أن تعمل حسابا فى النهاية لمصالح شعوب العالم الثالث . وقد سألت جارى هارت ذات مرة : «ألا يمكن

لأمريكا أن تقدم سياسة مختلفة للبلدان النامية غير السياسة التى تتبعها الآن ؟ إن بإمكان الولايات المتحدة أن تفعل الكثير لبناء العلاقات بين الدول ، ولن تفقد شيئا من الناحية الاقتصادية فى هذه العملية. بل على العكس، سوف تكسب من ذلك . فلماذا ترفض الولايات المتحدة الفرصة السانحة كما لو كانت لا تعرف أى وجه من خبزها يدهن بالزبد ؟ » .

يتوقف الشىء الكثير على موقف الولايات المتحدة والغرب ككل ، وفى المقام الأول ، يتوقف عليها ما إذا كنا سنتمكن من حل عقدة مشاكل العالم المعاصر ونتخطى الطريق المسدود أمام الامكانيات الحالية للتطوير ، وإذا ما نجحنا فى بناء علاقات جديدة ترتكز على المساواة والاعتبار الواجب لمصالح كل طرف . فلماذا نكون فى حاجة إلى الآلة العسكرية القائمة والتى صممت لتكون أداة لسياسة خارجية توسعية ؟ .

وإنه لأمر مفهوم ، أن هذه الآلة قد بنيت على امتداد قرون ، وليس من السهل تدميرها فى يوم وليلة . لكننا اقتربنا من النقطة التى يجب أن نحطمها فيها ، لأن ملايين الآسيويين والافريقيين والأمريكيين اللاتينيين يريدون أن يعيشوا كآدميين . وأنا على قناعة بأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى يمكنهما الاسهام كثيرا فى البحث عن طرق لإقامة علاقات عالمية جديدة .

ونحن ندعو الإدارة الأمريكية إلى التعاون معنا فى البحث عن حلول لمشاكل العالم الثالث . وهناك طرق أخرى غير الإكراه للقيام بذلك . ومانقترحه واقعى تماما . فلابد أن تجد الولايات المتحدة طريقا لتحويل جبروتها ، ورأسمالها ـ وكل ما يبدّد حاليا فى الأغراض العسكرية ـ إلى تلبية الاحتياجات المختلفة ، وإلى حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية للعالم الثالث . وأنا على يقين من أن هذا ممكن تماما . وبالإضافة إلى ذلك فبإمكان الولايات المتحدة أن تضم إليها البلدان الغربية الأخرى . وهل لى أن أكرر أن ذلك كله لن يعود عليها إلا بالكسب الكثير .

الفصل السادس

أوروبا فى السياسة الخارجية السوفيتية

هل لى الآن أن أقدم تعليقا شخصيا . لقد قمت بأول رحلة إلى الخارج كسكرتير عام للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى إلى فرنسا فى أكتوبر ١٩٨٥ . وقبل ذلك بعام ، فى ديسمبر ١٩٨٤ ، قمت بزيارة بريطانيا على رأس وفد من السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتى . وهاتان الرحلتان دفعتانى إلى التفكير فى أشياء كثيرة ، أولها ، يتعلق بدور أوروبا ومكانها فى العالم .

وأعرب فرانسوا ميتران عمّا بدا لى فى ذلك الوقت أنه فكرة هامة . إذ قال : «لماذا لا نفترض إمكانية التقدم التدريجى نحو سياسة أوروبية أوسع ؟» وبعد ذلك بعام ، قال لى فى موسكو : « من الضرورى أن تصبح أوروبا حقا ، العامل الرئيسى فى تاريخها الخاص من جديد حتى يمكنها أن تلعب دورها كعامل للتوازن والاستقرار فى الشئون الدولية » . وسارت أفكارى فى نفس الخط . وساعدتنى علاقاتى المباشرة مع زعماء الدولتين الرئيسيتين فى أوروبا الغربية ومع البرلمانيين وممثلى الأحزاب السياسية ودوائر الأعمال على التوصل إلى تقييم أدق للوضع فى أوروبا .

وفى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى ، تميز الاتجاه الأوروبى فى سياستنا الخارجية بأهميته الكبيرة . وبودنا أن يفهم كل امرئ على نحو صحيح موقف القيادة السوفيتية فيما يتعلق بأوروبا الغربية .

وقبل المؤتمر وخلاله على السواء التقيت بشخصيات بارزة عديدة فى أوروبا الغربية تنتمى إلى معسكرات سياسية مختلفة وتحدثت معها ، وقد أكدت هذه الاتصالات أن دول أوروبا الغربية تهتم كذلك بتطوير العلاقات مع الاتحاد

السوفيتى . وتحتل بلادنا مكانا بارزا فى سياستها الخارجية .

فلماذا هذا الاهتمام الكبير بأوروبا ؟ .

ميراث التاريخ

يحاول البعض فى الغرب أن «يستبعد» الاتحاد السوفيتى من أوروبا . ومن حين لآخر ، وكما لو كان عن غير قصد ، يساوون مفهومى «أوروبا» و «أوروبا الغربية» . ومع ذلك ، فإن مثل هذه الألاعيب لا يمكنها أن تغير الحقائق الجغرافية والتاريخية . إن علاقات روسيا التجارية والثقافية والسياسية مع شعوب أوروبا ودولها الأخرى لها جذور عميقة فى التاريخ . ونحن أوروبيون . لقد كانت المسيحية توحد روسيا القديمة مع أوروبا ، وسوف نحتفل فى العام القادم (١٩٨٨) بمرور ألف عام على دخول المسيحية أرض أسلافنا . وتاريخ روسيا هو جزء عضوى من التاريخ الأوروبى العظيم . لقد ساهم الروس ، والأوكرانيون ، والبيلوروسيون ، والمولدافيون ، والليتوانيون ، والليثيون ، والاستونيون ، والكاريليون وغيرهم من شعوب بلادنا إسهاما ذا شأن فى تطور الحضارة الأوروبية ، ولذلك فإنهم يعتبرون أنفسهم ورثتها الشرعيين .

وتاريخنا الأوروبى المشترك معقد وغنى بالدروس ، عظيم ومأساوى . إنه جدير بالدراسة لنتعلم منه .

ومنذ عهد طويل ، كانت الحروب معالم رئيسية على الطريق فى تاريخ أوروبا . وفى القرن العشرين ، كانت القارة مرتعا لحربين عالميتين ـ أكثر الحروب دموية ودمارا عرفتها البشرية . وقدم شعبنا أعظم التضحيات على مذبح النضال التحريرى ضد الفاشية . ومات ما يزيد على عشرين مليون مواطن سوفيتى فى هذه الحرب الرهيبة .

ونحن لا نذكر ذلك هنا لكى نقلل بأى حال من دور البلدان الأوروبية

الأخرى فى الكفاح ضد الفاشية . فالشعب السوفيتى يحترم إسهام كافة دول الائتلاف المعادى للهتلرية ومقاتلى المقاومة ، فى هزيمة ودحر الخطر الفاشى ، ولكننا لا يمكن أبدا أن نتفق مع الرأى الذى يقول بأن الاتحاد السوفيتى لم ينضم إلى القتال ضد ألمانيا النازية إلا فى عام ١٩٤١ ، بينما كان على الآخرين أن يحاربو هتلر قبل ذلك « وحدهم » .

وعندما أخبرتنى السيدة تاتشر شيئا بهذا المعنى ، عارضته ، وذكّرتها بأن الاتحاد السوفيتى قد حارب ضد الفاشية سياسيا من ١٩٣٣ ، وبالسلاح أيضا من ١٩٣٦ ، بمساعدته الحكومة الجمهورية فى أسبانيا . أما فيما يتعلق بميثاق عدم الاعتداء مع ألمانيا (الذى يشوه خصومنا على الدوام مغزاه) فقد كان من الممكن تجنبه ، كما كان يمكن تجنب أشياء أخرى عديدة ، لو وافقت الدوائر الحاكمة فى بريطانيا وفرنسا على التعاون مع الاتحاد السوفيتى ضد المعتدى فى ذلك الوقت .

ومن الذى سلم تشيكوسلوفاكيا للنازيين ، لقد قال تشمبرلين لدى عودته من ميونيخ : إنه أتى بالسلام للشعب البريطانى . ولكن فى الحقيقة دارت الأمور فى الاتجاه الآخر .. لقد أتى لهم بالحرب . ويرجع ذلك أساسا إلى أن الحكام البريطانيين كانت تسيطر عليهم فكرة واحدة فقط : كيف يحولون هتلر ضد الشرق ، ضد الاتحاد السوفيتى ، وكيف يسحقون الشيوعية .

وأنا لا أريد تبسيط الأمور ، لأن دول أوروبا الشرقية تلقت كذلك إرثا صعبا . ولنأخذ على سبيل المثال ، العلاقات بين روسيا وبولندا . لقد كانت معقدة لقرون عديدة نتيجة الصراع بين الدوائر الحاكمة فى كلا البلدين . لقد دفع الملوك والقياصرة ، البولنديون لمحاربة الروس ، والروس لمحاربة البولنديين . وكل هذه الحروب والعنف وأعمال الغزو أدت إلى تسمم روح الشعبين وأثارت العداوة المتبادلة .

وكانت الاشتراكية بمثابة انعطاف جذرى فى التاريخ الذى امتد قرونا لهذا الجزء

من العالم . وقد خلقت هزيمة الفاشية وانتصار الثورات الاشتراكية فى بلدان أوروبا الشرقية وضعا جديدا فى القارة . فقد ظهرت قوة جبارة شرعت فى تحطيم السلسلة التى لا نهاية لها من النزاعات المسلحة . والآن تدخل شعوب أوروبا عقدا خامسا دون أية حرب .

ومع ذلك تظل أوروبا معتركا لمواجهات أيديولوجية وسياسية وعسكرية حادة . والبعض يرجع تقسيم أوروبا إلى مؤتمرى يالتا وبوتسدام ويشككون فى الاتفاقيات التاريخية التى وقعت هناك . ولكن هذا لا يعدو أن يكون قلبا للحقائق رأسا على عقب. لقد وضعت يالتا وبوتسدام الأساس لترتيبات مابعد الحرب فى أوروبا. وهى اتفاقات حيوية لأنها كانت فى جوهرها معادية للفاشية وديموقراطية . وقد نصت على إزالة «نظام هتلر الجديد» الذى حرم شعوبا ودولا بأكملها من الاستقلال وحتى من الأمل فى الحرية والسيادة . وأدى منطق التفكير السياسى القديم إلى تقسيم أوروبا إلى كتلتين عسكريتين متعارضتين . وهناك قول رائج فى الغرب يقول إن أوروبا جرى تقسيمها بواسطة الشيوعيين . ولكن ماذا عن خطاب تشرشل فى فولتون ؟ أو مبدأ ترومان ؟ لقد بدأ تقسيم أوروبا بواسطة الذين حققوا تفكك الائتلاف المعادى لهتلر ، وشنوا الحرب الباردة ضد البلدان الاشتراكية ، وأقاموا حلف شمال الاطلنطى كأداة للمواجهة العسكرية السياسية فى أوروبا. وينبغى أن نكرر أن معاهدة وارسو وُقِّعت بعد إقامة حلف الأطلنطى .

ونتيجة لقيام حلف الأطلنطى ، وجدت أوروبا نفسها مرة أخرى تحت نير عربة الحرب ، وفى هذه المرة محملة بمتفجرات نووية . واليوم ينبغى إلقاء اللوم الأساسى عن استمرار تقسيم أوروبا على الذين حولوها إلى ميدان للمواجهة الصاروخية النووية ، والذين يدعون إلى إعادة النظر فى الحدود الأوروبية ، متجاهلين الحقائق الاقليمية السياسية .

وكبداية ، فقد اقترحنا مرارا التخلص من الأحلاف العسكرية ، أو على الأقل

من الجناحين العسكريين للحلفين . ولكن حيث أن اقتراحنا هذا لم يلق القبول ، فينبغى أن نأخذ هذه الحقيقة فى الاعتبار أيضا . وحتى مع ذلك ، فنحن على قناعة بأنه بأحلاف أو بدون أحلاف ، علينا أن نمهد الطريق لعالم أفضل ولعلاقات دولية يمكن أن تؤدى فى مرحلة لاحقة إلى حل كافة الأحلاف العسكرية .

لقد كان هناك عدد لا بأس به من الأحداث والأوضاع المأساوية فى تاريخ أوروبا ما بعد الحرب ، ولكن دول أوروبا حسمت خيارها ، على أية حال ، وفقا للظروف والفرص الملموسة : فقد ظلت بعضها رأسمالية بينما سارت أخرى نحو الاشتراكية . ولا يمكن انتهاج سياسة أوروبية مشتركة حقا وارساء عملية أوروبية حقا إلا على أساس الاعتراف بهذه الحقيقة واحترامها .

ونحن نرفض الاعتقاد بأن مصير أوروبا محتوم عليه المواجهة بين حلفين والإعداد المستمر للحرب ضد بعضها البعض . إن البلدان الاشتراكية لم تربط نفسها بهذا الأفق وهو ما تؤكده المبادرة التى قدمتها ، والتى أدت بكل أوروبا والولايات المتحدة وكندا إلى هلسنكى . وقد بينت الوثيقة الختامية التى وقعت هناك السبل الحقيقية للتوصل إلى وحدة القارة على أساس سلمى ومتكافئ .

ومع ذلك ، فإن الدافع الذى قدمه المؤتمر الشهير فى عاصمة فنلندا بدأ يخبو تحت ضغط رياح « حرب باردة » ثانية . وقد قيل الكثير فى أسباب ذلك ، ولكن ليس هذا هو مانتحدث عنه الآن . وعن طريق النقد الذاتى سأذكر مجرد أحد هذه الأسباب : ازدياد ضعف المواقع الاقتصادية للاشتراكية وهو ما سمحنا به فى أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات . ومن ناحية أخرى ، فإن هذا يثبت مرة أخرى ، على عكس ماحدث ، أنه من المفروض أن تلعب الاشتراكية الدور الحاسم فى قهر أعداء الانفراج وتطبيع العلاقات بين كافة الدول الأوروبية لتجعلها علاقات حسن جوار . وعندما تضعف الاشتراكية تندفع النزعة العسكرية ، وسياسات القوة والطموحات الامبريالية .

واليوم يضطلع الاتحاد السوفيتى والأسرة الاشتراكية بالمبادرة مرة أخرى ، وعن طريق تعزيز الاشتراكية ، فإننا نضفى قوة إضافية وحيوية على عملية هلسنكى لقد آن الأوان ليدرك كل فرد الحقيقة البسيطة وهى أن الحواجز القائمة لايمكن تخطيها إذا مافرض الغرب طرقه على الشرق والعكس . وعلينا أن نتحول عن طريق الجهود المشتركة من المواجهة والمنافسة العسكرية إلى التعايش السلمى والتعاون القائم على المنفعة المتبادلة . وعن طريق هذا الفهم فقط يمكن توحيد قارتنا .

أوروبا بيتنا المشترك

خطر إلى ذهنى هذا التشبيه فى إحدى مناقشاتى . ورغم أننى استخدمته على مايبدو بشكل عابر ، فقد كنت أبحث فى ذهنى عن مثل هذه الصيغة منذ وقت طويل ، وعلى الأخص ، بعد لقاءات مع العديد من الزعماء الأوروبيين .

وبعد أن هيأت نفسى لنظرة سياسية جديدة ، لم أعد أقبل طريقة أوروبا السياسية المتعددة الألوان المزركشة كملاءة اللحاف . لقد شبعت القارة حروبا ودموعا . وكان لدينا مافيه الكفاية . وعندما ألقيت نظرة عاجلة على الخريطة المتسعة لهذه البلاد التى عانت طويلا وفكرت فى الجذور المشتركة لهذه الحضارة الأوروبية المتعددة الأشكال والمشتركة فى جوهرها ، شعرت بحدة متزايدة بأن وجود حلف فى مواجهة حلف والطبيعة البالية « للستار الحديدى » أمر مصطنع ومؤقت . وربما كانت هذه هى الطريقة التى قفزت بها إلى ذهنى فكرة البيت الأوروبى المشترك . وفى اللحظة المناسبة صدر عنى هذا التعبير من تلقاء نفسه .

ثم بدأت له حياته الخاصة ، كما نقول ، وظهر فى الصحافة . وكان هناك بعض اللوم أيضا ، فقد قيل إنه تعبير مجرد ولامعنى له . ولذلك قررت أن أطرح كل آرائى بخصوص هذا الأمر . وواتتنى فرصة مناسبة خلال زيارتى لتشيكوسلوفاكيا ، التى تقع على وجه الدقة فى وسط أوروبا جغرافيا . ودفع ذلك إلى « الفكرة الأوروبية » فى خطابى العام فى براغ .

وأوروبا فى الحقيقة بيت مشترك ربط فيه كل من الجغرافيا والتاريخ ، وبشكل وثيق ، بين مصائر عشرات البلدان والشعوب وبطبيعة الحال ، فإن لكل من هذه البلدان والشعوب مشاكله الخاصة ، وكل منها يريد أن يحيا حياته الخاصة ، وأن يتبع تقاليده الخاصة . ولذلك فإذا أراد المرء أن يطور الاستعارة ، لأمكنه أن يقول : إن البيت مشترك ، وهذا صحيح ، ولكن لكل أسرة شقتها الخاصة ، وهناك مداخل مختلفة أيضا . ولكن بإمكان الأوروبيين أن ينقذوا بيتهم ، وأن يحموه ضد الحريق وضد الكوارث الأخرى ، وأن يجعلوه أفضل وأكثر أمنا ، ويحافظوا عليه فى وضع مناسب ، فقط إذا عملوا معا ، وبشكل جماعى ، واتبعوا القواعد المعقولة للتعايش السلمى .

وقد يعتبر بعض الناس هذا خيالا جميلا . ولكنه ليس بخيال ، إنه نتيجة لتحليل دقيق للوضع فى القارة وإذا كان العالم يحتاج إلى علاقات جديدة ، فإن أوروبا تحتاجها قبل كل شىء . وبإمكاننا القول إن شعوب أوروبا قد أدركتها خلال المعاناة ، وهى تستحقها .

ومفهوم « البيت الأوروبى المشترك » يوحى قبل كل شىء بدرجة من التكامل ، حتى ولو كانت دولها تنتمى إلى أنظمة اجتماعية مختلفة وأحلاف عسكرية سياسية متعارضة . إنه يجمع بين الضرورة والامكانية .

الضـرورة : حتميـات سـياسة لكل أوروبا

بإمكان المرء أن يذكر عددا من الظروف الموضوعية التى تخلق الحاجة إلى سياسة لكل أوروبا .

١ ـ إن أوروبا الكثيفة السكان والعالية التحضر تعج بالأسلحة ، النووية والتقليدية على السواء ، وقد يكون غير كاف أن نطلق عليها اليوم أنها « برميل بارود » . إن قوى المجموعتين العسكريتين ، المجهزتين بالمعدات الحديثة للغاية والتى يجرى

تحديثها على الدوام ، تواجهان بعضهما البعض . وتتركز هنا آلاف الرءوس الحربية النووية على حين تكفى مجرد بضع عشرات منها لتحويل أوروبا إلى جهنم .

٢ ــ وحتى الحرب التقليدية ، ناهيك عن الحرب النووية ، ستكون كارثة لأوروبا اليوم . ولايعود ذلك فقط إلى أن الأسلحة التقليدية أكثر تدميرا عدة مرات ، عما كانت عليه خلال الحرب العالمية الثانية ، وإنما يعود أيضا إلى وجود وحدات للطاقة النووية تضم ما مجموعه حوالى ٢٠٠ مفاعلاً وعددا كبيرا من المصانع الكيماوية الرئيسية . وتدمير هذه المنشآت خلال معارك تقليدية سيجعل القارة غير صالحة للحياة .

٣ ــ تعتبر أوروبا واحدة من أكبر المناطق الصناعية فى العالم . وقد تطورت الصناعة ووسائل النقل فيها لدرجة أصبح فيها الخطر على البيئة قريبا من النقطة الحرجة . وتجاوزت هذه المشكلة الحدود القومية بعيدا ، لتكتسب بعدا أوروبيا مشتركا .

٤ ــ تتطور العمليات التكاملية بشكل مكثف فى كل من شطرى أوروبا . وقد حان الوقت لكى نفكر فيما سيأتى بعد ذلك . هل سيتفاقم انقسام أوروبا بدرجة أكبر أم سيمكن العثور على صيغة لمنفعة كل من جزئيها الشرقى والغربى ومن أجل مصلحة أوروبا ومصلحة بقية العالم فى الحقيقة ؟ إن احتياجات التنمية الاقتصادية فى كل من شطرى أوروبا ، وكذلك متطلبات التقدم العلمى والتكنولوجى تدفع إلى الحاجة للبحث عن شكل ما من التعاون على أساس المنفعة المتبادلة . وما أعنيه ليس نوعا ما من « الاكتفاء الذاتى الأوروبى » وإنما الاستخدام الأفضل لمجموع قدرات أوروبا من أجل منفعة شعوبها ، وفى علاقاتها مع بقية العالم .

٥ ــ إن شطرى أوروبا لديهما الكثير من مشاكلها الخاصة ذات البعد الشرقى ــ الغربى ، ولكن لهما كذلك مصلحة مشتركة فى حل مشكلة الشمال ــ الجنوب الحادة للغاية . ولايعنى ذلك ، بالطبع ، أن بلدان أوروبا الشرقية تشارك فى المسئولية عن

الماضى الاستعمارى لدول أوروبا الغربية . ولكن ليست هذه هى النقطة . ذلك أنه إذا ما أغفلت مصائر الشعوب فى البلدان النامية ، وإذا ماجرى تجاهل المشكلة الحادة للغاية المتعلقة بسد الفجوة بين الدول النامية والصناعية ، فقد يكون لذلك آثار وخيمة على أوروبا وبقية العالم . (وفى هذا الصدد فإننا نشارك روح وقوة تقارير « لجنة براندت » حول مسألة الشمال والجنوب ، وتقرير الاشتراكية الدولية « التحدى العالمى » الذى تم إعداده تحت توجيه فيلى براندت وميشيل مانلى) . إن دول أوروبا الغربية مثل الاتحاد السوفيتى . والبلدان الاشتراكية الأخرى ، لها روابط واسعة مع العالم الثالث ، وبوسعها أن تعبئ جهودها من أجل تيسير تنميته .

هذه هى بوجه عام حتميات السياسة لكل أوروبا تحددها مصالح واحتياجات أوروبا ككل متكامل .

فرص مواتية لأوروبا

والآن ماذا عن الفرص المواتية للأوروبيين والمستلزمات التى يحتاجون إليها لكى يكونوا قادرين على أن يعيشوا كسكان فى « بيت مشترك » .

١ ـ إن لدى شعوب أوروبا أقسى وأمر تجربة للحربين العالميتين وقد ترك الوعى باستحالة السماح بحرب جديدة أعمق الآثار فى ذاكرتهم التاريخية . وليس من قبيل الصدفة أن توجد فى أوروبا اليوم أكبر حركة معادية للحرب وأكثرها نفوذا ، حركة تضم فى صفوفها كافة الفئات الاجتماعية .

٢ ـ وتعتبر التقاليد السياسية الأوروبية فيما يتعلق بمستوى السلوك فى الشئون الدولية أكثر التقاليد ثراء فى العالم . وأفكار الدول الأوروبية عن بعضها البعض أكثر واقعية منها فى أى منطقة أخرى . و « تعارفها » السياسى أوسع نطاقا وأطول أمدا ومن ثم أكثر قربا .

٣ ـ لايوجد لدى أى قارة أخرى إذا ما أخذت ككل مثل هذا النظام المتشعب

من المفاوضات ، والمشاورات ، والمعاهدات والصلات الثنائية والمتعددة الأطراف على كل مستوى بالفعل . ولديها فى رصيدها مثل هذا الإنجاز الفريد فى العلاقات الدولية كعملية هلسنكى . وقد أعطى مؤتمر ستوكهولم نتائج مبشرة . ثم انتقلت الشعلة إلى فيينا ، حيث نأمل ، فى اتخاذ خطوة جديدة فى تطور عملية هلسنكى . وهكذا فإن مخططات بناء البيت الأوروبى المشترك جاهزة تماما .

٤ ـ إن القدرة الاقتصادية والعلمية والتقنية لأوروبا هائلة . ولكنها مشتتة ، وقوة الطرد بين شرق القارة وغربها أكبر من قوة الجذب . ومع ذلك فإن الحالة الراهنة للأمور من الناحية الاقتصادية ، سواء فى الغرب أو الشرق ، وآفاقها الملموسة يمكن أن تساعد فى العثور على طريقة لربط العمليتين الاقتصاديتين فى كل من شطرى أوروبا لمصلحة الجميع .

وهذا هو الطريق الوحيد المعقول للمزيد من تقدم الحضارة المادية الأوروبية .

إن أوروبا « من الأطلنطى إلى الأورال » تشكل كيانا ثقافيا تاريخيا يوحده التراث المشترك للنهضة والتنوير ، وللتعاليم الفلسفية والاجتماعية العظيمة للقرنين التاسع عشر والعشرين . وهذه قوة جذب قوية تساعد صانعى السياسة فى بحثهم عن طرق للتفاهم والتعاون المتبادل على مستوى العلاقات بين الدول . وتكمن فى التراث الثقافى الأوروبى إمكانات هائلة لسياسة السلام وحسن الجوار . وبوجه عام ، فإن النظرة الصحية الجديدة فى أوروبا تجد تربة أشد خصوبة بكثير مما هى فى أى منطقة أخرى يحتك فيها النظامان الاجتماعيان .

وأسلم صراحة بأننا سعداء لأن فكرة « البيت الأوروبى المشترك » تجد تفهما بين شخصيات سياسية بارزة وعامة ليس فقط فى أوروبا الشرقية ، وإنما أيضا فى أوروبا الغربية . وهكذا ، فقد أعلن جينشر وزير خارجية ألمانيا الاتحادية استعداده « لقبول مفهوم البيت الأوروبى المشترك والعمل مع الاتحاد السوفيتى لجعله بيتا مشتركا حقا » .
وقد تحدث إلىَّ الرئيس الاتحادى ريتشارد فون فايتزكر ، ووزير الخارجية الإيطالى

جوليو أندريوتى وغيرهما من الزعماء فى نفس الاتجاه . وهكذا ، فإن الوعى بوحدة الثقافة الأوروبية ، وبالصلة المتبادلة والاعتماد المتبادل لمصائر كافة بلدان القارة ، وبالحاجة الملحة للتعاون فيما بينهم ، لم يفقد بعد .

غير أنه يوجد أيديولوجيون وسياسيون يواصلون بذر عدم الثقة نحو الاتحاد السوفيتى . وتنشر غالبية بلدان أوروبا الغربية ، التى تسير فى ركاب الولايات المتحدة ، عددا كبيرا من المقالات المحمومة ، ولكن كما هى العادة ، نجد الصحافة اليمينية الفرنسية أكثرها حماسا . إنها ترتعد ببساطة من مجرد توقع وضع أفضل فى أوروبا . ولنأخذ ، على سبيل المثال المجلة الأسبوعية الفرنسية « لكسبرس » . ففى ٦ مارس ١٩٨٧ نسبت إلينا رغبة فى فرض الهيمنة على أوروبا . وكتبت مقالا نشرته تحت عنوان صارخ « جورباتشوف وأوروبا » على منوال « الفارس الأحمر الصغير » و « الذئب الكبير الشرس » .

وقلبت الأمر فى ذهنى : هل يمكن أن يكون القراء الأوروبيون ، وشعوب أوروبا من السذاجة لدرجة يصدقون فيها مثل هذه التفاهات ، إن لدينا ثقة فى رجاحة عقول الأوروبيين ، ونحن ندرك أنهم سيفرقون بين الحقيقة والأكاذيب إن عاجلا أو آجلا . وإذا ما حكمنا بالنتائج المنشورة لاستطلاعات الرأى العام ، فإن أغلبية الناس فى أوروبا الغربية يبدو أنهم يقدرون سياسة الاتحاد السوفيتى الصريحة نحو أوروبا والتى تهدف إلى وضع حد للنزاعات المستمرة على هذه القارة .

دولتــان ألمــانيتــان

عندما نتأمل مفهوم « البيت الأوروبى المشترك » ، لايسعنا إلا الإعراب عن موقفنا من الوضع الذى أحدثته الحرب العالمية الثانية فى قلب أوروبا حيث توجد الآن الدولتان الألمانيتان ـ جمهورية ألمانيا الديموقراطية وجمهورية ألمانيا الاتحادية . وقد أجريت حديثا مفصلا نوعا ما حول هذا الموضوع مع الرئيس الفيدرالى لألمانيا الغربية ريتشارد فون فايتزكر وقال لى إن الناس فى ألمانيا الغربية يولون أذنا صاغية

لشعار « البيت الأوروبى المشترك » وسألته : « كيف تفهمون ذلك فى ألمانيا الغربية ؟» ودعونى الآن أن أورد هنا الحوار القصير الذى دار بيننا :

ريتشارد فون فايتزكر : إنها نقطة نرجع إليها لتساعدنا على تصور الطريقة التى يجب ترتيب الأمور وفقا لها فى هذا البيت الأوروبى المشترك . وبوجه خاص المدى الذى سيكون مسموحا به للزيارات المتبادلة بين هذه الشقق .

ميخائل جورباتشوف : إنك على حق تماما . ولكن قد لايحب كل امرئ استقبال زائرين فى الليل .

ريتشارد فون فايتزكر : ونحن لايسرنا بشكل خاص أن يكون لدينا خندق عميق يمر داخل غرفة معيشة مشتركة .

وهو يشير بذلك إلى حقيقة أن جمهورية ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديموقراطية مقسمتان بحدود دولية ، تمر بوجه خاص ، داخل برلين . وذلك واقع تشكل تاريخيا وتولد عن الاتفاقية التى اعقبت الحرب العالمية الثانية .

وبوسعنا فقط أن نخمن كيف كانت ألمانيا تبدو اليوم إذا ماكانت اتفاقية بوتسدام قد نفذت بكاملها . فلم يكن هناك أساس آخر لوحدة بوتسدام . ولم يقتصر الأمر على أن زعماء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فى ذلك الوقت قد خربوا الاتفاقات الموقعة معنا ، وإنما كان يعارضها أيضا أنصار سياسة القوة فى ألمانيا الغربية . وكانت بوتسدام كابوسا بالنسبة لهم ، وكلنا يعرف النتيجة .

ويتعين علينا ، بالطبع ، أن نأخذ حذرنا من التصريحات التى تفيد بأن « المسألة الألمانية » تظل مفتوحة ، وأن كل شىء ليس واضحا بعد بالنسبة « للأراضى الموجودة فى الشرق » ، وأن يالتا وبوتسدام « غير مشروعة » . ومثل هذه التصريحات ليست قليلة فى جمهورية ألمانيا الاتحادية . ودعونى أقل بوضوح تام : إن كل هذه التصريحات حول إحياء « الوحدة الألمانية » بعيدة عن أن تكون « سياسة واقعية » إذا ما استخدمنا التعبير الألمانى . وهى لم تعط جمهورية ألمانيا الاتحادية شيئا فى الأربعين

عاما الماضية . إن تغذية الأوهام عن العودة إلى « حدود ألمانيا عام ١٩٣٧ » إنما يعنى تقويض الثقة فى جمهورية ألمانيا الاتحادية من جيرانها ومن البلدان الأخرى .

ومهما قال رونالد ريجان وغيره من زعماء الغرب حول هذا الموضوع ، فإنهم لايستطيعون بالفعل تقديم أى شيء واقعى لجمهورية ألمانيا الاتحادية فيما يتعلق بما يسمى بالمسألة الألمانية. إن ماتشكل تاريخيا هنا من الأفضل أن يترك للتاريخ. ويصدق ذلك أيضا على مسألة الأمة الألمانية وأشكال الدولة الألمانية . والأمر الهام الآن هو الجانب السياسى . إذ توجد دولتان ألمانيتان ذاتا نظامين اجتماعيين وسياسيين مختلفين. ولكل منهما قيم خاصة بها . وقد استخلصت كلتاهما دروسا من التاريخ ، وباستطاعة كل منهما أن تسهم فى شئون أوروبا والعالم . أما ماذا سيكون بعد مائة عام فللتاريخ أن يقرره . وبالنسبة للوقت الحاضر. ينبغى علينا أن ننطلق من الوقائع القائمة وألا ندخل فى مضاربات مثيرة للمشاكل .

ومن باب الاستطراد سوف أذكر محادثة شهدها معى فايتزكر. فنى ١٩٧٥ عند الاحتفال بالذكرى الثلاثين للانتصار على ألمانيا ، كنت فى جمهورية ألمانيا الاتحادية . وبالقرب من فرانكفورت ، تحدثت مع صاحب محطة بنزين . وقال لى : « إن ستالين قال : إن أمثال هتلر يجيئون ويذهبون ولكن الشعب الألمانى باق ، ولكن بعدئذ ، فى نهاية الحرب قام الاتحاد السوفيتى بتقسيم الشعب الألمانى » .

وتلت ذلك مناقشة . وذكرته بخطط تقسيم الدولة الألمانية التى وضعها تشرشل والسياسيون الأمريكيون فى سنوات الحرب . وكنا نعارض تلك الخطط ونريد إقامة دولة ألمانية واحدة ديموقراطية وذات سيادة . وذكرته أيضا بحقيقة أن الدول الغربية قد أيدت إقامة دولة منفصلة فى غرب ألمانيا ، وإن جمهورية ألمانيا الديموقراطية قد ظهرت فيما بعد . وحتى بعد مؤتمر يالتا وبوتسدام أيضا ، كنا نؤيد إقامة دولة ألمانية موحدة ذات سيادة ومسالمة فى المقام الأول ، على أساس تصفية النازية ، وإشاعة

الديموقراطية ، وتصفية الطابع العسكرى لألمانيا . ولكن كانت هناك فى الغرب قوى عملت بطريقة أدت إلى الوضع الحالى . ولذلك لايقع اللوم على الاتحاد السوفيتى بالنسبة لتقسيم ألمانيا ، ويجب البحث عمن يلامون على ذلك فى مكان آخر . واليوم توجد دولتان ألمانيتان ، وهو واقع أقرته المعاهدات الدولية . وأى سياسى ذو تفكير واقعى ليس أمامه إلا أن يهتدى بذلك وبه وحده .

وهذه كانت محادثتنا .

وحتى بعد أن خاض الاتحاد السوفيتى معمعة تلك الحرب الرهيبة ، فقد كان يتخذ موقفا مبدئيا ، ولم نتخل عن الإحساس بالواقع . ولم نخلط بين الشعب الألمانى والنظام النازى . كما أننا لانلقى عليه اللوم على الكوارث التى سببها عدوان هتلر .

ونحن فى علاقاتنا مع جمهورية ألمانيا الاتحادية نضع فى الاعتبار طاقاتها وإمكانياتها ، ومكانها فى أوروبا وفى العالم ودورها السياسى. والتاريخ يجبرنا على أن يعامل بعضنا البعض معاملة سليمة . إن تطور أوروبا مستحيل بدون التعاون النشط بين دولتينا . وسيكون للعلاقات القوية بين جمهورية ألمانيا الاتحادية والاتحاد السوفيتى دلالة تاريخية حقا . ففى الوقت الذى تحافظان فيه على ذاتيتهما الخاصة ، وفى إطار نظاميهما وتحالفاتهما ، يمكن لكلتا الدولتين أن تلعبا دورا رئيسيا فى التطورات الأوروبية والعالمية . والاتحاد السوفيتى معنىّ بتوافر الأمن لجمهورية ألمانيا الاتحادية . وإذا لم تكن جمهورية ألمانيا الاتحادية مستقرة ، فلن يكون هناك أمل فى الاستقرار لأوروبا ، ومن ثم للعالم . وفى تعبير مقابل ، إن العلاقات المستقرة بين جمهورية ألمانيا الاتحادية وبين الاتحاد السوفيتى سوف تحدث تغييرا مقدرا فى الوضع الأوروبى نحو الأفضل .

أوروبا ونـزع السـلاح

كل ما نوقش فى ريكيافيك له تأثير مباشر على أوروبا . وفى علاقاتنا مع الولايات المتحدة لم ننس أبدا ما يتعلق بمصالح أوروبا .

وبعد ريكيافيك التقيت برؤساء حكومات عدد من بلدان أوروبا الغربية الأعضاء فى حلف شمال الأطلنطى ، وأعنى بول شلوتر من الدنمرك ، ورودلف لوبرز من هولندا ، وجروهارلم بروندلاند من النرويج ، وستيجريمور هيرمانسون من أيسلندا ، وأمنتور فانفانى وجوليو أندريوتى ممثلى القيادة الإيطالية . وأجرينا مناقشات عديدة حول موضوع « أوروبا ونزع السلاح » .

وسمعت من محدثى تعليقات هامة عديدة . وبعد ذلك بحثنا فى القيادة السوفيتية بشكل جاد حججهم وأفكارهم وأخذنا بعين اعتبار فى سياستنا ماوجدناه صحيحا من هذه الأفكار. ويتعلق ذلك بشكل خاص ، بالصواريخ الأوروبية . ولكن كانت هناك أيضا خلافات ـ احتدت بشكل خاص مع مارجريت تاتشر وجاك شيراك ، حول مفهومها وكذلك الفكرة العامة لحلف شمال الأطلنطى عن « الردع النووى » . وأعربت لهما عن دهشتى بخصوص الهياج الذى أحدثته ريكيافيك فى بعض العواصم الغربية . فليس هناك سبب من أى نوع لاعتبار نتائجها تهديدا لأمن أوروبا الغربية . ومثل هذه الاستنتاجات والتقييمات ليست إلا ثمرة التفكير القديم لأيام الحرب الباردة .

وفى حديثى مع الزعماء الأجانب كنت أسأل أحيانا بشكل مباشر : هل تعتقدون أن الاتحاد السوفيتى ينوى مهاجمة بلادكم وأوروبا الغربية بشكل عام ؟ وكانت إجابتهم جميعا : « كلا ، لانعتقد ذلك » . ولكن سرعان ما كان يبدى بعضهم تحفظا ، قائلين بأن حقيقة المقدرة العسكرية الجبارة للاتحاد السوفيتى تخلق فى حد ذاتها تهديدا محتملا . وبوسع المرء أن يفهم مثل هذا التفكير. ولكن الأمر يكون أقل وضوحا بكثير عندما تكون المكانة والعظمة الوطنية مرتبطين بحيازة

الأسلحة النووية ، رغم أنه من الحقائق المعروفة أنه لو اندلعت حرب نووية فلن تكون هذه الأسلحة سوى دعوة لتوجيه الضربات دون أية دلالة حقيقية أخرى .

وعندما نتحدث عن نزع السلاح كوحدة حيوية ينبغي إرساؤها لدى تشييد بيت أوروبي مشترك ، فإننا نخاطب ، في المقام الأول ، الدول النووية الأوروبية ـ بريطانيا وفرنسا . لقد أبدى الاتحاد السوفيتي ثقة ضخمة في أوروبا الغربية بموافقته خلال المباحثات الحالية حول نزع السلاح ، على ألا يضع قدرتها النووية في الحساب . وكان الدافع الرئيسي وراء هذا التحرك أننا نستبعد ، حتى في أفكارنا ، ناهيك عن خططنا الاستراتيجية ، إمكانية الحرب ذاتها مع بريطانيا وفرنسا ، ناهيك مع الدول النووية غير الأوروبية .

وعندما واجهنا ، فيما يتعلق بمقترحاتنا ، تحرزا بأن موسكو إنما تخطط لخدعة وتريد شق حلف الأطلنطي ، وإضعاف يقظة أوروبا الغربية ، ثم اجتياحها ، وعندما بدأ الهجوم على فكرة أوروبا الخالية من الأسلحة النووية باعتبارها فكرة ضارة وخطيرة ، قلت علانية لكل هؤلاء الناس : «مم تخافون ، أيها السادة ؟ هل من الصعوبة بمكان أن ترتفعوا إلى مستوى التقييمات الحقيقية للعمليات التاريخية حقا التي تجري في الاتحاد السوفيتي والعالم الاشتراكي بأكمله ؟ أليس بوسعكم أن تفهموا الصلة الموضوعية التي لا تنفصم بين هذه العمليات وبين النوايا الطيبة حقا في السياسة الخارجية ؟ » .

لقد آن الأوان لوضع حد للأكاذيب المتعلقة بعدوانية الاتحاد السوفيتي . ولن يبدأ بلدنا ، إطلاقا تحت أي ظروف ، عمليات عسكرية ضد أوروبا الغربية مالم نهاجم نحن وحلفاؤنا من جانب حلف الأطلنطي ! وأكرر ، لن نبدأ إطلاقا !

فلتتخلص أوروبا الغربية بسرعة من مخاوفها من الاتحاد السوفيتي التي فرضت عليها . ولتعمل العقل في أن فكرة إزالة الأسلحة النووية في أوروبا قد تخلق وضعا جديدا ليس للغرب فحسب وإنما لنا كذلك . ولايمكننا أن ننسى أن عمليات غزو

أراضينا فى العصر ماقبل النووى قد قام بها الغرب أكثر من مرة . ثم ألا تتحدث عن نفسها كافة المناورات العسكرية لحلف شمال الأطلنطى التى تشمل بشكل ثابت مخططات هجومية ؟ .

ونحن نعتبر أن من الأهمية السياسية الكبيرة حقيقة أن اليونان ، وهولندا ، وأسبانيا ، وإيطاليا ، والسويد ، وفنلندا ، وغيرها الكثير من دول أوروبا قد رفعت صوتها مؤيدة إيجاد حل لمسألة الصواريخ الأوروبية .

إنهم يتحدثون فى الغرب عن عدم المساواة وانعدام التوازن . وهذا صحيح ، فهناك عدم توازن وعدم تماثل فى بعض أنواع الأسلحة والقوات المسلحة لدى كلا الجانبين فى أوروبا ، بسبب عوامل تاريخية وجغرافية وغيرها . ونحن نؤيد إزالة عدم المساواة القائم فى بعض المجالات ، ولكن ليس من خلال التعزيز من جانب الذين يتخلفون عن غيرهم وإنما من خلال التخفيض من جانب الذين يتقدمون على غيرهم .

وفى هذا المجال هناك مسائل محددة عديدة تنتظر الحل : تخفيض الأسلحة النووية التكتيكية وفى النهاية إزالتها ، على أن يصاحبه تخفيض كبير للقوات المسلحة والأسلحة التقليدية ، وسحب الأسلحة الهجومية من التماس المباشر لنستبعد إمكانية هجوم مفاجئ ، وتغيير كل أنماط القوات المسلحة بهدف اضفاء طابع دفاعى بحت عليها . وقد تحدثت بصورة محددة عن ذلك فى اجتماع براغ . وقدمت مقترحات تفصيلية حول هذا الموضوع فى برنامج بودابست لمنظمة معاهدة وارسو .

وأعلنت بلدان معاهدة وارسو فى اجتماع لجنتها الاستشارية السياسية فى برلين فى مايو ١٩٨٧ اجراء حيويا لبناء الثقة بروح التفكير الجديد ويتعلق بمبدئها العسكرى الدفاعى تماما فى كافة مكوناته .

ومن الممكن أن تساعد إجراءات مثل إقامة مناطق منزوعة السلاح النووى ومناطق منزوعة الأسلحة الكيماوية فى دعم الأمن الأوروبى . ونحن نؤيد العرض

الذى تقدمت به حكومتا جمهورية ألمانيا الديموقراطية وتشيكوسلوفاكيا إلى حكومة ألمانيا الغربية لإقامة ممر خال من الأسلحة النووية فى وسط أوروبا . ومن المعروف أن الحزب الاشتراكى الديموقراطى فى ألمانيا قد أسهم فى تكوين مثل هذا الممر . ونحن مستعدون لضمان واحترام الوضع غير النووى لهذه المنطقة . ونعتقد أن خطة بولندا التوفيقية بشأن مسألة خفض الأسلحة وتدابير بناء الثقة فى وسط أوروبا قد جاءت فى حينها وأنها خطة واعدة .

ونحن على قناعة بأن الأسلحة يجب خفضها لمستوى الكفاية المعقولة ، أى المستوى اللازم للأغراض الدفاعية البحتة . وقد حان الوقت ليقوم الحلفان العسكريان بتعديل مفاهيمهما الاستراتيجية وتوجيهها بدرجة أكبر نحو أهداف الدفاع . إن كل شقة فى « البيت الأوروبى » لها الحق فى حماية نفسها ضد اللصوص ، ولكنها يجب أن تفعل ذلك دون أن تدمر ممتلكات جيرانها .

التعـــاون الأوروبى

يحتاج بناء البيت الأوروبى إلى أساس مادى ، إلى تعاون بناء فى عديد من المجالات المختلفة . ونحن فى الاتحاد السوفيتى على استعداد لذلك ، بما فى ذلك الحاجة إلى البحث عن أشكال جديدة من التعاون ، مثل البدء فى مشروعات مشتركة ، وتنفيذ المشروعات المشتركة فى بلدان ثالثة ، الخ . ونحن نطرح مسألة التعاون العلمى والتكنولوجى الواسع لا كمتسولين ليس لديهم مايقدمونه مقابل ذلك . ولسوء الحظ ، فهذا هو المجال الذى تقام فيه معظم الحواجز المصطنعة . وقد قدمت مزاعم بأن هذا يشمل « التكنولوجيا الحساسة » ذات الأهمية الاستراتيجية . وتستخدم عبارة « التكنولوجيا الحساسة » للإشارة أولا وقبل كل شىء إلى الإلكترونيات . غير أن الإلكترونيات تستخدم الآن عمليا فى كافة الصناعات التى تعتمد على أساليب الإنتاج المتقدمة .

ولن تتقدم أوروبا الغربية تكنولوجيا ، على طريق برنامج حرب النجوم

العسكرى ، كما لن تفتح عسكرة الفضاء الطريق إلى التقدم التكنولوجى . إنها مجرد ديماجوجية فيها نكهة الامبريالية التكنولوجية . إن هناك العديد من الفرص والمجالات للتعاون العلمى والتكنولوجى السلمى . وهناك تجربة المشروع المشترك لدراسة مذنب هالى من خلال رحلة الصاروخ الفضائى فيجا . وقد اكتشف هذا المشروع مواد بناء جديدة كما تمت اكتشافات أخرى فى ألكترونيات الراديو ، وأنظمة التحكم ، والرياضيات ، والبصريات ، الخ . وتبدو فكرة جوليو أندريوتى عن إنشاء « معمل عالمى » فكرة واعدة أيضا . وهى تمثل مشروعا بحثيا جديدا ، وعالميا إلى حد بعيد ، ويبدو كما لو كان فى طريقه إلى التبلور .

أما عن التعاون فى استخدام الطاقة النووية الحرارية ، فقد وضع أساس علمى لذلك فى عدد من البلدان بواسطة علماء يشتغلون فى الأفكار التى اقترحها زملاؤهم السوفيت. وباستطاعة العلماء الأمريكيين أن يشتركوا فى هذه الأبحاث. وهناك أيضا إمكانيات أخرى مثل الاستكشاف والاستخدام المشترك للفضاء الخارجى ولكواكب المجموعة الشمسية والأبحاث فى مجال الموصلات الفائقة والتكنولوجيا الحيوية .

صحيح إن كل ذلك سيزيد من التعاون المتبادل بين دول أوروبا ، ولكنه سيكون أيضا لمنفعة كل الناس ، وسيؤدى إلى إحساس أكبر بالمسئولية وضبط النفس .

وإنا إذ نعمل بروح التعاون ، نستطيع تحقيق الشىء الكثير فى هذا المجال الهائل المسمى « بالمسائل الإنسانية » . وستكون إحدى العلامات الهامة على هذا الطريق عقد المؤتمر الدولى للتعاون فى المجال الإنسانى الذى يقترح الاتحاد السوفيتى عقده فى موسكو . وفى مثل هذا الاجتماع يستطيع الجانبان مناقشة جميع جوانب المشاكل التى تهم كلا من الشرق والغرب ، بما فى ذلك تلك المسألة المعقدة ، مسألة حقوق الإنسان ، ومن شأن ذلك أن يعطى لعملية هلسنكى قوة دافعة جديدة .

ومع ذلك ، فعندما دعونا بلدان الغرب إلى مناقشة جادة وبناءة لمسألة حقوق

الإنسان ، وقارنا فى جو من العلانية المتبادلة ، كيف يعيش الناس بالفعل فى بلادنا وفى البلدان الرأسمالية ، ثارت أعصاب الآخرين ، وهم يحاولون الآن تقليص الأمور وتحويلها إلى حالات فردية وتجنب مناقشة البقية . ولقد قلت ، سواء علنا أو فى اجتماعات مع الزعماء والوفود الأجنبية ، أننا على استعداد لمناقشة الحالات الفردية بروح إنسانية ، ولكننا مصممون على أن نناقش علنا وعلى نطاق واسع هذه المشاكل برمتها .

وقد يقول المرء أن التعاون والمنافسة السلميين بين الشرق والغرب يستطيعان أن يحققا النفع لكلا الجانبين بل إنهما يحققانه فعلا . ولدى بلدان أوروبا الصغيرة والمتوسطة الشىء الكثير الذى تستطيع أن تسهم به فى هذه القضية . وقد ناقشنا هذا مع رئيس وزراء أيسلندا السابق هيرمانسون ، ورئيس وزراء هولندا لوبرس ، ورئيس وزراء السويد كارلسون وغيرهم من الزعماء .

بوادر التفكير الجديد فى أوروبا

أعتقد أن أوروبا الغربية ، لاسيا بعد ريكيافيك ، بدأت تدرك بشكل ثاقب الحاجة إلى الإسهام فى تحسين الوضع فى القارة . ونحن نقدر حقيقة أن الأوروبيين يبذلون الآن جهدا كبيرا من أجل تنقية الجو السياسى فى العالم .

ولا أعتقد أننى سأفشى سرا هاما إذا ما حكيت لكم قصة حكاها لى رجل الدولة الإيطالى البارز أمينتور فانفانى . فقد كان يناقش ذات مرة الوضع السياسى الصعب مع إدواردو ديفيليبو المنتج السينمائى الإيطالى المشهور دوليا . وسأل ديفيليبو : « ما الذى يجب علينا أن نفعله إذن ؟ » فقال فانفانى : « لنضع ثقتنا فى الله » فأجاب ديفيليبو : « إذن فعلينا نحن البشر ألا نخلق العقبات لله » .

إن هذا الإدراك بأننا جميعا مسئولون عن مستقبل العالم أمر له قيمته وأهميته الخاصة اليوم . ويجب أن يعزى الفضل لبعض السياسيين فى أوروبا الغربية لاعترافهم

بحاجة كافة الأوروبيين إلى توحيد قواهم والمحافظة على الأسس التى تم وضعها فى ريكيافيك .

وباستطاعتنا أن نرى البوادر الأولى لنظرة جديدة فى الشئون الدولية تظهر فى أوروبا الغربية ، فتحدث تغييرات معينة بين الدوائر الحاكمة . وتصوغ كثير من الأحزاب الاشتراكية والاشتراكية الديموقراطية فى أوروبا الغربية مواقف جديدة فى سياسة الدفاع والأمن . ويقودهم ساسة متمرسون ذوو نظرة شاملة للمشاكل الدولية .

قبل زيارتى لفرنسا عام ١٩٨٥ بوقت قصير ، سألنى الصحفيون الفرنسيون أن أعلق على علاقاتنا بالحكومات الاشتراكية الديموقراطية فى أوروبا . فقلت إننا كنا خلال السنوات القليلة الأخيرة نتعاون بنشاط مع الاشتراكيين الديموقراطيين فى المسائل المرتبطة بالحرب والسلام . وكانت اجتماعاتى مع وفود الأحزاب الاشتراكية والاشتراكية الديموقراطية تمثل جانبا كبيرا فى اتصالاتى مع الزعماء الأجانب .

وقد استقبلت المجلس الاستشارى للاشتراكية الدولية بقيادة كاليفى سورسا والتقيت مع فيلى براندت ، وايجون بهر ، وفيليب جونجاليز وغيرهم من الزعماء الاشتراكيين الديموقراطيين . وفى كل مرة كنا نلاحظ أن آراءنا حول المسائل الحاسمة للأمن الدولى ونزع السلاح كانت متقاربة أو متماثلة . وأنا فى غاية الأسف لأنى لم ألتق أبدا بأولف بالم الذى كانت وفاته الفاجعة صدمة كبيرة لنا . إن فكرة « الأمن للجميع » التى طرحها والتى واصلت تطويرها لجنة بالم الدولية بها كثير من النقاط المتماثلة مع مفهومنا عن الأمن الشامل .

إن الحوار الذى بدأ بين الشيوعيين والاشتراكيين الديموقراطيين لايطمس بأى حال الخلافات الأيديولوجية بينهم . وفى نفس الوقت ، فلا يمكننا القول بأن أيًا من الذين شاركوا فى هذا الحوار قد أراق ماء الوجه أو تعرض للضغط من الطرف الآخر . وقد أوضحت التجربة أنه لاخطر من مثل هذا الاحتمال .

ولدينا علاقات طيبة وصلات مفيدة مع الاشتراكيين الديموقراطيين فى جمهورية ألمانيا الاتحادية ، وفنلندا ، والسويد والدنمرك ، ومع حزب العمال البريطانى ، والاشتراكيين الأسبان ، الخ. ونحن نقدر هذه العلاقات لدرجة كبيرة . وبوجه عام فنحن على استعداد للتعاون مع كافة القوى التى يعنيها التغلب على الاتجاهات الخطرة فى تطور الوضع العالمى . ورغم ذلك فإنى أعتقد أن إسهام أوروبا فى قضية السلام والأمن يمكن أن تكون أكبر بكثير. ولكن كثيرين من زعماء أوروبا الغربية يفتقدون الإرادة السياسية ، وربما الامكانيات أيضا ، ومع ذلك فإن الحياة سوف ترغم كل شخص على التحول إلى تقييمات واقعية كما يحدث اليوم .

حول أوروبا والولايات المتحدة

إنه لمن المؤسف أن حكومات بلدان حلف شمال الأطلنطى ، بما فيها هؤلاء الذين يتنصلون قولا من التجاوزات الخطيرة للسياسة الأمريكية ، ويرضخون فى النهاية للضغط ، تتحمل المسئولية عن تصاعد سباق التسلح وزيادة حدة التوتر الدولى .

وإليكم أحد الأمثلة على ذلك . فنى أبريل ١٩٨٦ قصفت الطائرات الحربية الأمريكية طرابلس ، وبنغازى ، وغيرهما من الأهداف فى الأراضى الليبية . ويتعذر تماما الدفاع بمقاييس المجتمع المتمدين عن هذا العمل العدوانى المباشر. لقد أقلعت الطائرات الحربية الأمريكية من قواعد فى بريطانيا وطارت فى المجال الجوى لأوروبا الغربية . فماذا فعلت هذه الأخيرة ؟ .

لقد راقبت حكومات بلدان حلف شمال الأطلنطى التطورات فى صمت ولم تجرؤ على معارضة هذا العمل الأمريكى . وقلت لرئيس وزراء السويد ، الذى تحدثت معه لساعات بعد أن وصلتنا أخبار هذه الغارات ، إن مثل هذا الموقف يذكرنى باسترضاء المعتدين عشية الحرب العالمية الثانية . وماذا يحدث إذا ماخطرت

للعسكريين الأمريكيين فكرة معاقبة أحد بلدان معاهدة وارسو بقصفها بالقنابل ؟ ماذا سيحدث عندئذ ؟ إنهم يتصرفون وكأن شيئا لم يحدث ؟ ولكن هذه حرب ! إن مسئولية الجميع قد ازدادت بشكل لايقاس فى عصرنا النووى .

هناك أسطورة إغريقية قديمة حول خطف أوروبا وإبعادها عن مكانها . وقد أصبحت هذه الحكاية الخرافية فجأة اليوم ذات علاقة كبيرة بما يجرى . وغنى عن القول أن أوروبا كفكرة جغرافية ستبقى فى مكانها . غير أنه يوجد لدى المرء أحيانا انطباع بأن السياسة المستقلة لبلدان أوروبا الغربية قد أبعدتها عن مكانها ، ونقلتها عبر المحيط ، وأن المصالح الوطنية يتم تأجيرها تحت حجة حماية الأمن .

وهناك تهديد خطير يحوم فوق الثقافة الأوروبية كذلك . وينشأ هذا التهديد ·ن انقضاض « الثقافة الهابطة » عبر الأطلنطى . ونحن نتفهم جيدا قلق المثقفين فى أوروبا الغربية . والحقيقة أنه لايسع المرء إلا أن يعجب من أن الثقافة الأوروبية العميقة والمتعمقة فى عقلانيتها والمتأصلة فى إنسانيتها تتراجع إلى الخلف أمام العربدة البدائية للعنف والأدب الإباحى وفيض المشاعر الرخيصة والأفكار الوضيعة .

وعندما نشير إلى أهمية الموقف المستقل لأوروبا ، كثيرا مانتهم بالرغبة فى الوقيعة بين أوروبا الغربية والولايات المتحدة . ولم تكن لدينا أبدا ، وليست لدينا الآن مثل هذه النوايا على الإطلاق . ونحن بعيدون عن تجاهل العلاقات التاريخية القائمة بين أوروبا الغربية والولايات المتحدة أو التقليل من شأنها . وإنه لأمر مناف للعقل أن نفسر الخط الأوروبى فى سياسة الاتحاد السوفيتى على أنه تعبير عن « العداء للأمريكيين » . فليست لدينا نية للدخول فى ألاعيب دبلوماسية كما ليست لدينا رغبة فى إثارة التشويش فى العلاقات الدولية . إن ذلك لايتفق مع الهدف الرئيسى لسياستنا الخارجية ـ تعزيز سلم مستقر ودائم يقوم على الثقة المتبادلة والتعاون بين الأمم . وفكرتنا عن « البيت الأوروبى المشترك » لاتنطوى بالتأكيد على إغلاق الأبواب فى وجه أحد . حقا إننا لانحب أن نرى أحدا يضرب باب البيت الأوروبى

بقدمه ليدخل ويتصدر المائدة فى شقة شخص آخر . بيد أن الأمر عندئذ يكون من اختصاص مالك الشقة . وقد ردت البلدان الاشتراكية فى الماضى بالايجاب على مشاركة الولايات المتحدة وكندا فى عملية هلسنكى .

مسـئوليـة أوروبـا

وهكذا ، ودون التقليل من شأن دور القارات والشعوب الأخرى وأهميتها ، نتحدث عن الدور الفريد الذى يجب على أوروبا أن تقوم به اليوم .

إن نجاح العملية الأوروبية يجعل باستطاعتها تقديم إسهام حتى بدرجة أكبر فى تقدم بقية العالم . ولاينبغى لأوروبا أن تنأى بنفسها عن المشاركة فى حل مشاكل مثل المجاعات ، والديون ، والتخلف ، ووقف النزاعات المسلحة .

وما من شك فى أن كافة شعوب أوروبا دون استثناء تفضل مناخ حسن الجوار والثقة ، والتعايش والتعاون على أرض القارة . وسيكون ذلك انتصارا للتفكير السياسى الجديد بكل معنى الكلمة . وباستطاعة أوروبا أن تقدم مثالا يحتذى . فالعالم يقف اليوم عند مفترق الطرق ، ويتوقف الاتجاه الذى يسير فيه بدرجة كبيرة على الموقف السياسى لأوروبا .

وليس هناك من يستطيع أن يحل محل أوروبا بإمكانياتها وخبرتها الضخمة سواء فى السياسة العالمية أو فى التنمية العالمية . إن أوروبا تستطيع بل ويجب عليها أن تلعب دورا إيجابيا ، محددا ، وبناء .

الفصـل السـابع

قضـايا نـزع السـلاح

والعلاقات بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة

عندما كنت لا أزال طالبا فى جامعة موسكو ، أبديت اهتماما بتاريخ الولايات المتحدة . وقرأت كتبا عديدة لمؤلفين أمريكيين وتابعت تاريخ علاقاتنا . وكانت هناك تقلبات حادة مفاجئة فى هذه العلاقات ، فمن تحالف زمن الحرب إلى « حرب باردة » فى الأربعينيات والخمسينيات ، ومن انفراج فى السبعينيات إلى تدهور حاد فى بداية الثمانينات .

وقد شهدت الفترة مابين اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل ، التى كانت نقطة انعطاف بالنسبة لنا ، وبين نشر هذا الكتاب أحداثا هامة وعديدة بينها أحداث ترتبط ارتباطا مباشرا بتطور العلاقات السوفيتية الأمريكية . ونحن الآن نواصل الحوار مع الولايات المتحدة . ونكتب ـ الرئيس ريجان وأنا ـ لبعضنا البعض من فترة لأخرى . ويناقش مفاوضو الجانبين مشاكل هامة فعلاً .

وكان هناك قليل من النشاط دبّ فى مجالات عديدة مثل التعاون العلمى والثقافى فى العام أو العامين الأخيرين . وحاليا يناقش الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، على مستويات مختلفة ، مسائل كانت ذات يوم موضع اتهامات متبادلة . وبدأت تظهر الخطوط العامة للاتصالات حتى فى مجال النشاط الإعلامى ، الذى يجب أن يتخلص من دعاية العنف والكراهية ، ومن التدخل فى الشئون الداخلية لبعضنا الآخر .

حسنا ، هل ذاب الجليد ، ودخلت علاقاتنا مرحلة بناءة وأكثر هدوءا ؟ يود المرء لو استمرت هذه العملية ، ولكن الزعم بأن تقدما ملحوظا قد تحقق قد يكون تطاولا على الحقيقة . وإذا كنا نعنى بتحسن حقيقى فى العلاقات السوفيتية

الأمريكية ، فعلينا أن نقيم حالتها بأمانة . إن التغير إلى الأفضل ، إن وجد ، كان بطيئا للغاية . فبين حين وآخر تطغى أساليب النهج السابقة المتناقضة ، على الضرورة الحتمية لبعث النشاط فى العلاقات السوفيتية الأمريكية .

إن تقدم التكنولوجيا العالية وعلوم الاتصالات جعل الشعوب الآن أكثر قربا من بعضها البعض . ويمكن استخدام هذه العمليات لتعزيز تفاهم متبادل أكبر قدرا . ويمكن استخدامها كذلك للتفرقة بين الشعوب وبسبب ذلك تعرضنا بالفعل لخسائر جسيمة . ولكن العالم الآن قد وصل إلى نقطة يجب فيها علينا ـ وأعنى كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ـ أن نفكر كيف نعتزم مواصلة المسيرة . ومالم نغير شيئا ، فمن الصعب أن نتنبأ بما سيكون بعد عشرة ، أو خمسة عشر ، أو عشرين عاما من الآن . ويبدو لى أن القلق على بلدنا وعلى مستقبل الحضارة كلها فى تزايد مستمر. إنه يتزايد داخل الشعب السوفيتى مثلما يتزايد داخل الشعب الأمريكى .

ولن أقبل ـ مهما قيل لى ـ الزعم بأن الشعب الأمريكى عدوانى تجاه الاتحاد السوفيتى . ولا يمكننى أن أصدق ذلك . ربما كان هناك بعض الأفراد الذين يسرهم وجود توتر أو مواجهة أو منافسة حادة بين بلدينا . وربما كان هناك بعض الناس الذين يجنون من وراء ذلك كسبا ما . ولكن مثل هذه الحالات لاتتفق مع المصالح الأكبر لشعبينا .

ونحن نفكر ، قبل كل شىء ، فيما يجب عمله لتحسين علاقاتنا . وهى بالفعل فى حاجة إلى ذلك . لأننا لم نعجز فقط عن أن نتقدم فى هذا السبيل منذ منتصف السبعينيات ، بل إن الكثير مما توصلنا إليه وفعلناه قد تم تدميره . ولم نتحرك إلى الإمام ، بل ربما فى الاتجاه المضاد . ونحن نقول إن الأمريكيين هم الذين يقع عليهم اللوم . ويقول الأمريكيون إن اللوم إنما يقع على الاتحاد السوفيتى . وقد يكون من المتعين علينا أن نبحث عن الأسباب الكامنة خلف ماحدث ، إذ ينبغى أن

نستخلص الدروس من الماضى ، بما فى ذلك السجل الماضى لعلاقاتنا . فذلك علم ، وعلم جاد ومسئول ، إذا التزم المرء بالحقيقة بطبيعة الحال . ومع ذلك فإن ماينبغى أن نفكر فيه اليوم أكثر من غيره هو كيف سنعيش معا فى هذا العالم وكيف سنتعاون .

وقد أجريت عددا من اللقاءات مع سياسيين وشخصيات عامة أمريكية ، وهى تحدث لى فى بعض الأحيان ازدحاما فى جدول أعمالى ، ولكننى كنت أحاول فى كل مناسبة أن أجد الوقت لمثل هذه اللقاءات . إن مهمتى ، كما أراها ، ليست قاصرة على التوصل إلى تفهم سياستنا ورؤيتنا للعالم ، وإنما أيضا أن أتفهم وأدرك على وجه أكمل إطار العقلية الأمريكية ، وأن أتعلم بدرجة أفضل ماهية المشاكل الأمريكية ، وبصفة خاصة ، العمليات السياسية المحددة فى الولايات المتحدة . ولايمكن للمرء أن يفعل غير ذلك . إن السياسة العلمية يجب أن تبنى على تقييم دقيق للواقع . ومن المستحيل التحرك نحو علاقات أكثر انسجاما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى الوقت الذى نظل فيه مخدرين بالأساطير الأيديولوجية .

إننا لانتصل ببعضنا البعض بما فيه الكفاية ، ولا نفهم بعضنا البعض بما فيه الكفاية ، ولا حتى نحترم بعضنا البعض بما فيه الكفاية . وقد بذلت قوى معينة جهودا كبيرة للتوصل إلى مثل هذه الحالة . لقد تراكم الكثير من المفاهيم الخاطئة لتعرقل التعاون وتقف فى طريق تطويره .

إن تاريخ العلاقات السوفيتية الأمريكية فى فترة مابعد الحرب ليس موضوع هذا الكتاب . ولكن إذا استعدنا إلى ذاكرتنا أحداث الماضى القريب ، تبين لنا الضرر الذى سببته الأفكار الخاطئة ورفض الأفكار الجديدة . فعندما التقيت بالرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر فى مطلع صيف ١٩٨٧ ، قلت له بصراحة إننا لانعتبر بأية حال كل ما حدث خلال رئاسته سلبيا . لقد كانت هناك بعض الإيجابيات كذلك . وأشير بصفة خاصة إلى اتفاقية سولت ـ ٢ ، التى رغم أنه لم يتم التصديق عليها حتى الآن ، فإنها تلعب دورا هاما رغم النهج الحالى للإدارة الأمريكية . إن

روح هذه الاتفاقية حية . وفى الوقت نفسه ، لايعجز المرء عن رؤية أن هناك فرصا كثيرة قد أفلتت . لقد اعتقدنا ، ومازلنا نعتقد ، أنه عندما كانت الثمانينيات تلوح فى الأفق ، كانت اتفاقيات هامة على مجرد مرمى حجر فى مجالات مثل الأسلحة المضادة للصواريخ ، وتجارة السلاح ، والحد من النشاط العسكرى فى المحيط الهندى ، ومسألة التسوية فى الشرق الأوسط . وقد مضت عشر سنوات ! فكم من الوقت ومن الموارد جرى تبديدها على سباق التسلح ، وكم من الأرواح البشرية فقدت !

ماذا نتوقع من الولايات المتحدة الأمريكية ؟

عندما أجبت على مجلة « تايم » فى أواخر أغسطس ١٩٨٥ قلت : « إن بلدينا ببساطة لا يستطيعان أن يسمحا للأمور بأن تصل إلى حد المواجهة . وفى ذلك تكمن المصلحة الحقيقية لكل من الشعبين السوفيتى والأمريكى . ويجب التعبير عن ذلك بلغة السياسة العملية . فمن الضرورى وقف سباق التسلح ، ومعالجة نزع السلاح ، وتطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية . وبأمانة فقد حان الوقت لجعل هذه العلاقات بين الشعبين العظيمين جديرة بدورهما التاريخى . فمصير العالم ، ومصير الحضارة العالمية ، يتوقفان على علاقاتنا . ونحن مستعدون للعمل فى هذا الاتجاه » .

علينا أن نتعلم أن نعيش فى عالم واقعى ، عالم يأخذ فى اعتباره مصالح الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، مصالح بريطانيا وفرنسا وجمهورية ألمانيا الاتحادية ، ولكن هناك أيضا مصالح الصين ، والهند ، وأستراليا ، وباكستان ، وتانزانيا ، وانجولا ، والأرجنتين وغيرها من الدول ، ومصالح بولندا وفيتنام وكوبا والبلدان الاشتراكية الأخرى . وعدم الاعتراف بهذه المصالح يعنى إنكار حرية الاختيار بالنسبة لهذه الشعوب وإنكار حقها فى أن تختار النظام الاجتماعى الذى يناسبها . وحتى إذا ما أخطأت فى خيارها ، فلابد من أن تجد مخرجا بنفسها . وهذا حقها .

ولقد تحدثت فى ذلك مع كثير من الأمريكيين بمن فيهم جورج شولتز ، الذى

كان فى موسكو فى ربيع ١٩٨٧ . وقد أجريت معه محادثة متعمقة حرصت فيها على أن أعود به إلى الفكرة نفسها : لنحاول أن نعيش فى عالم واقعى ، ولنضع مصالح كل من البلدين فى الاعتبار . وسوف يستحيل ذلك ، مالم نضع فى الاعتبار مصالح الأعضاء الآخرين فى الأسرة الدولية . ولن تكون لدينا علاقات دولية سليمة إذا ما انطلقنا من مصالح الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وحدهما . فلابد من أن يكون هناك توازن .

ويتخذ هذا الأمر وجها جديدا عند كل مرحلة من التاريخ . فالمصالح تتغير ، ومن ثم يتغير التوازن . ويقتضى الأمر عندئذ نهج أساليب جديدة . وأكرر القول بأنه سيكون خطيرا ومدمرا أن تبنى السياسة فى نهاية القرن العشرين على النهج الذى ألهم خطاب تشرشل فى فولتون ومبدأ ترومان . لقد تأخر طويلا البدء فى بذل جهد جاد لإعادة تشكيل العلاقات السوفيتية الأمريكية . وعندما نسلم بذلك ، فلابد من التخلى عن سياسة إصدار الأوامر . فلا الاتحاد السوفيتى ، ولا الولايات المتحدة ، ولا أى بلد آخر يمكنه اعتبار العالم أو أى جزء منه هدفا للاستغلال ، حتى وإن يكن تحت عباءة « المصلحة الوطنية » .

إن محاولات بناء العلاقات على الأساليب الدكتاتورية ، والعنف والأوامر يصعب أن تنجح عند هذه النقطة . وسرعان ماتصاب بالفشل تماما . إن عملية فهم الوقائع الجديدة ليست عملية سهلة . إنها تحتاج إلى وقت المرء وجهده . ولكن هذه العملية بمجرد أن تبدأ ، ستتواصل . وعلينا أن نتعلم كيف نصغى لبعضنا البعض ، ونفهم بعضنا البعض . وأنا كما قلت لشولتز ، أؤيد التعاون مع الولايات المتحدة وأعنى التعاون بشكل بناء ، لأنه ليس هناك من يتحمل المسئولية التى على الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة أن يتحملاها .

وأتذكر محادثتى مع الرئيس الأسبق للولايات المتحدة ريتشارد نيكسون . لقد استشهدت بكلمات ونستون تشرشل ، والتى آمل ألا تكون نبوءة ، بأن أجنحة العلم

الوضاءة قد تعيد العصر الحجرى إلى الأرض، وأكد أنه سيكون علىّ، كسكرتير عام ، وعلى الرئيس ريجان ومن سيخلفه ، سيكون علينا أن نقرر الخيار التاريخى لصالح مستقبل سلمى . وقلت للسيد نيكسون عندئذ ، إننى رأيت ذات مرة فيلما عن رحلة قام بها بعض السياح الأمريكيين على الفولجا . وكانت هناك لقطات لمواطنينا إلى جانب لقطات للأمريكيين . ولم يكن من السهل تمييز الأمريكى من الروسى . كانوا جميعا يتحدثون ، ويحس من يشاهدهم أنهم يتحدثون كأصدقاء ، وأنهم يفهمون بعضهم بعضا : وهذا بالضبط هو مايعجز السياسيون عن القيام به على الوجه المرضى .

وإنه لأمر طيب أن السياسيين ليسوا هم وحدهم الذين يتحدثون إلى بعضهم بعضا . ولكن ممثلى الشعب العاديين يفعلون ذلك أيضا . وهذا أمر هام للغاية ، وأنا أرحب به . فليلتق المواطنون السوفيت والأمريكيون كثيرا ، وليشكلوا انطباعهم الخاص عن بعضهم بعضا . إن الاتصال ، والاتصال المباشر بين الناس شىء عظيم . وبدونه ، بدون الاتصال الواسع النطاق والتفاهم المتبادل بين الشعوب ، لن تفعل السياسة إلا القليل .

وقد نبهت نيكسون إلى حقيقة أن امتلاك بلدينا لترسانة عسكرية رهيبة بما فيها مستودعات الأسلحة النووية هو الواقع الأكثر خطورة فى عالم اليوم . وأخبرته إننا إذا بنينا سياستنا حيال بعضنا بعضا ، وحيال بقية العالم على مسلمات خاطئة ، فإن الأمور يمكن أن تصل إلى مداها ، إلى المواجهة المفعمة بأفظع العواقب مأساوية وفجيعة بالنسبة للاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة والعالم بأسره .

وأنا اليوم على استعداد لأن أكرر ماقلته فى تلك المحادثة : هناك اتجاه راسخ فى المجتمع السوفيتى ، وليس فى القيادة وحدها ، إلى البحث عن الطرق التى تؤدى إلى تطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية ، وإلى إيجاد وتوسيع مجالات الأرضية المشتركة لكى نصل إلى علاقة ودية فى المدى الطويل . وربما يبدو من المبالغ فيه أن نأمل

ذلك فى هذه الآونة . ومع ذلك فإننا على قناعة بأن هذا هو الخيار الواجب علينا ، وإلا فسيكون من المستحيل تصور ما قد نصل إليه .

إما إلى الأفضل وإما إلى الأسوأ . فالسياسة لاتعرف صيغة البين بين . والتاريخ يصنع دون « بروفات » . ولا يمكن إعادة مشاهده . وهذا يضاعف كثيرا من أهمية إدراك مسيرته ودروسه .

الولايات المتحدة : « مدينة متألقة فوق تل »

كثيرا جدا ما واجهنا تصورات مشوهة عن بلادنا وكذلك قوالب متكررة منتشرة معادية للسوفيت ـ ولذلك فنحن نعرف جيدا مدى الشر الذى يمكن أن يترتب على نظرة زائفة ـ سواء كانت بوعى أو بغير وعى ـ تنظر إلى الولايات المتحدة من خلال اللونين الأبيض والأسود فقط .

وأنا أعرف أن الدعاية الأمريكية ـ أجل الدعاية ـ تقدم أمريكا على أنها « المدينة المتألقة فوق تل » . إن أمريكا لها تاريخ عظيم . ومن الذى يشكك فى أهمية الثورة الأمريكية فى التقدم الاجتماعى للبشرية ، أو فى العبقرية العلمية التكنولوجية لأمريكا ومنجزاتها فى الأدب والهندسة والفن ؟ كل هذا لدى أمريكا . ولكن لدى أمريكا اليوم كذلك مشاكل حادة اجتماعية وغيرها ، لم يجد المجتمع الأمريكى جوابا لها بعد . ولكن ، وهذا هو الأسوأ ، إنه يبحث عن حلول لها فى أماكن وبطرق قد تؤدى إلى أن يتعين على الآخرين أن يدفعوا الثمن .

وتمتلك الولايات المتحدة إمكانات انتاجية ضخمة وثروة مادية هائلة ، ولكن لديها فى الوقت نفسه الملايين من التعساء . وهذا شىء يدعو إلى التفكير والتأمل . وهذه النوبات الانفعالية شبه التبشيرية التى تنبعث منها ، فى حين نجد الإغفال عن تأمين نفس الحقوق الأولية على أراضيها ، هذا بدوره مما يدعو إلى التفكير . والحديث لاينتهى عن حرية الإنسان ومحاولات فرض طريقتها فى الحياة على

الآخرين ، وعن الدعاية الواسعة لعبادة القوة والعنف . فكيف يمكننا فهم ذلك ؟ غطرسة القوة وبخاصة القوة العسكرية ، والزيادة المستمرة فى الإنفاق على الأسلحة والعجز فى الميزانية ، والدين الداخلى ، والآن أصبح هناك دين خارجى أيضا . من أجل ماذا ؟ وما الذى يدفع الولايات المتحدة إلى ذلك ؟ إننا نسأل أنفسنا كل هذه الأسئلة وأسئلة أخرى غيرها ، فى محاولة لأن نفهم الواقع الأمريكى وأن نرى الأسباب الرئيسية التى تكمن خلف سياسة الولايات المتحدة .

واعترف صراحة أن مانعرفه لايؤيد الفكرة القائلة بأن الولايات المتحدة تشبه « مدينة متألقة فوق تل » . وبنفس التحديد يمكننى أن أقول : إننا لم نعتبر الولايات المتحدة أبدا « إمبراطورية للشر » . فأمريكا فى الواقع ، مثلها مثل كافة البلدان ، تلقى بضوئها وبظلالها على السواء . إننا نرى الولايات المتحدة كما هى بالفعل مختلفة فى آرائها فى داخل المجتمع الأمريكى وعنه على السواء .

والقيادة السوفيتية لاتتصور الولايات المتحدة فى بعد واحد فقط ، ولكنها تميز بوضوح بين كل أوجه المجتمع الأمريكى : ملايين العاملين الذين يقومون بعملهم اليومى والمطبوعون بوجه عام على السلام ، والسياسيون الواقعيو التفكير ، والمحافظون ذوو النفوذ ، وجنبا إلى جنب معهم ، مجموعات رجعية لها ارتباطات مع التجمع العسكرى الصناعى وتحقق الأرباح من صناعة الأسلحة . وكما نرى اهتماما صحيا وطبيعيا بنا ، نرى كذلك نزعة عمياء وواسعة الانتشار معادية للسوفيت ومعادية للشيوعية .

ونحن نعتقد أن النظامين السياسى والاجتماعى للولايات المتحدة هما من صميم اختصاص الشعب الأمريكى نفسه . وعليهم أن يقرروا كيف يحكمون بلادهم . وكيف ينتخبون قيادتهم وحكومتهم . ونحن نحترم هذا الحق السيادى . وإذا ما بدأنا نشك فى خيار الشعب الأمريكى ، فما الذى يمكن أن يترتب على ذلك ؟ إن السياسة يجب أن تبنى على الحقائق ، وعلى إدراك حقيقة أن كل بلد له الحق فى أن يختار

طريقته فى الحياة ، ونظامه الخاص وحكومته بشكل مستقل .

والولايات المتحدة دولة يتعين علينا أن نتعايش معها ونقيم معها علاقات . وهذه حقيقة . وبغض النظر عن كل الطبيعة المتناقضة لعلاقاتنا ، فمن الواضح أننا بدون الولايات المتحدة لانستطيع أن نفعل شيئا لتأمين السلام . وكذلك بدوننا لن تحقق الولايات المتحدة شيئا . فلا مناص لكل منا عن الآخر . فالحاجة ماسة إلى الاتصال والحوار . ويتعين علينا أن نبحث عن طرق لتحسين علاقاتنا .

ونحن نعرف وندرك جيدا أن الولايات المتحدة لديها إدارة ــ هى البيت الأبيض ــ ولديها الكونجرس . ونحن نريد أن نتعاون مع كل من الإدارة والكونجرس . ونحن الآن نعمل على توسيع قدراتنا على فهم العملية السياسية الأمريكية . ونرى ، على وجه الخصوص ، الاختلاف فى الآراء بين وزير الدفاع ، وهو مدنى ، والعسكريين المحترفين فى الولايات المتحدة . فبالنسبة للأول ، فإن الأعمال الاقتصادية وطلبيات الأسلحة تعنى الشىء الكثير ، بينما يدرك المحترفون الواقعيون جيدا مايملكونه فى أيديهم وما الذى يمكن أن يجلبه على العالم . ويشهد مثل هذا الإدراك بما يبديه العسكريون من إحساس بالواقعية والمسئولية ، ومن المهم للغاية أن يفهم العسكريون الوضع الحالى على نحو صحيح .

ودعونى أضف أننا لاننوى تشكيل علاقاتنا وفقا للوضع السياسى داخل الولايات المتحدة . فالجمهوريون اليوم يقبعون فى السلطة فى الولايات المتحدة ، وغدا سيكون الديموقراطيون أو الجمهوريون مرة أخرى . وليس هناك اختلاف متميز . ولكن هناك مصالح الولايات المتحدة كدولة وهى التى يجب أخذها فى الاعتبار . وسنحتفظ بالعلاقات مع الإدارة التى تكون قائمة فى السلطة . ولتبق الشئون الأمريكية أمريكية ، وكذلك شئوننا هى ملك لنا . وهذا هو موقفنا المبدئى .

« صــورة العــدو »

نحن ، بالتأكيد ، لسنا فى حاجة إلى أن نرى أمريكا فى « صورة عدو » ، لا بالنسبة لمصالح سياستنا الداخلية أو بالنسبة لمصالح سياستنا الخارجية . والمرء فى حاجة إلى عدو وهمى أو حقيقى ، فقط عندما يكون مصرا على المحافظة على التوتر وعلى المواجهة بعواقبها البعيدة المدى ، بل أضيف ، والتى لايمكن التكهن بها . وتوجهاتنا مختلفة تماما .

ومن جانبنا لاتوجد لدى الاتحاد السوفيتى دعاية للكراهية ضد الأمريكيين أو الاستخفاف بأمريكا . لن تجد ذلك فى أى موقع فى بلادنا ، لا فى السياسة ولا فى التعليم . إننا ننتقد السياسة التى لانوافق عليها . ولكن هذا أمر مختلف ، وهو لايعنى أننا نبدى أى عدم احترام للشعب الأمريكى .

وفى صيف ١٩٨٧ التقيت بمجموعة من الأمريكيين يعلّمون اللغة الروسية فى الولايات المتحدة ، وقد تلقوا منهجا تدريبيا لمدة شهرين فى لينينجراد . ودارت معهم مناقشة طيبة ـ صريحة ودافئة . وسأورد هنا مقتطفا موجزا من المحضر الحرفى لها :

ميخائيل جورباتشوف : هل قابلتم ولو حالة واحدة لموقف عدم احترام تجاه الأمريكيين خلال إقامتكم ؟ .

د . بادولا : كلا رغم أن رجلا سألنى فى الشارع ذات مرة ، متى سيكون هناك سلام ؟ فقلت له أتمنى أن يأتى السلام قريبا .

ميخائيل جورباتشوف : هذه معلومة هامة للغاية . وأنا على قناعة ، أيها الاصدقاء ، بأنكم حيثما توجهتم فى الاتحاد السوفيتى ، فلن تقابلوا موقف عدم احترام حيال الأمريكيين . فى أى مكان . وبإمكانكم أن تقرأوا صحافتنا كذلك . وستجدون بها انتقادات ، وتحليلات وأحكاما وتقييمات لسياسة الحكومة ، وللبيانات والأعمال الصادرة عن مجموعات خاصة . ولكنكم لن تجدوا قط ما ينم

عن عدم احترام لأمريكا والأمريكيين .. ومن ثم إذا كان «الحمر قادمون» ، فهم قادمون معكم على الطريق المشترك للبشرية .

ومع ذلك فإن بعض الناس فى الولايات المتحدة ، فيما يبدون ، «يحتاجون» إلى الاتحاد السوفيتى فى «صورة عدو» . وإلا تعذر علينا فهم بعض الأفلام ، والإذاعات الأمريكية الملتهبة من ميونيخ ، وفيض المقالات والبرامج المليئة بالإهانات والكراهية تجاه الشعب السوفيتى . ويعود كل ذلك إلى الأربعينيات ، إن لم يكن قبل ذلك .

ولن أضفى المثالية على كل خطوة فى السياسة الخارجية السوفيتية طوال العقود العديدة الماضية . لقد حدثت أخطاء أيضا . ولكنها كانت فى الغالب نتيجة لرد فعل قصير النظر تجاه الأعمال الأمريكية ، تجاه سياسة يوجهها مهندسو «دفع الشيوعية إلى الخلف» .

ونحن حساسون، وبصراحة حذرون تجاه الجهود التى تبذل لإعطاء الاتحاد السوفيتى صورة العدو ، لاسيما عندما لا تقتصر على مجرد ممارسات أيديولوجية على نمط القصص الخيالية المعتادة عن «الخطر العسكرى السوفيتى» و«يد موسكو» و«مخططات الكريملين» والتصور السلبى تماما لشئوننا الداخلية . وأنا لا أريد حتى أن أشير إلى سخف مثل هذه المزاعم ، ولكننا لا نستطيع فى الوقت نفسه تجاهل حقيقة أن كل شىء فى السياسة له هدفه الخاص . وهكذا فإنها مسألة ممارسة سياسية تكمن خلفها نوايا ومخططات معينة . فينبغى علينا أن نتخلص من أى وجود للشوفينية «التعصب القومى» فى بلدنا ، ولاسيما إذا وضعنا فى الاعتبار القوة التى يمتلكها كل منا . والشوفينية يمكن أن تدخل إلى السياسة عناصر لا يمكن السماح بها .

إنها لحقيقة مأساوية ومؤسفة أن العلاقات السوفيتية الأمريكية كانت تتدهور منذ فترة طويلة . لقد أخلت فترات التحسن القصيرة مكانها لفترات طويلة من التوتر وتصاعد العداء . وأنا على قناعة بأن الفرص متاحة لتصحيح الوضع ، ويبدو أن

الأمور تتحرك فى هذا الاتجاه . ونحن على استعداد لفعل كل ما من شأنه أن يحدث تغييرات نحو الأفضل .

من يحتاج إلى سباق التسلح ولماذا ؟

إذا تأملنا فى مسألة ما الذى يقف فى طريق علاقات سوفيتية أمريكية طيبة ، نخلص إلى استنتاج ، أنه فى الغالب سباق التسلح . لست أريد وصف تاريخه . واسمحوا لى فقط أن أشير مرة أخرى إلى أن الاتحاد السوفيتى كان هو الطرف الذى يحاول اللحاق بالطرف الآخر فى كل هذا السباق تقريبا . ومع بداية السبعينيات كنا قد وصلنا ، على وجه تقريبى ، إلى تعادل عسكرى استراتيجى ، ولكن عند مستوى مرعب حقا . وكل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الآن ، لديه القدرة على تدمير الآخر عدة مرات .

وقد يبدو ومن المنطقى فى مواجهة التورط الاستراتيجى أن نوقف سباق التسلح ونتجه إلى نزع السلاح . ولكن الواقع مختلف . فمستودعات الأسلحة ، التى تفيض بالفعل ، لا تزال تملأ بأنواع من الأسلحة ، جديدة ومعقدة ، كما يجرى تطوير مجالات جديدة من التكنولوجيا العسكرية . والولايات المتحدة هى التى تحدد الإيقاع فى هذا المسعى الخطر ، إن لم يكن المدمر .

ولا أفشى سرا إذا ما قلت لكم إن الاتحاد السوفيتى يفعل كل ما يلزم لكى تظل دفاعاته على أحدث مستوى ويعول عليها . وهذا هو واجبنا نحو شعبنا وحلفائنا . وفى الوقت نفسه أود أن أقول بكل التحديد إن هذا ليس خيارنا . لقد فرض علينا .

وتنتشر كافة أنواع الشكوك بين الأمريكيين حول النوايا السوفيتية فى مجال نزع السلاح . بيد أن التاريخ يوضح استطاعتنا المحافظة على الكلمة التى نقطعها على أنفسنا ، وأننا نحترم التعهدات التى نأخذها على عاتقنا . ولسوء الحظ ، لا يمكن أن يقال ذلك بالنسبة للولايات المتحدة . فالإدارة تقوم بتكييف الرأى العام ، وتخويفه

من الخطر السوفيتي ، وهى تفعل ذلك بعناد خاص عندما تكون هناك ميزانية عسكرية جديدة فى طريقها إلى الكونجرس للتصديق عليها . وعلينا أن نسأل أنفسنا لماذا يحدث كل ذلك وما هو الهدف الذى ترمى إليه الولايات المتحدة .

وإنه لفى وضوح البللور أنه فى العالم الذى نعيش فيه ، عالم الأسلحة النووية ستكون أى محاولة لاستخدام هذه الأسلحة النووية فى حل المشاكل السوفيتية الأمريكية ، إنما تعنى الانتحار . هذه حقيقة لست أعتقد أن الساسة الأمريكيين غافلون عنها . وفضلا عن ذلك ، فقد نشأ الآن وضع متناقض حقيقة . فحتى لو أنهمك أحد البلدين فى تعزيز الأسلحة باطراد بينما لم يفعل الآخر شيئا ، فإن الجانب الذى يسلح نفسه لن يكسب مع ذلك شيئا . فقد يفجر الجانب الأضعف ببساطة كل شحناته النووية ، ولو فوق أراضيه ، وهذا يعنى الانتحار بالنسبة له والموت البطىء بالنسبة للعدو . ولهذا السبب فإن أى مسعى للتفوق العسكرى يعنى أن يدور المرء فى حلقة مفرغة . ولا يمكن استخدام ذلك فى السياسة الواقعية .

كما أن الولايات المتحدة ليست فى عجلة لأن تتخلى عن وهم آخر ، وأعنى به عزمها غير الأخلاقى على استنزاف الاتحاد السوفيتى حتى آخر قطرة اقتصاديا ، والحيلولة بيننا وبين تنفيذ خططنا فى البناء بجرّنا أكثر فأكثر إلى هاوية سباق التسلح .

وأطلب من القارئ أن يلقى نظرة على خبرة سنوات ما بعد الحرب . لقد خرج الاتحاد السوفيتى من الحرب العالمية الثانية فى وضع صعب للغاية . نعم ، لقد كسبنا الصراع ضد الفاشية ، وانتصرنا جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة وغيرها من الدول التى شاركت فى التحالف المعادى لهتلر . ولكن بينما لم تلق قنبلة واحدة للعدو ، أو تسمع طلقة واحدة للعدو فى أراضى الولايات المتحدة القارية ، كان جزء كبير من أراضينا مسرحا لأشرس المعارك . وكانت خسائرنا ــ البشرية والمادية على السواء ــ هائلة ومع ذلك ، نجحنا فى استعادة ما تم تدميره ، وفى بناء امكانياتنا الاقتصادية ، وفى التصدى بثقة لمهامنا الدفاعية . ألا يعتبر ذلك درسا للمستقبل !

ومن غير المسموح به أن تقيم الدول سياستها على تصورات خاطئة . ونحن نعرف أن هناك رأيا شائعا فى الولايات المتحدة والغرب بشكل عام يقول بأن الخطر القادم من الاتحاد السوفيتى ليس مرده إلى أنه يمتلك أسلحة نووية ، وهم هناك يفكرون على النحو التالى ، كما سبق أن ذكرت فى مناسبة أخرى : إن السوفيت يعرفون جيدا أنهم إذا ما هاجموا الولايات المتحدة ، فإنهم لن يفلتوا من الانتقام . وتدرك الولايات المتحدة بالمثل تماما أن الانتقام سيعقب أى هجوم على الاتحاد السوفيتى . ولذلك فإنه لا يمكن أن يشعل حربا نووية إلا شخص مجنون . إن التهديد الحقيقى ، وفقا لهؤلاء الناس ، سينشأ إذا ما حقق الاتحاد السوفيتى خططه للإسراع فى التنمية الاجتماعية والاقتصادية وأظهر إمكانياته الاقتصادية والسياسية الجديدة . ومن ثم كانت الرغبة فى استنزاف الاتحاد السوفيتى اقتصاديا .

ونحن ننصح الأمريكيين بإخلاص : حاولوا أن تتخلصوا من مثل هذا الموقف حيال بلادنا . إن الآمال فى استخدام أى ميزات فى التكنولوجيا أو المعدات المتقدمة لتحقيق تفوق على بلادنا هى آمال خائبة ولا طائل من ورائها . إن التصرف على أساس الافتراض بأن الاتحاد السوفيتى فى «وضع ميئوس منه» وبأنه من الضرورى الضغط عليه فقط ولكن بدرجة أشد ، لاعتصار كل ما تريده الولايات المتحدة ، لهو خطأ عميق . ولن تجدى هذه المخططات شيئا . فى السياسات الحقة لا يقبل الاعتقاد بصحة شىء لمجرد الرغبة فيه وتمنيه . وإذا كان الاتحاد السوفيتى ـ عندما كان أضعف كثيرا من الآن ـ قد مكنه الوضع الذى كان فيه من التصدى لكافة التحديات التى واجهته ، فإنه ليس إلا الأعمى الذى يعجز عن رؤية أن قدراتنا ، على الاحتفاظ بدفاعات قوية ، وفى الوقت نفسه على حل مهامنا الاجتماعية وغيرها ، قد تزايدت بدرجة هائلة .

وسأكرر فيما يتعلق بسياسة الولايات المتحدة الخارجية ، أنها ترتكز على الأقل على وهمين . أولهما هو الاعتقاد بأن النظام الاقتصادى للاتحاد السوفيتى على وشك الانهيار وأن الاتحاد السوفيتى لن ينجح فى إعادة البناء . والثانى وهو الأهم يتم

حسابه على أساس تفوق الغرب فى المعدات والتكنولوجيا ، ثم فى نهاية الأمر فى المجال العسكرى . وهذان الوهمان يغذيان سياسة موجهة نحو استنزاف الاشتراكية من خلال سباق التسلح ، بهدف إملاء الشروط فيما بعد . ذلك هو المخطط ، وإنه حقا لمخطط ساذج .

إن السياسة الغربية الحالية ليست سياسة مسئولة بالقدر الكافى ، وتفتقر إلى أسلوب التفكير الجديد . وأعلن ذلك بصراحة . وإذا لم نتوقف الآن ونبدأ نزع السلاح بشكل عملى ، فقد نجد أنفسنا جميعا على شفا كارثة . واليوم يحتاج الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، كما لم يحدث من قبل ، إلى سياسة مسئولة . ولدى كل من البلدين مشاكله السياسية والاجتماعية والاقتصادية : مجال واسع للنشاط . وفى هذه الأثناء تعمل هيئات كثيرة من الخبراء على وضع خطط استراتيجية وتتلاعب بملايين الأرواح وتتمخض توصياتهم عما يلى : الاتحاد السوفيتى هو التهديد الرهيب الأكبر للولايات المتحدة والعالم . وأكرر : لقد حان الوقت للتخلى عن عقلية إنسان الكهف هذه . وبطبيعة الحال فقد تورط الكثيرون من الزعماء السياسيين والدبلوماسيين ، تحديدا ، فى سياسات من هذا القبيل تقوم على مثل هذه العقلية لعدة عقود . لكن زمانهم قد انقضى . ويتحتم نظرة جديدة للعصر النووى . وتحتاج الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى للغاية إلى هذه النظرة الجديدة فى علاقاتهما الثنائية .

إننا واقعيون . ولذلك فنحن نضع فى الاعتبار حقيقة أنه فى السياسة الخارجية تكون لجميع البلاد ، حتى أصغرها ، مصالحها الخاصة . ولقد آن الأوان لتدرك الدول العظمى أنه لم يعد باستطاعتها إعادة تشكيل العالم وفقا لأنماطها الخاصة . إن هذا العصر قد تراجع ، أو هو على الأقل يتراجع إلى الماضى .

مزيد حول الوقائع :
إزالة الحدة الأيولوجية من العلاقات بين الدول

كان ينبغى أن تكون لنا منذ فترة طويلة رؤية واقعية للعالم حولنا ولماضينا . وكان ينبغى أن نرى دون خوف أين نحن . فعندما يرى بلد ما بلدا آخر على أنه «الشر مجسداً» ، ويرى نفسه على أنه التجسيد «للخير المطلق» ، تكون العلاقات بينهما قد وصلت إلى طريق مسدود . وأنا لا أفكر هنا فى الكلام المنمق المعادى للشيوعية ، مهما كان أثره وضرره ، وإنما أفكر فى العجز ، أو العزوف عن إدراك أننا جميعا نمثل جنسا بشريا واحدا ، وأننا نشارك فى مصير واحد وعلينا أن نتعلم أن نكون جيرانا متحضرين فوق كوكبنا . لقد ورثت أجيال اليوم من الماضى المواجهة السوفيتية الأمريكية . ولكن هل قدر علينا أن نستمر فى العداوة ؟ .

ونحن على وجه الاجمال، قد عشنا طويلا فى سلام. ولكن الوضع الدولى الحالى لايمكن وصفه بأنه مرضٍ. فسباق التسلح، لاسيما سباق التسلح النووى، يتواصل والنزاعات الإقليمية تستعر. وخطر الحرب يزداد . والمخرج الوحيد هو جعل العلاقات الدولية أكثر إنسانية . وهذه مهمة صعبة ونرى طرح المسألة بالكيفية التالية : من الجوهرى أن نرتفع فوق الخلافات الأيديولوجية . وليقرر كل منا خياره الخاص ، ولنحترم جميعا هذا الخيار. ومن أجل ذلك فهناك ضرورة لأسلوب جديد فى التفكير السياسى ، أسلوب ينطلق من إدراك الاعتماد المتبادل العام ومن فكرة أن الحضارة يجب أن تبقى . وإذا ما توصلنا إلى تفاهم حول معايير مثل هذا التفكير الجديد ، فسوف نصل إلى قرارات صحيحة للقضايا العالمية . وإذا ما أدرك الزعماء السياسيون هذه النقطة ونفذوها عمليا ، فسيكون ذلك انتصارا هاما للعقل .

وعندما نتحدث عن تحسين الوضع العالمى ، فإننا نخص معيارين لسياسة خارجية واقعية وهما : وضع اعتبار للمصالح الوطنية الخاصة واحترام مصالح

البلدان الأخرى . وهذا الموقف سليم ومعقول ، ويتعين الدفاع عنه بدأب . هكذا نفكر على هذا النحو وهكذا نتصرف وفقا له .

الاغتراب شر

غالبا ما نسمع أن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة باستطاعة كل منهما أن تعمل دون الأخرى . وللحقيقة ، فإني أقول ذلك أيضا فى بعض الأحيان . حسنا ، إن ذلك صحيح من وجهة النظر الاقتصادية ، وإذا ما أخذنا فى الاعتبار علاقاتنا الاقتصادية المحددة للغاية اليوم . وسواء كانت هناك علاقات أم لا ، فإننا نعيش ، ونتعلم الدروس التى يلقننا إياها الأمريكيون .

لقد كانت وارداتنا من حبوب العلف مسألة حساسة . وقد تأمن وضعنا الآن بتوقيع عقود استيراد مع عديد من البلدان ، وتطبيق تكنولوجيات زراعية مكثفة لزيادة انتاج الحبوب فى الداخل . ومهمتنا الحالية هى أن نبدأ فى تصدير الحبوب فى المستقبل القريب .

لقد أنشأ الغرب لجنة التنسيق الخاصة بالضوابط على الصادرات الثنائية المتعددة (كوكوم) . وتقف الولايات المتحدة موقف الحذر واليقظة من انتهاك قيودها وللتأكد من أن قوائم السلع غير المسموح ببيعها للاتحاد السوفيتى تتسع ، ولا تتردد أمريكا فى التدخل فى الشئون الداخلية للمشتركين فى تدابير الحظر .

وقد رد الاتحاد السوفيتى على الفور بوضع برنامج مقابل ، يسمى « البرنامج ١٠٠ » لأنه يتضمن مائة صنف من المواد . وقد انجزناه فى أقل من ثلاث سنوات . وحوالى ٩٠٪ من المواد التى نستخدمها مصنوعة محليا . وهكذا يمكننا القول أننا نجحنا فى التغلب على المشكلة فى الأساس .

وقلنا صراحة أنه قد حان الوقت لنتغلب على مركب النقص لدينا . إن بلادنا بلاد شاسعة ذات موارد هائلة وامكانيات علمية ضخمة . وشركاؤنا الرأسماليون فى

الخارج لا يعول عليهم على الدوام ويستخدمون التجارة أحيانا للابتزاز السياسى والتخويف . وقد بدأت التدابير التى اتخذناها تعطى ثمارها بالفعل . وحققنا تطورات رائدة فى تكنولوجيا الحاسبات والحاسبات المعقدة ، والموصلات الفائقة وغيرها من المجالات . وتأمل الولايات المتحدة فى أنها ستقود العالم على الدوام : أمل لا طائل منه ، كما يدرك الكثير من العلماء الأمريكيين .

لقد اغترب بلدانا كل عن الآخر لسنوات ، وفقد كل من الاقتصاد السوفيتى والأمريكى فرصا رائعة عديدة ، وعجزنا عن أن نفعل كثيرا من الأشياء الطيبة معا بسبب الشك وافتقاد الثقة . إن الإغتراب شر . وإلى جانب ذلك ، فإن العلاقات الاقتصادية توفر الأساس المادى للتقارب السياسى . كما أنها تخلق مصالح متبادلة تساعد فى السياسة ، وإذا ما عززنا علاقاتنا التجارية والاقتصادية وواصلنا العملية الثقافية التى تجرى حاليا ، حتى وإن تكن أبطأ مما نود ، فسنكون قادرين على بناء الثقة بين بلدينا . ولكن الولايات المتحدة وضعت حواجز عديدة فى المجال الاقتصادى .

إننا مازلنا نستورد الحبوب ــ وحتى وإن يكن من أجل الإبقاء على التجارة . وإلا فقد تموت . ولكننا قد لا نحتاج قريبا إلى واردات حبوب على الإطلاق كما سبق أن قلت . والتجارة السوفيتية الأمريكية فى السلع الأخرى غير قائمة عمليا . وبمجرد أن دخلت بعض السلع السوفيتية السوق الأمريكى ، شرعت الولايات المتحدة ، بقلق ، فى اتخاذ تدابير لحظر التجارة أو على الأقل للحدّ منها . وهناك اجراءات وقوانين وخبرة فى أمريكا تحول دون تنمية التجارة مع الاتحاد السوفيتى .

إن باستطاعة أمريكا أن تدبر أمورها بدون الاتحاد السوفيتى ، ونحن أيضا نستطيع أن ندبر أمورنا بدون أمريكا ، مادامت التجارة مستمرة . ولكن بمجرد التفكير فى مدى اعتماد العالم على بلدينا وعلى التفاهم بيننا ، ندرك على الفور ضرورة تنمية تفاهمنا المتبادل . ومن ثم ، يجب أن تنمو تجارتنا بدورها . وهذا أمر طبيعى تماما ، بل ومفيد .

ولكن هناك دوائر معينة فى الولايات المتحدة ليست مستعدة للتقارب ، ولا تبدى أية رغبة فى التفاهم . إنها تفتقر إلى القدرة على الانفتاح . « فإذا كان هناك شيء يمكن الحصول عليه من الاتحاد السوفيتى فأمريكا على استعداد . ولكن عندما يتعلق الأمر بربح متبادل فعلينا أن ننساه » .

وثمة شيء يتوقف على الاتحاد السوفيتى بدوره وهو شيء كبير فى الحقيقة . فنحن قد نكون تجارا سيئين . أو قد نخفق فى بذل الجهد اللازم لأننا نستطيع تدبير أمورنا بدون التجارة . وعلى الجانبين أن يعملا من أجل إزالة العقبات .

وهذا هو النهج الصحيح من مسألة الثقة . والتعاويذ لا تصلح فى هذا المجال . فالثقة تأتى نتيجة للإجراءات العملية ، بما فى ذلك الجهود المشتركة لتنمية الروابط التجارية ، والاقتصادية ، والعلمية ، والتكنولوجية ، والثقافية وغيرها . وعلى كلا الجانبين أن يعملا من أجل وقف سباق التسلح والانتقال إلى نزع السلاح . وإذا ما عملنا معا من أجل تسوية النزاعات الاقليمية ، فسوف نكسب الثقة المتبادلة أيضا .

وعندما أسمع أن علينا أن نرعى الثقة ، وأن المشاكل الأساسية سوف تحل فيما بعد ، يتعذر علىّ فهم ذلك ، إذ يبدو ذلك أشبه بعذر كسيح . هل الثقة هبة من السماء ؟ أو هل تنشأ من نفسها إذا ما أخذ الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة يكرران أنهما يؤيدان الثقة ، إنها لا شيء من هذا القبيل . فإقامة الثقة عملية طويلة ، وتتوقف درجتها على الدوام على العلاقات العملية وعلى التعاون فى مجالات عديدة .

وعلينا أن نشرع فى معرفة كل منا للآخر بدرجة أفضل إذا ما أردنا أن نتجنب الأحداث التى تحمل الكوارث فى طياتها . وأكرر مرة أخرى إن العوامل الاقتصادية ليست هى وحدها التى تحفزنا على التعاون . فالأهداف السياسية هنا أكثر أهمية من الأهداف الاقتصادية . ويجب أن نضع دائما نصب أعيننا هدفنا الرئيسى وهو المتمثل فى تطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية . وينبغى أن نتذكره مهما بدا بعيداً ، ومهما

كان طريقنا إليه قائما نتيجة عوامل داخلية ودولية .

والناس ذوو العقلية الواقعية فى أمريكا وفى كل بلد آخر يريدون التعاون وليس المواجهة . وتبين المعلومات والاتصالات الشخصية أن هذه هى الحال . ويرحب هؤلاء الناس بواقعية السياسة السوفيتية ، ويعلقون عليها آمالا كبار . وأنا ألتقى بكثير من رجال الأعمال ، وأرى أنهم يفكرون من زاوية الحالة العامة ، رغم أنهم لا ينسون أبدا مصالح أعمالهم . ويسرنى على الدوام أن ألتقى بالدكتور أرماند هامر . إنه يفعل الكثير من أجل تعزيز التفاهم والصلات الودية بين بلدينا . وقد سمعت أخيرا عن السيد برونتمان ، وهو أحد أغنى المواطنين فى أمريكا ، يقترح نخبا فى صحة جورباتشوف ويقول لزميله ، « لقد حصلت على كل ما أستطيع أن أحصل عليه ماديا فى الحياة ، ولكن مايهم الآن هو مستقبل البشرية . وإذا ما استمرت التنمية فى الاتحاد السوفيتى . فسيكون باستطاعته المحافظة على توازن القوى ، وبالتالى سيكون هناك سوق وسلام » .

إن الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة هما بلاشك دولتان قويتان لهما مصالح ضخمة . ولكل منهما حلفاؤه وأصدقاؤه . ولدينا ــ كلينا ــ أولوياتنا فى السياسة الخارجية ، ولكن ذلك لايعنى بالضرورة أننا لابد أن ننتهى إلى المواجهة . فمن المنطق بدرجة أكبر أن نتوصل إلى نتيجة مختلفة ــ إن الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة مسئولان بشكل خاص عن مستقبل العالم .

إن الجانب الأكبر من الأسلحة النووية يتركز لدى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة. وفى الوقت نفسه فإن عشرة فى المائة أو حتى واحدا فى المائة من إمكانياتهما كاف لانزال أضرار لا يمكن إصلاحها بكوكبنا وبكل الحضارة البشرية .

وتتضمن وجهة النظر هذه ، أيضا ، أننا والأمريكيين نتحمل أكبر مسئولية تجاه شعوب العالم . إن بلدينا وشعبينا ، وساستهم ، يتحملون مسئولية خاصة فريدة تجاه كل الحضارة البشرية . لقد كان الشعب الأمريكى من القوة بما سمح له بأن يبنى

أمريكا كما هى عليه الآن . وبرهن الاتحاد السوفيتى على أنه من القوة بالدرجة التى جعلت من بلد كان ذات يوم متخلفا ، قوة متقدمة . واليوم ، ورغم كل الصعوبات ، التى عانيناها خلال تاريخنا الصعب ، أصبح الاتحاد السوفيتى دولة متقدمة جبارة وبلدا جيد التعليم ذا إمكانيات فكرية ضخمة . ولذا أعتقد أننا والأمريكيين ، بمنجزاتنا ، سيكون لدينا من الحكمة ، والمقدرة ، والمسئولية ، واحترام كل منا للآخر ما يلزم لنمسك بالواقع بين قبضتينا ونتجنب الكارثة .

ونحن نعى تماما جبال المشاكل التى تراكمت بين بلدينا . ومن المستحيل أن نتمكن سريعا من مناقشة وتسوية المشاكل التى تراكمت على مر السنين . وسيكون من قبيل الوهم أو الحلم الزائف أن نفكر بغير ذلك . والشىء الأكثر أهمية فى العلاقات السوفيتية الأمريكية هو عدم الجرى وراء الخرافات ، وإنما رؤية الأشياء كما هى بالحالة التى هى عليها . إننا ننظر إلى العالم ، بما فيه الولايات المتحدة ، من موقع السياسة الواقعية . وننطلق من حقيقة أساسية تتمثل فى أن كلا من الشعبين الأمريكى والسوفيتى لا يريد الدمار الذاتى . ونحن اقتناعا منا بذلك ، بدأنا السير فى طريق مكرس لتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة ، ونتوقع منها المعاملة بالمثل .

على الطريق إلى جنيف

خلال « استعراض ومراجعة » مستفيضة لشئوننا الداخلية وللوضع الدولى بعد اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى خلصت القيادة السوفيتية إلى استنتاج بأن الوضع فى العالم بالغ الخطورة لدرجة لا تسمح بأن تفلت من أيدينا أدنى فرصة لتحسينه والتوصل إلى سلم أكثر دواما .

وقررنا أن نحاول عن طريق الإقناع وضرب المثال وإظهار الحصافة أن نعكس مجرى الأحداث الخطير . وأقنعتنا خطورة الوضع بأن لقاءاتى الشخصية مع رئيس الولايات المتحدة ضرورية ، حتى وإن يكن فقط من أجل تبادل عميق للآراء وتفهم أفضل لكل منا لمواقف الآخر .

وبدأنا ، قبل اللقاء بعدة شهور ، نمهد الطريق بخلق مناخ أكثر مواتاة . وفى صيف ١٩٨٥ أعلن الاتحاد السوفيتى من جانب واحد وقف جميع التفجيرات النووية ، وأعرب عن استعداده لأن يستأنف على الفور المفاوضات من أجل معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية . كما أكدنا من جديد قرارنا بوقف التجارب على الأسلحة المضادة للأقمار الصناعية من جانب واحد وتقدمنا باقتراح جذرى لتخفيض الترسانات النووية . ودعّمنا اقتناعنا القوى بأن سباق التسلح يجب ألا ينتشر فى الفضاء ، باقتراح بشأن تعاون دولى واسع فى استكشاف الفضاء واستخدامه سلميا .

وعشية لقاء جنيف ، أعلنت دول معاهدة وارسو فى اجتماع لجنتها الاستشارية السياسية فى صوفيا أنها عاقدة العزم على مواصلة العمل من أجل السلام ، والانفراج ، وضد سباق التسلح والمواجهة ، ومن أجل تحسين الوضع الدولى لصالح كل بلدان العالم .

جنيف

إن كل تفاصيل لقاء جنيف حية فى ذاكرتى . فخلال يومين حافلين أجريت عدة مناقشات منفردة مع الرئيس ريجان . وعقدت خمسا من تلك اللقاءات على وجه الدقة ، دون حساب لقائنا لدقيقتين لنودع بعضنا البعض .

وكما سبق أن قلت ، كانت مناقشاتنا صريحة ، وطويلة ، وحادة ، بل وحادة للغاية فى بعض الأحيان . ورأينا أن لدينا ما أعتقد أنه نقطة انطلاق للعمل من أجل علاقات سوفيتية أمريكية أفضل . وتتمثل هذه النقطة فى إدراك أن الحرب لا يمكن كسبها ، ويجب عدم خوضها قط .

وقد أعرب عن هذا الرأى مرارا الجانب السوفيتى . وكذلك الجانب الأمريكى . وهذا يعنى أن المسألة المركزية فى العلاقات بين بلدينا اليوم هى الأمن . وقلت للرئيس إن علينا أن نفكر فى طرق لتحسين العلاقات الثنائية لصالح الشعبين السوفيتى

والأمريكى ثم نحاول أن نجعل هذه العلاقات ودية ، واضعين فى الاعتبار أن بلدينا ليسا فقط مختلفين ، وإنما هما أيضا مرتبطان . وذلك لأن البديل هو الدمار الشامل .

وانطلاقا من وجهة النظر هذه تحدثنا عن الحاجة لاتخاذ اجراءات لتجنب سباق التسلح فى الفضاء ووقفه على الأرض ، وتحدثنا كذلك عن أهمية المحافظة على التوازن الاستراتيجى وخفض مستواه . ومن هذا الموقع ناقشنا كذلك العالم الخارجى ، الذى يتكون من مجموعة متعددة الأوجه من الشعوب ، لكل منها مصالحه الخاصة ، وتطلعاته ، وسياسته ، وتقاليده وأحلامه . وتحدثنا عن الرغبة الطبيعية لكل شعب فى ممارسة حقوق السيادة فى المجال السياسى وفى المجالين الاقتصادى والاجتماعى كذلك . ولكل بلد الحق فى اختيار طريق تطوره الخاص ، ونظامه ، وأصدقائه . وإذا لم نعترف بذلك ، فلن نكون أبدا قادرين على تنظيم علاقات دولية طبيعية .

وفى بعض المسائل اتفق معى الرئيس ، ولكننا لم نستطع أن نتوصل إلى اتفاق حول عديد من الأمور . وبقيت خلافاتنا الرئيسية حول المبدأ . وعجزنا فى جنيف أن نتوصل إلى حل للمشكلة الأساسية المتعلقة بوقف سباق التسلح وتدعيم السلام .

ومع ذلك ، فحتى فى ذلك الحين ، فى خريف ١٩٨٥ ، كنت أعتقد ، كما لا أزال ، أن اللقاء كان ضروريا ومفيدا . فى أصعب فترات التاريخ نحتاج إلى لحظات صدق حاجتنا إلى الهواء . لقد جعل سباق التسلح الوضع الدولى مقلقا للغاية وكم من لغو قيل حول هذا الموضوع . وقد جاء الوقت لتبديد هذه السحب واختبار الأقوال بالأفعال . وليس هناك ما يؤدى إلى ذلك أفضل من المناقشة الشخصية ، وهذا ماتهدف إليه لقاءات القمة . فى الحوار المباشر لا يمكنك أن تختبئ من الحقيقة .

وفى جنيف توصلنا إلى تعرف كل منا على الآخر بصورة أفضل ، ورأينا بوضوح طبيعة خلافاتنا ، وبدأنا الحوار . ووقعنا اتفاقا حول التبادل الثقافى الذى يجرى

بالفعل لمصلحتنا المتبادلة . وأدركنا أنه مايزال أمامنا طريق طويل لكى نصل إلى تفاهم متبادل مرضى وأن علينا أن نعمل بمثابرة فعلا لكى نحقق تغيرا نحو الأفضل فى العلاقات السوفيتية الأمريكية وفى العالم بوجه عام .

بعد جنيف

فماذا حدث بعد جنيف ؟ كنا نعرف دائما أن لا شىء يتغير من تلقاء نفسه وأن هنالك حاجة إلى قدر كبير من المبادرة لمواصلة ماتم تحقيقه . إن الاتفاقيات الملزمة التى وقعت فى جنيف والتى تعهد فيها كل من الطرفين بأن الحرب النووية يجب ألّا تبدأ أبدا ، وبألّا يسعى أى طرف للتوصل إلى تفوق عسكرى ، وبضرورة الاسراع فى مفاوضات جنيف ، كان لابد من ترجمتها إلى خطوات عملية . وقد قمنا بمثل هذه الخطوات .

الوقف المؤقت للتجارب النووية (المورانوريوم)

فى أول يناير ١٩٨٦ انتهت فترة الوقف المؤقت من جانب واحد للتفجيرات النووية . ولكن الاتحاد السوفيتى قام بتمديده . ولقد كان قرارا خطيرا للغاية تضمن بعض المخاطر بالنسبة لنا ، لأن التقدم فى تكنولوجيا الفضاء كان مستمرا ، وجرى تطوير أنماط جديدة من الأسلحة النووية مثل سلاح الليزر الحامل لجرعات نووية . ومع ذلك كانت لدينا الشجاعة لأن نقوم بما قمنا به وأن ندعو الولايات المتحدة لأن تسير فى إثرنا من أجل مصلحة السلام العالمى .

إن حظر التجارب النووية يعتبر بمثابة محك . وإذا ما كنت ترغب بإخلاص فى إزالة الأسلحة النووية ، فسوف توافق على حظر التجارب لأن مثل هذا الحظر سيؤدى إلى تخفيض الترسانات القائمة وإلى وضع حد لتحديثها . وإذا لم تكن تريد لذلك أن يحدث ، فستبذل كل مافى وسعك من أجل ضمان استمرار التجارب .

إن حظر التجارب النووية إجراء سيؤدى على الفور إلى إدخال عنصر جديد

مشجع فى العلاقات السوفيتية الأمريكية والوضع الدولى بكامله . والأساس الطيب لتنفيذ هذا الإجراء موجود . فالاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة كلاهما من بين الموقعين على معاهدة حظر التجارب النووية فى البيئات الثلاث .كما توصلنا إلى اتفاق حول الحد من التفجيرات النووية تحت الأرض ولدينا بعض الخبرة فى التباحث حول تحريمها بالكامل .

وفى الفترة السابقة ، كانت مشكلة التحقق تمثل العقبة الكأداء . ولإزالة هذه العقبة أعلنا أننا مستعدون لقبول الرقابة فى أى شكل ، واستخدام المرافق التقنية الوطنية والدولية على السواء ، بما فى ذلك مرافق بلدان ثالثة من أجل هذا الغرض .

ووقف الاتحاد السوفيتى للتفجيرات النووية ، باعتباره عملا وليس مجرد اقتراح ، إنما يدل على جدية وإخلاص برنامجنا لنزع السلاح النووى وكذلك نداءاتنا من أجل سياسة جديدة ـ سياسة الواقعية ، والسلام والتعاون .

وقد رحب ذوو الإرادة الطيبة بقرارنا بوقف التفجيرات النووية . وسمعنا كلمات الترحيب والتأييد من جميع أنحاء العالم . ورأى الساسة والبرلمانيون ، والشخصيات والمنظمات العامة فى هذا العمل مثالاً لنهج صحيح فى المشاكل الحالية وأملا للتحرر من الخوف من الكارثة النووية . وحظى الوقف السوفيتى للتجارب بتأييد الجمعية العامة للأمم المتحدة ، الهيئة الأكثر تمثيلا للدول فى العالم . وأيدنا كذلك علماء طبيعة وأطباء بارزون ، ممن يدركون ، ربما أكثر من غيرهم ، أخطار الذرة . وألهم الموقف السوفيتى للتجارب أفراد الأسرة العلمية فى عديد من البلدان للقيام بأعمال نشطة .

ومع ذلك ، فكل هذه المظاهر الواضحة والمشجعة للتفكير الجديد تقابل بالنزعة العسكرية والمواقف السياسية المرتبطة بها ، والتى تخلفت بشكل خطير عن التحولات العميقة التى تجرى اليوم على النطاق الدولى . وقد ردت الإدارة الأمريكية ، بشكل لا مواربة فيه ، على تمديد الوقف السوفيتى للتجارب ـ إذ واصلت سلسلة من

التجارب النووية . وأعلن متحدثوها الرسميون أن إجراء التجارب على الشحنات النووية أو عدم إجرائها هما من شأن موسكو وحدها . وفيما يتعلق بالولايات المتحدة فسوف تستمر التجارب دون أى توقف .

وساد الصمت مواقع التجارب السوفيتية . وقد قلبنا الرأى ، بطبيعة الحال ، فى الأخطار التى تتضمنها أفعال واشنطن ورأينا كيف تصر الإدارة الأمريكية فى حماقة وبغير تحفظ على دفع خططها متجاهلة تماما كل النداءات لوضع حد لكافة التفجيرات النووية . وعلى الرغم من ذلك ، فقد قرر المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى والحكومة السوفيتية فى أغسطس ١٩٨٦ تجديد وقف التجارب النووية من جانب واحد حتى أول يناير ١٩٨٧ ، بعد أن درسا المشاكل من جميع الجوانب ، مسترشدين بشعور من المسئولية عن مصير العالم ولكن الولايات المتحدة اختارت ألا تحذو حذو الاتحاد السوفيتى .

ولست أعتقد أن وقف التجارب من جانبنا كان بلا نتيجة . فلقد تعلم الرأى العام العالمى أنه بالإمكان وقف التجارب النووية كما عرف من الذى يعارض ذلك . صحيح أنه فى ذلك الحين قد فاتت على العالم ، فرصة تاريخية لوقف سباق التسلح ، ولكن الدروس السياسية من كل ذلك لم تضع هباء .

والآن بعد أن توصلنا إلى اتفاق بالبدء فى مفاوضات شاملة ، ومرحلة بعد مرحلة ، حول التجارب النووية فى أول ديسمبر ، يمكننا أن نهنئ أنفسنا وكل الناس لأننا استطعنا أن نحرك الأمور .

برنامج نزع السلاح النووى

فى ١٥ يناير ١٩٨٦ تقدمنا ببرنامج مدته خمسة عشر عاما لإزالة الأسلحة النووية على مراحل تنتهى عند نهاية القرن العشرين . ووضعنا هذا البرنامج بعناية ، سعيا إلى ضمان توازن مقبول ومتبادل للمصالح فى كل مرحلة حتى لا يتعرض أمن أحد للضرر فى أى مرحلة . وأى نهج آخر سيكون ببساطة غير واقعى . وعلى أساس

هذا البرنامج تقدم ممثلونا فى محادثات جنيف بمقترحات توفيقية هامة تناولت الصواريخ المتوسطة المدى ، والأسلحة الاستراتيجية الهجومية ، وعدم عسكرة الفضاء الخارجى .

إن بيان ١٥ يناير كان بيانا محوريا فى صنع السياسة . لقد أردنا أن نبرز الخطر الرئيسى الذى تتعرض له الحضارة والمرتبط بالأسلحة النووية والتفجيرات النووية ، دون أن نتغاضى عن المسائل المتصلة بتحريم وإزالة الأسلحة الكيماوية ، والخفض الكبير فى الأسلحة التقليدية . وقد تمثل ذلك فى مجموعة من التدابير ذات الطابع العام . وكان المبدأ الأساسى الفعال فى كافة مراحل هذا البرنامج هو المحافظة على التوازن . ولم تكن هناك حاجة إلى أى تلاعبات أو خدع سياسية ، وإنما إلى المسئولية السياسية ، والإدراك الواضح بأنه لا أحد سوف يسعى إلى خداع الآخر عندما تكون المسألة المطروحة فى حساسية مسألة مثل أمن الدولة .

وخطوة كتلك التى اتخذناها فى ١٥ يناير لم تكن تتطلب فقط إدراكا لمسئوليتنا . وإنما أيضا تصميمنا السياسى . وانطلقنا من الحاجة إلى مداخل جديدة لمسائل الأمن فى العصر الفضائى النووى . وكانت هذه إرادة شعبنا بأسره . وعندما اتخذنا هذه الخطوة ، كان آخر شىء فكرنا فيه هو تحقيق كسب إعلامى على حساب الجانب الآخر . وقد أملى هذا التحرك إحساسنا بالمسئولية عن تجنب الحرب النووية والمحافظة على السلام . واتفق موقفنا فى ذلك مع موقف الرأى العام العالمى ، وكان بين أمور أخرى ، استجابة لنداء مجموعة البلدان الستة (الهند ، والارجنتين ، والسويد ، واليونان ، والمكسيك ، وتانزانيا) .

إننا مخلصون إخلاصا عميقا لفكرة عالم خال من الأسلحة النووية . وهذه الفكرة التى أثرتها التقاليد السياسية للهند ، وخصائص الفلسفة والثقافة الهندية ، جرى تطويرها فى إعلان دلهى حول مبادئ عالم خال من الأسلحة النووية ومن العنف . وهى بالنسبة لنا ليست مجرد شعار رفعناه لنلهب الخيال . فالأمن مسألة

سياسية ، وليس وظيفة للمواجهة العسكرية . والعجز عن إدراك ذلك يمكن أن يؤدى فقط إلى الحرب بكل آثارها المدمرة . وإذا ما أطلقت المخزونات الضخمة من الأسلحة النووية والكيماوية وغيرها من الأسلحة التى تراكمت فلن يبقى من العالم شيء . إننا نتحدث عن بقاء البشرية . وبالنسبة لنا تمثل فكرة عالم خال من الاسلحة النووية اقتناعا توصلنا إليه من خلال قدر كبير من المعاناة . ونحن نعتبر الأمن مفهوما شاملا لا يجسد الجوانب العسكرية السياسية وحدها وإنما يجسد أيضا الجوانب الاقتصادية والبيئية والإنسانية .

وفى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى جسدنا من جميع الوجوه مفهوم بناء نظام شامل للأمن الدولى . وقدمناه إلى العالم بأسره ، إلى الحكومات ، والأحزاب ، والتنظيمات العامة والحركات المعنية فى الحقيقة بالسلام على الأرض[1] .

---

(١) نحن نرى المبادئ الأساسية لهذا النظام كما يلى :

١ ـ فى المجال العسكرى

(أ) تخلى الدول النووية عن الحرب ـ سواء كانت نووية أم تقليدية ـ ضد بعضها البعض أو ضد بلدان ثالثة .

(ب) تجنب سباق التسلح فى الفضاء الخارجى ، ووقف كافة تجارب الأسلحة النووية والتدمير الكامل لهذه الأسلحة ، وحظر انتاج الأسلحة الكيماوية وتدميرها ، والتخلى عن تطوير وسائل الإبادة الشاملة الأخرى .

(جـ) التخفيض الحاد تحت رقابة صارمة لمستوى القدرات العسكرية للبلدان إلى حدود الكفاية المعقولة .

(د) حل الأحلاف العسكرية ، وكخطوة نحو ذلك يجب التخلى عن توسيعها أو تشكيل أحلاف جديدة .

(هـ) التخفيض المتوازن والنسبى للميزانيات العسكرية .

٢ ـ فى المجال السياسى

(أ) الاحترام الصارم فى الممارسة الدولية لحق كل شعب فى اختيار طرق وأشكال تطوره المستقل .

(ب) التسوية السياسية العادلة للأزمات الدولية والنزاعات الإقليمية . =

ونحن لا نتراجع عن أى من المقترحات التى تضمنها برنامج مؤتمرنا ، كما أننا على استعداد لأن ندرس بأكبر قدر من العناية أية أفكار يمكن أن تعزز التعايش السلمى

= (جـ) اتخاذ عدد من التدابير الهادفة إلى بناء الثقة بين الدول ووضع ضمانات فعالة ضد الهجوم من الخارج ومن أجل ضمان حرمة حدودها

(د) تقرير أساليب فعالة لمنع الارهاب الدولى ، بما فى ذلك الأساليب التى تضمن أمن المواصلات البرية والجوية والبحرية الدولية .

٣ ـ فى المجال الاقتصادى

(أ) استبعاد كافة أشكال التمييز فى الممارسة الدولية ، ونبذ سياسة الحصار الاقتصادى والعقوبات الاقتصادية إذا لم تكن قد اتخذت بشكل مباشر بناء على توصية من المجتمع الدولى .

(ب) البحث المشترك عن طرق للتسوية العادلة لمشكلة الديون .

(حـ) إقامة نظام اقتصادى عالمى جديد يكفل الأمن الاقتصادى المتكافئ لجميع الدول .

(د) وضع المبادىء اللازمة لاستخدام جزء من الأموال التى توفرت نتيجة لتخفيض الميزانيات العسكرية من أجل خير المجتمع العالمى ، والبلدان النامية فى المقام الأول .

(هـ) تعبئة الجهود من أجل استكشاف الفضاء واستخدامه سلميا ومن أجل حل المشاكل العالمية التى تتوقف عليها مصائر الحضارة .

٤ ـ فى المجال الإنسانى

(أ) التعاون فى نشر أفكار السلام ، ونزع السلاح ، والأمن الدولى ، وزيادة تدفق المعلومات الموضوعية العامة وتوسيع الاتصالات بين الشعوب بهدف التعرف على بعضها البعض ، وتعزيز روح التفاهم المتبادل والوفاق فى العلاقات بينها .

(ب) نبذ جميع أشكال إبادة الجنس ، والتفرقة العنصرية ، والدفاع عن الفاشية وأى شكل آخر من أشكال التمييز العرقى أو القومى أو الدين ، وكذلك التمييز ضد الناس على هذا الأساس .

(جـ) توسيع التعاون الدولى فى تنفيذ حقوق الإنسان السياسية والاجتماعية والشخصية فى ظل احترام قوانين كل بلد .

(د) حل المسائل المتعلقة بإعادة توحيد الأسر ، والزواج ، وتطوير الاتصالات بين الشعوب والمنظمات بروح إنسانية وإيجابية .

(هـ) تعزيز الأشكال القائمة للتعاون فى الثقافة والفنون والعلوم والتعليم والطلب . والبحث عن أشكال جديدة لهذا التعاون .

باعتباره المبدأ العالمى الأسمى للعلاقات بين الدول .

وقد تحدثنا أيضا فى المؤتمر عن العلاقات السوفيتية الأمريكية . وبودى أن أعيد إلى الذاكرة تصريحنا فى هذا الصدد : إن العزم الأكيد للاتحاد السوفيتى هو أن يكون فى مستوى آمال شعبى البلدين وشعوب العالم أجمع الذين يتوقعون من زعماء الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة خطوات محددة ، واجراءات عملية ، واتفاقات ملموسة حول كيفية كبح سباق التسلح . وبإمكاننا أن نعبر عن جوهر موقف المؤتمر حول العلاقات السوفيتية الأمريكية فى بضع كلمات ـ إننا نعيش فوق نفس الكوكب ، ولن يكون فى مقدورنا أن نحافظ على السلام بدون الولايات المتحدة .

الولايات المتحدة منذ جنيف

كيف تصرفت الإدارة الأمريكية منذ جنيف ؟ لقد بدأت حملة صاخبة ترمى إلى إثارة المشاعر المعادية للسوفيت . وبذلت المحاولات المرة بعد المرة لتقديم الاتحاد السوفيتى فى صورة «بعبع» لتزداد المخاوف منه حتى يمكن تمرير آخر ميزانية عسكرية فى الكونجرس . واقترح لقب «إمبراطورية الشر» . وأكد الرئيس مجدداً أنه لا ينوى التخلى عن هذا اللقب .

وكل هذا يمكن اعتباره كلاما منمقا طنانا ، ولكن الخطب الرنانة المعادية ، كما سبق أن قلت تخرب العلاقات أيضا . فلها تداعياتها السريعة . والأمور تبدو الآن أكثر خطورة . فقد طلب من الاتحاد السوفيتى ، مثلا ، أن يخفض عدد بعثته الدبلوماسية فى الولايات المتحدة بمقدار ٤٠٪ ، كما أبحرت السفن الحربية الأمريكية فى المياه الاقليمية السوفيتية بالقرب من سواحل القرم ، وشن هجوم عسكرى ضد ليبيا ذات السيادة . وقد قيّمنا تلك الأعمال التى أقدمت عليها الإدارة الأمريكية فى وضع ما بعد جنيف على أنها تحد ، ليس للاتحاد السوفيتى فقط ، وإنما للعالم بأسره ، بما فيه الشعب الأمريكى .

وكان فى ذلك الحين أن أعلنت الولايات عن عزمها على الانسحاب من اتفاقية سولت ـ ٢ وأعلن عن وفاة هذه المعاهدة. وبدلا من المضى نحو اتفاقيات رئيسية جديدة لوضع حد لسباق التسلح، فضلت الإدارة الأمريكية التحلل من الاتفاقيات القائمة. وبدأت حملة «غسيل مخ» للأمريكيين والرأى العام العالمىّ تمهيدا لتدمير معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ غير المحدودة.

لقد أوضحت فترة مابعد جنيف أنه بينما لم يكن بوسعنا فى الماضى سوى الحدس والظن، فإنه تتوافر فى متناولنا اليوم حقائق تشهد على إعراض إدارة الولايات المتحدة عن الالتزام باتفاقيات جنيف. غير أنها بينما استمرت تتصرف بالطريقة القديمة، فإنها كانت تريد أن «تهدئ» الرأى العام. وأخذنا نسأل أنفسنا من جديد عما إذا كانت واشنطن تعتقد حقا أنها تتعامل مع أناس ضعيفى الإرادة، وأن باستطاعتها أن تستمر فى التصرف كمقامر، وأن الاتحاد السوفيتى يرتعد عند مشهد استعراضات عسكرية جديدة؟.

فى ذلك الوقت كان علىّ أن أتحدث فى مدينة توليباتى وكان علىّ أن أشرح للطبقة العاملة فى هذه المدينة، ولكل الشعب السوفيتى، ماذا حدث منذ جنيف.

لقد انجزنا الشىء الكثير، ووفينا بالتزاماتنا تجاه العالم، متخذين موقفا مسئولا عاليا من تعهداتنا فى جنيف.

ولكن ماذا عن الولايات المتحدة؟ لقد أوردت الحقائق، ومن جديد ثار السؤال: ما الذى تريده الولايات المتحدة حقا إذا كان على المرء أن يحكم بسياستها الحقيقية وليس من بياناتها. فهى لم تكتف بالتخلى عن الانفراج، وإنما يبدو أنها ترتعد لأى مظهر من مظاهر الدفء فى العلاقات. وكان علىّ أن أخبر الشعب السوفيتى بأمانة عن مصالح من التى من المتوقع أن تخدمها مثل هذه السياسة. وبالتأكيد لم يكن الشعب الأمريكى هو الذى يريد للتهديد العسكرى أن يزداد ـ أليس كذلك؟ لقد كان ينبغى التحدث عن التجمع العسكرى الصناعى فى

الولايات المتحدة ، الذى لايلتهم فقط ، مثل الإله مولوخ القديم ، الموارد الضخمة للأمريكيين والشعوب الأخرى ، وإنما يلتهم أيضا ثمار الجهود الرامية إلى إزالة التهديد بحرب نووية .

وطبعا ، تزعج شعبنا مبادرة الدفاع الاستراتيجى . وقد قلنا ذلك أكثر من مرة . ولكن ربما يحاولون فقط إخافتنا من جديد ؟ وربما كان من الأفضل أن نكف عن الخوف من مبادرة الدفاع الاستراتيجى .

واللامبالاة لم يكن مسموحا بها على التأكيد . وقد رأينا أنه رغم أن ملايين الأمريكيين ومن بينهم ساسة مرموقون وشخصيات عامة بارزة ، وأناس عاديون ، وعلماء ، وزعماء دينيون ، وطلبة فى المدارس والجامعات يقفون ضد مبادرة الدفاع الاستراتيجى والتجارب النووية ، فإن بعض الدوائر فى الولايات المتحدة قد أصيبت بلوثة بخصوص برنامج حرب النجوم . وكان ذلك أشد خطورة بكثير لأنه ينبع مباشرة من عسكرة سريعة للفكر السياسى . ومع ذلك كان لابد من التخلص من الانطباع الذى لديها عنّا والذى لم نكن مسئولين عنه . فهذه الدوائر تعتقد بأن الاتحاد السوفيتى إذا كان خائفا من مبادرة الدفاع الاستراتيجى ، فينبغى إرهابه معنويا ، واقتصاديا وعسكريا بهذه المبادرة . وهذا مايفسر التركيز الكبير على مبادرة الدفاع الاستراتيجى بهدف استنزافنا . وهكذا ، فقد قررنا أن نقول : نعم ، نحن ضد مبادرة الدفاع الاستراتيجى ، لأننا مع القضاء الكامل على الأسلحة النووية ، ولأن مبادرة الدفاع الاستراتيجى تجعل العالم غير مستقر بدرجة أكبر من أى وقت مضى . ولكن المسألة بالنسبة لنا تنطوى على المسئولية وليس على الخوف ، ولأن النتائج المترتبة عليها لايمكن التنبؤ بها . ومبادرة الدفاع الاستراتيجى ، بدلا من تعزيز الأمن ، فإنها تدمر بقايا ما قد لايزال يخدم الأمن .

عندما كنت أتحدث فى تولياتى ، قررت أن أقول مرة أخرى إن ردنا على مبادرة الدفاع الاستراتيجى سيكون فعالاً . وتأمل الولايات المتحدة فى أننا سنطور أنظمة

مماثلة . وبذلك يمكنها أن تسبقنا تكنولوجيا وأن تستفيد من تفوقها التقنى . ولكننا فى القيادة السوفيتية نعرف أنه ليس هناك ماتستطيع الولايات المتحدة تحقيقه ويعجز عنه علماؤنا ومهندسونا . إن عشر الاستثمارات الأمريكية سيكون كافيا لإقامة نظام مضاد لإحباط مبادرة الدفاع الاستراتيجى .

وهكذا قررنا أن نفضح كلية البيانات الديماجوجية بأننا نترنح أمام مبادرة الدفاع الاستراتيجى .

وقد كررت فى خطابى الصيغة التى أقرها مؤتمر الحزب ـ إننا لانريد أكثر من الأمن ، ولكننا لن نقبل ماهو أقل منه .

وعندما لخصنا نتائج الشهور التى أعقبت جنيف ، أردنا أن نقول للغرب ، وللولايات المتحدة وحلف الأطلنطى أننا لن نتخلى عن سياستنا للسلام ، رغم أننا نأخذ فى الاعتبار سياسات الغرب الحقيقية . ولن نستجدى من أجل السلام . وقد رددنا أكثر من مرة على التحديات وسوف نفعل ذلك كل مرة .

وبدا أنه كان على الولايات المتحدة أن ترد على مبادراتنا وتحركاتنا منذ قمة جنيف بمقابلتنا فى منتصف الطريق ومحاولة إرضاء تطلعات الناس . ولكن تلك لم تكن هى الحال . فالمجموعة الحاكمة تضع مصالح أنانية فوق مصالح البشرية ومصالح شعبها . وكان الشىء الهام أيضا أنها فعلت ذلك بشكل قاطع وبتحدٍ ، متجاهلة تماما الرأى العام العالمى .

وتشير مثل هذه المواقف إلى أن الإحساس بالمسئولية قد تراجع من جديد أمام العقلية المعتادة التى تتيح للمرء أن يفعل أى شىء ويتخلى عن أى شىء دون مجازاة أو حساب .

وسرعان ما أفسحت الآمال التى انتعشت بعد قمة جنيف ، فى كل مكان ، حتى فى المجتمع الأمريكى ، الطريق لخيبة الأمل ، لأن كل شىء فى السياسة الحقيقية للولايات المتحدة ظل كما كان .

درس تشـــيرنوبيل

لقننا أبريل ١٩٨٦ درسا خطيرا فيما تستطيع أن تفعله الذرة المنفلتة من التحكم ، حتى ولو كانت تستخدم لأغراض سلمية . وأنا أشير هنا إلى مأساة تشيرنوبيل . لقد كشفنا الحقيقة كاملة عن كيف حدثت الكارثة ، ولماذا حدثت وما النتائج . أما هؤلاء المسئولون عن الكارثة فقد قدموا بالفعل إلى المحاكمة . والعالم يعرف ما الذى قمنا به فى بلادنا لنقلل من أبعاد هذه الكارثة .

وقد ناقشنا الحادث مرات عديدة فى المكتب السياسى للجنة المركزية . وبمجرد أن وصلتنا التقارير الأولية المحدودة أدركنا أن الأمر خطير وأننا مسئولون عن تقييم الحادث وعن الاستنتاجات السليمة على السواء . وكان عملنا واضحا للعيان بالنسبة لكل الشعب وكل العالم . ومن غير المقبول الاعتقاد بأنه كان فى استطاعتنا قبول تدابير جزئية أو تفادى المسألة . إنه يتعين أن تقدم المعلومات عما حدث كاملة وغير متحيزة إن الموقف الجبان يعنى سياسة غير مقبولة . وليست هناك أية مصالح تضطرنا إلى إخفاء الحقيقة .

وقد شاركت القيادة السوفيتية بشكل مباشر فى الجهود المبذولة من أجل التغلب على آثار الحادث . واعتبرنا ذلك واجبنا أمام الشعب ومسئوليتنا الدولية . واستدعى خبرة العلماء والأطباء والتقنيين لإزالة الآثار المترتبة على الحادث . وقد تلقينا العون الذى نقدره كثيرا من علماء وشركات صناعية ، وأطباء من بلاد كثيرة من بينها الولايات المتحدة . وأخيرا خلصنا إلى بعض النتائج الحاسمة فيما يتعلق بالتطوير التالى لصناعة الطاقة النووية .

وبفضل الجهود المتفانية لعشرات الآلاف من الناس والمساندة التى تلقيناها من البلاد بأسرها ، بما فيها التبرعات ، نجحنا فى احتواء آثار الحادث . ولكننا لانعتبر ذلك سببا لأن نظل صامتين . ونحن لا نميل إلى المبالغة فى تبسيط الوضع ، سواء

لأنفسنا أو للآخرين . والعمل يتواصل . وسوف يستغرق سنوات بالرغم من أن الوضع ، وأكرر ذلك ، تحت السيطرة .

لقد كان هذا حادثا شمل مجرد مفاعل واحد . إن تشيرنوبيل قد ذكرتنا بغير رحمة بما سوف نعانيه جميعا لو انطلقت عاصفة رعدية نووية من عقالها .

وأنا لن استرجع كافة الأكاذيب التى اختلقت عن تشيرنوبيل . هل لى فقط أن أقدر وأثنى كثيرا على التفهم والعون من جانب كل هؤلاء الذين تعاطفوا معنا فى محنتنا ، ولكننا شهدنا أيضا مرة أخرى كم يوجد من الخبث والحقد فى العالم .

ريكيــافيــك

لقد تحققنا من أن المجموعة العسكرية فى الولايات المتحدة (ولا أعنى بذلك الحزب الجمهورى أو الديموقراطى ، وإنما هؤلاء الذين يرتبطون بقوة بانتاج الأسلحة) يتملكها الرعب من أية مبادرة لذوبان الجليد فى العلاقات بين بلدينا . وكانت هذه المجموعة تبذل كل ماهو مستطاع لنسيان كل مايتعلق بقمة جنيف ، واجتثاث روح جنيف ، ولتزيل كل العقبات فى طريقها لتواصل سباق التسلح دون عائق ، بما فى ذلك الاتجاه الجديد ـ تجاه الفضاء الخارجى .

ولكننا أيضا أدركنا جيدا أن المجموعة العسكرية ليست أبدا هى الكيان الوحيد على المسرح السياسى للولايات المتحدة . فالساسة الأمريكيون ، الذين يتخذون مواقف واقعية ، ولاينساقون وراء الأوهام فيما يتعلق بالوضع العالمى ، كانوا يدافعون عن استمرار المفاوضات مع الاتحاد السوفيتى بحثا عن طرق لتطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية ، مدركين أن سباق التسلح سيسفر عن نتائج سلبية خطيرة بالنسبة للولايات المتحده نفسها . ولكن مصالح المجموعة العسكرية كانت على الدوام هى المنتصرة بطريقة أو بأخرى ، كما حدث فى الغالب حقيقة ، قبل ذلك .

وكانت الفرص أمام انعقاد قمة سوفيتية أمريكية ناجحة ومثمرة تخبو بسرعة

وكان الذهاب إلى قمة جديدة لمجرد المصافحة والاحتفاظ بعلاقات ودية هو عبث لامعنى له . ومع ذلك لم نستطع قبول الرفض الأمريكى لجهودنا الدؤوبة للتوصل إلى تقارب فى المواقف والتوصل إلى حلول وسط معقولة . وعرفنا أننا بحاجة إلى اختراق ، وأن الوقت يعمل ضد مصالح البشرية . ثم جاءت فكرة عقد اجتماع قمة سوفيتى أمريكى مؤقت لإعطاء دفعة قوية حقا لقضية نزع السلاح النووى ، وللتغلب على الاتجاهات الخطرة ، ولدفع الأحداث فى الاتجاه الصحيح . وقبل الرئيس الأمريكى مبادرتنا ، التى كانت تبدو ملهمة تماما . وبذلك جرى تمهيد الطريق لقمة ريكيافيك فى أكتوبر ١٩٨٦ .

وخلال مناقشتنا الأولى فى ريكيافيك أخبرت الرئيس أنه فى أعقاب قمة جنيف نجحنا فى تنشيط الدولاب الضخم والمعقد للحوار السوفيتى الأمريكى . ولكن هذا الدولاب تعثر أكثر من مرة : ولم يكن هناك أى تقدم فى المسائل الرئيسية التى كانت تهم الطرفين ــ كيف نخفف من التهديد النووى ، وكيف نستفيد من قوة الدفع التى وفرتها قمة جنيف ، وكيف نتوصل إلى اتفاقات محددة . وقد أقلقنا هذا الوضع كثيرا . وأخبرت الرئيس أيضا أن مفاوضات جنيف تختنق فى المناقشات التى لا نهاية لها حول مسائل ميتة . وهناك ما بين خمسين إلى مائة اقتراح بديل ، ولكنها جميعا معلقة فى الهواء . ولم يتأتّ لواحد منها أن يمهد الطريق نحو التقدم .

لقد خططنا بدقة لقمة ريكيافيك وقمنا بقدر كبير من الأعمال التحضيرية . وانتهجنا خطا واضحا وحازما ــ أن نوافق فى المدى الطويل على الازالة الكاملة للأسلحة النووية مع تحقيق الأمن المتكافئ للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى جميع مراحل التقدم نحو هذا الهدف . وأى مدخل آخر سيكون غامضا ، وغير واقعى ، وغير مشروع . وكنا على قناعة ، بأن اجتماع ريكيافيك ، سيمهد الطريق لتوقيع اتفاقيات حول المسائل الرئيسية للرقابة على التسلح فى اجتماعنا التالى .

وحملنا معنا إلى ريكيافيك مجموعة من التدابير الحيوية على شكل مشروعات

اتفاقات . ولو قبلت هذه التدابير ، لكانت البشرية تقف الآن على عتبة عصر جديد ، عصر خال من الأسلحة النووية . ولم تكن النقطة موضع الخلاف هى الحد من الأسلحة النووية ، كما كان الحال فى اتفاقيتى سولت ـ ١ وسولت ـ ٢ ، وإنما كانت الإزالة السريعة لهذه الأسلحة .

وكان الاقتراح الأول يتعلق بالأسلحة الهجومية الاستراتيجية . وقد أعلنت عن استعدادنا لتخفيضها ٥٠٪ خلال السنوات الخمس القادمة .

ولم أسمع ردا على ذلك سوى كل ما يمكن أن يقال حول المستويات ، والمستويات الفرعية ، وتقديرات تدير الرءوس ، وهو ما ظلت الوفود لمفاوضات جنيف تدور فيه بلا طائل لشهور قبل أن يجدوا أنفسهم فى طريق مسدود . وبدأت أناقش . ولكن سرعان ما رأيت أن المناقشة لاتؤدى إلى نتيجة . وللخروج من مستنقع هذا المأزق ـ الذى لم يقم فى مفاوضات جنيف من قبيل الصدفة وإنما عن نية متعمدة لتشويه سمعة المفاوضات ، وجعل الأمر كله يبدو وكأنه مهزلة ـ تقدمت بحل واضح وبسيط . لقد كانت هناك الأسلحة الاستراتيجية الثلاث ـ الصواريخ البعيدة ذات القواعد الأرضية ، والصواريخ التى تطلق من البحر ، والطائرات . وتوجد هذه الأسلحة لدى كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، رغم أن الأسلحة الهجومية الاستراتيجية لكل من الجانبين لها اختلافاتها التاريخية الخاصة . فلنتفق على تخفيض كل المكونات أو أنماط الأسلحة ، أى ، كل من الأقسام الثلاثة للأسلحة إلى النصف بشكل متكافئ .

ولكى نسهل التوصل إلى اتفاق تقدمنا بتنازل هام إذ تخلينا عن طلبنا السابق بأن تشمل المعادلة الاستراتيجية الصواريخ الأمريكية المتوسطة المدى التى يمكنها أن تصل إلى أراضينا والأنظمة الأمريكية المقامة على قواعد متقدمة . ونحن على استعداد كذلك لأن نأخذ فى اعتبارنا قلق الولايات المتحدة من صواريخنا الثقيلة .

ووافق الرئيس الأمريكى على هذا المدخل . وإضافة إلى ذلك ، تقدم بفكرة

الإزالة الكاملة للأسلحة الهجومية الاستراتيجية خلال السنوات الخمس القادمة ، وهذا ما أيدته بحزم .

وكان اقتراحنا الثانى يتعلق بالصواريخ المتوسطة المدى . واقترحت على الرئيس أن تزال بشكل كامل الأسلحة السوفيتية والأمريكية من هذا النوع فى أوروبا . وفى هذا المجال أيضا ، قدمنا تنازلات كبيرة . فقد تجاهلنا القوات النووية البريطانية والفرنسية الموجهة ضدنا . ووافقنا على تجميد الصواريخ التى يقل مداها عن ألف كيلومتر ، وأن تبدأ المفاوضات فوراً حول مستقبلها ، واضعين فى الاعتبار بالتأكيد أن أوروبا قد تخلصت نهائيا من هذا النوع من الصواريخ . وأخيرا قبلنا الاقتراح الأمريكى بالخفض الحاد فى عدد الصواريخ المتوسطة المدى المنتشرة فى القسم الآسيوى من الاتحاد السوفيتى ، تاركين مائة من الرءوس النووية على هذه الصواريخ شرقى الأورال فى الاتحاد السوفيتى ومائة من الرءوس النووية على الصواريخ الأمريكية المتوسطة المدى فى أراضى الولايات المتحدة . وكنتيجة لذلك ، لاحت لنا فرصة لنصدر التعليمات إلى وزراء خارجيتنا بالبدء فى إعداد مشروع اتفاق حول الصواريخ المتوسطة المدى .

وكانت المسألة الثالثة التى طرحتها على الرئيس فى مناقشتنا الأولى ، والتى رأينا فيها جزءا لايتجزأ من مجموعة مقترحاتنا ، تتعلق بتعزيز نظام معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ والتوصل إلى حظر التجارب النووية .

وحاولت إقناع الرئيس بأن علينا ، فى الوقت الذى نسعى فيه إلى خفض الأسلحة النووية ، أن نتأكد من أن أيا من الطرفين لن يفعل ما من شأنه أن يعرض أمن الطرف الآخر للخطر . ومن هنا كان المغزى الرئيسى لتعزيز معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . كذلك أخذنا فى اعتبارنا تمسك الرئيس العميق بفكرة مبادرة الدفاع الاستراتيجى . واقترحنا تسجيل أن الأبحاث المعملية لمبادرة الدفاع الاستراتيجى مسموح بها ، وبذلك تحل مسألة عدم استخدام الحق فى التخلى عن

معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ لمدة عشر سنوات . وكان عدم استخدام الحق فى التخلى عن معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ لمدة عشر سنوات أمرا لاغنى عنه لكى يجعلنا نطمئن إلى أنه سيكون باستطاعتنا عند تناول مسألة الرقابة على التسلح ، حماية أمننا المتبادل والحيلولة دون محاولات كسب ميزات من طرف واحد من خلال نشر أنظمة ذات قواعد فى الفضاء .

ومن الناحية السياسية ، والعملية ، والتقنية ، فإن مثل هذه القيود لاتشكل تهديدا لأحد . وسوف أطرح المسألة من جديد فيما بعد ، ولكننى أود التذكير الآن بأننا اقترحنا فى ريكيافيك على الرئيس بأن يتم الاتفاق على أن يبدأ ممثلونا المفاوضات حول حظر التجارب النووية بمجرد انتهاء الاجتماع فى عاصمة أيسلندا . وتبنينا موقفا مرنا من هذه المشكلة ، أيضا ، عندما أعلنا أننا نرى المعاهدة المكتملة المقومات للحظر التام والنهائى للتجارب النووية كعملية يتم التقدم فيها خطوة خطوة . وفى هذا الإطار ، يمكن أن تتضمن المسائل ذات الأولوية « القدرة الأولى » للتجارب النووية ، والعدد السنوى لمثل هذه التجارب ، ومستقبل معاهدتى ١٩٧٤ ، ١٩٧٦ . ولقد كنا قريبين جدا من إيجاد صيغ مناسبة لهذه المسألة أيضا .

ومازلت أعتقد أن الطريق إلى وقف التجارب لم يغلق بلا أمل . إن استئنافنا للتجارب لم يكن يعنى بالتأكيد أن الولايات المتحدة يمكنها أن تقرر الأمر وحدها . ومن الصعب أن نقول متى ستسود الواقعية فى تقييم كل منا للآخر . ولكنها ستجىء يوما ما ، وربما بشكل غير متوقع تماما ، لأن الحياة تزيدنا حكمة . والتاريخ غنى بالأمثلة التى توضح كيف يمكن أن يتغير الوضع فجأة .

وهكذا تمخضت قمة ريكيافيك عن فرصة تتيح إمكانية توجيه وزيرى خارجيتينا نحو إعداد ثلاثة مشروعات اتفاقيات للتوقيع عليها فى القمة السوفيتية الأمريكية التالية . ولكن الفرصة ، الواضحة والملموسة للغاية لشق طريق نحو حل وسط تاريخى حقا بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، انهارت فى النهاية ، رغم أنها كانت فى متناول اليد .

وتبين أن العقبة الكؤود هى الموقف الأمريكى من معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . وبعد ريكيافيك كنت أسائل نفسى المرة بعد الأخرى عن السبب فى أن الولايات المتحدة تتجنب التوصل إلى اتفاق حول تعزيز نظام هذه المعاهدة ذات المدى غير المحدود . وفى كل مرة كنت أتوصل إلى نفس الاستنتاج : إن الولايات المتحدة ليست على استعداد للتخلى عن آمالها فى كسب التفوق النووى ، وهى هذه المرة تريد أن تسبق الاتحاد السوفيتى بالإسراع بأبحاث مبادرة الدفاع الاستراتيجى .

وأود فى هذا الإطار أن أكرر من جديد : إذا ما نجحت الولايات المتحدة فى المضى بخطتها إزاء مبادرة الدفاع الاستراتيجى ، وهو مانشك فيه كثيرا جدا ، فإن الرد السوفيتى سيكون وشيكا . وإذا لم تتخل الولايات المتحدة عن مبادرة الدفاع الاستراتيجى ، فلن نجعل الحياة أيسر لها . وسيكون ردنا فعالا وموثوقا به وغير مكلف للغاية . فلدينا مخطط فى مراحله قبل النهائية لإبطال مبادرة الدفاع الاستراتيجى دون إنفاق المبالغ الضخمة التى ستحتاجها الولايات المتحدة لتنفيذها . وعلى الأمريكيين أن يفكروا مرة أخرى فيما إذا كان من المجدى إرهاق أنفسهم بتنفيذ مبادرة الدفاع الاستراتيجى . إنها لن تقدم لهم حماية يعول عليها بأية حال .

ولكن مبادرة الدفاع الاستراتيجى تعنى نقل الأسلحة إلى بيئة جديدة ستؤدى بدرجة كبيرة إلى عدم استقرار الوضع الاستراتيجى . ومن ناحية أخرى ، فإن التمسك بمبادرة الدفاع الاستراتيجى يكشف عن النوايا والأهداف السياسية : وضع الاتحاد السوفيتى فى وضع غير موات بأية وسيلة . إن هذه النوايا السياسية وهذه المخططات الوهمية ـ بالسيطرة على الاتحاد السوفيتى من خلال مبادرة الدفاع الاستراتيجى ـ هى التى حالت دون تتويج ريكيافيك بقرارات ذات مغزى تاريخى .

وتحدثنا ، رونالد ريجان وأنا كثيرا عن ذلك ، وكانت مناقشاتنا حامية بعض الشىء . وكنت مخلصا حينما قلت للرئيس إن اجتماعنا لا يمكن أن يكون الفوز فيه لجانب واحد ، فإما أن نفوز معا أو نخسر معا .

ومع ذلك فإن ريكيافيك تمثل نقطة انعطاف فى تاريخ العالم. وكشفت بشكل ملموس أن الوضع العالمى يمكن تحسينه . ونشأ عنها وضع جديد كيفيا . فلم يعد أحد يستطيع الآن أن يتصرف بالطريقة التى كان يتصرف بها من قبل . وقد اقتنعنا فى ريكيافيك أن نهجنا كان صحيحا وأن طريقة التفكير السياسى الجديدة والبناءة أمر ضرورى .

ورفع الاجتماع الحوار السوفيتى الأمريكى إلى مستوى جديد ، كما رفع فى الحقيقة كل الحوار بين الشرق والغرب . وقد تحرر هذا الحوار من لعبة التضاربات التقنية، ومقارنة المعلومات، والحسابات السياسية، واكتسب ثوابت جديدة. لقد أصبحت ريكيافيك فرصة مواتية لآفاق رحبة لحل المسائل الصعبة ـ وأقصد الأمن ونزع السلاح النووى والحاجة لوقف الأبعاد الجديدة فى سباق التسلح . لقد رسمت ريكيافيك طريقا يمكن للبشرية بواسطته أن تستعيد ديمومتها التى فقدتها عندما حولت الأسلحة النووية هيروشيما وناجازاكى إلى رماد.

ونحن نشعر أن اجتماع ايسلندا كان علامة طريق . لقد دل على إكمال مرحلة فى جهود نزع السلاح وبداية مرحلة جديدة . وحطمنا النمط القديم للمحادثات وأخرجنا الحوار السوفيتى الأمريكى ، مما يمكن أن أسميه ، بالضباب السياسى والديماجوجية السياسية . وخلال سنوات المفاوضات حولت المقترحات العديدة من الجانبين موضوعات نزع السلاح إلى شيء غير مفهوم حتى بالنسبة للزعماء السياسيين ، ناهيك عن الجمهور العريض . إن برنامج نزع السلاح النووى الأخير الذى تقدمنا به بسيط ومفهوم للجميع . وهو ينحصر فى أربع نقاط أوضحناها فى صفحة ونصف صفحة (كما عرضت من قبل) . وبامكان الجمهور العريض أن يفهمه . وهذا هو مانهدف إليه عن قصد ، أن نجعل المجتمع الدولى طرفا فى محادثاتنا .

ما بعد ريكيافيك

يمكن تلخيص جدليات ريكيافيك فيما يلي : أصبح الهدف قريبا ومحسوسا بدرجة أكبر، بينما ازداد الوضع تعقيدا وتناقضا . وبإمكان المرء أن يرى بوضوح ، من ناحية ، أن اتفاقا لم يصبح له مثيل فى أبعاده كان وشيكا ، ومن ناحية أخرى ، أن هناك حواجز ضخمة تعترض طريقه . وبوجه عام ، لم نكن قريبين بهذا القدر من الاتفاق قبل ذلك .

والحقيقة أننا توصلنا إلى تفاهم حول النقطتين الأولى والثانية من برنامجنا ـ الأسلحة الاستراتيجية والصواريخ المتوسطة المدى ، رغم أن التفاهم كان صعبا . وأضاف هذا وحده الشىء الكثير إلى خبرتنا . وقدرنا الصعاب التى تواجه الرئيس وعرفنا أنه لا يملك حرية القرار. ولم نقم بدراما مثيرة ، من حقيقة أن مشكلة معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ قد حالت دون أن تصبح ريكيافيك نجاحا كاملا . وقررنا أن نعطى للرئيس فرصة للتفكير فى كل ماحدث ، وللتشاور مع الكونجرس . وربما كان من الضرورى إجراء محاولة أخرى لتخطى مايفصل بيننا . وباستطاعتنا أن ننتظر ولذلك لم نسحب المقترحات التى تقدمنا بها إلى ريكيافيك .

لقد أعطتنا ريكيافيك بصيرة نافذة هامة لرؤية موقع كل منا . ويلزمنا هنا نوع من التفكير الواضح والنظرة غير البدائية . ولن أسمى بأية حال ريكيافيك إخفاقا . لقد كانت مرحلة فى الحوار الطويل الصعب ، بحثا عن حلول لابد وأن تكون واسعة النطاق . وعندئذ فقط يكون الاتفاق ممكنا . وخلصنا من ريكيافيك إلى استنتاج بأن الحاجة إلى الحوار تتزايد . ولهذا فقد أصبحت بعد ريكيافيك أكثر تفاؤلا .

كان نص هذا الكتاب على مكتب الناشر عندما اتفق إدوارد شفيردنادزه وجورج شولتز فى واشنطن على إعداد مشروع اتفاق حول الصواريخ المتوسطة المدى والأقصر مدى وتوقيعه بعد وقت قصير وقبل نهاية العام . وستكون هذه هى الخطوة الرئيسية الأولى نحو نزع السلاح . وسيكون هذا أيضا نتيجة عملية لاجتماع

ريكيافيك ، تبرهن على أنه كان اجتماعا تاريخيا ، ونقطة انعطاف . وهكذا يكون لدينا الإجابة على سؤال كثيرا ماتردد حينذاك : هل أصبح العالم أكثر أمنا منذ ريكيافيك ؟.

حاول بعض الناس تفسير دراما ريكيافيك (وكان الوضع درامياً حقاً) كما لو أن الأمر برمته كان معلقا على كلمة واحدة وانهار بسبب تلك الكلمة . كلا ، لقد كان الأمر يتعلق بالمبادئ . وسرنا خطوات واسعة لنلتقى مع الطرف الآخر ، ولكننا لم نستطع أن نقدم تنازلا يعرض أمن دولتنا للخطر . وعندما عدت إلى موسكو تحدثت مرتين عن نتائج ريكيافيك ، ليس فقط لاستعادة الحقيقة التى كانت قد شوهت بل كان هدفى قبل كل شيء أن أحدد ما الذى سنفعله بعد ذلك . وقد قلت فى ذلك الوقت مازلت مقتنعا به ، من أن عدم نجاح ريكيافيك إنما يعود إلى مفهومين استراتيجيين خاطئين تتميز بهما بعض الدوائر الغربية .

أولها ، أن الروس خائفون من مبادرة الدفاع الاستراتيجى ولذلك فلابد أن يقدموا أى تنازلات . وثانيهما ، أن لنا مصلحة فى نزع السلاح أكبر من مصلحة الولايات المتحدة . وكان لهذه المشاعر تأثيرها على مجرى محادثات ريكيافيك . وسرعان ما أحسسنا بما يتوقعونه منا : لقد وصل الوفد الأمريكى دون برنامج محدد وهو يريد فقط أن يجنى الثمار .

ودفعنا الشركاء الأمريكيون بعناد نحو ما ناقشه وفدانا دون جدوى فى محادثات جنيف . وأردنا ، من جانبنا ، أن نضع ما تم الاتفاق عليه من حيث المبدأ فى قمة جنيف موضع التنفيذ العملى والواقعى . وفى كلمات أخرى ، أردنا أن نعطى دفعة لعملية إزالة الأسلحة النووية .

وفى الحقيقة ، لقد كان كل الحديث السابق حول الحد من الأسلحة النووية . أما الآن فإنه حول خفضها وإزالتها. أما والأمر كذلك ، فقد كان من الضرورى سد كل الثغرات للالتفاف حول المناورات الواسعة التى يمكن أن تضمن التفوق .

ولهذا السبب تبين أن النقطة الأساسية هى الالتزام بمعاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . وأوضح موقف الولايات المتحدة فى ريكيافيك حول هذا الموضوع أن الجانب الأمريكى لم يخفض بصره عن التفوق . ووجدنا أنه يفتقر إلى الإحساس بالمسئولية وكذلك إلى التصميم السياسى على تخطى هذه العقبة ، لأن ذلك سيعنى زعزعة نفوذ التجمع العسكرى الصناعى .

ومع ذلك ، فلم نسلم ونفقد الثقة فى الأمر بأكمله . وانطلقنا من الاعتقاد بأن ريكيافيك قد أتاحت فرصا جديدة للجميع ـ للأوروبيين ، والأمريكيين ، ولنا ـ لرؤية مايحدث . ومع ذلك ، فإن شيئا واحدا يتضح لنا : أن الأمريكيين يريدون التخلص من معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ والسير فى مبادرة الدفاع الاستراتيجى ـ التى تعتبر أداة لضمان السيطرة ـ فهناك إذن حاجة إلى « حزمة » تربط بداخلها كل شىء . ولدينا الرغبة فى أن نكون عادلين : فعندما تقدمنا « بحزمة مقترحاتنا » أردنا أن نوضح للعالم أن مبادرة الدفاع الاستراتيجى هى العقبة الرئيسية التى تعترض التوصل إلى اتفاق حول نزع السلاح النووى .

وقد أفادنا الكثير من الوقت الذى انقضى منذ ريكيافيك. فالدوائر العسكرية قد انتابها الذعر حقا . فحاولت ، وماتزال تحاول ، وضع عقبات سخيفة للغاية فى طريق العملية التى بدأت فى ريكيافيك لتجعلها تتلاشى بشكل ما . ونسجت كل أنواع الروايات حول ما جرت مناقشته فى ريكيافيك وبذلت كل الجهود من أجل إخفاء الحقيقة فى أن الجانب الأمريكى أتى إلى ريكيافيك صفر اليدين ، وعلى استعداد فقط لانتزاع بعض التنازلات السوفيتية .

وحدث ماحدث فى الأيام ، والأسابيع ، والشهور ، والعام الذى أوشك الآن أن ينقضى منذ ريكيافيك . وقد اخترت أن أسمى الأشياء بأسمائها : لقد انتهجت الإدارة الأمريكية فى الحقيقة خطا يرمى إلى إلغاء نتائج ريكيافيك . ولايترك أى من أعمالها مجالاً للشك فى ذلك . ورأينا أن الولايات المتحدة بدأت تخلط الأمور فيما

يتعلق بما حدث بالفعل فى ريكيافيك ، بينما انتشرت فى أوروبا الغربية مشاعر الذعر .

لكن الشىء الرئيسى هو نشاط الولايات المتحدة . وأعنى بذلك تخطى الولايات المتحدة بالفعل لحدود معاهدة سولت ــ ٢ وذلك بنشر قاذفتها الاستراتيجية «١٣١» المجهزة بصواريخ كروز . وأعنى بالإضافة إلى ذلك ، المناقشات الصاخبة والمتعمدة فى الإدارة لصالح مايسمى بالتفسير الواسع لمعاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . وقد سمعنا من واشنطن فى الشهور الأولى لعام ١٩٨٧ أن الوقت قد حان لكى تبدأ الولايات المتحدة فى نشر المكونات الأولى لمبادرة الدفاع الاستراتيجى فى الفضاء .

وكانت محادثات جنيف تسير هى الأخرى بخطى بطيئة . وبذلت محاولات لجرنا إلى الخلف ، وطرحت على مائدة المفاوضات من جديد كل تلك المستويات والمستويات الفرعية . ولأغراض دعائية جرى تزيين ذلك بالحديث عن تصلب الاتحاد السوفيتى وعناده . وقيل إن الاتحاد السوفيتى يتقدم بمقترحاته على شكل « حزمة » وأنه يحول دون التوصل إلى حلول عندما يكون ذلك ممكنا بالفعل .

فماذا كان من المفروض أن نفعل ؟ هل نرد بطريقة مماثلة ؟ ولكن لن يتأتى أى خير من مثل هذا الموقف .

ولم نحذ حذو « المثال » الأمريكى وإنما قلنا إننا سنواصل احترام التزاماتنا الناجمة عن معاهدة سولت ــ ٢ . إن قاذفة قنابل أكثر أو قاذفة قنابل أقل لاتعنى شيئا ذا بال فى إطار التوازن الاستراتيجى الحالى بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة إن انتهاك واشنطن لمعاهدة سولت ــ ٢ ذو طابع سياسى أكثر منه عسكرى . إنه « دعوة » للاتحاد السوفيتى للعودة إلى عهد ماقبل ريكيافيك .

واحتفظنا ببرود أعصابنا حينما تحدثت الجماعات اليمينية فى الولايات المتحدة عن تصعيد مبادرة الدفاع الاستراتيجى والشروع فورا فى اختيار بل ونشر أنظمة الدفاع المضادة للصواريخ ذات القواعد الفضائية .

أما بالنسبة للحديث عن الحزمة السوفيتية ، فمازلت أعتقد ، بأنه لو كانت الولايات المتحدة قد وافقت على قبول « حزمة المقترحات » هذه بمواصفات ممكنة وتعديلات معينة لكنا قد حققنا تقدما هائلا . وفى وقت سابق كانت الحزمة تتضمن بنودا للحد من الأسلحة الهجومية الاستراتيجية وإزالتها وتجنب عسكرة الفضاء . وهذه المسائل ترتبط ببعضها عضويا . وهذا تنسيق استراتيجى وإذا لم تكن هناك قيود صارمة لتجنب سباق التسلح فى الفضاء ، فلن يكون هناك خفض للأسلحة الهجومية الاستراتيجية . وينبغى أن يكون هذا واضحا تماما للجميع .

وفى ريكيافيك ، أدخلنا فى حزمة المقترحات مسألة الصواريخ المتوسطة المدى لأننا أردنا أن نوقف سباق التسلح فى كافة الاتجاهات الرئيسية فى وقت واحد . وأكرر أننا أردنا . فى نفس الوقت ، أن نبرز مبادرة الدفاع الاستراتيجى حتى يرى العالم بأسره العقبة الرئيسية فى طريق نزع السلاح النووى . وقد انتقدنا كثير من الساسة الغربيين وأدانونا لأننا أدخلنا الصواريخ المتوسطة المدى فى حزمة مقترحاتنا من جديد . وأنا أعرف أن دوائر الرأى العام المختلفة كانت تختلف أيضا معنا . ومع ذلك فإنى على قناعة بأننا اتخذنا القرار السليم .

محفل موسكو والصواريخ المتوسطة المدى

ترك محفل موسكو « من أجل عالم خال من الأسلحة النووية ، ومن أجل بقاء البشرية » انطباعا عميقا للغاية فى نفسى وفى غيرى من الزعماء السوفيت . لقد أدركنا بوضوح مشاعر الرأى العام العالمى ، ومخاوفه وقلقه إزاء مصير ريكيافيك ، وإزاء حقيقة أن الاتحاد السوفيتى بعد ريكيافيك بوقت قصير ، أنهى وقفه للتجارب النووية من جانب واحد ، وأن الولايات المتحدة قد قوضت معاهدة سولت ــ ٢ ، وأن معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ معرضة للخطر . وقد فكرنا نحن فى الاتحاد السوفيتى جديا وقررنا أن نتخذ خطوة أخرى من أجل تنشيط محادثات جنيف

والتوصل إلى تحول إيجابي فى نزع السلاح . وما أعنيه هو فصل مسألة الصواريخ المتوسطة المدى عن حزمة مقترحاتنا .

فماذا حدث ؟

تماما كما حدث بعد ريكيافيك ، لقد دق معسكر حلف الاطلنطى نواقيس الانذار بالخطر . وكرد فعل على خطوتنا الجديدة نحو الغرب وأمام أعين الجميع ، بدأت دوائر حلف الأطلنطى الحاكمة تتخلى عن مواقفها التى دافعت عنها لوقت طويل ، ورفضت « خيار الصفر » الذى اقترحته أو قيدته بشروط مختلفة . وذهبوا إلى حد اقتراح تعزيز الترسانات النووية فى أوروبا عن طريق نشر الصواريخ الأمريكية الأقصر مدى ، بدلا من تخفيض مثل هذه الترسانات .

وسمعنا كذلك التصريحات التالية : إن الغرب سيثق بمقترحات الاتحاد السوفيتى حول خفض الأسلحة إذا ما غير الاتحاد السوفيتى نظامه السياسى ، وإذا ما قبل نموذج المجتمع الغربى . وهذا أمر سخيف للغاية .

وبعد ريكيافيك ، وبخاصة بعد اقتراحنا بتوقيع اتفاقية منفصلة حول الصواريخ المتوسطة المدى ، أثارت دوائر حلف الأطلنطى ضجة حول استحالة ضمان السلام فى أوروبا بدون أسلحة نووية .

ودارت مناقشة حادة حول هذه المسألة بين السيدة تاتشر وبينى. وقالت إن الأسلحة النووية تعتبر بالنسبة لبريطانيا الوسيلة الوحيدة لضمان أمنها فى حالة اندلاع حرب تقليدية فى أوروبا . وهذه فلسفة متشائمة . وقلت لرئيسة وزراء بريطانيا : « عندما تعلنين بأن الأسلحة النووية نعمة وبأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قد يخفضان مستوياتها بينما تقف بريطانيا بعيدا عن ذلك ، يتضح لنا على الفور أننا أمام نصيرة متحمسة للأسلحة النووية . ولنفترض أننا نبدأ عملية نزع السلاح ، ونقوم بإزالة الصواريخ المتوسطة المدى من أوروبا ونخفض الأسلحة الهجومية الاستراتيجية ٥٠٪ أو بنسبة أخرى ، فى الوقت الذى تواصلون فيه بناء قواتكم

النووية . هل فكرتم كيف ستبدون فى نظر الرأى العام العالمى ؟ » .

واعتقدت أن من واجبى أن أذكرها بأن بريطانيا قد شاركت فى المفاوضات الثلاثية التى دارت حول الحظر الكامل والعام للتجارب النووية ثم فقدت كل اهتمام بهذه المفاوضات ، وأننا ألتزمنا بوقف مؤقت للتجارب النووية لمدة ثمانية عشر شهرا بينما لم تتقيد بريطانيا بذلك .

إن وجود الأسلحة النووية ينطوى على خطر دائم لايمكن التنبؤ به . وإذا ما اتبعنا المنطق القائل بأن الأسلحة النووية نعمة وضمان يعول عليه للأمن ، فليس هناك إذن داع لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية ، لاسيما وأن عشرات الدول لديها الآن القدرة العلمية والتكنولوجية والمادية لصنع قنبلتها الخاصة . فبأى حق معنوى ترفض الدول النووية الحالية امتلاك بلدان مثل الباكستان ، وإسرائيل ، واليابان ، وجنوب أفريقيا ، والبرازيل أو أى بلد آخر للسلاح النووى ؟ ماذا سيحل بالعالم وبالعلاقات الدولية عندئذ ؟.

وعند تقييمه للوضع ، أكد المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى رفض القيادة السوفيتية الحازم للموقف الذى يقول بأن مباشرة الشئون الدولية والأمن القومى لايمكن تحقيقها إلا من خلال الاعتماد على الأسلحة النووية .

ولنعد الآن إلى مسألة الصواريخ المتوسطة المدى . لقد كان الرئيس ريجان ، على وجه الدقة ، هو الذى اقترح «خيار الصفر» بالنسبة لأوروبا . ويقول هيلموت شميدت أيضا بأنه وحده صاحب هذه الفكرة . وقد كان شميدت ، فى الحقيقة ، أول من تقدم بهذا الاقتراح عندما كان مستشارا لجمهورية ألمانيا الاتحادية . وفى ريكيافيك وجدنا ، الرئيس وأنا ، حلا وطرحناه على مائدة الاتفاق . ومن الممكن تحقيقه الآن . وقد كتبت صحيفة ألمانية غربية أن هناك أناسا فى ألمانيا الاتحادية يصرون على أخذ جورباتشوف بكلامه ، ولكنه بموافقته على «خيار الصفر» ، قد

أخذ هو الآخرين بكلامهم . وتواصل الصحيفة ، حسنا فليبرهنوا الآن أنها لم تكن مجرد ثرثرة عندما تقدموا باقتراح الصفر ، معتمدين على أن الروس سيرفضون الاقتراح بالمثل . وابتسمت عند قراءة ذلك . ولكننى فكرت عندئذ : حسنا ، ربما كانت الصحيفة على حق فى نهاية الأمر.

وكان يمكن أيضا حل مشكلة الصواريخ الأقصر مدى . ونحن مع إزالة هذه الصواريخ . ولنر الآن ماذا حدث . فى أبريل ١٩٨٧ وصل جورج شولتز إلى موسكو وحاول إقناعنا بأنه لابد وأن يكون للولايات المتحدة الحق فى تعزيز ترسانتها بنشر عدد من الصواريخ من هذا النوع حتى يزيل الاتحاد السوفيتى صواريخه بشكل كامل . وإنه لمنطق غريب ، ومقلوب . إننا راغبون فى إزالة الصواريخ الأقصر مدى التى يتم سحبها من جمهورية ألمانيا الديموقراطية وتشيكوسلوفاكيا ، ونحن على استعداد عندئذ لإزالة الصواريخ المتبقية . ولكن عندما تقدمنا بهذا الاقتراح ، بدأوا فى حلف الأطلنطى مرة أخرى يدورون حوله كالقطة التى تدور حول إناء طعام ساخن . إن التاريخ يعيد نفسه .

ومع ذلك ، فإن هذا لم يوهن من عزيمتنا . فبعد فحص الوضع الذى نشأ فى محادثات جنيف فى الربيع وأوائل الصيف ، وإستجابة لصوت الرأى العام الأوروبى والآسيوى ، اتخذنا خطوة هامة أخرى .

ففى ٢٢ يوليو ١٩٨٧ ، أعلنت باسم القيادة السوفيتية أن الاتحاد السوفيتى على استعداد لإزالة كافة صواريخه المتوسطة المدى فى الجزء الآسيوى من أراضيه ، أيضا . وهذا من شأنه أن يزيل مسألة الاحتفاظ بمائة رأس نووى على الصواريخ المتوسطة المدى التى اتفقنا عليها مع رئيس الولايات المتحدة فى ريكيافيك ، والتى ناقشها فيما بعد ممثلونا فى جنيف . وكان هذا ، بالطبع ، شريطة أن تقوم الولايات المتحدة بالمثل . وسوف تزال أيضا الصواريخ الأقصر مدى . وفى كلمة ، فالاتحاد السوفيتى على استعداد لتنفيذ « خيار الصفر المزدوج » العالمى .

ويمكننا أن نقول بضمير نقى : لقد فعل الاتحاد السوفيتى كل ما يستطيع من أجل ميلاد أول اتفاقية هامة حول إزالة نوعين ، وليس مجرد نوع واحد ، من الأسلحة النووية .

ولكن كم من الحواجز أقيمت وماتزال تقام لعرقلة الاتفاق ! وكم من العقبات يجب إزالتها كى يسود العقل والتفكير السليم على الهوس النووى !.

احكموا بأنفسكم ، ماشعرنا به ، بعد أن اتفقنا على « الصفر المزدوج » ، وقيل لنا أن ٧٢ صاروخا (بيرشينج ١ـأ) ستبقى على أراضى جمهورية ألمانيا الاتحادية وأن عددا مماثلا من الرءوس النووية الأمريكية لهذه الصواريخ لابد وأن يبقى . وهكذا يتضح أن كل شىء ـ الوضع غير النووى لجمهورية ألمانيا الاتحادية ، والمعاهدة الخاصة بمنع انتشار الأسلحة النووية ، ومبدأ التكافؤ بين الأطراف المعنية ـ يجب أن يبقى خارج نطاق البحث . ولكن إذا ماسارت الأمور بهذا الشكل ، ماذا يحدث لو طلبت منا جمهورية ألمانيا الديموقراطية أو تشيكوسلوفاكيا أو بولندا أن نعطيها شيئا لتحقق التوازن مع المجمع الصاروخى النووى للولايات المتحدة وألمانيا الغربية ؟ وماذا عندئذ ؟ هل نقبل وضعا إذا ما سد فيه طريق أمام سباق التسلح ، انفتح له طريق آخر جديد ؟.

قلت لوزير خارجية الولايات المتحدة : « هل تعتقد حقا أننا من الضعف بحيث نظل مستعدين وراغبين فى استرضاء إدارتكم إلى ما لا نهاية ؟ أو هل تعتقدون أننا أكثر اهتماما بتنمية العلاقات السوفيتية الأمريكية . ومن ثم ، فليس على الجانب الأمريكى مايقوم به من ناحيته ؟ إذا اعتقدتم ذلك ، فهذا وهم ، ووهم خطير للغاية . وأنا أقول ذلك صراحة دون أى تغليف دبلوماسى » .

لقد سئم العالم من التوتر وتعب منه . وينتظر الناس بفارغ الصبر فرصة لتحسين الوضع والتقليل من خطر الحرب . وقد قدم الاتحاد السوفيتى تنازلات لم يسبق لها مثيل للمساعدة على أن تسنح مثل هذه الفرصة . وإذا ما ضاعت هذه الفرصة ،

فسوف تترك بصماتها على كل السياسات العالمية .

وقد يتساءل المرء ، لماذا الاتحاد السوفيتي فى كل هذه العجلة فى أمور مثل هذه ؟ إننا فى الحقيقة ، سوف ندمر عددا من الصواريخ المتوسطة المدى أكثر من الغرب وسنفعل نفس الشيء بالنسبة للصواريخ الأقصر مدى . فما الذى يدفعنا إلى العجلة ؟ هناك شيء واحد فقط يجعلنا فى عجلة ـ وهو إدراكنا الواضح للحاجة إلى أن نقوم بشيء ما ، الحاجة إلى اتخاذ بعض الخطوات الحقيقية حتى يمكن أن تبدأ بالفعل عملية نزع السلاح ، حتى ولو ببطء وحتى لو اعتمدت على ظروف خاصة ، ولكن على الأقل لنبدأ .

ويجب أن نسعى فى كافة مناقشاتنا ومحافلنا ، وفى المقام الأول ، فى محادثات جنيف ، إلى حلول للمشاكل المعقدة . ونحن نوليها اهتماما ضخما . واعتقد أن القراء يعرفون الآن ما قمنا به من أجل تحقيق تقدم هناك .

ونحن لا نريد مجرد أن تجرى المباحثات . ينبغى أن أقرر صراحة أن الحقيقة البسيطة بأن المحادثات تجرى ، إنما تناسب بعض الناس فى أمريكا . ولكنها لاتناسبنا . إنه لشيء طيب أن تجرى المحادثات . ولكن من الجوهرى أن تتحرك نحو شيء ماحتى نحقق تقدما ، ونصل إلى اتفاقيات ونمكن الشعبين السوفيتي والأمريكي بل والعالم أجمع من الحصول عبر اتفاقات جنيف على حل للمشاكل البارزة ، يؤدى إلى إزالة التهديد النووى ويمهد الطريق إلى نزع السلاح .

وهذا ما نسعى إليه . وإذا ما استخدمت المحادثات كستار لمواصلة كافة البرامج العسكرية وتصعيد ميزانيات الدفاع ، فإننا عندئذ سنكون ضدها ، وضدها بحزم . إنه نهج مرفوض .

وبطبيعة الحال ، ليس من السهل تغيير المفاهيم التى بنيت على أساسها العلاقات بين الشرق والغرب طيلة خمسين عاما . ولكن الجديد يطرق ، بالتعبير الحرفى ، كل الأبواب والنوافذ . وعلينا نحن الزعماء السياسيين من الجيل الحالى أن نصغى إلى

ذلك . ولكن ، من سوء الطالع أن كثيرا من الساسة ماتزال تكبلهم العقد والقوالب القديمة .

ولقد حان الوقت لتحديد خيارنا . وعلينا جميعا أن نواجه اختيار الإرادة الطيبة والشجاعة السياسية والعقل السليم . ومن الواضح أن الحل الناجح للمشاكل المتعلقة بالصواريخ المتوسطة المدى والأقصر مدى سيكون له مغزاه وآثاره الهامة بالنسبة لكل عملية نزع السلاح . وسيكون عاملا للثقة نحن فى أمس الحاجة إليه .

وسوف نواصل ، بالطبع ، المباحثات حول الأسلحة الاستراتيجية وخفضها . وهناك تكافؤ وتعادل تقريبى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى من حيث قوة وقدرة القوات الاستراتيجية . وقد سمعت أكثر من مرة الجانب الأمريكى يقول إن الولايات المتحدة تعتبر صواريخنا العابرة للقارات تهديدا خاصا . ونحن نرى فى الصواريخ الأمريكية التى تطلق من الغواصات تهديدا كبيرا لأنها أقل عرضة للهجوم ، ومزودة أيضا برءوس حربية توجه بشكل مستقل ، ولديها دقة كبيرة فى إصابة الهدف . ونحن نرى تهديدا آخر يأتى من القواعد العسكرية العديدة التى تحيط بالاتحاد السوفيتى. ومع ذلك، فهناك تعادل استراتيجى بيننا. وعلى ذلك، فبما أن هناك تعادلا استراتيجيا مكفولا اليوم فى إطار الهيكل الحالى ، مع ما لدى الطرفين من أسلحة استراتيجية فى الوقت الحاضر ، فإن التوازن سيمكن المحافظة عليه بعد تخفيض الـ ٥٠٪ ، وحتى إلى مستوى أقل . وهذا سوف يغير الوضع . وهذا ما اقترحته على الرئيس ريجان فى ريكيافيك ـ تخفيض الثلاثى بأكمله وكل من عناصره بمقدار خمسين فى المائة . وكان من الممكن أن يكون هذا إنجازا عظيما .

وبطبيعة الحال ، ينبغى أن نلتزم فى أمانة بمعاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . وفيما يتعلق بمبادرة الدفاع الاستراتيجى ، ليس لدينا اعتراض على الأبحاث داخل حدود المعامل ، والمعاهد ، والمصانع ، ومجالات التجارب . والحقيقة أن اقتراحنا يأخذ فى اعتباره النقاط الخمس إلى الثمانية التى تؤيدها الولايات المتحدة فى إطار

موقفها من مبادرة الدفاع الاستراتيجى . فليجلس المتخصصون معا ، ويدرسوا الأمور ويروا أيا من المكونات يمكن أن تطلق إلى الفضاء وأيها يمنع من ذلك . إن أفكارنا المرتبطة بالحلول الوسط توفر فرصة طيبة للتوصل إلى حل .

لقد اتخذ الاتحاد السوفيتى خطوات عديدة لخلق وضع جديد وفرص جديدة لتحسين العلاقات السوفيتية الأمريكية وجعلها أكثر دينامية . ولم تتوافر لدى أى من الإدارات الأمريكية السابقة فى العقود القليلة الماضية مثل هذه الفرص للقيام بشىء ما من أجل تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتى . حسنا ، ثم ؟ لا شىء هناك نتفاخر به ! إننا لم نتحرك خطوة واحدة إلى الأمام .

والزمن ينقضى . ونحن على قناعة بأننا إما أن نتوصل إلى اتفاقيات وإما لن يتبقى لنا سوى إلقاء الخشب فى جذوة نار العلاقات السوفيتية الأمريكية حتى لا تنطفئ كلية .

وقد اتخذنا الخطوات اللازمة لتحرير سياستنا من الأوهام المرتكزة على التصورات الأيديولوجية . وهذا ماينبغى على الغرب القيام به كذلك . إن عليه ، أولا ، أن يتحرر من الوهم القائل بأن الاتحاد السوفيتى يحتاج لنزع السلاح أكثر من الغرب ، وأن قليلا من الضغط يمكن أن يجعلنا نتخلى عن مبدأ المساواة . إننا لن نفعل ذلك أبدا .

انظروا بأنفسكم : إن كافة المقترحات السوفيتية ، بغض النظر عن مدى الدقة فى دراستها ، تستهدف المساواة والتوازن فى كافة المراحل . ويتعلق ذلك بالأسلحة النووية ، والأسلحة التقليدية ، والأسلحة الكيماوية ، كما يتعلق بأى منطقة جغرافية ــ الشرق ، والغرب ، وأوروبا وأمريكا . ونحن نعد مقترحاتنا بدقة ، منطلقين من الفكرة القائلة بأن أى بلد لن يوافق على أى اجراء قد يلحق الضرر بأمنه .

وعندما نتقدم بمقترحاتنا فى المحادثات ، مثلا ، فى محادثات جنيف أو فى أى

مكان آخر ، فإننا ننطلق من الفكرة القائلة بأننا إذا أخذنا فى اعتبارنا مصالح الاتحاد السوفيتى فقط ، وتجاهلنا مصالح الطرف الآخر ، فلن نتوصل إلى اتفاق . ونحن ندعو الجانب الأمريكى إلى التصرف بالمثل ـ أن يعاملنا بنفس الطريقة ، لأننا لن نسمح على الإطلاق بتفوق الطرف الآخر أو بأى عدوان على أمننا . كما أننا لا نريد إلحاق الضرر بأمن الولايات المتحدة . وإذا ما أبدى الجانبان مثل هذا الموقف فسيكون بالإمكان تحقيق تقدم أكثر حسما فى كافة ميادين التعاون الأمريكى السوفيتى .

وباستطاعتنا ، بالطبع ، الانتظار حتى تأتى إدارة أخرى إلى السلطة ، ولكننا نفضل أن نصل إلى اتفاق مع الإدارة الحالية . لقد قمنا ببداية معينة . وهناك علاقات شخصية وقدر معين من التفاهم . ونحن نعتبر من الأهمية البالغة خلق مناخ طبيعى يمكن فى ظله تحقيق خطوة فى نهاية الأمر نحو الاتفاق . ولكن الجانب الأمريكى يتعثر المرة بعد الأخرى . والأسوأ من ذلك ، أننا فى كل مرة نتخذ خطوة للقاء واشنطن ، تسعى القوى المعادية لتعقيد الأمور ووقف التحرك نحو الأمام وذلك بتكثيف نشاطها .

وأحد الأمثلة الأخيرة على ذلك هو التصنت على السفارات . وقد اقترحت على جورج شولتز « مفهوما جديدا » : يفترض أنه وشفيردنادزه « الجاسوسان الرئيسيان » . وأن سفيرينا فى موسكو ووشنطن « جاسوسان » أيضا . وهما يشغلان منصبيهما بالتحديد ليبلغا بلادهما بحالة الأمور فى البلد الآخر ونواياه . فكل هذه الضجة حول هوس التجسس فى السفارات لا معنى لها . إننا نعرف كل الأمور الرئيسية فى الولايات المتحدة والولايات المتحدة تعرف كل شىء عنا . وهذه المرة دبرت ضجة الجواسيس لأنها أصبحت قاعدة : عندما نصل إلى نقطة محددة ، وعندما يصبح فى الإمكان حل مشكلة فى علاقاتنا ، سرعان ما يستخدمون خديعة أو مكيدة لنسفها .

وأنا أعرف أن تخمينات زائفة مختلفة قد نسجت حول موقف القيادة

السوفيتية من الرئيس رونالد ريجان . ولدى انطباعات شخصية عن الرئيس . وقد التقينا مرتين وتحدثنا لساعات عديدة . وفى رأيى أنه قد جرى حوار جاد بين الرئيس وبينى ، رغم كل الصاعب . وأحيانا نقول لبعضنا أشياء لاتبعث على السرور بل ونقولها علنا وفى كلمات حادة إلى حد ما . وأنا أقول من جانبى أننا سنواصل جهودنا ، وسنسعى إلى التعاون والمحادثات المثمرة مع أى رئيس ، ومع أى إدارة ينتخبها الشعب الأمريكى . إن انتخاب الرئيس ـ سواء كان ديموقراطيا أو جمهوريا ـ هو شأن الأمريكيين الخاص . وأكرر أننا سنتعاون مع الإدارة التى يعهد إليها الشعب الأمريكى بحكم بلاده . وأعتقد أن على المرء أن يتصرف بهذه الطريقة فى كافة الأحوال . فليعش الأمريكيون فى بلادهم كما يريدون ، ونعش نحن فى الاتحاد السوفيتى كما نرغب . ولاداعى لأن نصنف قائمة السياسيين إلى مفضلين وغير مفضلين ، وإلى محترمين وغير محترمين . فهناك حقائق ينبغى أخذها فى الاعتبار وإلا تحولت السياسة إلى ارتجال وإلى انتقال من النقيض إلى النقيض ، وإلى عدم القدرة على التنبؤ. وسيكون من الخطأ التصرف بهذه الطريقة فى السياسة ، وبخاصة فى العلاقات بين دول مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وإنه لأمر على جانب كبير من الخطورة .

ومن المهم للغاية أن ينطلق كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة من الاقتناع بأنه لابد من التوصل إلى اتفاق ، وأنه مقدر علينا أن نتعلم كيف نعيش فى سلام .

ومايزال أمام الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة على السواء عمل ضخم ذو أهمية تاريخية . ولن يكون فى مقدور أى من بلدينا أن يقوم بهذا العمل على انفراد . وأعنى بذلك المسألة التى تهم عصرنا ـ وهى مسألة درء خطر دمار البشرية فى حرب نووية . وإذا أنجز هذا العمل بنجاح ، فسيكون هناك من الأسباب مايجعلنا نتوقع ازدهار العلاقات السوفيتية الأمريكية ، وقيام « عصر ذهبى » يكون مفيدا للاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وكل البلاد ، والمجتمع الدولى بأسره .

خاتمة

والآن حانت نهاية الكتاب ، ولم يبق سوى بضع كلمات فى الختام . وأنا على اقتناع عميق بأن الكتاب لم ينته بعد ، ولا يمكن أن ينتهى . إذ يجب تكملته بالأعمال والتصرفات العملية التى ترمى إلى التوصل إلى الأهداف التى حاولت أن أضعها صراحة على هذه الصفحات .

إن إعادة البناء لا تسير بسهولة معنا. فنحن نقيّم بشكل انتقادى كل خطوة نخطوها ، ونختبر أنفسنا بالنتائج العملية . ونتحقق بدقة من أن ما قد يبدو مقبولا وكافيا اليوم قد يكون غير مناسبٍ للغد .

لقد قدم لنا العامان ونصف العام الماضية القدر الكبير. وسوف تشهد السنوات ، وربما حتى الشهور المقبلة تحركات جديدة غير تقليدية . وفى مجرى إعادة البناء ، نوسع ونوضح أفكارنا حول أمس الاشتراكية ، ويومها ، وغدها. ونحن نكتشف أنفسنا من جديد . لقد تم ذلك ويتم ، كما سبق أن قلت ، ليس من أجل إثارة الاعجاب بنا ، أو «كسب التعاطف» نحونا أو سماع التصفيق الحار . وإنما تحركنا أفكار ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، أفكار لينين ، ومصالح الشعب السوفيتى .

ونحن على اقتناع بأن ثمار إعادة البناء ستكون مفيدة للعلاقات الدولية أيضا ، بما فى ذلك العلاقات السوفيتية الأمريكية . إن التفكير السياسى الجديد يعتبر ضرورة لاغنى عنها فى عصرنا .

وتواجه البشرية أخطارا كبيرة . فهناك عناصر كافية للمواجهة ، ولكن القوى الراغبة والقادرة على وقف هذه المواجهة والتغلب عليها ، تزداد قوة واتساعا أمام أعيننا .

إن الانتقال من الشك والعداء إلى الثقة . ومن « توازن الرعب » إلى توازن العقل والارادة الطيبة ، ومن المصالح القومية الضيقة إلى التعاون ـ هو مانحث

عليه . وهذا هو ما تهدف إليه مبادراتنا السلمية ، وما سنواصل العمل دون كلل من أجله .

إن هناك تعطشا شديدا فى العالم للتفاهم المتبادل والاتصال المتبادل . ويحس به الساسة ، ويكتسب قوة دافعة بين المثقفين ، وممثلى الثقافة ، والجماهير على اتساعها . وإذا ما كانت الكلمة الروسية « بيريسترويكا » قد دخلت بسهولة القاموس الدولى . فإن ذلك يرجع إلى أكثر من مجرد الاهتمام بما يجرى فى الاتحاد السوفيتى . فالعالم كله الآن يحتاج إلى إعادة البناء ، أى إلى تطور تقدمى وتغيير جوهرى .

والناس يحسون ذلك ويفهمونه . وعليهم أن يحددوا مواقعهم ، ويفهموا المشاكل التى تقلق البشرية ، ويدركوا كيف يجب أن يعيشوا فى المستقبل . إن إعادة البناء ضرورة لعالم يفيض بالأسلحة النووية ، لعالم يعانى من مشاكل اقتصادية وبيئية خطيرة ، لعالم يرهقه الفقر ، والتخلف والمرض ، وضرورة لجنس بشرى يواجه الآن حاجة ملحة إلى ضمان بقائه .

إننا جميعا طلبة ، ومدرسنا هو الحياة والزمن . واعتقد أن المزيد والمزيد من الناس سيدرك أنه من خلال إعادة البناء بالمعنى العريض للكلمة ، سيتعزز تكامل العالم . وعندما نحصل على درجات عالية من مدرسنا الرئيسى ـ الحياة ـ سندخل إلى القرن الحادى والعشرين ونحن على استعداد طيب وعلى ثقة بأنه سيكون هناك مزيد من التقدم .

إننا نريد للحرية أن ترفرف عاليا فى القرن القادم فى كل مكان فى العالم . ونريد للمنافسة السلمية بين الأنظمة الاجتماعية المختلفة أن تتطور دون عائق ، وأن تشجع على التعاون المتبادل للمصالح بدلا من المواجهة وسباق التسلح . ونريد لشعوب كل البلدان أن تتمتع بالرخاء والرفاهية والسعادة . ويكمن الطريق نحو ذلك فى الانطلاق نحو عالم خالٍ من الأسلحة النووية ومن العنف . لقد بدأنا السير على هذا الطريق ، وندعو البلدان والشعوب الأخرى أن تتابع خطانا .

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ٠ ١٩٨٩/٨٦٩٥
الترقيم الدولى . ٣ ـ ٣٤٦ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

الغلاف للفنان حلمى التونى

البيريسترويكا

■ «البيريسترويكا» ، تعنى «إعادة البناء» ، هو العرض الذى يقدمه ميخائيل جورباتشوف بنفسه للثورة التى ينفذها فى الوقت الحاضر فى الاتحاد السوفيتى. وهى إذ تأتى بعد سبعين عاما على ثورة أكتوبر، تشكل ثورة فى المواقف والأفكار والممارسة ، تتطلب تغييرا جذريا فى السياسة الداخلية والخارجية على السواء.

■ والبيريسترويكا هى المرحلة التالية فى التاريخ الاشتراكى التى ينبغى أن يتشجع فيها بقوة بين الشعب ، شعور أكبر بالمسئولية ، والمبادرة وروح «المباراة» ، من خلال إحساس حقيقى بالمشاركة الشخصية. إنها مخطط للتغيير لم يسبق له مثيل يمكن أن يكون له فحسب مغزى عميقا بالنسبة للعالم.

■ والسكرتير العام الذى يتسم بالصراحة فى نقده الماضى ، وبالحسم فى توصياته بالنسبة للحاضر ، يصر على قناعته بأن احتياجات العالم لاتنفصل عن احتياجات بلاده. إذ أنه فى السعى إلى «عالم خال من الأسلحة النووية ، ومن العنف» ، ينبغى أن تكون إعادة البناء قضية عالمية تتطلب تعزيز قضية التفاهم والتسامح. إن دول وشعوب العالم مختلفون تماما. وإنه لأمر طيب أنهم كذلك.

■ والسلام العالمى ثمرة يمكن أن تكون البيريسترويكا بذرتها. إنها رؤية متماسكة ملهمة للمسرح السياسى الدولى الحافل والمنقسم بشكل لم يسبق له مثيل. والبيريسترويكا باعتبارها سهلة المنال ، وشخصية ، ومليئة بالحماس والبلاغة فى الغالب ينبغى أن تكون أحد أهم الوثائق السياسية فى أيامنا.

ميخائيل جورباتشوف

■ ولد ميخائيل سيرجيفيتش جورباتشوف فى ٢ مارس ١٩٣١ ، فى قرية بريفولنى ، بإقليم ستافروبول (جنوب روسيا) ، وأصبح منذ مارس ١٩٨٥ السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، ورئيس مجلس الدفاع فى الاتحاد السوفيتى ، وعضو هيئة رئاسة السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتى (البرلمان السوفيتى). وقد التحق بالحزب الشيوعى عام ١٩٥٢.

■ تخرج من شعبة القانون بجامعة الدولة فى موسكو عام ١٩٥٥ ، ومن معهد ستافروبول الزراعى فى ١٩٦٧.

■ وفى سن الخامسة عشرة بدأ العمل كعامل تشغيل لآلة حصاد. وفى منتصف الخمسينيات كان قائدا للكومسومول (منظمة الشباب الشيوعى) فى ستافروبول ، باعتباره سكرتيرا للجنة كومسومول المدينة ، وفيما بعد سكرتيرا للجنة الكومسومول فى الإقليم. وفى عام ١٩٦٦ أصبح سكرتيرا للجنة مدينة ستافروبول للحزب الشيوعى السوفيتى ، ثم سكرتيرا أول للجنة إقليم ستافروبول للحزب الشيوعى السوفيتى فيما بعد.

■ وفى عام ١٩٧٠ انتخب عضوا فى مجلس السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتى. وفى عام ١٩٧١ انتخب عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى. وفى ١٩٧٨ انتخب سكرتيرا للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى فى الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى. وانتقل لموسكو فى هذا الوقت.

■ وأصبح عضوا احتياطيا للمكتب السياسى فى ١٩٧٩ ، ومنذ عام ١٩٨٠ أصبح عضوا فى المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى